

رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الثاني عشر



بسم الله الرحمن الرحيم

 دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦١٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٠٦-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٢)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

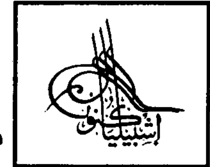
رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٠٦-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٢)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ - ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com



كنوز رياض الصالحين

رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الثاني عشر



دار كنوز إشبيليا

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦١٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٠٦-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٢)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

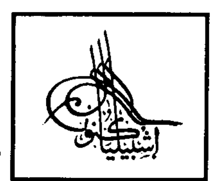
رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٠٦-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٢)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ ـ ٤٧٧٣٩٥٩ ـ ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

١٥٠- باب تلقين المحتضر: لا إله إلاَّ اللهُ

الحديث رقم (٩١٨)

٩١٨- عن معاذ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ)) رواه أَبُو داود والحاكم[1]، وقال: (صحيح الإسناد).

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

الشرح الأدبي

الحديث من الأحاديث القصار التي تحمل معاني عظيمة تزف بشارة للمسلمين في كل مكان، وزمان لاسيما الذاكرين الله تعالى، والذاكرات، وقوله (من كان) ما اسم موصول بمعنى الذي، والتعبير بالموصول تمهيد لذكر ما يختص به من الصلة، وقوله (آخر كلامه) يشير إلى حسن الختام، وهو كناية عن موته، وكلمة التوحيد فيها قصر لصفة الألوهية على الله تعالى ونفيها عن كل ما عداه نفياً عاماً مطابقاً للواقع، والاعتقاد، وبهذا تصير أعظم ما يقوله الإنسان، وبه يتحقق نفعها في المواقف كلها، وقوله (دخل الجنة) تحقيق للفوز بالجنة، ولفظها يثير في النفس البهجة، والخضرة، والنعيم، الذي يشرح الصدر، ويرغب في العمل الذي يؤدي إليها، وهو قول كلمة التوحيد، والإكثار منها، حتى يختم بها، وتلقينها لمن أوشك على الموت.

فقه الحديث

١- تلقين الميت:

قال النووي: (الأمر بهذا التلقين أمر ندب، وأجمع العلماء على هذا التلقين،

---

(١) أخرجه أبو داود ٣١١٦، والحاكم ٣٥١/١، وقال الحافظ ابن حجر في أماليه بعد تخريجه: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، أخرجه أحمد ٢٢٠٣٤، و٢٢١٢٧ ورواته من رجال الصحيح، إلا صالح بن أبي عَرِيب، فإنه روى عنه جماعة، ولم أر للمتقدمين فيه جرحًا ولا تعديلاً، إلا أن ابن حبان ذكره في الثقات على قاعدته فيمن لم يجرح ولم يرو ما ينكر، وقد ورد للحديث متابع وشاهد، ثمّ ذكره. الفتوحات الربانية ١٠٨/٤ – ١١٠. وقال ابن الملقن في البدر المنير ١٨٩/٥: هذا الحديث صحيحٌ.

وكرهوا الإكثار عليه والموالاة، لئلا يضجر بضيق حاله وشدة كربه، فيكره ذلك بقلبه ويتكلم بما لا يليق، قالوا: وإذ قاله مرة لا يكرر عليه إلا أن يتكلم بعده بكلام آخر فيعاد التعريض به؛ ليكون آخر كلامه. ويتضمن الحديث الحضور عند المحتضر، لتذكيره وتأنيسه، وإغماض عينيه والقيام بحقوقه، وهذا مجمع عليه)[١].

وأما عن تكرير التلقين فقال النووي: (قال الجمهور: لا يزاد على مرة. وقال جماعة من أصحابنا: يكررها عليه ثلاثًا ولا يزاد على ثلاث).

ولا يسنّ زيادة محمد رسول الله عند الجمهور، لظاهر الأخبار[٢] قال النووي: (ودليل الجمهور أن هذا موحّد ويلزم من قوله: "لا إله إلا الله" الاعتراف بالشهادة الأخرى، فينبغي الاقتصار على لا إله إلا الله؛ لظاهر الحديث)[٣].

وذهب جماعة من الفقهاء إلى أنه يلقن الشهادتين بأن يقول الملقن: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله؛ ودليلهم: أن المقصود تذكر التوحيد، وذلك لا يحصل إلا بالشهادتين[٤].

ويسنّ أن يكون الملقن غير متهم بعداوة أو حسد أو نحو ذلك، وأن يكون من غير الورثة، فإن لم يحضر غيرهم، لقّنه أشفق الورثة، ثم غيره[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٩٤/٦/٣ ، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٦٩/٢-٥٧٠.

(٢) الطحطاوي على مراقي الفلاح ص ٣٠٥ ط/ الأميرية، ببولاق، والبدائع ٢٩٩/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٣٠/١، والحطاب ٢١٩/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٥٠/٢، عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٦/١٣.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٧٦/٥ .

(٤) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٥٧٠/١-٥٧١، والشرح الصغير ٥٦١/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٣٠/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٥٠/٢ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٦/١٣.

(٥) انظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٧٦/٥ ، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٣٠/١.

٢-التلقين بعد الموت:

اختلفوا في تلقين الميت بعد الموت: فذهب بعض الفقهاء إلى أن التلقين لا بأس به، فرخصوا فيه ولم يأمروا به، لظاهر قوله ﷺ: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله"، وقد نقل عن طائفة من الصحابة أنهم أمروا به كأبي أمامة الباهلي وغيره، وصفته أن يقول: "يا فلان بن فلان، اذكر دينك الذي كنت عليه وقد رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد عليه الصلاة والسلام نبيًا)[١].

وقالت طائفة من الفقهاء: لا يلقن، إذ المراد بموتاكم في الحديث: من قرب من الموت، وفي المغني: (وأما التلقين بعد الدفن فلم أجد فيه عن أحمد شيئًا ولا أعلم فيه للأئمة قولاً، سوى ما رواه الأثرم، قال: قلت لأبي عبدالله [أحمد بن حنبل]: فهذا الذي يصنعون إذا دفن الميت يقف الرجل ويقول يا فلان ابن فلانة ... اذكر ما فارقت عليه شهادة أن لا إله إلا الله؟ فقال: ما رأيت أحدًا فعل هذا إلا أهل الشام حين مات أبو المغيرة جاء إنسان، فقال ذاك)[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من موضوعات الدعوة: تلقين المحتضر لا إله إلا الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل لا إله إلا الله.

---

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٤/١، والحطاب ٢١٩/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٣٠/١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩٦/٢٣ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٦/١٣، وانظر كذلك: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/١٦، بل نقل النووي في المجموع عن بعض الشافعية أنه يستحب. انظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٥.

(٢) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٣٧/٣-٤٣٨، وانظر: الفتاوى الهندية، الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ١٥٧/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٣٠/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ١٣٤/١ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٦/١٣، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/١٦-٤٣.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩١٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩١٩).

ثالثًا: من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والأمر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تلقين المحتضر لا إله إلا الله:

هذا واضح من الحديثين، فحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أمر بتلقينه كلمة التوحيد، وحديث معاذ رضي الله عنه بيان لجزاء من كان "لا إله إلا الله" آخر كلامه قبل موته.

قال ابن عثيمين: (المحتضر: هو الذي حضرت الملائكة لقبض روحه، والله سبحانه وتعالى قد وكل بالإنسان ملائكة يحفظونه في حال حياته وبعد مماته، قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[1] وقال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[2] والإنسان إذا حضر أجله نزل إليه ملائكة يقبضون روحه من يد ملك الموت، فإن ملك الموت يتولى قبضها من البدن، والملائكة معهم كفن وحنوط[3] من الجنة إذا كان من المؤمنين -جعلنا الله وإياكم منهم- وأما إذا كان من الكافرين، فملائكة العذاب معهم كفن من النار[4] وحنوط من النار -نعوذ بالله من ذلك- فإذا احتضر الإنسان وعلمنا أنه في النزع وأنه ميت فإننا نلقنه "لا إله إلا الله" كما قال النبي ﷺ: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله")[5].

قال أبو عبدالله القرطبي: (قال علماؤنا: تلقين الموتى هذه الكلمة سنّة مأثورة عمل بها المسلمون، وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلاّ الله، فيختم له بالسعادة، وليدخل

---

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٦١.

(٣) الحنوط: كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، من مسك وذريرة وصندلٍ وعنبر وكافور وغير ذلك. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ن ط).

(٤) قد ورد حديث بهذا مطولاً أخرجه أبو داود ٣٢١٢، ٤٧٥٣، ٤٧٥٤، وغيره من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما. وانظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٢١/٨ - ٥٢٢. والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٧٩).

(٥) شرح رياض الصالحين، ١١٨٦/٢ - ١١٨٧.

في عموم قوله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله دخل الجنة». ولينبه المحتضر على ما يدفع به الشيطان، فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عليه عقيدته...، والمقصود أن يموت الرجل وليس في قلبه إلاّ الله عز وجل لأن المدار على القلب، وعمل القلب هو الذي ينظر فيه، وتكون النجاة به)[1].

وقال النووي: (فإن لم يقل هو "لا إله إلا الله" لقنه من حضره ويلقنه برفق مخافة أن يضجره فيردها، وإذا قالها مرة لا يعيدها عليه إلا أن يتكلم بكلام آخر)[2].

وقال ابن القيم: (لشهادة "أن لا إله إلا الله" عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسُه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلّت بعد عزِّها، وخرج منها حرصُها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرَّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه؛ فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه فوجَّه العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه؛ فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سرُّه وعلانيته فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه. وقد تخلّص قلبُه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيرانُ شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمةعمله؛ فطهّرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها، وسرُّها علانيتها.

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٣٠ - ٣١، وهو كلام شيخه أبي العباس القرطبي المحدث في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٦٩/٢ - ٥٧٠.

(٢) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٦٩.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة، لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنِسَ به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلبٍ مشحونٍ بالشهوات وحُبِّ الحياة وأسبابها، ونفسٍ مملوءةٍ بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجرّدت كتجرُّدها عند الموت، لكان لها نبأ آخر، وعيش آخر سوى عيشها البهيمي... والله المستعان)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل لا إله إلا الله:

أفضل ما قاله الأنبياء - وهم أشرف الخلق - لا إله إلا الله، وذلك لفضل هذه الكلمة وعظيم قدرها، ويتضح هذا من الحديثين، فقد جعلت الجنة جزاء من كان آخر كلامه "لا إله إلا الله" قال ابن حجر: (المراد بقوله "لا إله إلا الله" في هذا الحديث وغيره كلمتا الشهادة، فلا يرد إشكال ترك ذكر الرسالة، قال الزين بن المنير: قول لا إله إلا الله لقب جرى على النطق بالشهادتين شرعا)[٢].

لكن قال النووي: (اعلم أن جماعة من أصحابنا [أي علماء المذهب الشافعي] قالوا: نلقن ونقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، واقتصر الجمهور على قول لا إله إلا الله)[٣].

وقال ابن حجر: (قال الزين بن المنير: هذا الخبر يتناول بلفظه من قالها فبغته الموت، أو طالت حياته لكن لم يتكلم بشيء غيرها، ويخرج بمفهومه من تكلم، لكن استصحب حكمها من غير تجديد نطق بها، فإن عمل أعمالا سيئة كان في المشيئة، وإن عمل أعمالا صالحة فقضية سعة رحمة الله أن لا فرق بين الإسلام النطقي والحكمي المستصحب والله أعلم. انتهى. وحكى الترمذي عن عبد الله بن المبارك أنه لقن عند الموت فأكثر عليه فقال: إذا قلت مرة فأنا على ذلك ما لم أتكلم بكلام، وهذا يدل على أنه كان يرى التفرقة في هذا المقام)[٤].

---

(١) الفوائد ٨٦ - ٨٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣/١١٠.

(٣) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٦٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣/١٠٩.

وعلق البخاري في صحيحه أنه قيل لوهب بن منبه: (أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى. ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك)[١].

قال ابن حجر: (وأما قول وهب فمراده بالأسنان التزام الطاعة... ومعنى قوله: إن جئت بمفتاح له أسنان جياد، فهو من باب حذف النعت إن دل عليه السياق، لأن مسمى المفتاح لا يعقل إلا بالأسنان، وإلا فهو عود أو حديدة)[٢].

وقد قال ﷺ: ((أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ. لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍ فِيهِمَا، إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ))[٣].

ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله: (أن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه أنه لا معبود بحق إلا الله عز وجل، وما سواه من المعبودات فألوهيتها باطلة وعبادتها باطلة، وهي مشتملة على نفي وإثبات "لا إله" أي نفي جميع ما يعبد من دون الله "إلا الله" إثبات العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه.

ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعة النبي ﷺ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع)[٤].

قال عبدالله البسام: (عظم هذه الكلمة الجليلة [أي لا إله إلا الله] بكبر فائدتها، وأن قولها بإخلاص والعمل بها، سبب للنجاة من النار ودخول الجنة، فاللهم أحينا عليها وأمتنا عليها. قال ابن القيم: يستحب التأذين في أذن المولود اليمنى، والإقامة في اليسرى، ليكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلمات الأذان، كما يلقن عند خروجه من الدنيا، فتكون دعوته إلى الله تعالى وإلى دينه الإسلام سابقة على دعوة الشيطان)[٥].

---

(١) وذلك في أول كتاب الجنائز فوق الحديثين ١٢٣٧، ١٢٣٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١٠/٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧.

(٤) مختصر الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، دون تاريخ، ص ٣١.

(٥) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٧٢/٢.

وقال ابن القيم: (التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه: فأما أعداؤه، فينجيهم من كربات الدنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1].

وأما أولياؤه، فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس، فنجاه الله من تلك الظلمات. وفزع إليه أتباع الرسل، فنجوا به مما عُذِّب به المشركون في الدنيا وما أُعِدَّ لهم في الآخرة.

ولما فزع إليه فرعون، عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يُقبل، هذه سنة الله في عباده.

فما دُفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله كربه بالتوحيد. فلا يُلقي في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينُجي منها إلا التوحيد؛ فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها، وبالله التوفيق)[2].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين:

قال النووي عن حديث النبي ﷺ: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله" قال: (ويتضمن الحديث الحضور عند المحتضر لتذكيره وتأنيسه وإغماض عينيه والقيام بحقوقه، وهذا مجمع عليه)[3].

قال د. صالح الفوزان: (ويسن لمن يحضره تطميعه في رحمة الله، ويغلّب في هذه الحالة جانب الرجاء على الخوف، وأما في حالة الصحة، فيكون خوفه ورجاؤه متساويين، لأن من غلب عليه الخوف أوقعه في نوع من اليأس، ومن غلب عليه الرجاء أوقعه في نوع من الأمن من مكر الله. فإذا احتضر المريض فإنه يسن لمن حضره أن

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٥.

(٢) الفوائد ٨٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٨/٦/٣، .

يلقنه: لا إله إلا الله، وذلك لأجل أن يموت على كلمة الإخلاص فتكون ختام كلامه... ويكون تلقينه إياها برفق، ولا يكثر عليه، لئلا يضجره وهو في هذه الحال)[١].

وقال الشوكاني: (وقد وردت أحاديث صحيحة في الصحيحين[٢] وغيرهما عن جماعة من الصحابة أن مجرد قوله: لا إله إلا الله من موجبات دخول الجنة من غير تقييد بحال الموت، فبالأولى أن توجب ذلك إذا قالها في وقت لا تتعقبه معصية)[٣].

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[٤].

قال ابن القيم: (قال الشافعي ﷺ: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم. وبيان ذلك أن المراتب أربع، باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابع: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذي عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق، ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه به العلمية والعملية؛ فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه

---

(١) الملخص الفقهي، د. صالح بن فوزان الفوزان ٢٠٤/١.

(٢) انظر على سبيل المثال صحيح البخاري الحديثين ١٢٨، ١٢٩، ومسلم الأحاديث ٢٩ - ٣٣.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، ص ٦٩٠.

(٤) سورة العصر، الآيات: ١ - ٣.

إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هاديًا إلى كل خير)[1].

وقال القاسمي: (قال الرازي: هذه السورة [أي سورة العصر] فيها وعيد شديد، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس، إلا من كان آتيًا بهذه الأشياء الأربعة. وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور. وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه، فكذلك يلزمه في غيره أمور. منها الدعاء إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن يحب له ما يحب لنفسه. ثم كرر التواصي ليتضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه. والأول الأمر بالمعروف، والثاني النهي عن المنكر)[2].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والأمر:

أما الترغيب فإخباره ﷺ أن الجنة جزاء من كان آخر كلامه "لا إله إلا الله"، وهذا ترغيب للمدعو أن يقع منه ذلك إن قدر، أو أن يجعل المحتضر ينطق بهذا، ولهذا أمر النبي ﷺ بتلقين الميت، حتى يُصيبه هذا الخير العميم، ألا وهو دخول الجنة.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ١/٥٦ - ٥٧.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٧/٢٤٧.

الحديث رقم (٩١٩)

٩١٩- وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ((لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ)) رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

الشرح الأدبي

بيَّن الحديث السابق فضل لا إله إلا الله في ختام حياة العبد، وأنها تكون سبباً في دخوله الجنة، ، وهذا الحديث يوجه، ويرشد إلى تلقينها للموتى، وهذا معنى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (لقنوا موتاكم) والتعبير بالموتى من المجاز المرسل باعتبار ما سيكون، وهذا المجاز يشير إلى من غلب الظن بموته، وإسناد الفعل لواو الجماعة يعطيه عموماً ليشمل كل مسلم، وتضعيف الفعل يشير إلى مضاعفة الجهد في تحقيق التلقين لأن الإنسان عند سكرة الموت يكون في حالة يصعب عليه فيها الكلام، والسمع، والفهم عن الملقن فاحتاج إلى صبر، وكل تلقين في هذا الحال تكتنفه مشقة بوجه من الوجوه.

المضامين الدعوية(٢)

(١) برقم ٩١٦/١.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الإيمان بالله تعالى:

إن الغاية العظمى للتربية الإسلامية ترسيخ الإيمان بالله تعالى وتوحيده "والحرص على العقيدة خالصة من الزيغ بعيدة عن الشرك سليمة من الافتتان، نقية من التقليد عصية على الإفراط والتفريط"[١].

ولذا حرص النبي ﷺ على تأصيل الإيمان في القلوب وعلى استصحاب ذلك في كل لحظة، مع الجمع بين القول والعمل، وتعويد اللسان على ذكر الله. وقول لا إله إلا الله لفضلها العظيم لأنها من موجبات الجنة، ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ». وما جاء في الحديث الثاني من وصية رسول الله ﷺ لمن تواجد بحضرة إنسان نزل به الموت أن يلقنه كلمة التوحيد ورايته فقال ﷺ: «لَقِّنُوا موتاكم: لا إله إلا الله».

إن للإيمان بالله وتوحيده أثاراً عظيمة من أبرزها ما يلي:

أ- تحرير الإنسان من الذل والمهانة لمغريات الحياة فلا يستعبده جاه ولا مال ولا يذل للطواغيت.

ب- تحرير الإنسان من العبودية إلا الله فلا يخضع أو يستسلم بالعبادة لأي من بني البشر أو كائن آخر أياً كان.

ج- تربية عقل الإنسان على سعة الأفق والتأمل والرغبة في الاطلاع على أسرار الكون وذلك للاستدلال على قدرة الله في خلقه ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٢].

د- الإيمان بالله يسلح الإنسان بالطمأنينة والرجاء بقرب الله التواب المجيب، قال

---

(١) التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، محمد أحمد جاد صبح ص ٢٢٦.

(٢) سورة الغاشية، آية: ١٧.

تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

هـ- الإيمان بالله يوفر للمؤمن الاستقرار النفسي والراحة النفسية له فيما يتعلق بتساؤل الإنسان دائماً عن القوة التي هي أكبر منه تسيطر عليه وعلى الحياة من حوله فهو يفزع إليها عند الحاجة ويطمئن بوجودها.

و- الإيمان بالله يربي الإنسان على التواضع، وعدم التطرف أو الغرور، فلا يغتر بقوته مهما كانت ولا يظلم ولا يبطش لأنه يتذكر قدرة الله عليه، وإذا اغتر بماله أو أسرف وتكبر تذكر أن الله هو الغني وهو الذي وهبه المال... فيعود إلى الاعتدال ...إلخ.

ز- الإيمان بالله يوحد بين أفكار الأفراد ومشاعرهم ومناهجهم ويضبط تصرفاتهم وأوضاعهم وسلوكهم فيصبح المجتمع صالحاً يتميز بالثبات والاستقرار.

ح- الإيمان يربي المؤمن على النفس الموحدة بالله، وقد شبه الله النفس الموحدة لربها بالعبد الذي يملكه رجل واحد، فكل تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده، وبهذا تهدأ نفسه وتستقيم حياته وتكون تصرفاته بنسق واحد خالياً من الصراعات والاعتراضات، أما العبد الذي يملكه أكثر من فرد فإن تصرفاته تكون حائرة بينهم بسبب اختلافاتهم وتناقضاتهم، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2][3].

ثانياً- التلقين:

وردت الإشارة إلى استخدام التلقين في الحديث الثاني من الباب في قوله ﷺ:

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة الزمر، آية: ٢٩.

(٣) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٧٦، ٧٧. الله والعلم الحديث، عبدالرزاق نوفل ص ٣٤٧، نقلاً عن كتاب التربية الإسلامية مصادرها وتطبيقاتها، د. عماد محمد محمد عطية ص ٦٤-٦٧.

«لَقِّنُوا موتاكم: لا إله إلا الله». وذلك تذكير للمحتضر بكلمة التوحيد، وكذلك مساعدة وتمكيناً له من النطق بها لتكون آخر كلامه من الدنيا فيفوز بإذن الله بالجنة، كما أفصح عن ذلك الحديث الأول من الباب، حيث قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

إن أسلوب التلقين وإن ورد في مقام الاحتضار والموت، لكنه بصفة عامة من أبرز الأساليب التربوية، "ويمكن القول إن التلقين وكذا الموعظة هي الطريقة التربوية التي يتحمل فيها الآباء والمربون وحدهم عبء الكلام والأولاد مستمعون فقط، لكنهم واعون لما يستمعون يتلقون النصائح ويعملون بها من خلال تجربة أو تجارب سابقة للآباء والمربين.

وهذه الطريقة في التربية طريقة قديمة، فقد ارتبطت بالتعليم منذ أقدم العصور، على أساس أن المربي هو الشخص الذي يمتلك المعرفة، والمتعلمين ينتظرون أن يتلقوا بعضاً مما عنده، بهدف إفادتهم ونموهم السوي في كل جوانب حياتهم"(١).

ثالثاً- الحث على المعاونة والمؤازرة:

من أسمى أهداف التربية الإسلامية غرس روح التعاون بين الأفراد، وحرص كل مسلم على جلب الخير لإخوانه من خلال إعانتهم بشكل مباشر أو غير مباشر.

ومن مظاهر ذلك إعانة المسلم لأخيه وهو في لحظة الاحتضار بتلقينه "لا إله إلا الله". وفي تلك الحالة يكون المسلم أحوج ما يكون لأخيه، أن يساعده ويؤازره حال الاحتضار ونزول الموت فلا أفضل من أن يلقنه كلمة التوحيد وشهادة الإسلام، ويساعده على النطق والتلفظ بها، ومن هنا جاء إرشاد النبي ﷺ في حديثي الباب مبيناً أهمية ختام الإنسان حياته بلا إله إلا الله، فتلك بطاقة دخوله الجنان، ومن ثَمَّ أمر الرسول ﷺ بتلقين الموتى ساعة الاحتضار لا إله إلا الله، فقال ﷺ: «لَقِّنُوا موتاكم: لا إله إلا الله».

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ١٩٥.

ولا يقتصر غرس روح التعاون والمؤازرة في هذا الموقف الحرج فحسب بل يمتد ليشمل جميع ميادين الحياة.

إن التربية على غرس تلك الروح ليست من قبيل النافلة أو المجاملات، وإنما هي واجبات وحقوق أوجبها المسلم على نفسه بعقد الإيمان، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام وأحد أعلام التربية الإسلامية ابن تيمية حيث قال: إن حقوق المسلم واجبة على أخيه المسلم بنفس الإيمان، والتزام هذه الحقوق بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة"[1]. فليس على المسلم إلا أن يمد لأخيه يد العون والمؤازرة، سواء أكان ذلك في الأمور الدنيوية المباحة أو كان في الأمور الدينية ومنها ما جاء في الحديث من الإرشاد بتلقين الميت بكلمة التوحيد.

رابعًا- من الأساليب التربوية:

ورد في الحديث أسلوبان من أساليب التربية ،وهما :

أ- الإلقاء: كما في حديث: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة". والإلقاء يعتمد على العرض الشفهي للمعلومات أمام المتعلمين، ويمكن المعلم من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت لأكبر عدد ممكن من المتعلمين.

ب- التلقين: كما في حديث: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله" فقد أمر النبي ﷺ من حضر الميت وقت احتضاره بأن يلقنه لا إله إلا الله، ومما لا شك فيه أن التلقين هو الأنسب في هذه الحالة.

ومما هو جدير بالذكر أن التلقين يُستَخدم كثيرًا من قبل المعلمين والمربين والوعاظ وغيرهم، فهو من الأساليب التربوية والتعليمية الشائعة والمتكررة.



(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١١/١٠١.

١٥١- باب مَا يقوله بعد تغميض الميت

الحديث رقم (٩٢٠)

٩٢٠- عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: دَخَلَ رسولُ الله ﷺ عَلَى أَبي سَلَمة وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: ((إنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ، تَبِعَهُ البَصَرُ)) فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أهْلِهِ، فَقَالَ: ((لاَ تَدْعُوا عَلَى انْفُسِكُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ، فَإِنَّ المَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ)) ثُمَّ قَالَ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَة، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

شق بصره: رفع بصره، وشَخص وصار ينظر إلى الشيء لا يرتد إليه طرفه[٢].

فضج ناس من أهله: رفعوا أصواتهم بالبكاء والصياح[٣].

يؤمنون: من التأمين أي يقولون: آمين، أي: اللهم استجب[٤].

المهديين: الذين هداهم الله بالإسلام سابقًا وبالهجرة إلى خير الأنام لاحقًا[٥].

عقبه: العقب من يخلف من كان قبله في الخير[٦].

الغابرين: الذاهبين[٧].

---

(١) برقم ٧/٢٠.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩٦.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٣٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ م ن)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٣٤.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٣٤.

(٦) القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي في (غ ب ر).

(٧) المرجع السابق في (غ ب ر).

الشرح الأدبي

قول أم سلمة رضي الله عنها (وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ) كناية عن مفارقة روحه لبدنه أي موته، وفائدة التعبير الكنائي أنه يصور المعنى بدليله فكأنها تقرر موته، وتستدل بذهاب بصره، ويؤكده فعل الرسول ﷺ المعقب على قولها: (فأغمضه) ثم قوله (إنَّ الرُّوحَ إذَا قُبِضَ، تَبِعَهُ البَصَرُ) المرتب على فعله بالتراخي الذي دلت عليه (ثم) ولعله قضى فترة من الشجن، والحزن يودع فيها أبا سلمة رضي الله عنه، وقولها (فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أهْلِهِ) كناية عن البكاء، والعويل على موته، ونهي الرسول ﷺ (لاَ تَدْعُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ) تحذير يلمح إلى أنه من المواضع التي يستجاب عندها الدعاء لشهود الملائكة، وقد تبعها بجملة تعليلية تقرر ذلك، وترغب في الدعاء بالخير: (فَإنَّ المَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ) ودعاء الرسول ﷺ رحمة، وتكريماً لأبي سلمة لأنه دعا له بالمغفرة، وسمَّاه باسمه، ودعا له بالرفعة في الطائفة الخاصة (المهديين) والتعبير بالهداية يوحي بالاستقامة، والتقى، والصلاح، ويشير إلى طائفة من عباده منَّ عليهم بلزوم صراطه في الدنيا حتى لقوا بربهم، ثم دعا للميت بما يعود على أهل (، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ) أي: من يعقبه ويتأخر عنه من ولد، وغيره، ولذا أبدل عن عقبه بقوله (في الغابرين) بإعادة الجار، وقد كرر الدعاء له بالمغفرة، وجمع بين الدعاء لنفسه وللمؤمنين، والدعاء للميت ثم دعا له بالفسحة في القبر، والنور لأن الإنسان يكره الضيق، وينفر من الظلمة لأن القلب ينقبض منهما، وحال الميت أشد لأنه مقبل على بيت الظلمة، والضيق.

فقه الحديث

١- استحباب إغماض عيني الميت: قال القرطبي: (إغماض الميت: سدُّ أجفانه بعد موته، وهو سنة عمل بها المسلمون كافة، ومقصوده تحسين وجه الميت وستر تغيّر بصره)[1].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٧٣/٢، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٩٧/٦/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٧٩/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٦٥/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٥/١٦.

٢-استحباب أن يقول الناس عند الميت خيرًا، وأن يدعوا له: قال النووي: (يستحب للناس أن يقولوا عند الميت خيرًا وأن يدعوا له، لحديث أم سلمة رضي الله عنها)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تغميض عين الميت والدعاء له.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والقصر والتعليل والدعاء.

أولاً - من مهام الداعية: بيان الحقائق:

يتضح ذلك من قول النبي ﷺ: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)، فلما ضجَّ ناس من أهله بالبكاء، قال ﷺ: (لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون).

قال ابن عثيمين: "إن الإنسان إذا حضر الميت، فإن الميت في الغالب يشخص بصره - ينفتح باتساع- يشاهد الروح إذا خرج من البدن، لأن الروح إذ خرجت من البدن[2] لها جسم، لكن جسم لا يراه الناس، لا يراه إلا الميت والملائكة فقط، وتأخذها"[3]، "وإن الملائكة يؤمنون على الدعاء في هذه الحالة، فينبغي لأهل الميت أن يدعوا بالخير"[4].

قال عبدالله البسام: "قال الطبيب محمد بن علي البار: الروح أمر مجهول لا نقول فيه إلا أنه من أمر ربنا، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[5]، والرسول ﷺ يوضح لنا متى

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٨٠.

(٢) الروح كلمة تذكر وتؤنث كما في المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر و ح)، وقد عاملها ابن عثيمين مذكرة ومؤنثة كما هو واضح في هذا النص.

(٣) شرح رياض الصالحين ١١٨٨/٢.

(٤) المرجع السابق ١١٩٠/٢.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٨٥.

تنفخ الروح في الجنين، وأن ذلك بعد مروره في مراحل وأطوار مختلفة، حتى إذا تكونت أعضاؤه بدأت في الجنين حركات إرادية، وترتسم على وجهه علامات الرضا والضيق، كل ذلك يدل على نفخ الروح.

قال الرازي: الروح موجود وهو مغاير لهذه الأجسام والأعراض، ذلك أن الأجسام أشياء تحدث من العناصر، أما الروح فإنه ليس كذلك، بل هو جوهر بسيط مجرد يحدث بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1]، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته نفيه، فإن أكثر حقائق الأشياء وماهيتها مجهولة.

وقال ابن القيم: "الصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، فالروح جسم نوراني علوي خفيف متحرك، ينفذ في الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في العود، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي هذا الجسم اللطيف متشابكًا بهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة، وإذا فسدت هذه الأعضاء وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح.

وهذا هو الصواب وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دلّ الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة.

فالروح هي مناط التكليف ومدار الأمر والنهي والصلاح والفساد، وما الجسم إلا لباس لها وشكل ظاهر، فهي اللب والجوهر" اهـ كلامه.

قال عبدالله البسام: وهذا الارتباط بين الروح والجسد الذي ذكره ابن القيم يشير إليه الحديث الشريف الذي معنا.

قال ﷺ: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)، شخص بصر الميت، وسبحان المحيط علمه بكل شيء.

فقوله: (إذا قبض) وقوله: (تبعه البصر) دليل قاطع على أن الروح جسم، فالقبض لا يكون إلا لجسم، والبصر لا يتبع إلا شيئًا مرئيًا هو الجسم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٤٧.

وقال د. حسن الشرقاوي: "ويخلط علماء الروح الحديث خلطًا شديدًا، فيندفعون في دعاويهم الزائفة فيستجلبون أجسامًا عن طريق الوسطاء، زاعمين أنهم أحضروا الروح ويستخدمون لذلك وسائل مادية.

ويمكن القول بأن هذا النوع من الاتصال يتم بين الإنس والجن، وليس للروح أي علاقة بهذه التجارب المادية، لأن الروح من اختصاص الله وليست في مقدور الإنسان، ومهما تقدم العلم فإنه سيظل عاجزًا عن إدراك كنه الروح، وأصحاب هذه التجارب خلطوا بين عالم الجن وعالم الروح، فتجاربهم نوع من العبث والله أعلم"[(١)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تغميض عين الميت والدعاء له:

هذا ما فعله النبي ﷺ، فقد أغمض عين أبي سلمة رضي الله عنه ودعا له قائلا: (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونوّر له فيه).

قال النووي: "قولها: فأغمضه، دليل على استحباب إغماض الميت وأجمع المسلمون على ذلك، قالوا: والحكمة فيه ألا يقبح بمنظره لو ترك إغماضه.. قولها: (ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة.. إلى آخره)، فيه استحباب الدعاء للميت عند موته ولأهله وذريته بأمور الآخرة والدنيا"[(٢)].

قال ابن القيم: "وكان من هديه ﷺ تسجية الميت إذا مات وتغميض عينيه، وتغطية وجهه وبدنه، وكان ربما يقبل الميت كما قبل عثمان بن مظعون وبكى[(٣)]، وكذلك الصديق أكبّ عليه بعد موته ﷺ"[(٤)(٥)].

وقال عبدالله البسام: "قوله: (المهديين) الذين هداهم الله تعالى، ودلّهم على طريق

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٨٢/٢ - ٤٨٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٣/٦/٣، .

(٣) قالت عائشة رضي الله عنها: (رأيت رسول الله ﷺ يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت حتى رأيت الدموع تسيل)، أخرجه أبو داود ٣١٦٣، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٢٧٠٩).

(٤) أخرجه البخاري ١٢٤١، ١٢٤٢.

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٠٢/١.

الرشد والسداد في حياتهم ومماتهم.

(افسح له في قبره): وسّع له ومدّ له في قبره بحيث يكون عليه روضة من رياض جنتك.

(نوّر له فيه): فدعاء الصالحين من أسباب نور القبر، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا. وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ))[1].

(واخلفه في عقبه): واجعل لمن ترك بعده من الأهل والذرية خليفة صالحًا في أحوال دينهم ودنياهم[2].

ويؤخذ من الحديث:

(١) جواز النظر إلى وجه الميت.

(٢) استحباب تغميض عيني الميت بعد وفاته.

(٣) أن الوفاة هي بمفارقة الروح البدن.

(٤) النهي عن الضجيج والصراخ، ورفع الصوت عند مصيبة الموت أو غيره، ولعل بعض آل أبي سلمة أتوا عند وفاته وفعلوا ما اعتادوا أن يفعلوه في الجاهلية من قولهم: واويلاه واثبوراه ونحوه فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير.

(٥) استحباب الدعاء بالخير عند الوفاة بالاسترجاع وسؤال الرحمة للميت ونحو ذلك.

(٦) من رحمة الله تعالى بخلقه أن جعل ملائكته يواسون المسلمين عند مصائبهم، فيؤمنون على دعائهم ويحضرون عندهم.

(٧) استحباب الدعاء للميت بالرحمة والمغفرة ورفع الدرجات في الجنة وحشره مع أولياء الله تعالى المهديين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

(٨) ثبوت نعيم القبر من اتساعه له وتنويره، فيكون عليه روضة من رياض الجنة،

---

(١) أخرجه مسلم ٩٥٦، وهو عند البخاري ٤٥٨، ٤٦٠، ١٣٣٧، لكنه ليس فيه هذه الزيادة، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٦٥٩/١ حيث ذهب ابن حجر إلى أنها مدرجة في الإسناد.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٣٩/٣.

فهو أول منازل الآخرة.

(٩) استحباب الدعاء لأهل الميت وعقبه بأن يخلفهم عنه خيرًا، وأن يعوضهم عن فقده أجرًا[١].

وقال ابن عثيمين: "ينبغي لمن حضر الميت وأغمضه أن يدعو له، وإذا دعا بهذه الدعوات العظيمة التي دعا بها الرسول ﷺ لأبي سلمة كان خيرًا، وإن لم يعرفها دعا بما شاء"[٢]. فكان إغماض عين الميت من باب إكرامه وصونه أن يرى على هيئة مكروهة أو تنفر منها العين، فكان في هذا قيام بما على المدعوين تجاه الميت من مراعاة حشمته والمحافظة على حرمته وهو ميت، كما أن الدعاء منهم له توجه إلى الله أن يرحمه ويغفر له ويتجاوز عنه، ويقبله في الصالحين وقد أفضى لما قدم من عمل.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: فضل أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه:

لقد دعا النبي ﷺ لأبي سلمة بعد موته، فكان في ذلك منقبة له وفضيلة، وقد كان هذا الصحابي من المهاجرين المجاهدين، قال الذهبي: "هو ابن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب.

السيد الكبير أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وابن عمته بَرَّة بنت عبد المطلب، وأَحد السابقين الأولين، هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، وماتَ بعدَها بأشهر، وله أولاد صحابة: كعمر وزينب وغيرهما، ولما انقضت عدة زوجته أم سلمَةَ تزوَّج بها النبيُّ ﷺ، وروتْ عن زوجها أَبي سَلَمة القول عند المصيبة، وكانت تقول: مَنْ خيرٌ من أَبي سَلَمَة، وما ظنَّتْ أَن الله يخلفها في مُصابها به بنظيره، فلما فُتح عليها بسيد البشر، اغتبطتْ أَيما اغتباط.

مات كهلاً في سنة ثلاث من الهجرة رضي الله عنه.

قال ابنُ إِسحاق: هو أَول مَنْ هاجر إِلى الحبشة، ثم قدم مع عثمان بن مظعون حين قدم من الحبشة، فأجاره أَبو طالب.

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٤٧٩ - ٤٨٠.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١١٩٠.

قلتُ: رجعوا حين سمعوا بإسلام أَهل مكة عند نزول سورة (والنجم).

قال مصعب بن عبد الله: وَلَدت له أم سلمةَ بالحبشة سَلمة، وعُمر، ودُرَّة، وزينب.

قلتُ: هؤلاء ما ولدوا بالحبشة إلا قبل عام الهجرة.

عَنْ عُمَرَ بْنِ أبي سَلَمَةَ، عَنْ أم سَلَمَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِذَا اصَابَتْ احَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَقُلْ: (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) اللَّهُمَّ عِنْدَكَ احْتَسِبُ مُصِيبَتِي فَاجُرْنِي فِيهَا وَابْدِلْ لِي بِهَا خَيْرًا مِنْهَا)).

فلما احتضر أبو سلمة قلت ذلك، وأردت أن أقول وأبدلني خيرًا منها، فقلت: ومن خير من أبي سلمة، فما أزال حتى قلتها، فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته، وخطبها عمر فردته، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت: مرحبًا برسول الله ﷺ وبرسوله، وذكر الحديث[1].

قال الواقدي: "حدثنا عمر بن عثمان اليربوعي، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أَبي سلمة وغيره قالوا: شهد أَبو سَلَمَة أُحُدًا، وكان نازلاً بالعالية في بني أمية بن زيد، فجُرح بأحُد، وأَقام شهرًا يداوي جُرحَه، فلما هَلَّ المحرَّمُ دعاه النبيُّ ﷺ، وقال: اخْرُجْ فِي هَذِهِ السَرِيَّةِ، وعَقَدَ لَهُ لِوَاءً، وقال: سِرْ حَتَىَ تَأْتِي أَرْضَ بَنَي أَسَدٍ، فأَغِرْ عَلَيْهِم. وَكان معه خمسون ومائة، فساروا حتى انتهوا إلى أَدنى قطن من مياههم، فأخذوا سرْحًا لهم، ثم رجع إلى المدينة بعد بضع عشرة ليلة.

قال عُمر بن عثمان: فحدثني عبد الملك بن عُبيد قال: لما دخل أبو سلمة المدينة انتقض جرحه، فمات لثلاث بقين من جمادى الآخرة. يعني سنة أَربع، وقيل: مات أَبو سَلمة سنة ثلاث"[2].

رابعًا - من أساليب الدعوة: التوكيد والقصر والتعليل والدعاء:

أما التوكيد فقوله ﷺ: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)، وأما القصر: فقوله ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم ٩١٨ بنحوه مختصرًا، وهو بطوله عند الإمام أحمد في المسند ٦/٣١٢ رقم ٢٤٦٦٩، وقال محققو المسند: بعضه صحيح، انظر: تخريجه ٤٤/٢٧٠ - ٢٧١.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١/١٥٠ - ١٥٢.

(لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير)، فكان هذا القصر لبيان الدعاء المشروع في هذا الموقف، ومحاربة لعادة أهل الجاهلية، (فقد كانوا إذا حصل مثل هذا يدعون على أنفسهم بالويل والثبور - والعياذ بالله - يقولون: يا ويلاه يا ثبوراه وما أشبه ذلك)[١].

أما التعليل فقوله ﷺ: (فإن الملائكة يؤمنون على ما يقولون)، ليوضح أن الدعاء هنا في هذا الموقف، الواجب فيه الدعاء بالخير والرحمة والمغفرة والصبر.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١١٨٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتوجيه:

وقد جاء استخدام هذا الأسلوب التربوي واضحاً في نهي النبي ﷺ أهل أبي سلمة وغيرهم عن عادتهم، أنهم إذا مات لهم ميت رفعوا أصواتهم بالضجيج والدعاء على النفس فقال ﷺ موجهاً لهم: «لا تَدْعُوَ على أَنْفُسِكُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ»، وبين العلة في هذا النهي أن الملائكة تُؤَمِّنُ على دعاء الإنسان، فلربما دعا الإنسان على نفسه فوافق ذلك تأمين الملائكة فتحقق الدعاء، كما نجد في الحديث أيضاً توجيه رسول الله ﷺ بلسان حاله ومقاله إلى ما ينبغي فعله في هذا المقام من الدعاء بالخير والرحمة والمغفرة للميت والحيّ، فقال ﷺ: «اللهمَّ اغْفِرْ لأبي سَلَمَةَ وارْفَعْ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ واخْلُفْهُ في عَقِبِهِ في الغابرينَ، واغْفِرْ لَنَا ولهُ يا ربَّ العالمينَ، اللهمَّ افْسِحْ لَهُ في قَبْرِهِ ونَوِّرْ لَهُ فيهِ».

إن من أهم غايات التربية الإسلامية التوجيه الصحيح وتغيير العادات والتقاليد التي تتنافى مع هدي الإسلام في كافة الأمور والتي من جملتها ما نهى عنه النبي ﷺ من الدعاء على النفس، إذ أن "من أهم لوازم العبودية لله عز وجل البراءة من أفعال الجاهلية وأخلاق الجاهلين، بل إن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام تفرض على العبد المسلم أن يتخلص من كل رواسب الجاهلية وعاداتها، وألا يتشبه بأهل الجاهلية في شيء من الأقوال والأفعال مهما كان ضغط الواقع وإغراءات الحياة، بل يتميز المسلم بشخصيته الإسلامية الموحِّدة والتي تحصر كل تلقيها فيما جاء عن الله سبحانه أو عن رسوله ﷺ"(١).

لذا ينبغي على المربين التوجيه إلى نبذ السلوكيات والأعمال التي تتنافى مع قيم ومبادئ الإسلام والإرشاد إلى انتهاج السلوك القويم.

---

(١) انظر: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، ٤٠٦/٢، ٤٠٧.

"إن التنفير من الأمور السيئة لا يقل أهمية عن التحبب في الأمور الطيبة، بل إن التنفير والتحذير من العوامل المؤثرة في عملية التربية ومحاربة الأفكار والعادات السيئة والمفاهيم الباطلة.

ولكي يكون أثر التحذير نافعاً ومفيداً علينا أن نراعي أمرين:

أولاهما: الحذر من كثرة التحذير وتكراره الممل الخالي من ذكر الأسباب.

ثانيهما: ألا نحذر الطفل من شيء ونحن نفعله، فإن هذا يجعل الطفل محتاراً ويوقعه في التناقض بين القول والفعل"[1].

ثانياً- التربية العقدية:

بيّن رسول الله ﷺ في حديث الباب بعض المفاهيم العقدية التي ينبغي أن تكون واضحة في ذهن المسلم، فورد في الحديث عدة أمور من آحاد العقيدة منها:

- في قوله ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ».
- وفي قوله ﷺ: «فإنَّ الملائكةَ يُؤَمِّنُونَ ...».
- القبر وما يجرى فيه من نعيم أو عذاب، وذلك ما حمل رسول الله ﷺ -وفي ذلك القدوة- أن يدعو لأبي سلمة بالنعيم فقال: «وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيْهِ».

وهكذا نرى كيف أن النبي ﷺ يربي الأمة على التوحيد وإخلاص العقيدة لله وعلى كريم الشمائل وجليل الصفات، فعلى الآباء والمربين أن يستفيدوا من تربية النبي ﷺ للصحابة وتعليمه لهم أصول العقيدة وفضائل الآداب[2].

إن على المربين والمعلمين وكذا الآباء أن يستحضروا دائماً نصب أعينهم أن العقيدة الصحيحة وترسيخها في المتربين أساس التربية الإسلامية.

"إن أثر العقيدة الإسلامية يبرز بوصفها الأساس الأول من أسس التربية في الإسلام من حيث كون العقيدة الإسلامية قاعدة تنبني عليها كل حركة وكل سكنة من حركات وسكنات المسلم في حياته، ولذا فإنها والحالة تلك تكون مقياساً حتمياً

---

(١) انظر: تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) انظر: الشباب مشكلات وحلول، د. أحمد خليل جمعة وآخر ص ٧٠، ٧١.

لكل سلوك يسلكه سواء كان سلوكاً دنيوياً أم كان سلوكاً أخروياً، بحيث يقبل ويأخذ ما وافق العقيدة، ويرد ويرفض كل ما خالف العقيدة الإسلامية.

كما أن غرس العقيدة الإسلامية في نفس المسلم بوصفه عملاً رئيساً من مهام المربي المسلم يجعل سلوك الفرد متفقاً مع أهداف التربية الإسلامية، ويضمن بالتالي تحقيق التوازن النفسي والوجداني عند الفرد بخاصة حيال مظاهر الكون، وأخيراً يستطيع أن يصدر الأحكام المبنية على وجهة نظر الإسلام تجاه الأشياء والظواهر والعلاقات بصورة صحيحة[1].

ثالثًا- من الأساليب التربوية:

جاء في حديث الباب بعض الأساليب التربوية، التي منها:

أ- الممارسة العملية: كما في قول أم سلمة رضي الله عنها: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه" فقد أغمض النبي ﷺ عيني أبي سلمة رضي الله عنه.

ومما لا شك فيه أن الممارسة العملية تتميز بشدة بقاء أثر التعليم في نفوس المتعلمين.

ب- التعليل: يتضح هذا جليًا في قول النبي ﷺ لما أغمض عيني أبي سلمة "إن الروح إذا قبض تبعه البصر" وقوله ﷺ لما ضجَّ ناس من أهل أبي سلمة حزنًا على موته قال لهم: "لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون" فقد بيّن ﷺ سبب إغماض عيني أبي سلمة، كما بين سبب نهي أهل أبي سلمة عن الدعاء على أنفسهم، ومما لا شك فيه أن تعليل الأفعال والأقوال -إن اقتضى المقام ذلك- يزيد في استجابة المتعلمين وامتثالهم بالفعل في حالة الأمر، والترك في حالة النهي.

رابعًا- من مهام المربي: تقديم البديل المشروع:

إن النبي ﷺ لما نهى بعض أهل أبي سلمة عن الدعاء على أنفسهم إلا بخير قدم لهم هذا الدعاء بالخير، فقال: "اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونوّر له فيه". إن

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. أمين ابو لاوي ص ٨٦.

النبي ﷺ بدعائه قدم -ولو بطريق غير مباشر- لأهل أبي سلمة البديل الذي ينبغي أن يشتغلوا به بعد أن نهاهم عن الدعاء على أنفسهم، إنه ﷺ بدعائه هذا جذب أنظار من اشتغل من أهل أبي سلمة بالدعاء على نفسه بالهلاك أو الموت ونحو ذلك إلى أولى ما يشتغلون به، وهو الدعاء للميت ولأهله، وطلب المغفرة له ولهم من الله رب العالمين.

وعلى ذلك فإن المعلم البارع من إذا منع المتعلمين من شيء قدّم بديلاً مقبولاً لذلك الممنوع، حتى يشغلهم به عن الانشغال بما هو مرفوض وغير مرغوب.



١٥٢- باب ما يقال عند الميت ومَا يقوله من مات له ميت

الحديث رقم (٩٢١)

٩٢١- عن أُم سَلَمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: ((إِذَا حَضَرتُمُ المَرِيضَ أَو: المَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْرًا، فَإِنَّ المَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ))، قالت: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سلَمة، أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ، فقلت: يَا رسولَ الله، إِنَّ أَبَا سَلَمَة قَدْ مَاتَ، قَالَ: ((قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ، وَاعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبى حَسَنَةً)) فقلتُ، فَأَعْقَبنِي اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ: مُحَمَّدًا ﷺ.

رواه مسلم هكَذا: ((إِذَا حَضَرتُمُ المَرِيضَ، أَو: المَيِّتَ))، عَلَى الشَّكِّ، ورواه أَبُو داود[1] وغيره: ((الميت)) بلا شَكّ.

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

يؤمِّنون: من التأمين أي يقولون: آمين، أي: اللهم استجب[2].

أعقبني: أبدلني وعوضني[3].

الشرح الأدبي

جاء الحديث في ثوب الشرط الذي يربط الجزاء بالفعل حيث ربط حضور الميت أو المريض بقول الخير، ثم علل الأمر بالقول بما يضمن التزامه، ويرغب فيه (فَإِنَّ المَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ) وصياغة الفعل في صورة المضارع تصور تجدد تأمين الملائكة مع تجدد القول، ونسبة الفعلين لواو الجماعة توحي بالاحتشاد للتأمين مما يجعله أقرب

---

(١) أخرجه مسلم ٩١٩/٦، وأبو داود ٣١١٥. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٢٥.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ م ن)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٣٥.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٣٦.

للإجابة، والتعبير بالإتيان، لأنه ذهاب فيه مشقة من ناحية الحالة النفسية بسبب موت زوجها، وقولها (إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ) خبر أريد به لازمه من الترحم عليه، والصلاة، وتشييعه، وقوله في الدعاء (أعقبني - عقبى) جناس يؤكد المعنى، ويشير إلى أصله الذي يدور عليه الحديث، وهو أن الله أخلفها بصبرها عن زوجها من هو خير منه، وهو النبي ﷺ والتتميم البلاغي بقوله (حسنة) يضيف نكتة بلاغية تعطى العاقبة خصوصية تفوق المعقوب.

فقه الحديث

١ - ما يقال عند المريض والميت:

قال النووي: (قوله ﷺ: "إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرًا؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون" فيه الندب إلى قول الخير حينئذٍ من الدعاء والاستغفار له وطلب اللطف به والتخفيف عنه ونحوه، وفيه حضور الملائكة حينئذٍ وتأمينهم)[1].

٢- ينبغي للمصاب أن يستعين بالله تعالى:

قال ابن قدامة: (ينبغي للمصاب أن يستعين بالله تعالى ويتعزّى بعزائه، ويمتثل أمره في الاستعانة بالصبر والصلاة ويتنجّز ما وعد الله به الصابرين، حيث يقول سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[2]. روى مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون..." الحديث وليحذر أن يتكلم بشيء يحبط أجره ويسخط ربه، بما يشبه التظلم والاستغاثة، فإن الله عدل لا يجور وله ما أخذ وله ما أعطى، وهو الفعال لما يريد، ولا يدعو على نفسه، فإن النبي ﷺ قال لما مات أبو سلمة: "لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون" ويحتسب ثواب الله تعالى

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٩٧/٦/٣ .

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

ويحمده، لما روى أبو موسى أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات ولد العبد... الحديث"[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: ما يقال عند الميت.

ثانيًا: من آداب المدعو: إخبار الداعية بحاله ليدله على ما يفعله وينفعه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: دعاء من مات له ميت أو أصيب بمصيبة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: جزاء من استجاب لهدي رسول الله ﷺ عند وقوع المصيبة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الشرط والأمر والترغيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: ما يقال عند الميت:

يتضح ذلك في قوله ﷺ: (إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرًا، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون).

وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا حَضَرْتُمْ مَوْتَاكُمْ فَأَغْمِضُوا الْبَصَرَ، فَإِنَّ الْبَصَرَ يَتْبَعُ الرُّوحَ، وَقُولُوا خَيْرًا، فَإِنَّهُ يُؤَمَّنُ عَلَى مَا قَالَ أَهْلُ الْمَيِّتِ))[٣].

قال الشوكاني: "والحديث فيه الندب إلى قول الخير حينئذٍ من الدعاء والاستغفار له، وطلب اللطف به، والتخفيف عنه ونحوه، وحضور الملائكة حينئذٍ وتأمينهم"[٤].

وقال أبو عبدالله القرطبي: "قال علماؤنا[٥]: قوله ﷺ: (إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا)، أمر ندب وتعليم بما يقال عند المريض أو الميت، وإخبار بتأمين الملائكة على دعاء من دعا، ولهذا استحبّ العلماء أن يحضر الميت الصالحون وأهل الخير حالة موته، ليذكروه ويدعوا له ولمن يخلفه، وينتفع بذلك الميت، ومن يصاب به،

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/٤٩٥-٤٩٦.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٢١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٢٢).

(٣) أخرجه أحمد ٤/١٢٥ رقم ١٧١٣٦، وابن ماجة ١٤٥٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح لغيره ٢٨/٣٦٠.

(٤) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ص ٦٩٢، وقد نقله عن النووي في شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣/٦/٢٣١ - ٢٣٢، .

(٥) يقصد شيخه أبا العباس القرطبي المحدث صاحب المفهم وهو في المفهم ٢/٥٧١.

ومن يخلفه"[١].

ثانيًا - من آداب المدعو: إخبار الداعية بحاله ليدله على ما يفعله وينفعه:

يتضح هذا من فعل أم سلمة عندما جاءت إلى النبي ﷺ تخبره بموت زوجها أبي سلمة، فأرشدها النبي ﷺ إلى ما تقوله، فدلها ﷺ على الخير والنفع لها ولميتها.

ومن هذا القبيل ما رواه أبو أمامة قال: بَيْنَمَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، وَنَحْنُ قُعُودٌ مَعَهُ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا. فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللّهِ. ثُمَّ أَعَادَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا. فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. فَسَكَتَ عَنْهُ. وَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ. فَلَمَّا انْصَرَفَ نَبِيُّ اللّهِ ﷺ قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: فَاتَّبَعَ الرَّجُلُ رَسُولَ اللّهِ حِينَ انْصَرَفَ. وَاتَّبَعْتُ رَسُولَ اللّهِ أَنْظُرُ مَا يَرُدُّ عَلَى الرَّجُلِ. فَلَحِقَ الرَّجُلُ رَسُولَ اللّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ: ((أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ، أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الْوُضُوءَ؟)) قَالَ: بَلَى. يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: ((ثُمَّ شَهِدْتَ الصَّلاَةَ مَعَنَا؟)) فَقَالَ: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ: ((فَإِنَّ اللّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ. أَوْ قَالَ - ذَنْبَكَ))[٢].

قال النووي: "هذا الحد معناه معصية من المعاصي الموجبة للتعزير، وهي هنا من الصغائر، لأنها كفَّرتها الصلاة، ولو كانت كبيرة موجبة لحد أو غير موجبة له، لم تسقط بالصلاة، فقد أجمع العلماء على أن المعاصي الموجبة للحدود، لا تسقط حدودها بالصلاة، هذا هو الصحيح في تفسير هذا الحديث. وحكى القاضي[٣] عن بعضهم أن المراد بالحد المعروف، قال: وإنما لم يحده لأنه لم يفسر موجب الحدّ، ولم يستفسره النبي ﷺ عنه إيثارًا للستر، بل استحب تلقين الرجوع عن الإقرار بموجب الحد صريحًا"[٤].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٣٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٦٥.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٦٧/٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٤/١٧/٩ - ٨٥.

ومن ذلك ما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللّهِ، إِذَا رَأَى رُؤْيَا، قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللّهِ. فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقُصُّهَا عَلَى النَّبِيِّ. قَالَ: وَكُنْتُ غُلاَمًا شَابًّا عَزَبًا. وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللّهِ. فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ. فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ. وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَيِ الْبِئْرِ. وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ. فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ النَّارِ. أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ النَّارِ. أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ لِي: لَمْ تُرَعْ. فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ. فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ: ((نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ)). قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللّهِ، بَعْدَ ذٰلِكَ، لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً[1].

قال أبو العباس القرطبي: "إنما فهم النبي صلى الله عليه وسلم من رؤية عبد الله للنار أنه ممدوح، لأنه عرض على النار ثم عوفي منها، وقيل له: لا روع عليك وهذا إنما هو لصلاحه، وما هو عليه من الخير، غير أنه لم يكن يقوم من الليل؛ إذ لو كان ذلك ما عرض على النار ولا رآها، ثم إنه حصل لعبد الله رضي الله عنه من تلك الرؤية يقين مشاهدة النار والاحتراز منها، والتنبيه على أن قيام الليل مما يتقي به النار، ولذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك رضي الله عنه"[2].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: دعاء من مات له ميت أو أصيب بمصيبة:

يتضح هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة: (قولي: اللهم اغفر لي وله وأعقبني منه عقبى حسنة).

وفي الحديث الآخر: (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلا آجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيرًا منها).

قال الطيبي: "قوله: (إنا لله) تسليم وإقرار أنه وما يملكه وما ينسب إليه عارية

---

(١) أخرجه البخاري ١١٢١، ومسلم ٢٤٧٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٠٩/٦ - ٤١٠.

مستردة، ومنه بدأ وإليه الرجوع والمنتهى، فإذا وطّن نفسه به، وتصبّر على ما أصابه سهل عليه الأمر، وعرف فضيلة مطلوبه، ولم يُرد بقوله: (قالوا: إنا لله)، اللفظ فقط، فإن التلفظ بذلك مع الجزع قبيح وسخط للقضاء.

قوله: (آجرني في مصيبتي)، قال ابن الأثير في النهاية[١]: "آجره يؤجره إذا أثابه وأعطاه الأجر والجزاء، وكذلك أجره يأجره، والأمر منهما آجرني وأجرني، قوله: (خيرًا منها)، أي بما فات عني في هذه المصيبة، وهي الأمر المكروه ينزل بالإنسان"[٢].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٣].

قال القاسمي: "قالوا: (إنا لله) أي: ملكًا وخلقًا، فلا ينبغي أن نخاف غيره، لأنه غالب على الكل، أو نبالي بالجوع، لأن رزق العبد على سيده، فإن منع وقتًا فلا بد أن يعود إليه، وأموالنا وأنفسنا وثمراتنا ملك له، فله أن يتصرف فيها بما يشاء، (وإنا إليه راجعون): في الدار الآخرة، فيحصل لنا عنده ما فوّته علينا، لأنه لا يضيع أجر المحسنين، فالمصاب يهون عليه خطبه إذا تسلّى بقوله هذا، وتصور ما خلق له، وأنه راجع إلى ربه، وتذكر نعم الله عليه، ورأى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه. قال الراغب: وليس يريد بالقول اللفظ فقط، فإن التلفظ بذلك مع الجزع القبيح وتسخط القضاء ليس يغني شيئًا، وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله والقصد له، والاستهانة بما يعرض في طريق الوصول إليه، فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها، وقصد هذا المقصد ووطن نفسه عليه"[٤].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٢٧.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٢٨/٢.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

(٤) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢٢٦/٢/١، وانظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٥٧/٢/١.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: جزاء من استجاب لهدي رسول الله ﷺ عند وقوع المصيبة:

وهذا واضح من قول أم سلمة: فقلت: (أي ما أمرها النبي ﷺ بقوله)، فأعقبني الله من هو خير لي منه محمدًا ﷺ. وفي الرواية الثانية: (فلما توفي أبو سلمة قُلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرًا منه رسول الله ﷺ).

وفي رواية أخرى لمسلم قالت: ((فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: مَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ ثُمَّ عَزَمَ اللَّهُ لِي فَقُلْتُهَا. قَالَتْ: فَتَزَوَّجْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ))[1].

وفي رواية عند أحمد: قالت: ((فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت، وقلت: اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منه، ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ ... فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه، رسول الله ﷺ))[2].

قال عبدالله البسام تعليقًا على دعاء النبي ﷺ لأبي سلمة عندما مات: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ. وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ))(٣)، قال البسام: (فيه الفضيلة العظيمة والمنقبة الكبيرة لأبي سلمة رضي الله عنه بهذا الدعاء النبوي المبارك، الذي نعلم أنه قُبل منه ما كان في الدنيا، حيث صار عقبة في أهله، هو أن رسول الله ﷺ تزوج امرأته فصارت من أمهات المؤمنين، وتشرف أولاده، فصاروا ربائب للنبي ﷺ رُبّوا في بيته، وعاشوا في كنفه وصاروا في كفالته، ونظن الظن القوي أن الله تعالى قد استجاب دعاء النبي ﷺ فغفر له ذنوبه، ورفع درجته في المهديين)[4].

ومن هذا القبيل ما روته فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم ٥ - ٩١٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٧، ٢٨، رقم ١٦٣٤٤، وقال محققو المسند: رجاله ثقات إلا أن المطلب - وهو ابن عبدالله بن حنطب - روايته عن الصحابة مرسلة، إلا أنس بن مالك وسهل بن سعد وسلمة بن الأكوع ومن كان قريبًا من طبقتهم ٢٦/٢٦٢ - ٢٦٣.

(٣) أخرجه مسلم ٩٢٠.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٤٨٠.

((إِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي)) فَآذَنَتْهُ، فَخَطَبَهَا مُعَاوِيَةُ وَأَبُو جَهْمٍ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: ((أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَرَجُلٌ تَرِبٌ لاَ مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَرَجُلٌ ضَرَّابٌ لِلنِّسَاءِ، وَلَكِنْ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ))، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا: أُسَامَةُ! أُسَامَةُ! فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ: ((طَاعَةُ اللّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ خَيْرٌ لَكِ)) قَالَتْ: فَتَزَوَّجْتُهُ فَاغْتَبَطْتُ[1]، وفي رواية: ((فَنَكَحْتُهُ، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا، وَاغْتَبَطْتُ))[2].

وفي رواية: (فَتَزَوَّجْتُهُ فَشَرَّفَنِي اللّهُ بِأبي زَيْدٍ. وَكَرَّمَنِي اللّهُ بِأبي زَيْدٍ)[3].

قال النووي: "وأما إشارته ﷺ بنكاح أسامة، فلما علمه من دينه وفضله وحسن طرائقه وكرم شمائله، فنصحها بذلك، فكرهته لكونه مولىً، ولكونه كان أسود جدًا، وكرر عليها النبي ﷺ الحث على زواجه لما علم من مصلحتها في ذلك، وكان كذلك، ولهذا قالت: فجعل الله لي فيه خيرًا واغتبطت، ولهذا قال النبي ﷺ في الرواية التي بعد هذا: (طاعة الله وطاعة رسوله خير لك)"[4].

خامسًا - من أساليب الدعوة: الشرط والأمر والقصر والترغيب:

أما الشرط فقوله ﷺ: (إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرًا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)، وهو من الأساليب الدعوية التي تجذب انتبه المدعو وتركيزه حتى يسمع فعل جواب الشرط.

وهو من الأساليب الدعوية المفيدة في حث المدعو على الالتزام بما أمر به، لما فيه فائدته في الدنيا والآخرة

وأما الأمر فقوله ﷺ: (قولي: اللهم اغفر لي وله..).

وأما القصر فقوله ﷺ: (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها إلا أجره الله تعالى في

---

(١) أخرجه مسلم ٤٧ - ١٤٨٠.

(٢) أخرجه مسلم ٣٦ - ١٤٨٠.

(٣) أخرجه مسلم ٤٩ - ١٤٨٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥/١٠/١٠١ - ١٠٢.

مصيبته وأخلف له خيرًا منها، فدلّ هذا القصر على فضل هذا الدعاء، وأن الجزاء عليه محقق وواقع.

وأما الترغيب؛ فإخباره أن من قال هذا القول، آجره الله وأعطاه الأجر والجزاء وأخلفه الله خيرًا منها. وهذا حثٌّ للمدعوين على التزام هذا الدعاء في كل مصيبة تصيبهم.

الحديث رقم (٩٢٢)

٩٢٢- وعنها، قالت: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: ((مَا مِنْ عَبْدٍ تُصيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: إنّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ آجِرْنِي في مُصِيبَتي وَاخْلفْ لِي خَيرًا مِنْهَا، إلاَّ أجَرَهُ اللهُ تَعَالَى في مُصِيبَتِهِ، وَأخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)).

قالت: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَة قلتُ كَمَا أمَرَني رسولُ الله ﷺ، فَأخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ رسولَ الله ﷺ. رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

أجرني: أعطي أجره وجزاء صبره وهمه في مصيبته[٢].

الشرح الأدبي

الحديث السابق كان التوجيه فيه بالدعاء بالخلف موجه إلى أم سلمة ﵁ لأنها صاحبة المصيبة، وفي هذا الحديث جاء التوجيه عاماً شاملاً في قوله: (ما من عبد) وهو تركيب يفيد الشمول، والاستغراق من حيث دخول النفي على النكرة التي تسبقها من، وقوله (تُصيبُهُ مُصِيبَةٌ) جناس يؤكد المعنى وينبه إليه قبل تقرير الحكم عليه، وقوله (إنا لله) أسلوب قصر للكهم على الله، ونفي له عن غيره، وكذلك في صفة الرجوع، وقوله (أجرني) أمر أريد به الدعاء، والفظ يوحي بالرعاية، والدفع، والحماية، وام المؤمنين أم سلمة تعطي خيرمثال على تحقق الموعود بما أخلف الله عليها بعد زوجها برسول الله ﷺ.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) برقم ٩١٨/٤. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٢٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩٥، ونقل النووي عن القاضي عياض: أجرني بالقصر والمد حكاهما صاحب الأفعال. وقال الأصمعي وأكثر أهل اللغة: هو مقصور لا يمد.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٢٣)

٩٢٣- وعن أَبي موسى رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولونَ: نَعَمْ. فيقولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولونَ: نَعَمْ. فيقولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فيقولونَ: حَمدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فيقول اللهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

ثمرة فؤاده: ولده لأنه نتيجة الأب، كالثمرة للشجرة[2].

استرجع: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون[3].

الشرح الأدبي

الاستفهام الإلهي (قبضتم ولد عبدى؟) قبضتم ثمرة فؤاده؟... تقرير للملائكة بغرض الإخبار لهم والإشادة ببني آدم في موقف أبلى فيه الإنسان الثكول بلاء حسناً وقد قالت الملائكة من قبل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة٣٠]، وحذف الأداة في هذا الاستفهام أوحت بفيض غامر من الرحمة على الأب الثكول، ورحمة لا تصدر إلا من رحمن تبعث الأسى، وتصور حجم الفجيعة التي مُنى بها الأب يدلك على ذلك بقية عبارة الاستفهام، وتدرجه من الخصوص (ولد عبدي) إلى الأخص (ثمرة فؤاده) تصعيداً لشعور الأسى،

---

(١) برقم ١٠٢١ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٩٤٨). وقال الحافظ كما في الفتوحات الربانية ٢٩٦/٣: الحديثُ حسنٌ. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩٨٦، و٥١٢٩. وسيكرره المؤلف برقم ١٣٩٧.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٨٦/١.

(٣) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ج ع).

والشفقة لدى المخاطبين، وتعبيره بـ (عبدى) وإضافته لنفسه تشريف للأب الثكول يوحي بحنو الله جل، وعلا، وهو يريد بذلك أن يصور حجم المصيبة التي لحقت به، ثم يأتي استفهامه الآخر مذكور الأداة (ماذا قال عبدي) بعد شدة ما أصيب به، واستعمل حرف الاستفهام (ماذا) (ما) التي يطلب بها تعيين غير العقلاء فيطلب بها تعيين الاسم، أو صفته مضافة إليها (ذا) الإشارية لفتاً للنظر إليه، وإظهاراً لمقالته بإثارة السؤال واضحاً على أسماع الملائكة، وكل من بلغه الحديث إشارة إلى فضل بني آدم عامة، وصبر هذا الأب الثكول خاصة[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الكلام لله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحمد والاسترجاع عند مصيبة فقد الولد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

أولاً من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الكلام لله:

هذا واضح في قول رسول الله ﷺ: "قال الله تعالى لملائكته". قال صاحب معارج القبول: (ومما أثبته ربنا عز وجل لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ تكليمه عبده ورسوله موسى بن عمران بدون واسطة رسول بينه وبينه، بل أسمعه كلامه الذي هو صفته اللائقة بذاته كما شاء وعلى ما أراد. قال الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[2]، وقال في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[3]... والقرآن ممتلئ بذلك، وفي الصحيحين من حديث

---

(١) ينظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في صحيح الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري، د. ناصر راضي الزهري /٥٠٠/ مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهر.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٤.

احتجاج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، وفيه قول آدم لموسى: ((أنتَ موسى الذي اصطفاكَ اللهُ برسالاتهِ وبكلامهِ ثمَّ تلومُني على أمر قُدِّرَ عليَّ قبل أن أُخلَقَ؟ فقال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى مرَّتَين))[1] وأنه سبحانه يتكلم إذا شاء بما يشاء وكيف يشاء بكلام يسمعه من يشاء، أسمعه موسى عليه السلام كيف شاء وعلى ما أراد... قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: ((قال اللهُ: أعددتُ لِعبادي الصالحينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطرَ على قلبِ بَشَر))[3].

ولو ذهبنا ننقل الأحاديث، في قال الله، ويقول، ويتكلم وينادي، ونحو ذلك، لطال الفصل. وهذه الآيات والأحاديث - مما ذكرنا ومما لم نذكر - كلها شاهدة بأن الله تعالى لم يزل متكلمًا بمشيئته وإرادته، يتكلم بما شاء كيف شاء متى شاء بكلام حقيقة يسمعه من يشاء من خلقه، وأن كلامه قول حقيقة كما أخبر، وعلى ما يليق بعظمته، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾[4] والقرآن كلامه تعالى تكلم به حقيقة كما شاء، وهو من فاتحته إلى خاتمته شاهد بذلك)[5].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحمد والاسترجاع عند مصيبة فقد الولد:

هذا واضحٌ من قول الملائكة عن الذي مات له ابن: حَمدَك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسمّوه بيت الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٠٩، ومسلم ٢٦٥٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٢٤٤، ومسلم ٢٨٢٤.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٤.

(٥) معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، حافظ بن أحمد الحكمي ١٣٧٧هـ، حققه محمد صبحي بن حسن حلاق ١/٣١٤ - ٣٢١، وانظر: كتاب أصول الإيمان، إعداد نخبة من العلماء ص ٨٧.

قال ابن القيم: (كان من هديه ﷺ السكون والرضا بقضاء الله، والحمد لله والاسترجاع، ويبرأ ممن خرق لأجل المصيبة ثيابه، أو رفع صوته بالندب والنياحة، أو حلق لها شعره)[١].

(وسن ﷺ لأمته الحمد والاسترجاع والرضا عن الله، ولم يكن ذلك منافيًا لدمع العين وحزن القلب، ولذلك كان أرضى الخلق عن الله في قضائه، وأعظمهم له حمدًا، وبكى مع ذلك يوم موت ابنه إبراهيم رأفة منه[٢]، ورحمة للولد، ورقة عليه، والقلبُ ممتلئ بالرضا عن الله عز وجل وشكره، واللسانُ مشتغل بذكره وحمده.

ولما ضاق هذا المشهدُ والجمعُ بين الأمرين على بعض العارفين[٣] يوم مات ولده، جعل يضحك، فقيل له: أتضحك في هذه الحالة؟ قال: إن الله تعالى قضى بقضاء، فأحببت أن أرضى بقضائه، فأشكل هذا على جماعة من أهل العلم، فقالوا: كيف يبكي رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم وهو أرضى الخلق عن الله، ويبلغ الرضى بهذا العارف إلى أن يضحك؟ فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هدي نبينا ﷺ كان أكمل من هدي هذا العارف، فإنه أعطى العبودية حقها، فاتسع قلبه للرضى عن الله، ولرحمة الولد، والرقة عليه، فحمد الله، ورضي عنه في قضائه، وبكى رحمةً ورأفة، فحملته الرأفة على البكاء، وعبوديته لله ومحبته له على الرضى والحمد، وهذا العارفُ ضاق قلبه عن اجتماع الأمرين، ولم يتسع باطنه لشهودهما والقيام بهما، فشغلته عبودية الرضى عن عبودية الرحمة والرأفة)[٤].

وقد قال الله تعالى عن الصابرين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٥٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٠٣، ومسلم ٢٣١٥.

(٣) هو الفضيل بن عياض، نصّ على ذلك ابن القيم نفسه في مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٥١٥.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٤٩٩.

﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[١]. قال العز بن عبدالسلام: (قولهم ذلك اعتراف بذل العبودية وبقهر الربوبية، لقوله "إنا لله" أي ملكه "وإنا إليه" أي إلى حكمه وتصرفه "راجعون")[٢].

قال الطاهر بن عاشور: (ووصفُ الصابرين بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ إلخ لإفادة أن صبرهم أكمل الصبر، إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى، إذ يعلمون عند المصيبة أنهم مِلْك لله تعالى يتصرف فيهم كيف يشاء، فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون، إليه فيثيبهم على ذلك، فالمراد من القول هنا القولُ المطابق للاعتقاد، إذ الكلام إنما وُضع للصدق، وإنما يكون ذلك القول معتبرًا، إذا كان تعبيرًا عما في الضمير، فليس لمن قال هاته الكلمات بدون اعتقاد لها، فضل، وإنما هو كالذي ينعق بما لا يَسْمَع[٣]، وقد علَّمهم الله هذه الكلمة الجامعة، لتكون شعارهم عند المصيبة، لأن الاعتقاد يقوى بالتصريح لأن استحضار النفس للمدرَكات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحِسّ، ولأن في تصريحهم بذلك إعلانًا لهذا الاعتقاد وتعليمًا له للناس... والتوكيد بإنّ في قولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ لأن المقام مقام اهتمام، ولأنه ينزل المصاب فيه منزلة المنكر كونه مِلْكًا لله تعالى وعبدًا له إذ تنسيه المصيبة ذلك ويحول هولها بينه وبين رشده)[٤].

جاء في الموسوعة الفقهية: (يشرع الاسترجاع عند كل ما يبتلى به الإنسان من مصائب عظمت أو صغرت... والحكمة في الاسترجاع عند المصائب: الإقرار بعبودية الله ووحدانيته، والتصديق بالمعاد والرجوع إليه والتسليم بقضائه والرجاء في ثوابه... ويذكر الفقهاء أن الاسترجاع ينطوي على أمرين: قول باللسان وهو أن يقول عند المصيبة: إنا لله

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) شجرة المعارف والأحوال ٢٣٩.

(٣) نعق الراعي بغنمه: صاح بها قال تعالى: ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ [البقرة: ١٧١]. يمثل رسول الله ﷺ مع الكفار، كمثل الراعي مع غنمه، فإن الغنم تسمع صوته، ولا تفهم ما يقول، فكذلك الكفار. الترجمان والدليل لآيات التنزيل، المختار أحمد محمود الشنقيطي ٢/٨١٣ - ٨١٤.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ١/٢/٥٧.

وإنا إليه راجعون. وهذا مستحب [والأمر الآخر] عمل بالقلب وهو الاستسلام والصبر والتوكل وما يتبع ذلك، وهذا واجب)[١].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

وهذا واضح من إخبار النبي ﷺ أن الله أمر ملائكته بأن يبنوا لعبده الذي حمده واسترجع - أمرهم أن يبنوا له بيتًا في الجنة اسمه الحمد.

قال الطيبي: (قوله: "قبضتم ولد عبدي" مرجع السؤال إلى تنبيه الملائكة على ما أراد الله سبحانه وتعالى من التفضل على عبده الحامد، لأجل تصبره على المصائب أو عدم تشكيه، بل إعداده إياها من جملة النعماء التي تستوجب الشكر عليها ثم استرجاعه، وأن نفسه ملك الله وإليه المصير في العاقبة، قال: أولاً: "ولد عبدي" أي فرع شجرته ثم ترقي إلى "ثمرة فؤاده"، أي نقاوة خلاصته، فإن خلاصة الإنسان الفؤاد، والفؤاد إنما يعتد به، لما هو مكان اللطيفة التي خلق لها، وبها شرفه وكرامته، فحقيق لمن فقد مثل النعمة الخطيرة، ويلقاها بمثل ذلك الحمد، أن يكون محمودًا، حتى المكان الذي يسكن فيه، فلذلك سمي بيت الحمد)[٢].

ومن هذا القبيل - قبيل الجزاء من جنس العمل - قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾[٣].

قال ابن كثير: (يقول تعالى مؤدبًا عباده المؤمنين، وآمرًا لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: ((مَنْ بَنَى لله مَسْجِدًا بَنَى الله لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ))[٤] وفي الحديث الآخر: ((وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣/٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣/٤٠١، وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١/١٠٨٦.

(٣) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٤) أخرجه البخاري ٤٥٠، ومسلم ٥٣٣.

اللّٰهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللّٰهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَاللّٰهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[1] ولهذا أشباه كثيرة)[2].

قال ابن القيم: (على العبد أن يعامل بني جنسه، في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا عفى الله عنه، ومن سامح أخاه في إساءته إليه سامحه الله في سيئاته، ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى عليه، ولا تنس حال الذي قبضت الملائكة روحه فقيل له هل عملت خيرًا؟ هل عملت حسنة؟ قال: ما أعلمه. قيل: تذكر. قال: كنت أبايع الناس فكنت أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، أو قال كنت آمر فتياني أن يتجاوزوا في السكة، فقال الله نحن أحق بذلك منك وتجاوز الله عنه[3]، فالله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم، فإذا عرف العبد ذلك، كان في ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد، ما هو أنفع الأشياء له.

فإذا عرف هذا، فأحسن إلى من أساء إليه، ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها، تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى، وأنه سبحانه يقابل إساءته وذنوبه بإحسانه، كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه، والله أوسع فضلاً وأكرم وأجزل عطاء، فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان، فيقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان، ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان، لم تعظم عنده إساءة الناس إليه، فليتأمل هو حاله مع الله كيف هي مع فرط إحسانه إليه، وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له، فإذا كان العبد هكذا لربه، فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة؟ ومنها أنه يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم ويتفرج بطانه[4] ويزول عنه ذلك الحصر والضيق

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥/٨.

(٣) أخرجه البخاري ٢٠٧٧، ٢٣٩١، ٢٤٥١، ومسلم ١٥٦٠.

(٤) هكذا في المطبوع، والبطان: حزام يشد على البطن. ويقال: فلان عريض البطان، رخي البال. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ط ن).

والانحراف وأكل بعضه بعضًا، ويستريح العصاة من دعائه عليهم، وقنوطه منهم، وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلّط عليهم البلاء، فإنه حينئذ يرى نفسه واحدًا منهم، فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه، وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه، فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه، ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم)[1].

كما قال ابن القيم عن الجزاء من جنس العمل: (فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه، كله قائم بهذا الأصل. وهو إلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل)[2].

رابعًا - من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عن كرم الله وفضله على عبده إذا حمد الله واسترجع وقال إنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك عند فقد ولده - أخبر ﷺ بما أعده الله له في الجنة من الثواب العظيم، وهذا الإخبار دعوة للمدعوين أن يلتزموا هذا الأدب عند فقد الأولاد حتى ينالوا ما أعدهم الله لهم، بسبب صبرهم ورضاهم بقضاء الله وقدره.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٢٩١/١ - ٢٩٢.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ١٩٦/١.

الحديث رقم (٩٢٤)

٩٢٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((**يقولُ اللهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي المُؤمِن عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ اهْل الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إلاَّ الجَنَّةَ**)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

صفِيّه: الذي يُصافيه الوُدَّ ويُخلصه له، فعيل بمعنى فاعل أو مفعول[2].

احتسبه: بادر إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصَّبر[3].

الشرح الأدبي

قول الراوي: (أنَّ رسول الله ﷺ) قال انتقال من مستوي كلام البشر العادي إلى مستوى الكلام النبوي، وهي نقلة كبيرة في جانب المعنى، والأسلوب، وقول الرسول ﷺ قال الله- تعالى - انتقال من مستوى الإخبار البشرى، إلى مستوى الإخبار الإلهي، وهي نقلة عظمى في المعنى دون الأسلوب؛ لأنه حديث قدسي معناه لله، ولفظه للنبي ﷺ، ونقل الكلام عن الله له قدسية تستلزم مزيد التشويق، والإنصات، والجلال، والمعنى في هذا الحديث قائم على أسلوب القصر حيث حصر جزاء المؤمن الذي صبر على موت حبيبه على دخول الجنة، والحصر يقتضي توكيد المعنى، وأنه حاصل لا محالة، وقول الله (مَا لِعَبْدِي المُؤمِن عِنْدِي) إضافة العبد للضمير العائد على الله تشريف لهذا العبد، ووصف الله له بالمؤمن مدح يشير إلى توافر الصفة الداعية إلى الصبر، وقوله عندي

---

(١) برقم ٦٤٢٤، وتقدم برقم ٣٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ف و)

(٣) المرجع السابق في (ح س ب).

يوحي بخصوصية الجزاء، والتعبير بالقبض يشير إلى قوة الأخذ، وعبارة (قبضت صفية) كناية عن موت الأحباء، والتعبير بالصفي يشير إلى خصوصية في المحبة وهي المحبة التي لا تشوبها شائبة، كما يشمل كل محبوب على هذه الصفة من ولد، أو والد، أو زوج، أو أخ أو صاحب أو غيره، وقوله: (ثم احتسبه) تكميل بلاغي أفاد نكتة، وهي الإخلاص لله في الصبر على المصيبة.

المضامين الدعوية [1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٢).

الحديث رقم (٩٢٥)

٩٢٥- وعن أسَامَة بن زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: أرْسَلَتْ إحْدى بَنَاتِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَيْهِ تَدْعُوهُ وَتُخْبِرُهُ أنَّ صَبِيًّا لَهَا – أَوْ ابْنًا – فِي المَوْتِ فقَالَ للرسول: ((**ارْجِعْ إلَيْهَا، فَأخْبِرْهَا أنَّ للهِ تَعَالَى مَا أخَذَ وَلَهُ مَا أعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسَمّى، فَمُرْهَا، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**))... وذكر تمام الحديث. متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

الأجل: غاية الوقت المحدد للموت[٢].

مُسمَّى: معلوم ومُعيَّن[٣].

ولتحتسب: ولتبادر إلى طلب الأجر بالتسليم والصبر[٤].

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يحكي قصة وفاة صبي لإحدى بنات النبي صلى الله على أبيهم، ورضي عنهم جميعاً آل البيت، وقوله (أرْسَلَتْ إحْدى بَنَاتِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يشير إلى أدبهن في عدم الخروج، ولزوم بيوتهن حتى في الشدة وقوله (في الموت) يوحي بعظم الشدة التي دعتها إلى إخباره، وقوله (ارجع إليها فأخبرها) يشير إلى أنه أراد أن تصبر على أمر الله، وقوله (أخذ، وأعطى) طباق يقرر معنى ملك الله تعالى لما في يد الإنسان، وما ليس في يده فكله لله، وقوله (وكل شيء عنده بأجل مسمى) تكميل بلاغي أضاف أن

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم واللفظ له ٩٢٣/١١، وتقدم برقم ٢٩.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ج ل).

(٣) المرجع السابق في (س م و)

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح س ب).

تمليك الله للإنسان النعمة مقدر بقدر، وزمن، فإذا شاء استرد، وقوله (فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ) أر نصح، وإرشاد.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢٩).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الصبر:

حرص النبي ﷺ أن يربي أصحابه رضي الله عنهم على الصبر خاصة عند الأزمات، وعندما يصاب ويبتلى المؤمن بما يجعله يجزع بحاجة إلى الصبر وإلى التسلية التي تهون عليه ما أَلَمَّ به وتكسر حدته، ولذا فإن النبي ﷺ بيّن في عدد من أحاديث الباب فضل الصبر واحتساب الأجر عند الله، وأن من وَطَّن نفسه عوّضه الله خيراً ففي حديث أبي موسى الأشعري بيان لما أعده الله من جزاء لمن صبر على مصيبة ابتلى بها خاصة إذا اشتد وقعها وزاد ألمها كأن يفقد الإنسان ولده، فعنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ...، فَيَقُولُ اللّهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ». وذلك جزاء ما صبر على مصيبته بل وزيادة الحمد، والشكر لله تعالى، وعدم القنوط من رحمة الله عز وجل.

كما وردت التربية على الصبر في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «أرسلت إحدى بناتِ النبي ﷺ إليه تدعوه وتخبرُه أنَّ صبياً لها -أوِ ابناً- في الموت، فقال للرَّسولِ: «ارْجِعْ إِلَيْها...، فَمُرْها فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ».

"إن الصبر -المستند إلى الإيمان والمجاهدة- أحد الأسس التربوية المهمة في مواجهة مشكلات الفرد والمجتمع المسلم وتجاوزها.

لذا فإن الصبر يُعدُّ من الأمور التي لا يستغنى عنها إنسان في هذه الحياة، لأن الحياة لا تخلو من المنغصات التي تعكر صفوها، ولا من العقبات التي تعترض مسيرة الإنسان، فضلاً عن الابتلاءات التي لا يسلم منها أحد، مما يستلزم الصبر والتحلي به، وتربية النفس على الصبر والمصابرة ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويقتضي الصبر التسليم الكامل لله تعالى، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[1].

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٢.

وللصبر جوانبه الوقائية وجوانبه العلاجية، فهو يقي النفس من عديد من المزالق التي يصعب علاجها فإن وقعت فالصبر عليها، والتأني في علاجها أفضل وسيلة لمواجهتها، كما أن الصبر سمة من سمات القوة، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(٢)، وقال عز وجل: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾(٣)(٤).

ثانياً- التربية على الإيمان بقضاء الله وقدره والرضا به:

إن من أهداف التربية الإسلامية الرئيسة التربية على الإيمان بقضاء الله وقدره والرضا به، والتربية على ذلك لها أكبر الأثر في علاج كثير من الأمراض النفسية.

إن الإنسان المسلم إذا ما تربى على الإيمان بالقضاء والقدر سعد في دنياه وأخراه وتمتع بعيشه في هذه الدنيا مهما أصابه في السراء والضراء(٥).

وقد جاءت أحاديث الباب داعية إلى تقوية الإيمان بالقضاء والرضا بقدر الله تعالى فلا ينبغي لإنسان أن يجزع لمصيبة حلت به أو مكروه ألمّ به، وإنما يَرُدُّ ذلك كله لله تعالى ويرضى به بلسان حاله ومقاله، فإن الله مالك الملك، ولسان حال المؤمن ومقاله دائماً «إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ومن أصرح أحاديث الباب في ذلك حديث أسامة بن زيد الذي نقل لنا وصية رسول الله ﷺ لابنته، وقد مات لها صبي: «ارْجِعْ إِلَيْهَا. فَأَخْبِرْهَا: إِنَّ للّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمى ...».

"إن الإنسان عرضة دائماً لأن تصيبه النوائب والأحداث لأنها من سنن الله في خلقه، ومن شأن المصائب أن تهز النفوس، وما من إنسان إلا ويتأثر بما يصيبه.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٦.

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٥) انظر: التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد ص ٦٢٩.

لقد تأثر رسول الله ﷺ لفقد ولده إبراهيم ولكنه قال: «إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا، وإنّا بِفِرَاقِكَ يا إبْراهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[١].

فأما الوهن الذي يفتت العزيمة ويقعد بالإنسان عن معاودة النشاط والانطلاق في الحياة، فهو الأمر غير المرغوب، وهو الذي يتعرض له الإنسان حين لا يؤمن بالقدر ولا يسلم له، لذلك يقول الله سبحانه، وهو يربي المسلمين ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢]، وبذلك يسترد الإنسان عزيمته، ويمضي في طريقه مطمئناً لقدر الله، يستمد منه مزيداً من العزم ويرجو من الله التخفيف[٣].

ثالثاً- التربية بالتلقين:

تعد التربية بالتلقين ذات تأثير فاعل في اللحظات الحرجة وفي المحن والشدائد، وقد استعمل النبي ﷺ هذا النمط التربوي في المواقف المناسبة، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها في قوله ﷺ موصياً إليها عندما مات زوجها أبو سلمة «قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ. وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبَىٰ حَسَنَةً»، وفي الرواية الثانية: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إنَّا لِلّهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ ...».

إن التلقين من الأساليب التربوية المهمة التي لها أكبر الأثر في العملية التعليمية والتربوية مع الكبار والناشئة والأطفال إذ أن المتربين في المراحل العمرية الأولى يسهل تلقينهم المعلومات الأساسية بحيث يحفظونها لما لقنوها، وإذا لقن المتربي المعلومات بطريقة جيدة فإنها تنطبع في ذهنه ولا يكاد ينساها بمرور الزمن، وخاصة عند مراجعتها بين الحين والآخر[٤].

---

(١) اخرجه البخاري، ١٣٠٣.

(٢) سورة التغابن، آية: ١١.

(٣) انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب ص ٣٢٨.

(٤) انظر: نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ، محمد بن شاكر الشريف ص ٣٤.

رابعاً- من أهداف التربية: التربية على المواساة:

إن من الأهداف الأصيلة للتربية الإسلامية الترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع الإسلامي، ومن دعائم هذا الترابط رعاية الآداب الاجتماعية وغرسها في نفوس المتربين والناشئة، ومن هذه الآداب الاجتماعية التي يجب على المربين أن يُعنوا بها ويهتموا لها أدب التعزية لمن لهم ميت أو فقدوا عزيزاً غالياً، ... ومعنى التعزية تصبير أهل الميت بكلمات لطيفة، أو بعبارات مأثورة، تسلي المصاب وتخفف حزنه وتهون عليه المصيبة وإظهار التأسي لمن يواسيهم ويعزيهم[1]، وقد ورد في أحد أحاديث الباب الإرشاد والتوجيه العملي للتعزية، وذلك كما جاء في عزاء النبي ﷺ لإحدى بناته، وقد نزل بصبي لها الموت، فقال ﷺ لرسول قد بعثته إليه: «ارْجِعْ إِلَيْهَا. فَأَخْبِرْهَا: إِنَّ للّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمى. فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، وبالجملة فإن الإنسان إذا واسى أناساً لنزول مرض أو موت بأحدهم فلا يقول إلا خيراً، وهكذا ربى النبي ﷺ المسلمين، كما جاء في الحديث الأول في الباب من حديث أبي سلمة «إذا حضرتم المريض، أو الميت فقولوا خيراً...».

إن التربية على رعاية الآداب الاجتماعية من عزاء ونحوه أحد الأساليب التربوية لتحقيق الأهداف الاجتماعية التي ترنو إليها التربية الإسلامية، إذ أن "التربية الإسلامية تتجه إلى تقوية التعاضد والتماسك والتضامن والوحدة في نفوس الناشئين من أجل تحقيق اتجاه العمل الجماعي والشعور بالمسؤولية عن الجماعة، وذلك عن طريق إبراز أهمية العمل المنظم والهادف إلى رص الصف وتنسيق الجهود الفردية لخدمة الأهداف العليا في المجتمع الإسلامي، وعنوان ذلك كله ربط الناشئ بالمسجد وصلوات الجماعة وتقوية الروابط الأسرية وتنمية التحابب والمودة في النفوس وتشجيع اتجاه التزاور والقيام بالواجب الاجتماعي في المناسبات المختلفة وعدم التهاون فيها وتعزيز اتجاه حب التعرف على الآخرين والوقوف على أحوالهم بهدف مشاركتهم، أفراحهم وأحزانهم والوقوف معهم ما أمكن"[2].

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/ ٤٦٧.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. أمين ابو لاوي ص ٦١، ٦٢.

خامسًا- من الأساليب التربوية:

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، يجدر بالمعلم أن يستفيد منها، من ذلك:

أ- التربية بالمواقف والأحداث: كما في قول أم سلمة رضي الله عنها لما مات أبو سلمة رضي الله عنه أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إن أبا سلمة قد مات قال: قولي: اللهم اغفر لي وله وأعقبني عقبة حسنة. فقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة رضي الله عنها ما تقوله بعد وفاة زوجها، فكان في هذا إرشاد للمربين والمعلم أن يستثمروا المواقف المختلفة لغرس الأهداف التربوية فيهم وتعليمهم المهارات والمعارف المطلوبة.

ب- الترغيب: كما في حديث: "ما من عبد تصيبه مصيبةٌ فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيرًا منها".

ويستخدم المعلم الترغيب لتشجيعهم على فعل الخيرات والمسارعة إليها.

ج- القصة: كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: "أرسلت إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم تدعوه وتخبره ..." الحديث. والمعلم يمكن أن يستخدم القصة تمهيدًا للدرس وتأكيدًا للأهداف التربوية، والقصة من الأساليب التربوية التي تجذب المتعلمين وتدفعهم إلى الانتباه نظرًا لما فيها من تشويق وحَكي.



١٥٣- باب جواز البكاء عَلَى الميت بغير ندب وَلاَ نياحة

أمَّا النِّيَاحَةُ فَحَرَامٌ وَسَيَأتِي فِيهَا بَابٌ فِي كِتَابِ النَّهْيِ، إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَأمَّا البُكَاءُ فَجَاءتْ أحَادِيثُ بالنَّهْيِ عَنْهُ، وَأنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أهْلِهِ، وَهِيَ مُتَأَوَّلَةٌ ومَحْمُولَةٌ عَلَى مَنْ أوْصَى بِهِ، وَالنَّهْيُ إنَّمَا هُوَ عَن البُكَاءِ الَّذِي فِيهِ نَدْبٌ، أَوْ نِيَاحَةٌ، والدَّليلُ عَلَى جَوَازِ البُكَاءِ بِغَيْرِ نَدْبٍ وَلاَ نِيَاحَةٍ أحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

الحديث رقم (٩٢٦)

٩٢٦- عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله ﷺ عاد سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَمَعَهُ عَبدُ الرَّحْمانِ بْنُ عَوفٍ، وَسَعدُ بْنُ أَبي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم،[1] فَبَكَى رسولُ الله ﷺ، فَلَمَّا رَأى القَوْمُ بُكَاءَ رسولِ الله ﷺ بَكَوْا، فَقَالَ: ((**ألاَ تَسْمَعُونَ؟ إنَّ الله لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَينِ، وَلاَ بِحُزنِ القَلبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهذَا، أَوْ يَرْحَمُ**)) وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ[2].
متفقٌ عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

لابد أن بكاء النبي ﷺ أدهش الصحابة؛ لأنه نهي عن النياحة على الميت، فتعلقت به أبصارهم، وأصغت له أسماعهم حتى بكوا ببكائه، وهو ما يعد تمهيداً لاستقبال المعنى ثم إنه بنى عليها المعنى الذي يريد تقريره وهو (أن الله لا يعذب ببكاء العين إذا كان شفقة دون اعتراض، أو مخالفة، أو كان قبل موت الميت ولذلك سأل الرسول ﷺ قبل أن يبكي (هل قضى؟) فلما اخبر أنه ما زال حياً بكاه، وقد افتتح على إثرها

---

(١) عندهما زيادة: (فلما دخل عليه ،وجده في غشية ، فقال: (اقد قضى) قالوا: لا ، يا رسول الله).

(٢) هذه الزيادة عندهما بعد قوله: (يعذب بهذا).

(٣) أخرجه البخاري ١٣٠٤ ، ومسلم ٩٢٤/١٢ واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم ١٦٦٥.

الكلام بقوله: (ألا تسمعون؟) بمعنى اسمعوا فهو استفهام تحضيض على السماع، وتنبيه لما سيقال وفيه إشارة إلي أنه فهم من بعضهم الإنكار، فبين لهم الفرق بين الحالتين[1] ولذلك جاءت عبارته (إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا) مؤكدة بأكثر من مؤكد منها (إن) مع اسمية الجملة ثم القصر بطريق العطف بـ (ولكن) وإن كان هناك خلاف في إفادتها للقصر إذ دخلت عليها واو العطف، وعلى رأي من قال بإفادتها القصر فإن المعنى قلب اعتقاد المخاطبين الذين يظنون أن الله يعذب بدمع العين وإثبات أن الله يعذب بقول اللسان إذا قال سوءاً، وهذا على رأي من يرى أن (لكن) تستعمل لقصر القلب خاصة، قال العلامة الدسوقي: (أما لكن فتستعمل للإثبات بعد النفي لقصر القلب فقط عند البيانيين، أو لقصر الإفراد فقط عند النحاة) ثم جاءت إشارته ﷺ (بيده إلي لسانه) ليقرر المعنى بحاسة البصر مع السمع ويؤكدها أتم تأكيد ثم بني عليها السياق البلاغي بعدها فجاء اسم الإشارة (هذا) متصلا بالباء أي بسبب هذا والإشارة تميِّز المشار إليه أكمل تمييز ويحفها الطباق بين (يعذب ويرحم) ليؤكد المعنى ويقرره، وكثرة المؤكدات دعت إليها دلالة البكاء أولا حيث تعجَب الصحابة من بكاء الرسول ﷺ وقد نهاهم عنه فأراد ﷺ أن يقرر أمرين: أن الله لا يعذب بدمع العين، ولكن بالسخط على قضاء الله، وبقول اللسان ذلك، وأن الميت يعذب ببكاء أهله لا غيرهم، وأنه يعذب بالبكاء بعد خروج الروح وليس قبله[2].

فقه الحديث

جواز البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة:

قال النووي في الأذكار: (أجمعت الأمة على تحريم النياحة، والدعاء بدعوى

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٥٣/٣، كتاب: الجنائز، باب: البكاء عند المريض، حديث ١٣٠٤.

(٢) ينظر الحال الدالة في الحديث النبوي / بحث منشور في كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر بأسيوط د / ناصر راضي الزهري / العدد/ ٢٦ جـ ١ ص ٦٦٩.

الجاهلية، والدعاء بالويل والثبور عند المصيبة، واعلم أن النياحة رفع الصوت بالندب، والندب: تعديد النادبة بصوتها محاسن الميت، وقيل: هو البكاء عليه مع تعديد محاسنه... وأما البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة فليس بحرام)[(١)].

وقال النووي في المجموع: (واختلف العلماء في أحاديث تعذيب الميت بالبكاء[(٢)] فتأولها المزني وأصحابنا وجمهور العلماء على من وصّى أن يبكي عليه، وينـاح بعد موته فنفذت وصيته، فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم، لأنه بسببه ومنسوب إليه، قالوا: فأما من بكى عليه أهله وناحوا من غير وصية منه، فلا يعذب ببكائهم ونوحهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٣)])[(٤)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: عيادة المريض.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الفرق بين الأحوال التي يظن المدعوون أنها واحدة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الاستفهام والتوكيد والاستدراك.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عيادة المريض:

هذا واضح من قول ابن عمر رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ عاد سعد بن عبادة ومعه عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم.

قال النووي: (فيه استحباب عيادة المريض، وعيادة الفاضل المفضول، وعيادة الإمام

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٧٢-١٧٣ .

(٢) أخرجه البخاري ١٢٩٢، ومسلم ٩٢٧.

(٣) سورة الزمر، آية: ٧.

(٤) المجموع شرح المهذب ٢٠١/٥ ، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٠٢/٦/٣-٢٠٤، ، وفتح الباري، ابن حجر ١٥٢/٣-١٦٠، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٨٧/٣-٤٩٥.

والقاضي والعالم أتباعه)[١].

وقد أخرج الإمام مسلم هذا الحديث برواية ثانية، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ. إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَدْبَرَ الأَنْصَارِيُّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: ((يَا أَخَا الأَنْصَارِ كَيْفَ أَخِي سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟)) فَقَالَ: صَالِحٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: ((مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟)) فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ[٢]. قال ابن هبيرة: (فيه الحث على عيادة المرضى، وإنما قال النبي ﷺ "من يعوده منكم؟ لئلا يتبعوه بغير نية سوى اتباعه فيفوتهم أجر عيادة المريض، وإنما أعلمهم لينووا العيادة)[٣].

وقال القرطبي: (فيه حض على عيادة المرضى، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة تدل على ندبيتها وكثرة ثواب فاعلها وهي مندوبة، وقد تجب إذا خيف على المريض ضيعة، فإن التمريض واجب على الكفاية، فمن قام به سقط عن غيره)[٤].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((حَقُّ المسلمِ على المسلمِ خَمسٌ: ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطِسِ))[٥].

وقال ﷺ أيضًا: ((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ))[٦]. وفي رواية: ((قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ جَنَاهَا))[٧].

قال النووي: (أي يؤول به ذلك إلى الجنة واجتناء ثمارها. واتفق العلماء على فضل عيادة المريض)[٨].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٦/٦/٣، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٧٦/٢.

(٢) أخرجه مسلم ٩٢٥.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٣/٤.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٧٨/٢.

(٥) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٦٨.

(٧) أخرجه مسلم ٤٢ - ٢٥٦٨.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٦/١٦/٨، .

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة:

هذا واضح من بكاء النبي ﷺ وقوله ﷺ لأصحابه "إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه". قال ابن هبيرة: (فيه ما يدل على جواز البكاء، وفيه أن البكاء يهيج البكاء، وفيه أن الإنسان لا يطالب بدمع العين ولا بحزن قلبه، لأنهما لا يملكان)[١].

قال ابن عثيمين: (البكاء على الميت تارةً يكون بمقتضى الطبيعة، يعني يأتي للإنسان دون أن يتقصده فهذا لا حرج فيه، ولا إثم فيه، بل هو من أخلاق النبي ﷺ كما في هذا الحديث، وهو دليل على رحمة الإنسان ورقة قلبه، وتارة يكون بتكلف ومعه ندب أو نياحة، فهذا هو الذي يأثم به الإنسان، فالندب هو أن يقوم بتعداد محاسن الميت إذا بكى، يبكي ويقول: هذا فلان الذي يأتي لنا بكذا وكذا ويدفع عنا... وما أشبه ذلك. أو يقول: واأبتاه، وأما النياحة فهي البكاء برنة كنوح الحمام[٢] فهذا هو المحرم. وقد لعن النبي ﷺ النائحة والمستمعة[٣].

أما البكاء الذي يأتي طبيعيًا دون أن يتقصده الإنسان، ولكنه حزن ورحمة، فلا بأس به. كما في هذا الحديث، وقوله ﷺ: "إن الله تعالى لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب" لا يعذب الباكي والحزين ولا يعذب الميت، "وإنما يعذب بهذا أو يرحم" وأشار إلى لسانه، يعني: أن يقول الإنسان قولاً محرمًا فهذا الذي يعذب به الإنسان، فدل ذلك على جواز البكاء على الميت بشرط ألا يكون فيه ندب أو نياحة، وإنما تأتي به الطبيعة والجبلة، فهذا لا بأس به، وهو من خلق النبي ﷺ)[٤].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٨٣/٤.

(٢) وجاء في معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي، النياحة: البكاء بجزع وعويل. الصراخ والعويل في البكاء. اجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات. معجم للغة الفقهاء، د. محمد رواس قلعه جه ص ٤٦١.

(٣) أخرجه أبو داود ٣١٢٨، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ٦٨٦).

(٤) شرح رياض الصالحين ١١٩٢/٢.

ثالثًا- من مهام الداعية: بيان الفرق بين الأحوال التي يظن المدعوون أنها واحدة:

هذا واضح من قول النبي ﷺ لصحابته الكرام رضوان الله عليهم لما رأوه يبكي: "ألا تسمعون؟" قال ابن حجر: (لا يحتاج إلى مفعول، لأنه جعل كالفعل اللازم. أي: ألا توجدون السماع. وفيه إشارة إلى أنه فهم من بعضهم الإنكار، فبين لهم الفرق بين الحالتين)[١].

وهذا ما وقع من النبي ﷺ أيضًا عندما بكى ﷺ على ابن لإحدى بناته، وفيه ((قَالَ أسامة بن زيد رضي الله عنهما فَقَامَ النَّبِيُّ. وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ. وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ [أي أسامة بن زيد راوي الحديث]. فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ[٢]. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هذَا؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «هذِهِ رَحْمَةٌ. جَعَلَهَا اللّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ. وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»))[٣].

قال النووي: (إن سعدًا ظن أن جميع أنواع البكاء حرام، وأن دمع العين حرام، وظن أن النبي ﷺ نسي فذكره، فأعلمه النبي ﷺ أن مجرد البكاء ودمع العين ليس بحرام ولامكروه، بل هو رحمة وفضيلة، وإنما المحرم النوح والندب والبكاء المقرون بهما أو بأحدهما)[٤].

وقال القرافي عن الفرق بين قاعدة المداهنة المحرمة، وقاعدة المداهنة التي لا تحرم وقد تجب: (اعلم أنَّ معنى المداهنة معاملة الناس بما يحبون من القول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٥] أي: هم يودون لو أثنيت على أحوالهم وعباداتهم، ويقولون لك مثل ذلك، فهذه مداهنة حرام، وكذلك كل من يشكر ظالمًا على ظلمه،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٣.

(٢) قال النووي: الشَّنَّة: القربة البالية، ومعناه: لها صوت وحشرجة كصوت الماء إذا ألقي في القربة البالية. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧ / ٢٣٥/٦، .

(٣) أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم ٩٢٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٥/٦/٣.

(٥) سورة القلم، آية: ٩.

أو مبتدعًا على بدعته، أو مبطلاً على إبطاله وباطله، فهي مداهنة حرام، لأن ذلك وسيلةٌ لتكثير ذلك الظلم والباطل من أهله.

ورُوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه كان يقول: إنا لنكشر في وجه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم[1]، يريد الظلمة والفسقة الذين يتقى شرهم، ويُتبسّم في وجوههم، ويُشكرون بالكلمات الحقة، فإن ما من أحد إلا وفيه صفة تشكر، ولو كان من أنحس الناس، فيقال له ذلك استكفاء لشره، فهذا قد يكون مباحًا، وقد يكون واجبًا إن كان يتوصل به القائل لدفع ظلم محرم أو محرمات لا تندفع إلا بذلك القول، ويكون الحال يقتضي ذلك، وقد يكون مندوبًا إن كان وسيلة لمندوب أو مندوبات، وقد يكون مكروهًا إن كان عن ضعف، لا ضرورة تتقاضاه بل خور في الطبع، أو يكون وسيلة للوقوع في مكروه، فانقسمت المداهنة على هذه الأحكام الخمسة الشرعية، وظهر حينئذ الفرق بين المداهنة المحرمة، وغير المحرمة، وقد شاع بين الناس أن المداهنة كلها محرمة، وليس كذلك بل الأمر كما تقدم تقريره)[2].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الاستفهام والتوكيد والاستدراك:

أما الاستفهام فقوله ﷺ "ألا تسمعون؟" وهو استفهام بمعنى الأمر. فمعناه "ألا توجدون السماع. كما قال ابن حجر[3]، وقال ابن عثيمين: (يعني اسمعوا)[4].

وأما التوكيد فقوله ﷺ "إن الله لا يعذب بدمع العين..." وذلك ليؤكد للمدعوين أن البكاء على هذه الصفة جائز، أما الاستدراك فقوله ﷺ: "ولكن يعذب بهذا أو

---

(١) قال محقق الفروق: هذا مرويٌّ من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه، ذكره البخاري تعليقًا في كتاب الأدب من "الجامع الصحيح" قبل الحديث ٦١٣١ ووصله الحافظ ابن حجر من غيرِ ما طريق في "تغليق التعليق" ١٠٢/٥ - ١٠٤ ولا تخلو أسانيده من مقال.

والكشر: ظهور الأسنان للضحك. وكاشره: إذا ضحك في وجهه وباسطه. أفاده ابن الأثير في "النهاية في غريب الحديث في (ك ش ر)

(٢) الفروق ٣٤٨/٤ - ٣٤٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٣.

(٤) شرح رياض الصالحين ١١٩٢/٢.

يرحم" وأشار إلى لسانه. وذلك ليخرج ما يقوله اللسان عند فقد الميت عن حكم الجواز ويعطيه حكمًا آخر وهو الحرمة، إذا كان ندبًا أو نياحة ونحوهما، مما يشعر بالتسخط وعدم الرضا بما قضاه الله عز وجل.

الحديث رقم (٩٢٧)

٩٢٧- وعن أُسَامَة بن زَيدٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ رُفِعَ إِلَيْهِ ابنُ ابْنَتِهِ وَهُوَ فِي المَوتِ، فَفَاضَتْ عَيْنَا رسولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ لَهُ سَعدٌ: مَا هَذَا يَا رسولَ اللهِ؟! قَالَ: ((هذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

فاضت: سال دمعُها[2].

الشرح الأدبي

قوله (ففاضت عينا) كناية عن بكائه الذي يدل على حزنه، والتعبير بالفيضان يوحي بعظم رحمته، ورقة قلبه، وقول سعد بن معاذ رضي الله عنه (ما هذا يا رسول الله؟) استفهام تعجب يعكس حيرته بما علمه من نهيه عن البكاء من ناحية، وما يراه من حاله، وفيض دموعه، وقول الرسول ﷺ (هذه رحمة تعالى في قلوب عباده) الإشارة إلى الدموع أو سببها وهي الشفقة، والرحمة التي سببت دموعه، وقوله (في قلوب) يشير إلى أنها منحة من الله لا تكتسب بفعل العبد، وقوله (وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ) أسلوب قصر يحصر رحمة الله لعباده في الرحماء وينفيها ضمناً عن من سواهم على سبيل أي لا يرحمهم رحمة كاملة بتقريبهم في الدنيا، والمن عليهم بالجنة في الآخرة، وبين يرحم، والرحماء جناس يفيض على السياق بالمعنى الحبيب، ونسبة الرحمة لله تعطيها بعداً إيحائياً يمتد من الدنيا إلى الآخرة، وهو وجه من وجوه مخالفتها لمفهوم الرحمة البشري.

المضامين الدعوية[3]

(١) أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم ٩٢٣/١١ ولفظهما سواء.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ي ض).

(٣) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢٩).

الحديث رقم (٩٢٨)

٩٢٨- وعن أنسٍ ﵁ : أنَّ رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلَى ابْنِهِ إبْرَاهيمَ ﵁ ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسولِ الله ﷺ تَذْرِفَان. فَقَالَ لَهُ عبدُ الرحمانِ بن عَوف: وأنت يَا رسولَ الله!؟ فَقَالَ: ((يَا ابْنَ عَوْفٍ إنَّهَا رَحْمَةٌ)) ثُمَّ أتْبَعَهَا بأُخْرَى، فَقَالَ: ((إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ والقَلب يَحْزنُ، وَلاَ نَقُولُ إلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إبرَاهِيمُ لَمَحزُونُونَ)) رواه البخاري[١]، وروى مسلم بعضه[٢]. والأحاديث في الباب كثيرة في الصحيح مشهورة، والله أعلم.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يجود بنفسه: أي يخرجها ويدفعها كما يدفع الإنسان ماله[٣].

تذرفان: أي يجري دمعهما[٤].

الشرح الأدبي

قوله (وَهُوَ يَجُودُ بِنَفسِهِ) كناية عن سكرات الموت، وهي أقسى لحظات يمكن أن تمر بوالد فموت الطفل أمام عينيه كي القلب لولا أنه أعظم القلوب، وأكثرها رضاً بقضاء الله، وقوله (، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسولِ الله ﷺ تَذْرِفَان) كناية عن البكاء مع دلالة الفعل على كثرة الدمع مما أثار عجب الصحابة من صنيعه فجاءت استفهامة عبد الرحمن بن عوف (وأنت يَا رسولَ الله!؟) تحمل تعجبا، وحيرة، فجاء رده مؤكداً ب (إن)

---

(١) برقم ١٣٠٣، ومسلم ٢٣١٥/٦٢ الشطر الأخير منه.

(٢) برقم ٢٣١٥/٦٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢٠٧/٣.

(٤) المرجع السابق ٢٠٧/٣.

واسمية الجملة لينزع من قلبه التعجب الذي بدا من استفهامه، وقوله (إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ والقَلب يَحْزَنُ) صيغة الفعل المضارع تصور العين الدامعة، والقلب المحزون لوالد هو أرق الناس قلباً، وقد جاءه على كبر، وبعد طول شوق، وانتظار، ومع هذا قلبه في تمام الرضى، ولكنها شفقة، ورحمة فاض بها أكبر قلب.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: جواز البكاء على من كان في النزع الأخير أو من مات من غير سخط لأمر الله.

ثانيًا: من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرحمة ورقة القلب.

رابعًا: من أساليب الدعوة: مخاطبة الغير وإرادة غيره بذلك.

أولاً- من موضوعات الدعوة: جواز البكاء على من كان في النزع الأخير أو من مات من غير سخط لأمر الله:

هذا واضح من فعل النبي ﷺ فقد جرت عيناه بالدموع لما رأى ابنه إبراهيم وقد قارب من الموت، كما أنه واضح من قوله ﷺ "إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون". قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه جواز البكاء على الميت من غير نياحة)[1].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال وغيره: هذا الحديث يفسر البكاء المباح والحزن الجائز، وهو ما كان بدمع العين ورقة القلب من غير سخط لأمر الله، وهو أبين شيء وقع في هذا المعنى... وجواز الإخبار عن الحزن وإن كان الكتمان أولى)[2].

قال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ رفع إليه إبراهيم رضي الله عنه وهو يجود بنفسه، أي ينازعه الموت، وأشرف ما عند الإنسان نفسه، وهذا المحتضر كأنما يسلمها للملائكة يجود

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم احمد ٢٦٨/٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٣.

بها ، فذرفت عيناه ﷺ فقيل له: ما هذا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: "إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون..." فدل ذلك على أن الإنسان لا حرج عليه إذا بكى رحمة بالميت وحزنًا على فراقه، فإن الرسول ﷺ هنا قال: إنه محزون على فراق ابنه ... وفيه دليل على جواز إخبار الإنسان عن نفسه بأنه محزون من هذه المصيبة... وفيه دليل على أن النبي ﷺ يموت له الولد ويتألم لذلك وأنه يلحقه ما يلحق البشر)[١]. (وأما البكاء والحزن على الميت فلا بأس به ويحصل في الغالب، وهو الذي تمليه الطبيعة دون تكلف، فقد بكى النبي ﷺ على ابنه إبراهيم حين مات، وقال: ((إن العينَ تَدمعُ، والقلبَ يحزَنُ، ولا نقولُ إلاّ ما يَرضى رَبُّنا...))[٢]، لكن لا يكون ذلك على وجه التسخط والجزع والتشكي. ويحرم الندب، والنياحة، وضرب الخدود، وشق الجيوب؛ لقوله ﷺ: ((ليسَ مِناً من لَطَمَ الخُدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعا بدَعْوَى الجاهلية))[٣]، كقوله: يا ويلاه، يا ثبوراه وما أشبه ذلك، ولقوله ﷺ: ((النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا ، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَب))[٤])[٥].

ثانيًا - من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

هذا واضح من قول عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه للنبي ﷺ لما رآه يبكي حزنًا على ما أصاب ابنه إبراهيم: "وأنت يا رسول الله؟"

قال الطيبي: (فيه معنى التعجب، والواو عاطفة على مقدر: أي الناس لا يصبرون على المصائب ويتفجعون، وأنت تفعل كفعلهم؟ أي لا ينبغي لك أن تتفجع، كأنه استغرب ذلك منه، لأنه يدل على ضعف النفس والعجز عن مقاومة المصيبة بالصبر،

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١١٩٣ - ١١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٠٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٩٤، ومسلم ١٠٣.

(٤) أخرجه مسلم ٩٣٤. والجرب: مرض جلدي. انظر المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ر ب).

(٥) الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة ص ١٢٠.

ويخالف ما عهده منه من الحث على الصبر والنهي عن الجزع. وأجاب ﷺ عنه بقوله: "إنها رحمة" أي الحالة التي تشاهدها مني يا ابن عوف رقة ورحمة على المقبوض، ينبعث عن التأمل فيما هو عليه، لا ما توهمت من الجزع وقلة الصبر)[١].

وقال ابن حجر: (قوله ثم أتبعها بأخرى، قيل: أراد به أنه أتبع الدمعة الأولى بدمعة أخرى، وقيل: أتبع الكلمة المجملة وهي قوله: "إنها رحمة" بكلمة أخرى مفصلة وهي قوله "إن العين تدمع...")[٢] ثم قال ابن حجر عن هذا الحديث: (وفيه جواز الاعتراض على من خالف فعله ظاهر قوله؛ ليظهر الفرق)[٣].

وقال ابن أبي جمرة: (من الفقه التثبت في العلوم الشرعية، حتى تعلم على تحقيق ويقين، والبحث عن ذلك مع الرفيع والوضيع على حد سواء بالأدب؛ لأن ذلك هو الطريق اللائق بالعلم، وإلا فصاحبه بدعي زائغ عن العلم، وسيرة السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، جعلنا الله من المتبعين لهم بمنه)[٤].

ثالثًا - من صفات الداعية: الرحمة ورقة القلب:

هذا واضح من بكاء النبي ﷺ بسبب حال ابنه إبراهيم وإخباره عن ذلك بقوله: "إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون" قال ابن حجر: (قال ابن بطال وغيره: في هذا الحديث مشروعية تقبيل الولد وشمه، ومشروعية الرضاع، وعيادة الصغير، والحضور عند المحتضر، ورحمة العيال)[٥]. وقال ابن هبيرة: (وفيه استحباب رحمة الأطفال)[٦].

وقال النووي: (فيه جواز البكاء على المريض والحزن، وأن ذلك لا يخالف الرضا

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٩١/٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٣. وهو ملخص كلام الطيبي في شرحه على المشكاة ٣٩٢/٣.

(٣) المرجع السابق ١٧٤/٣.

(٤) بهجة النفوس شرح مختصر صحيح البخاري ٢٣٦/٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٣.

(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٦٨/٥.

بالقدر، بل هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما المذموم الندب والنياحة والويل والثبور، ونحو ذلك من القول الباطل)[١].

وعن عمرو بن سعيد عن أنس بن مالك ﷺ قال: ((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللّهِ. قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ[٢]. فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ. فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ. وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا[٣]. فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ))[٤].

قال النووي: (فيه بيان كريم خلقه ﷺ ورحمته للعيال والضعفاء، وفيه جواز الاسترضاع، وفيه فضيلة رحمة العيال والأطفال وتقبيلهم)[٥]. وقال ابن القيم: (لما مات ابن الفضيل بن عياض رؤي في الجنازة ضاحكًا، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه.

فأنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل. وقالوا: رسول الله ﷺ بكى يوم مات ابنه، وأخبر أن "القلب يحزن، والعين تدمع" وهو في أعلى مقامات الرضى، فكيف يعد هذا من مناقب الفضيل؟

والتحقيق: أن قلب رسول الله ﷺ اتسع لتكميل جميع المراتب، من الرضى عن الله، والبكاء رحمة للصبي؛ فكان له مقام الرضى، ومقام الرحمة ورقة القلب. والفضيل لم يتسع قلبه لمقام الرضى ومقام الرحمة؛ فلم يجتمع له الأمران، والناس في ذلك على أربع مراتب:

أحدها: من اجتمع له الرضى بالقضاء ورحمة الطفل؛ فدمعت عيناه رحمة والقلب راض.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٥/٧٧، .

(٢) القرى التي عند المدينة، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٥/٧٧، .

(٣) أي مرضعًا، وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة ويشاركها في تربية الرضيع غالبًا. أما القين فهو الحداد ويطلق على كل صانع، انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣/١٧٣، .

(٤) أخرجه مسلم ٢٣١٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٥/٧٨.

الثاني: من غَيَّبه الرضى عن الرحمة، فلم يتسع للأمرين؛ بل غيبه أحدهما عن الآخرة.

الثالث: من غيبته الرحمة والرقة عن الرضى فلم يشهده، بل فني عن الرضى.

الرابع: من لا رضى عنده ولا رحمة؛ وإنما يكون حزنه لفوات حظه من الميت، وهذا حال أكثر الخلق، فلا إحسان، ولارضى عن الرحمن، والله المستعان.

فالأول في أعلى مراتب الرضى، والثاني دونه، والثالث دون الثاني، والرابع هو الساخط)[1].

قال أبو العباس القرطبي: (الرحمة في حقنا: هي رقة وحنوّ يجده الإنسان في نفسه عند مشاهدة مبتلىً أو ضعيف أو صغير يحمله على الإحسان إليه واللطف به والرفق، والسعي في كشف ما به، وقد جعل الله هذه الرحمة في الحيوان كله - عاقله وغير عاقله - فبها تعطف الحيوانات على نوعها وأولادها فتحنو عليها، وتلطف بها في حال ضعفها وصغرها، وحكمة هذه الرحمة تسخير القويّ للضعيف، والكبير للصغير حتى يحفظ نوعه وتتم مصلحته، وذلك تدبير اللطيف الخبير، وهذه الرحمة جعلها الله في القلوب في هذه الدار، وتحصل عنها هذه المصلحة العظيمة، هي رحمة واحدة من مائة رحمة ادخرها الله تعالى ليوم القيامة، فيرحم بها عباده المؤمنين وقت أهوالها وشدائدها حتى يخلصهم منها ويدخلهم في جنته وكرامته... وإذا تقرر هذا، فمن خلق الله تعالى في قلبه هذه الرحمة الحاملة له على الرفق وكشف ضرّ المبتلى، فقد رحمه الله تعالى بذلك في الحال، وجعل ذلك علامته على رحمته إياه في المآل، ومن سلب الله ذلك المعنى منه وابتلاه بنقيض ذلك من القسوة والغلظة، ولم يلطف بضعيف ولا أشفق على مبتلى، فقد أشقاه في الحال، وجعل ذلك علمًا على شقوته في المآل، ولذلك قال النبي ﷺ: ((لاَ يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ إلاَّ الرُّحَمَاءَ))[2])[3].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٥١٥ - ٥١٦، وانظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٤٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٥٥، ومسلم ٩٢٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/١٠٨ - ١٠٩.

رابعًا- من أساليب الدعوة: مخاطبة الغير وإرادة غيره بذلك:

وهذا واضح من قول النبي ﷺ "وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون" قال ابن حجر: (فيه وقوع الخطاب للغير وإرادة غيره بذلك، وكل منهما مأخوذ من مخاطبة النبي ﷺ ولده، مع أنه في تلك الحالة لم يكن يفهم الخطاب لوجهين: أحدهما صغره. والثاني نزاعه. وإنما أراد بالخطاب غيره من الحاضرين، إشارة إلى أن ذلك لم يدخل في نهيه السابق)[1].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣/١٧٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- تربية المسلم على كيفية التعامل مع مواقف الابتلاء:

من أهداف التربية الإسلامية: تربية المسلم على كيفية استقبال مواقف الابتلاء والتعامل معها، فإذا ابْتُلي المسلم في بدنه أو أهله وماله فإن عليه أن يسير وفق المنهج الإسلامي الصحيح لمواجهة مثل هذه الحالة، وقد تضمنت أحاديث الباب معاني اليقين والرضا والصبر والاحتساب.

إن على المسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن هناك حياة أخرى هي خير من هذه الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَـٰخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]. ويعني اعتقاد هذا أن تلك المحنة مهما طالت فهي إلى زوال، لأن الدنيا نفسها زائلة، وهي لا تعدو أن تكون دار امتحان وابتلاء، يقول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[2].

ومن هذا المنظور للحياة يتكون لدى الشخص المُبتَلَى حوافز للرقي والسمو فوق المحنة، فيجاهد نفسه ويقول عند المصيبة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[3]، وقد جعل الله هذه الجملة ذكر الذاكر بعد نزول المصائب، لأن المصائب لا تعدو أن تكون سلباً للنعم التي سبق أن أنعم الله بها عليه، أو حرماناً من النعم التي أنعم الله بمثلها على عباده، والناس وسائر عباد الله الذين ينعم عليهم بالنعم هي أيضاً ملك لله تعالى، ومصير العباد كلهم أن يرجعوا إلى مالكهم ومصير الأشياء كلها أن تعود إلى مالكها

(١) سورة النحل، آية: ٣٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

سبحانه وتعالى، فإذا ما تذكر المؤمن هذه الحقائق يعلن عبارة الإيمان التي تدل عليها فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(١)].

كما أن المسلم يتربى على أهمية الصبر واحتساب الأجر عند الله تعالى، مما يحمل على الثبات وعدم الجزع أو مخالفة منهج الله، وإنما يفوض أمره إلى الله تعالى ويصبر ويحتسب، ففي حديث أنس بن مالك بيان لكيفية استقبال النبي ﷺ مصابه في ابنه إبراهيم، حيث قال: «إنَّ العَيْنَ تَدمَعُ، وَالقَلْبَ يَحزَنُ، وَلا نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا، وإنَّا بِفِرَاقِكَ يا إبْراهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

لذا ينبغي على المربين غرسُ خُلُقِ الصبر والاحتساب في نفوس المتربين، وذلك تأسياً برسول الله ﷺ، وليعلم كل مسلم أن جزاء الصبر هو الفوز برضوان الله تعالى والفوز بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[(٢)(٣)].

إن التربية على الصبر والثبات عند حلول المصيبة؛ تكسب شخصية المسلم سكينة وطمأنينة وأملاً في رحمة الله تعالى، وإذا ما تحقق ذلك فلن نجد في حياتنا شيئاً من ملل أو قلق أو اضطراب أو وساوس أو ما شاكلها من تلك الأمراض النفسية التي شاعت في عصرنا، والتي تعد من أكبر العوائق التي تعود بالسلب على العملية التعليمية والتربوية وتعكر على الناس صفو حياتهم.

ثانياً- من خصائص التربية الإسلامية: الواقعية:

"إن التربية الإسلامية تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما خلقه الله تعالى وبنفس الطبيعة البشرية التي تتكون من الروح والجسد.

وإن من واجبات المربين أن يراعوا واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفخة من روح الله في غلاف من الطين، ففيه العنصر

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١١.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٥/١-٣٩.

السماوي والعنصر الأرضي، ومن حيث هو ذكر أو أنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته، ومن حيث هو عضو في مجتمع لا يستطيع أن يعيش وحده ولا أن يفني تماماً في المجتمع، ولهذا تصطرع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية.

ومن هنا لم ينس الإسلام في توجيهاته الفكرية، وفي تعليماته الأخلاقية، وفي تشريعاته القانونية واقع الكون وواقع الحياة، وواقع هذا الإنسان بكل ظروفه وملابساته[١].

ومن مظاهر الواقعية في أحاديث الباب مراعاة التربية الإسلامية لعاطفة الإنسان وتأثرها بما ينزل به من مصائب وما تلم به من آلام وأحزان، وتأثره بما حوله، وحزنه ولوعته على فراق الأحبة.

فها هو رسول الله ﷺ لما فقد ابنه إبراهيم فاضت عيناه بالدموع فاسترعى ذلك انتباه من حوله، ومنهم عبدالرحمن بن عوف حيث قال له: «وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرْضَى رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

"لقد قامت التربية الإسلامية على الواقعية فهي واقعية في تنميتها للفرد، وواقعية في تنميتها للمجتمع، فلم تقل التربية الإسلامية بجملة من المبادئ التربوية الخيالية التي يصعب أو يستحيل تطبيقها وتنفيذها على أرض الواقع، وإنما قالت بما يكفل البناء الحقيقي للشخصية، وعلى الواقع"[٢].

ومن خلال ما سبق يتراءى لنا ما تتميز به التربية الإسلامية من واقعية "فهي ليست ضرباً من المثاليات، ولا من قبيل الخيال الذي يعلو على الواقع ولا يمكن تحققه وتنفيذه في ميدان الحياة، وإنما هي تعاليم وممارسات راقية تتحقق في واقع البشر بالفعل لأنها تتوافق تماماً مع هذا الواقع وتناسب طبيعة الإنسان"[٣].

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١٥٨، ١٦٨.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٢١٥.

(٣) انظر: دراسات في الثقافة الإسلامية، د. أمير عبدالعزيز ص٣٤٨، ٣٤٩.

ثالثاً- من صفات المربي: الشفقة والرحمة:

إن من أهم صفات المربي وسماته، تحليه بكريم الصفات وأحاسن الأخلاق، ومن ذلك شفقته ورحمته بمن عُهِد إليه بتربيتهم، وذلك على سبيل السواء دون تفرقة بين تلميذ وآخر، ويمكن لنا أن نستوحي هذه المعاني من أحاديث الباب من شفقته ﷺ ورحمته بمن أصابه مكروه، أو نزلت به بلية، ولم تقتصر شفقته ﷺ على ابنه الذي جاد بروحه في صباه "كما في حديث أنس بن مالك"، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ..."، بل شملت الآخرين سواء كانوا من أقربائه ﷺ لحزنه على ابن لإحدى بناته، كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت ففاضت عينا رسول الله ﷺ ...»، أم كانوا من المسلمين عامة كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وعيادة رسول الله ﷺ لسعد بن عبادة رضي الله عنه «فلما دخل عليه وجده في غشية، فقال: أقد أفضى؟ قالوا لا يا رسول الله فبكى رسول الله ﷺ...».

إن فيما سبق من أحاديث الباب، تمثيل حي وتصوير دقيق، لما ينبغي أن يكون عليه المربون والمعلمون من الرحمة والشفقة بتلاميذهم، "فبقدر حرص المربين على غرس الروح الإسلامية في الناشئة والحفاظ على الصفاء والرحمة في نفوسهم فإنهم مدعوون إلى معاملة تلاميذهم بالرحمة والشفقة التي تحقق نموهم السوي عملاً بهدي الرسول ﷺ وأسوة بسلوكه الرحيم إزاء صحابته ومجتمعه كله، وإذا كان الرفق والشفقة محببان ومطلوبان في معاملة الناس بعضهم البعض، فإن الرفق في التربية واجب أكيد لا تجوز الغفلة عنه.

إن الهدي النبوي يجعل من الرفق والشفقة زينة وجمالاً يحلي سلوك الناس، كما يجعل من العنف والشدة في غير مواضعها قبحاً يشين أعمالهم ويزيل ما فيها من رواء وبهاء، وها هو ﷺ يدعو عائشة للرفق وهو نصح للأمة كلها سيما أولئك الذين يتولّون مقاعد التربية والإرشاد"[١]، فعن المقدام بن شريح عن أبيه قال: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها عن الْبَدَاوَةِ فقالت: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَبْدُو إِلَى هذِهِ التِّلَاعِ وَإِنَّهُ أَرَادَ الْبَدَاوَةَ مَرَّةً

---

(١) انظر: التربية في السنة النبوية، أبو لبابة حسين ص ٥٧، ٥٨.

فَأرْسَلَ إلَيَّ نَاقَةً مُحَرَّمَةً مِنْ إبلِ الصَّدَقَةِ فَقَالَ يَا عَائِشَةُ ارْفُقِي فَإنَّ الرِّفْقَ لَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ قَطُّ إلاَّ زَانَهُ وَلاَ نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إلاَّ شَانَهُ»[1].

رابعًا- من الأساليب التربوية:

وردت في أحاديث الباب عدة أساليب تربوية، يستفاد منها في طرائق التدريس والتعليم، من ذلك:

أ- الممارسة العملية: ويتضح ذلك جليًا في بكاء النبي ﷺ في الأحاديث الثلاثة: أحاديث الباب: فبكى رسول الله ﷺ"، ففاضت عينا رسول الله ﷺ "فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان" وذلك لمّا رَأَى مَنْ في الموت.

ويمكن للمعلم أن يستخدم الممارسة العملية والتجربة عن طريق قيامه ببعض الأفعال التدريسية لتقريب المعاني إلى أذهان المتعلمين أو غرس القيم الإيجابية ونزع القيم السلبية من نفوسهم.

ب- التربية بالمواقف والأحداث: ويتضح ذلك في أحاديث الباب الثلاثة أيضًا، من ذلك -كما في الحديث الأول- "فبكى رسول الله ﷺ فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بَكَوْا فقال: ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا أو يرحم" وأشار إلى لسانه. والمعلم البارع من يستثمر المواقف المختلفة لغرس الأهداف التربوية في نفوس المتعلمين، وكذلك تعليمهم المهارات والمعارف المطلوبة.

ج- المناقشة والحوار: كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: "فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء". وكما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال له عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنها رحمة". وأسلوب المناقشة والحوار من شأنه أن يفعل موقف المتعلم في العملية التعليمية وأن ينقله من المتعلم السلبي إلى المتلقي الإيجابي والمشارك الفعال في موقف التعليم والتعلم.



---

(١) أخرجه أبو داود ٢٤٧٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٦٥).

١٥٤- باب الكف عن ما يرى من الميت من مكروه

الحديث رقم (٩٢٩)

٩٢٩- عن أَبي رافع أسلم مولى رسول الله ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((مَنْ غَسَّلَ مَيتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ[1] أربَعِينَ مَرَّةً)) رواه الحاكم[2]، وقال: صحيح عَلَى شرط مسلم.

ترجمة الراوي:

أبو رافع: هو أَسْلم، مولى رسول الله ﷺ، غلبت عليه كنيته، واختلف في اسمه فقيل: أَسْلم، وقيل: إبراهيم، وقيل: هُرمز.

وهو من قبط مصر، وكان للعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، فوهبه للنبي ﷺ، فلمَّا أسْلم العباس رضي الله عنه بشَّر أبو رافع النبي ﷺ بإسلام عمه العباس، فأعتقه النبي ﷺ.

وكان إسلامه قبل بدر، وكان مقيمًا بمكة، فلم يشهد بدرًا. وشهد أحدًا والخندق وما بعدها من المشاهد.

وقد زوجه النبي ﷺ سَلمى مولاته، فولدت له عُبيد الله بن أبي رافع فكان كاتبًا لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد استأذن النبي ﷺ يومًا حتى يصيب من الصدقة فمنعه النبي ﷺ وقال له ((إن الصدقة لا تحلُ لنا وإنَّ مواليَ القوم من أنفسهم))[3].

وقد روى عن النبي ﷺ، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وتُوفّي بالمدينة، قبل مقتل

---

(١) لفظ الحاكم: (غفر له).

(٢) المستدرك ٣٥٤/١. وقال الهيثمي في المجمع ٢١/٣: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٣٠ وقال: رواه الطبراني في الكبير ورواته محتج بهم في الصحيح. وقال الحافظ ابن حجر في الفتوحات الربانية ١٦٣/٤: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٣) خرجه الترمذي رقم ٥٧)، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٥٣٠).

عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[١].

غريب الألفاظ:

مولى: حليف وتابع[٢].

الشرح الأدبي

الإسلام حفظ حال المسلم حياً، وميتاً، وهذا الحديث من الأحاديث التي ترغب في حفظ حال الميت، وما يعتريه من تغير بسبب سكرات الموت، وما أخفاه في حياته، وقد جاء الترغيب بصورة الشرط، وأسلوب الشرط من الأساليب الخبرية الشائعة في الحديث النبوي لما لها من خصوصيات تجعله أنسب الأساليب للسياق، وأوفاها للمعنى لأنها تعطي الخبر حكم العموم، وبذلك يكون صالحاً لكل زمان، ومكان، مع ربطه الجزاء بالفعل، وجعل المخاطب طرفاً حرَّ الاختيار بعد توضيح العاقبة، وقوله (مَنْ غَسَّلَ مَيتاً فَكَتَمَ عَلَيْهِ، غَفَرَ اللّهُ لَهُ أربَعِينَ مَرَّة) ربط تغسيل الميت بقيد الكتم عنه، بالمغفرة اربعين مرة، وذكر العدد يؤكد المعنى.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أنه يستحب للغاسل أثناء تغسيله للميت إذا رأى ما يعجبه من استنارة وجه وطيب ريح، أن يتحدث عنه ندبًا.

وإن رأى ما يكره من سواد وجه ونتانة رائحة ونحوها، ستره وجوبًا.

إلا لمصلحة، كأن كان الميت صاحب بدعة ظاهرة، فحينئذ إن رأى ما يكره فلا

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤/٧٣-٧٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١٤٦٨-١٤٦٩، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٠، ٨٠٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٨/٣٠٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤/٥٢٠، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢/١٦-١٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٦/١٠٢-١٠٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ل ي).

يجب عليه ستره، بل يجوز التحدث به لينزجر الناس عن بدعته. أما إذا كان صاحب بدعة مستترة، فلا يتحدث بما رأى إلا أمام المطلعين على بدعته، المائلين إليها، لعلهم ينزجرون بذلك[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الستر على الميت عند تغسيله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الستر على الميت.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الحث على الستر على الميت عند تغسيله:

هذا واضحٌ من الحديث، قال ابن عثيمين: (والذي يُرَى من الميت من المكروهات نوعان: النوع الأول: ما يتعلق بحاله، النوع الثاني: ما يتعلق بجسده.

الأول: لو رأى مثلاً أن الميت تغير وجهه واسود وقبح. فهذا - والعياذ بالله - دليل على سوء خاتمته - نسأل الله العافية - فلا يحل له أن يقول للناس: إني رأيت هذا الرجل على هذه الصفة، لأن هذا كشف لعيوبه، والرجل قدم على ربه وسوف يجازيه بما يستحق من عدل أو فضل، إن كان عمل خيرًا، فالله يجزيه الحسنة بعشرة أمثالها، وإن كان غير ذلك ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[2].

الثاني: ما يتعلق بجسده كأن يرى بجسده عيبًا، كأن يرى برصًا أو سوادًا خلقيًا أو غير ذلك مما يكره الإنسان أن يطلع عليه غيره، فهذا أيضًا لا يجوز له أن يكشفه للناس، ويقول رأيت فيه كذا وكذا، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يجب على الغاسل أن يستر ما رآه إن لم يكن حسنة، أما إذا رأى خيرًا بالميت واستنارة بوجهه أو رآه يبتسم فهذا خير، وليخبر به الناس، لأنه يجعل الناس يثنون عليه خيرًا ولا بأس به، ولا يعد هذا من الرياء أو ما أشبه ذلك، فإن هذا يعد من عاجل بشرى المؤمن، لأن المؤمن قد يكون

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٤٥/٥، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٣٠٥/١.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤٠.

له مبشرات، ومن هذه مثلاً أن يُرى بعد موته على حالة حسنة، وكذلك يرى الرؤيا الحسنة لنفسه، أو يراها له غيره، كل هذه من المبشرات التي تبشر بالخير.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يكره لغير المعين في غسله أن يحضر غسله، حتى ولو كان قريبًا له، لأنه ربما يرى ما يكره فيكون في ذلك إساءة إلى الميت)[1].

جاء في الموسوعة الفقهية: (ينبغي أن يكون غاسل الميت ثقة أمينًا وعارفًا بأحكام الغسل... ولا يجوز له إذا رأى من الميت شيئًا مما يكره أن يذكره إلا لمصلحة... وإن رأى حسنًا مثل أمارات الخير من وضاءة الوجه ونحو ذلك، استحب له إظهاره، ليكثر الترحم عليه، ويحصل الحث على طريقته، والتبشير بجميل سيرته إلا إذا كان الميت مبتدعًا، ورأى الغاسل منه ما يكره، فلا بأس أن يحدث الناس به، ليكون زجرًا لهم عن البدعة)[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل الستر على الميت:

هذا واضحٌ من الحديث، فقد أخبر النبي ﷺ أنه يغفر أربعين مرّة لمن غسل ميتًا وكتم عليه. وقد قال النبي ﷺ ((مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[3].

قال الشوكاني: (فيه الترغيب في ستر عورات المسلم، وظاهره عدم الفرق بين الحي والميت، فيدخل في عمومه ستر ما يراه الغاسل ونحوه من الميت، وكراهة إفشائه والتحدث به. وأيضًا قد صح أن الغيبة هي ذكرك لأخيك بما يكره[4]، ولا فرق بين الأخ الحي والميت، ولاشك أن الميت يكره أن يُذكر بشيء من عيوبه التي تظهر حال موته، فيكون على هذا ذكرها محرمًا)[5].

وروي عن النبي ﷺ بإسناد ضعيف أنه قال: ((مَنْ غَسَلَ مَيْتًا فَأَدَّى فِيهِ الأَمَانَةَ وَلَمْ

---

(١) شرح رياض الصالحين، ٢/١١٩٤ - ١١٩٥. وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/٥٠.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "ذكرك أخاك بما يكره".

(٥) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٦٩٥.

يُفْشِ عَلَيْهِ ما يكونُ عِنْدَ ذلكَ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))[١].

قال الشوكاني: (المراد بتأدية الأمانة، إما كتم مايرى منه مما يكرهه الناس، أو يكون المراد بتأدية الأمانة أن يغسله الغسل الذي وردت به الشريعة، لأن العلم عند حامله أمانة، واستعماله في مواضعه من تأديتها)[٢].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

هذا واضح من آخر الحديث "غفر الله له أربعين مرة" ولاشك أن هذا الترغيب دفعٌ للمدعوين، أن ينشطوا لالتزام هذا الأدب الجميل والخلق الرفيع، فيسود بينهم الستر وكتمان الأشياء التي تكره، لأن ذلك طريق لأن ينالوا هذاالفضل العظيم من الله سبحانه وتعالى.

---

[١] اخرجه أحمد ١١٩/٦، ١٢٠ رقم ٢٤٨٨١، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٣٧٤/٤١.

[٢] نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من احاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٦٩٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على احترام الإنسان والحفاظ على كرامته حياً كان أو ميتاً:

إن من أسمى أهداف التربية الإسلامية: الحفاظ على كرامة الإنسان حياً كان أو ميتاً وتحقيق منتهى الكرامة الإنسانية له[1]، وقد جاء حديث الباب مرغباً في ستر الميت والحفاظ على كرامته -وذلك لعموم الناس- خاصة من باشر تغسيله، فقال ﷺ: «مَنْ غَسَّلَ مَيِّتاً فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً».

لقد أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان فحرم إيذائه مادياً، فحرم أشد التحريم أن يُضرب إنسان بغير حق، أو يجلد ظهره بغير حد، وأنذر باللعنة من ضرب إنساناً ظلماً، ومن شهده يُضرب ولم يدفع عنه، وبهذا حمى بدن الإنسان من الإيذاء.

كذلك حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان، فحرم الهمز واللمز والتنابز بالألقاب والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس وغير ذلك، وبهذا حرم نفس الإنسان من الإهانة.

ولم يكتف الإسلام بحماية الإنسان في حالة حياته فحسب، بل كفل له الاحترام بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه،والنهي عن كسر عظمه أو الاعتداء على جثته خلافاً للأمم التي تحرق جثث موتاها.

وكما حمى جسمه بعد الموت حمى عرضه وسمعته أيضاً لئلا تلوكها الأفواه[2] وتتداولها الألسن، ومن شواهد ذلك ما جاء في حديث الباب من الستر عليه وأولى الناس بهذا مَنْ قاموا بمباشرة تغسيله وتكفينه...، فقال ﷺ: «مَنْ غَسَّلَ مَيِّتاً فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً». إذ أن "الستر على المؤمن وهو حي مطلوب واجب، وإذا مات كان الستر عليه أوجب، لأن الحي يقدر على ستر نفسه والميت لا يقدر على ستر عيوبه.

لذا ينبغي على المربين غرس روح الاحترام للمسلم في نفوس المتعلمين، فحرمة المسلم

---

(١) انظر: القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع بن محمد بن علي المانع ص ٣٣.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٨٧، ٨٨.

مصونة حياً وميتاً، من رأى من أخيه عيباً فينبغي عليه أن يكتمه ويستر عليه"[١].

ثانياً- التربية بالترغيب:

من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالترغيب من خلال بيان الثواب المنوط بالعمل مما يعد من أشد الدوافع المحفزة على العمل، كما جاء في حديث الباب من الوعد بالمغفرة أربعين مرة لمن غسَّل ميتاً فكتم عليه، فقال ﷺ: «مَنْ غَسَّلَ مَيِّتاً فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً».

ففي ذلك ترغيب بالمغفرة أربعين مرة لمن ستر ميتاً وكتم عنه إن ظهر منه شيء يسوؤه أو يسوء أهله.

إن التربية بالترغيب تُحفِّز الإنسان على العمل طمعاً في الثواب، وهذا مما يتناسب مع الطبيعة البشرية ولا يستغنى عنه المربي في كل زمان ومكان، وقد أكد علماء المسلمين على تشجيع المتربين على السلوك الحسن وإثابتهم عليه، لذا ينبغي على المعلم المسلم أن يبشر ولا ينفر، وأن يرغب المتعلمين في العلم وتحصيله، وفي سلوكهم للمسلك الحسن وأن يثيبهم على ذلك، وعليه أن يعظهم ويحذرهم من الخطأ وأن يجنبهم قدر استطاعته السير في طريقه، ويوضح لهم ما يترتب على ارتكابه من عواقب، وإذا ما وقع المتعلم في الخطأ وكان ذلك بدون وعي أو قصد فبأن يسامح ويعفى عنه، بعد أن يوضح له خطأه، فإذا تكرر الخطأ أو كان متعمداً فإن العقوبة هي الحل، لكنها العقوبة المناسبة للموقف وملابساته على أن يكون الهدف من إيقاع العقاب هو التأديب والإصلاح وليس التعذيب والانتقام"[٢].



---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٠٩، وبهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي، ٢/١٧٨، ١٧٩.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٦-١٩٠.

١٥٥- باب الصلاة عَلَى الميت وتشييعه وحضور دفنه وكراهة اتباع النساء الجنائز

وَقَدْ سَبَقَ فَضْلُ التَّشْيِيعِ.

الحديث رقم (٩٣٠)

٩٣٠- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ شَهِدَ الجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، فَلَهُ قِيراطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ، فَلَهُ قِيرَاطَانِ)) قِيلَ: وَمَا القيرَاطانِ؟ قَالَ: ((مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري خال من المؤكدات، لأنه من المعاني التي لا يتأتى الحديث فيها لأحد إلا نبي فالمعنى يقابل به خال الذهن من الخبر، وقد جاء في أسلوب الشرط الذي يربط الأجر المذكور بشهود الجنازة، والصلاة عليها ثم داعب النفس الطامحة إلى المزيد بمضاعفة الأجر بشرط شهود الدفن، والحديث يحمل لوناً من ألوان التكافل الاجتماعي التي يتميز بها الإسلام، وتزيد أفراده تماسكاً لاسيما في الشدائد، واستفهام المخاطبين (وما القيرطان؟) استفهام على حقيقته يعكس ميلهم إلى تحصيله، وإجابة الرسول أكدت هذا الميل لتجعل منه عزيمة على اغتنام هذا الأجر، قال: (مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ) وهو تشبيه لبيان المقدار على سبيل التقريب والتشبيه بالجبل فيه إشارة إلى عظم الأجر، وقد زاده تعظيماً بالتثنية، كما صعَّده بالوصف بالعظم، مما يجعل قلوب المؤمنين كلفة معلقة بهذا الأجر.

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٢٥، ومسلم ٩٤٥/٥٢ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٤١.

فقه الحديث

١- اتفق الفقهاء على أن المشيع الذي يحضر الجنازة فيصلي على الميت صلاة الجنازة يحصل له من الأجر قيراط. ومن صلى على الجنازة ثم لزمها حتى تمام الدفن فله من الأجر قيراط آخر، وعلى ذلك فإن من صلى على الجنازة ثم لزمها حتى تمام الدفن فإنه يحصل له من الأجر قيراطان.

ولا يحصل على القيراط الثاني إلا بتمام الدفن. وقد فسروا القيراط بأنه مثل جبل أحد في الثواب[1].

وإذا تعددت الجنائز واتحدت الصلاة عليها دفعة واحدة هل يتعدد القيراط بتعددها أم لا؟ الظاهر كما ذكر الأزرعي التعدد[2].

٢- وأما حكم اتباع الجنازة وتشييعها: ذهب جمهور الفقهاء إلى أن تشييع الرجال للجنازة سنة لحديث البراء بن عازب: ((أمرنا رسول الله ﷺ باتباع الجنائز...))[3] والأمر هنا للندب لا للوجوب للإجماع، وقال الزين بن المنير من المالكية: إن اتباع الجنائز من الواجبات على الكفاية، وقال الشيخ مرعي الحنبلي: اتباع الجنائز سنة، وقال الحنفية اتباع الجنائز أفضل من النوافل[4].

المضامين الدعوية[5]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه.

---

(١) شرح النووي ٦٦/٦، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ٤٢٧/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٤/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣١/٣، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٨٩٣/١.

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٤/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣١/٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٣٩، ٢٤٤٥، ٥١٧٥، ٥٦٣٥، ٥٦٥٠، ٥٨٣٨، ٥٨٤٩.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/١٦.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٣٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٣١).

ثانيًا: من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

ثالثًا: من مهام الداعية: توضيح المعنى للمدعوين بما هو أقرب إلى أفهامهم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين أحياء وأمواتًا.

أولاً - من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه:

هذا واضح من الحديثين. فقد أخبر النبي ﷺ عن الجزاء العظيم لمن صلّى على الميت وشيعه وحضر دفنه.

قال أبو العباس القرطبي: "القيراط اسم لمقدار معلوم في العرف، وهو جزء من أربعة وعشرين جزءًا، وقد يراد به: الجزء مطلقًا، ويكون عبارة عن الحظ والنصيب، ألا ترى أنه قال: (كل قيراط مثل أحد) ومقصود هذا الحديث: أن من صلى على جنازة كان له حظ عظيم من الثواب والأجر، فإن صلى عليها واتبعها كان له حظان عظيمان من ذلك، إذ قد عمل عملين، أحدهما: صلاته، والثاني: كونه معه إلى أن يدفن"[1].

قال ابن حجر: "نقل ابن الجوزي عن ابن عقيل أنه كان يقول: القيراط نصف سدس درهم أو نصف عشر دينار، والإشارة بهذا المقدار إلى الأجر المتعلق بالميت في تجهيزه وغسله وجميع ما يتعلق به، فللمصلي عليه قيراط من ذلك، ولمن شهد الدفن قيراط، وذكر القيراط تقريبًا للفهم، لما كان الإنسان يعرف القيراط ويعمل العمل في مقابلته وعدّ من جنس ما يعرف ضرب له المثل بما يعلم" انتهى.

[وقال ابن حجر معلقًا على ذلك]: "وليس الذي قال ببعيد، وقد روى البزار من طريق عجلان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: "من أتى جنازة في أهلها فله قيراط، فإن تبعها فله قيراط، فإن صلى عليه فله قيراط، فإن انتظرها حتى تدفن فله قيراط"، فهذا يدل على أن لكل عمل من أعمال الجنازة قيراطًا، وإن اختلفت مقادير القراريط ولا سيما بالنسبة إلى مشقة ذلك العمل وسهولته، وعلى هذا فيقال: إنما خص قيراطي الصلاة

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٦٠٤.

والدفن بالذكر لكونهما المقصودين بخلاف باقي أحوال الميت، فإنها وسائل، ولكن هذا يخالف ظاهر سياق الحديث الذي في الصحيح المتقدم في كتاب الإيمان فإن فيه: ((مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ))[1]، فقط؛ ويجاب عن هذا بأن القيراطين المذكورين لمن شهد، والذي ذكره ابن عقيل لمن باشر الأعمال التي يحتاج إليها الميت فافترقا، وذهب الأكثر إلى أن المراد بالقيراط في حديث الباب: جزء من أجزاء معلومة عند الله، وقد قربها النبي ﷺ للفهم بتمثيله القيراط بأحد. قال الطيبي[2]: "قوله: (مثل أحد)، تفسير للمقصود من الكلام لا للفظ القيراط، والمراد منه أنه يرجع بنصيب كبير من الأجر، وذلك لأن لفظ القيراط مبهم من وجهين، فبيّن الموزون بقوله: (من الأجر)، وبيّن المقدار المراد منه بقوله: (مثل أحد)"[3].

وقال ابن حجر كذلك: "وأما التقييد بالإيمان والاحتساب في قوله ﷺ: (من اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا..)، فلا بدّ منه؛ لأن ترتب الثواب على العمل يستدعي سبق النية، فيخرج من فعل ذلك على سبيل المكافأة المجردة، أو على سبيل المحاباة، والله أعلم"[4].

وقال ابن عثيمين: "فإذا شهدت الجنازة حتى يصلى عليها فلك قيراط، وإن استمررت معها حتى تدفن فلك قيراطان، لكن في رواية البخاري[5]: اشترط أن يكون ذلك إيمانًا واحتسابًا، يعني: إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده واحتسابًا لثوابه، وليس قصدك المجاملة لأهل الميت؛ لأن المجاملة لأهل الميت ثواب عاجل في الدنيا فقط، وقد يؤجر الإنسان على مجاملة إخوانه، لكن الأجر الذي هو قيراطان فهو لمن تبعها إيمانًا واحتسابًا، إيمانًا بالله وثقة"[6].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٧.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٦٣/٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩٤/٣ - ١٩٥.

(٤) المرجع السابق ١٩٧/٣.

(٥) صحيح البخاري ٤٧.

(٦) شرح رياض الصالحين ١١٩٦/٢.

(وهذا قيد لا بد منه في كل عبادة؛ لأن ترتب الثواب على العمل يستدعي سبق النية[1]، وقال الشيخ عبدالله البسام: "قال بعضهم: اتباع الجنازة على ثلاثة أضرب: أحدها أن يصلي عليها، الثاني: أن يتبعها إلى القبر ثم يقف حتى تدفن، الثالث: أن يقف بعد الدفن على القبر، ويدعو للميت بالمغفرة والرحمة)[2].

ثانيًا- من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

هذا واضح من قول راوي الحديث: الصحابي أبي هريرة ﷺ: (قيل وما القيراطان؟)، قال ابن حجر: (لم يعين في هذه الرواية القائل ولا المقول له، وقد بيّن الثاني مسلم في رواية الأعرج هذه فقال: ((قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ يا رسول الله؟))[3]، وعنده في حديث ثوبان: (وسئل رسول الله ﷺ عن القيراط)[4]، وبيّن القائل أبو عوانة من طريق أبي مزاحم عن أبي هريرة ﷺ ولفظه: (وما القيراط يا رسول الله؟ ووقع عند مسلم[5]، أن أبا حازم أيضًا سأل أبا هريرة عن ذلك)[6].

وقد وقع ذلك من الصحابة ﷺ، أعني السؤال عما لا يفهمونه ولا يكون عندهم علم به، من ذلك حديث أنس بن مالك ﷺ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللّهِ. فَقَالَتْ لَهُ، وَعَائِشَةُ عِنْدَهُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! الْمَرْأَةُ تَرَى مَا يَرَى الرَّجُلُ فِي الْمَنَامِ، فَتَرَى مِنْ نَفْسِهَا مَا يَرَى الرَّجُلُ مِنْ نَفْسِهِ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ فَضَحْتِ النِّسَاءَ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ. فَقَالَ لِعَائِشَةَ: ((بَلْ أَنْتِ، فتَرِبَتْ يَمِينُكِ، نَعَمْ، فَلْتَغْتَسِلْ، يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِذَا رَأَتْ ذَاكِ))[7].

قال النووي: "وأما قوله ﷺ لعائشة ﷺ: (بل أنت فتربت يمينك)، فمعناه: أنت أحق أن يقال لك هذا، فإنها فعلت ما يجب عليها من السؤال عن دينها، فلم تستحق

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، الشيخ البسام ٢/٥٣٤.

(٢) السابق ٢/٥٣٤ - ٥٣٥.

(٣) رواية الأعرج في صحيح مسلم ٥٢ - ٩٤٥، لكن ليس فيها: يا رسول الله.

(٤) صحيح مسلم بعد الحديث ٥٧ - ٩٤٦.

(٥) صحيح مسلم ٥٤ - ٩٤٥.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣/١٩٨.

(٧) أخرجه مسلم ٢٩ - ٣١٠.

الإنكار، واستحققت أنت الإنكار، لإنكارك ما لا إنكار فيه"[١].

وأخرج هذا الحديث أحمد في مسنده وعنده زيادة: ((وَإِنَّا إِنْ نَسْأَلِ النَّبِيَّ ﷺ عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْنَا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ نَكُونَ مِنْهُ عَلَى عَمْيَاءَ))[٢].

ثالثًا - من مهام الداعية: توضيح المعنى للمدعوين بما هو أقرب إلى أفهامهم:

هذا واضح من قول النبي ﷺ: (فإنه يرجع من الأجر بقيراطين مثل أحد). قال ابن هبيرة: "وهذا المقدار الذي هو القيراط خطاب للناس بما يعرفونه"[٣]، قال ابن حجر: "قال الزين بن المنير: أراد تعظيم الثواب، فمثله للعيان بأعظم الجبال خلقًا وأكثرها إلى النفوس المؤمنة حبًا؛ لأنه الذي قال في حقه: ((إِنَّهُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ))[٤]. انتهى.

ولأنه أيضًا قريب من المخاطبين يشترك أكثرهم في معرفته، وخصّ القيراط بالذكر، لأنه كان أقلّ ما تقع به الإجارة في ذلك الوقت، أو جرى ذلك مجرى العادة من تقليل الأجر بتقليل العمل[٥].

وقال العيني: "إنما خصّ القيراط لأن غالب ما تقع به معاملتهم كان بالقيراط، وقد ورد لفظ القيراط في عدة أحاديث، فمنها ما يحمل على القيراط المتعارف، ومنها ما يحمل على الجزء وإن لم تعرف النسبة"[٦].

ومثال ذلك قول النبي ﷺ في وصف سدرة المنتهى في حديث الإسراء والمعراج: ((ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ. وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ))[٧]، قال النووي: (قوله ﷺ: (وإذا ثمرها كالقلال) - بكسر القاف - جمع قلة، والقلة جرة

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢/٣/٢٢٥.

(٢) أخرجه أحمد ٦/٢٧٧، رقم ٢٧١١٨، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٤٥/٨٥ - ٨٦.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٢٨٧.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٨١، ومسلم ١٣٩٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣/١٩٥.

(٦) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٨/١٢٨.

(٧) أخرجه البخاري ٣٢٠٧، ومسلم ٢٥٩ - ١٦٢.

عظيمة تسع قريتين أو أكثر)[1]. ولا شك أن تقريب المعنى للمدعوين بما هو قريب لأفهامهم، لمن الوسائل التي تجعل أمور الدعوة واضحة لهم، قريبة منهم، لا يعتريها الغموض ولا اللبس.

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

هذا واضح من ترتيب نيل القيراطين - وهو الثواب العظيم - لمن صلّى على الميت وتبعه حتى دفن.

والذي يبين أثر هذا الترغيب ما قاله ابن عمر رضي الله عنهما عندما سمع هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: (لَقَدْ ضَيَّعْنَا قَرَارِيطَ كَثِيرَةً)[2].

وفي رواية: (وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُصَلِّي عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْصَرِفُ؛ فَلَمَّا بَلَغَهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَقَدْ ضَيَّعْنَا قَرَارِيطَ كَثِيرَةً)، أي من عدم المواظبة على حضور الدفن)[3][4].

قال النووي: "وفيه ما كان الصحابة رضي الله عنهم عليه من الرغبة في الطاعات حين يبلغهم والتأسف على ما يفوتهم منها، وإن كانوا لا يعلمون عظم موقعه"[5].

خامسًا: من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين أحياء وأمواتًا

هذا واضح من الحديثين، قال ابن حجر: "وفي حديث الباب من الفوائد غير ما تقدم الترغيب في شهود الميت والقيام بأمره والحض على الاجتماع له، والتنبيه على عظيم فضل الله وتكريمه للمسلم في تكثير الثواب لمن يتولى أمره بعد موته"[6].

وقال ابن القيم: "كان هديه ﷺ في الجنائز أكمل الهدى مخالفًا لهدي سائر الأمم، مشتملاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يعامل به الميت،

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢١٤/٢/١.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٢٤، ومسلم ٥٦ - ٩٤٥.

(٣) أخرجه مسلم ٥٢ - ٩٤٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٩٥/٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨/٧/٤، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٩٥/٣ - ١٩٦.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٩٨/٣.

وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للرب تبارك وتعالى على أكمل الأحوال والإحسان إلى الميت وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفًا يحمدون الله ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهده بالزيارة له في قبره والسلام عليه، والدعاء له كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا"[1].

وقال ابن هبيرة: "لما كان الموت محتومًا على بني آدم، وكان مما شرع الله لعباده منبهًا بذلك على فضله وجوده على المسلمين من أمة محمد ﷺ أنه شرع الصلاة على الميت، ثم شرع في أذكار هذه الصلاة أن يقول المصلون: (اللهم نزل بك، وأنت خير منزول به، كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولا نعلم إلا خيرًا، اللهم إن كان محسنًا فجازه بإحسانه، وإن كان مسيئًا فتجاوز عنه، جئناك شفعاء فيه طالبين له)[2]، فمن تنبه لجود الله وفضله، علم أنه لم يشرع هذا بهذه الأذكار إلا وهو سبحانه يقبل شفاعة الشافعين، ويرحم المشفوع فيه.

ثم لما كان مواراة المسلمين وشهود جنائزهم من فروض الكفايات وقد وعد رسول الله ﷺ في ذلك بما وعد من الأجر، وهو قيراطان، كل منهما مثل جبل أحد، كان اتباع الجنائز إيمانًا بحصول ذلك، يبلغه مع الإيمان بثقل صنجته أيضًا من خصال الإيمان"[3].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٤٩٨.

(٢) قال النووي في الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ص ١٨٦: "واختار الشافعي دعاء التقطه من مجموع هذه الأحاديث وغيرها... فذكره.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٣٩٠ - ٣٩١.

الحديث رقم (٩٣١)

٩٣١- وعنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ: ((مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إيمانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفرَغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإنَّهُ يَرْجعُ مِنَ الأَجْرِ بقيراطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أنْ تُدْفَنَ، فَإنَّهُ يَرْجِعُ بقيرَاطٍ)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

احتسابًا: طلبًا لوجه الله وثوابه[2].

أُحُد: الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد ٣هـ وهو جبل أحمر، بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل في شماليها[3].

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه، وقريب منه في الأسلوب مع بعض الاختلاف من بعض الأوجه ومن هذه الأوجه: أنه نص في هذه الرواية على صفة الإسلام بينما فهمت ضمناً في الرواية السابقة من قوله (يصلى عليها) كما نص على الإيمان، والاحتساب الذي يعني الإخلاص، ومن أوجه الخلاف أيضاً أن المشبه به، وهو الجبل محدد، وفي تحديده توكيد للمعنى لاسيما، وأن المخاطبين يرونه ذهاباً، وإياباً، ثم إنه نص في هذه الرواية على النقص (ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أنْ تُدْفَنَ، فَإنَّهُ يَرْجِعُ بقيرَاطٍ) بينما نص في الرواية السابقة على الزيادة (وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ، فَلَهُ قِيرَاطَانِ)، وعظم الثواب الذي ينص عليه

---

(١) برقم ٤٧. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٤١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح س ب).

(٣) انظر أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١١٩.

الحديث يجعل المؤمن في قمة الحرص على اتباع الجنازة التي تحمل مظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعي بين المسلمين.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٣٢)

٩٣٢-وعن أم عطية رضي الله عنها، قالت: نُهِينَا عَنِ اتِّبَاعِ الجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا. متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

ام عطية الأنصارية: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٧٢٣).

غريب الألفاظ:

ولم يعزم علينا: لم يشدد في النهي كما يشدد في المحرمات[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث خبر قصير عن أم عطية رضي الله عنها نقلت فيه النهي عن اتباع الجنائز بطريقة خبرية وقولها: (نهينا عن اتباع الجنائز) والحديث بضمير الجمع يؤكد المعنى وهو الخبر المنقول على الصفة المذكورة، وقولها: (وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا) تكميل بلاغي عكس انطباعها عن هذا النهي، وأنه لم يكن جزماً، لأنها فهمت من النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك النهى إنما أراد به ترك ما كانت الجاهلية تقوله من الهجر وزور الكلام وقبيحه، ونسبة الأفعال إلى الدهر، فهى إذا تركت ذلك وبدلت منه الدعاء والترحم عليه كان خفيفًا، فهذا يدل أن الأوامر تحتاج إلى معرفة تلقى الصحابة لها، وينظر كيف تلقوها - كما ذكر ابن بطال -.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم اتباع النساء للجنائز.

وقد اختلف الفقهاء في حكم اتباع النساء للجنائز على قولين:

القول الأول: ذهب الظاهرية إلى أن اتباع النساء للجنائز جائز ولا كراهة فيه ولا

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٧٨، ومسلم ٣٥/٩٣٨ ولفظهما سواء.

(٢) رياض الصالحين ٣٦٥.

يمنعن من ذلك، وأن الآثار التي أفادت كراهة اتباع النساء للجنائز ليس منها شيء يصح لأنها إما مرسلة، وإما عن مجهول وإما عمن لا يحتج به"[1].

القول الثاني: ذهب جمهور الفقهاء إلى كراهة اتباع النساء للجنائز وتحمل الكراهة على الكراهة التنزيهية، وليس المقصود من النهي التحريم، لأن النبي ﷺ وإن كان قد نهى نهيًا شديدًا إلا أنه غير محتم[2].

وحكى الشوكاني عن القرطبي أنه قال: (إذا أمن تضييع حق الزوج والتبرج وما ينشأ من الصياح ونحو ذلك فلا مانع من الإذن لهن، ثم قال الشوكاني: هذا الكلام هو الذي ينبغي اعتماده في الجمع بين الأحاديث المتعارضة)[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: النساء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: نهي النساء عن اتباع الجنائز.

أولاً - من أساليب الدعوة: النهي:

هذا واضح من قول أم عطية الأنصارية رضي الله عنها: (نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا)، "والنهي في اللغة: هو المنع وفي اصطلاح الأصوليين: هو اللفظ الذي يدل على طلب الكف عن الفعل على سبيل الاستعلاء. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[5]، فقد طلب الله

---

(١) المحلى، ابن حزم ٣/٣٨٧.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٣٧، ٢٣٨، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ١/٣٦٩، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/٢، وفتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٣٧، ٢٣٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢/٣٥٤، والكافي ١/٣٦٨، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ١/٣٦٨.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٤/٩٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ١١.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

تعالى الكف عن الفساد في الأرض وعن قرب الزنى، وهذا الطلب وقع على سبيل الاستعلاء، أي: أنه صدر من الله الأعلى إلى الإنسان الأدنى المأمور والمطيع والعابد"(١).

وقال عبدالله البسام: "يدل الحديث على النهي عن اتباع النساء الجنائز لما عندهن من الضعف والرقة، وعدم التحمل للمصائب، فيخرج منهن أقوال وأفعال محرمة تنافي الصبر الواجب"(٢).

ثانيًا- من أصناف المدعوين: النساء:

هذا واضح من الحديث. قال عبدالله البسام: "الأصل أن الأحكام الشرعية عامة بين الرجال والنساء، ولكنه توجد أحكام كثيرة تخص أحد الجنسين دون الآخر، فالتفريق بين الرجال وبين النساء في بعض الأحكام له أصل في الشرع، وهذا يدل على الحكم السامية في التشريع الإسلامي، ويشرع لكل جنس ما يناسبه من الأحكام وينزل كل أحد بما يليق به"(٣).

"وقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٤)، وتاريخ الإسلام حافل بدور المرأة وجهدها وجهادها، ويكفي أن نقول: إن أول مخلوق آمن بمحمد ﷺ هو امرأة: خديجة رضي الله عنها. وإن أول من قدم ماله هو امرأة: خديجة رضي الله عنها. وإن أول من استشهد هو امرأة: سمية رضي الله عنها، وإن أسماء رضي الله عنها كانت صاحبة النطاقين، وإن المرأة هي أم الشهداء: الخنساء رضي الله عنها، وإن أم عُمارة رضي الله عنها قد جاهدت بالسيف في سبيل الله تعالى. وإزاء هذا كله فإن المرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام، سواء أكانت بنتًا أم زوجة أم أمًا. فهي وإن كانت غير رجل، إلا أنها أم الرجال وأخت الرجال وخالة الرجال وعمة

---

(١) تعليم علم الأصول، د. نور الدين مختار الخادمي، ط/١ مكتبة العبيكان، الرياض: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٣٧/٢.

(٣) المرجع السابق ٥٣٧/٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

الرجال، إنها مربية الرجال، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا تجاه النساء، فهن نصف المجتمع وهن راعيات الأطفال، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم. وبالتالي فإن العناية بالمرأة هي عناية بالدعوة نفسها"[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: نهي النساء عن اتباع الجنائز:

هذا واضح من الحديث، وقد بوّب البخاري في صحيحه على هذا الحديث، باب: اتباع النساء الجنائز"[٢].

قال ابن حجر: "قوله: باب: اتباع النساء الجنائز، قال الزين بن المنير: فصل المصنف [أي البخاري] بين هذه الترجمة، وبين فضل اتباع الجنائز بتراجم كثيرة، تشعر بالتفرقة بين النساء والرجال، وأن الفضل الثابت في ذلك يختص بالرجال دون النساء، لأن النهي يقتضي التحريم أو الكراهة، والفضل يدل على الاستحباب، ولا يجتمعان، وأطلق الحكم هنا لما يتطرق إليه من الاحتمال، ومن ثم اختلف العلماء في ذلك، ولا يخفى أن محلّ النزاع إنما هو حيث تؤمن المفسدة"[٣].

ثم قال ابن حجر: "قولها: (لم يعزم علينا)، أي ولم يؤكد علينا في المنع كما أكد علينا في غيره من المنهيات، فكأنها قالت: كره لنا اتباع الجنائز من غير تحريم. وقال القرطبي[٤]: ظاهر سياق أم عطية أن النهي نهي تنزيه، وبه قال جمهور أهل العلم. ومال مالك إلى الجواز وهو قول أهل المدينة"[٥].

وبيّن ابن عثيمين المفاسد الناشئة عن اتباع المرأة الجنازة، ويذهب إلى أن الصحيح هو أن اتباع المرأة للجنازة حرام، فيقول: "لأنها إذا تبعتها فهي لا شك ضعيفة [أي ضعيفة

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٧٣.

(٢) الباب رقم ٢٩ من كتاب: الجنائز وهو برقم ٢٣، والحديث برقم ١٢٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٤٥/٣.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٩١/٢ - ٥٩٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٤٥/٣.

الثبات] فربما تصيح وتولول وتضرب الخد، وتنتف الشعر وتمزق الثوب، لا تصبر المرأة. وأيضًا ربما يحصل اختلاط بين الرجال والنساء في تشييع الجنازة، فيحصل بذلك فتنة وتزول الحكمة من اتباع الجنائز، بحيث يكون الرجال أو الأراذل من الرجال يكون ليس لهم همّ إلا ملاحقة هؤلاء النساء أو التمتع بالنظر إليهن؛ فالواجب منع النساء من اتباع الجنائز فهو حرام ولا يجوز"[١].

وقال عبدالله البسام: "النهي ظاهره التحريم، وأما قول أم عطية رضي الله عنها: ((وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا))، فهو رأي لها، ظنت أنه ليس نهي تحريم، والحجة قول الشارع، كما يدل على أن النهي للتحريم ما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان أن النبي ﷺ لعن زائرات القبور[٢]، وهو حديث صحيح بشواهده، فمتبع الجنازة سيزور القبور، واتباع الجنازة في معنى الزيارة، ولهذا فالأحوط أن النهي في الحديث هو للتحريم)[٣]، لكن الشوكاني قال: "قال القرطبي: اللعن المذكور في الحديث إنما هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصيغة من المبالغة، ولعل السبب ما يقتضي إليه ذلك من تضييع حق الزوج والتبرج، وما ينشأ من الصياح ونحو ذلك، وقد يقال: إذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن لهن، لأن تذكر الموت يحتاج إليه الرجل والنساء. انتهى، وهذا الكلام هو الذي ينبغي اعتماده في الجمع بين الأحاديث المتعارضة في الظاهر"[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١١٩٦.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٣٧ رقم ٨٤٤٩، والترمذي ١٠٥٦، وابن ماجه ١٥٧٦، وابن حبان ٣١٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي بعضها: (لعن زوارات القبور)، وله شواهد منها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد أخرجه أحمد ١/٢٨٧ رقم ٦٠٣، وانظر فيه: تمام تخريجه وشواهده ٤/٣٦٣. والحديث حسنه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٨١.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٥٣٨.

(٤) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧٤٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالترغيب:

ورد استخدام أسلوب الترغيب في أحاديث الباب حيث رغب النبي ﷺ في اتباع الجنائز وتشييعها بالثواب العظيم، فقال ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ. وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ» قِيلَ: وَمَا الْقِيرَطَانِ؟ قَالَ: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ».

لذا ينبغي على المربين ألا يهملوا جانب الترغيب في التربية لما له من أهمية بالغة في العملية التعليمية والتربوية، وتأتي أهمية هذا الأسلوب التربوي نظراً لموافقته "ما فُطِرَ عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم والرفاهية وحسن البقاء، والرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير"[١].

لكن على المربي أن يكون حكيماً في استخدامه لأسلوب الترغيب وكذا الترهيب، فالمربي "طبيب بارع وصيدلي ذكي يقطف من الأساليب والوسائل ما يشفى به النفوس ويطب به القلوب، وهو كذلك مرشد خبير ودليل ناصح أمين، يضيء بمصابيح القرآن وقناديل السنة دروب السالكين وسبل القاصدين".

كما أن الترغيب ليس هو من أحلام اليقظة ولا من الوعود المعسولة، وإنما هو تنشيط للهمم، وتشجيع للطاقات وشحذ للعزائم، فهو كالجائزة للمتسابقين في مضمار الإحسان والإنتاج والاجتهاد، وهذا هو طريق المتقين وأسلوب الدعاة العاملين الفاقهين، وصدق الله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٢][٣].

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٣) انظر: الدعوة إلى الله، "الرسالة، الوسيلة، الهدف"، د. توفيق الواعي ص ٢٠٢- ٢١٤.

ثانياً- التربية بالأمثال:

إن من سمات المعلم الحاذق والمربي الأريب أن يكون تعليمه واستخدامه لأساليب التربية من ترغيب وترهيب وغيرهما "مصحوباً بتصور فني رائع بأسلوب واضح، وأن يحسن استخدامه للصور والمعاني في عرضه لعقاب الله وثوابه ليقربها إلى أفهام الناشئين"[١]. ومن شواهد ذلك في أحاديث الباب تقريبه ﷺ لثواب تشييع الجنائز وتشبيهه في حجمه وثقله كحجم الجبل العظيم كما جاء في صريح قوله ﷺ: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ» وقوله: «كلُّ قِيراطٍ مِثْلُ أُحُدٍ».

فنجد في أحاديث الباب أحد أهداف التربية بالأمثال وهو تقريب المعنى إلى الأفهام وزيادة الإيضاح بتجسيد الشيء المعنوي في صورة حسية ليكون قريباً للفهم، حيث قرب لنا ﷺ حجم ثواب تشييع الجنازة بحجم الجبل العظيم.

إن التربية بالأمثال تؤثر في النفس تأثيراً واضحاً بذكر المثل الواضح الذي يشجع على العمل أو ينفر منه[٢]، وذلك له أكبر الأثر وأقوى الدوافع إلى تعديل السلوك، وكذلك الحماسة إلى الأمر المرغوب فيه[٣].

ثالثاً- التربية على إخلاص النية:

إن أهم الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية: إخلاص النية لله تعالى، والإتيان بالعمل "بدافع الإيمان والإخلاص لله تعالى لا رغبة في التظاهر أو مناً على الناس أو رداً للجميل"[٤]. وقد جاء في أحد أحاديث الباب بيان أن استحقاق الثواب على العمل - كتشييع الجنائز -متوقف على صحة النية وصدق التوجه- فقال ﷺ: «مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِم، إِيماناً واحْتِساباً، وَكانَ مَعَهُ حتى يُصَلَّى عليها...».

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية وأصولها، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣٢.

(٢) انظر: تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ٢٠٦- ٢٠٩.

(٣) انظر: التربية بضرب الأمثال، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ١٢٢.

(٤) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٥٠.

رابعًا- التربية الاجتماعية:

تضمن الحديثان الأولان من أحاديث الباب جانبًا من جوانب التربية الاجتماعية، وذلك من خلال تقوية جانب حرص المسلمين على تأدية حق من حقوق الأخوة في الإسلام: الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه، وذلك عن طريق الترغيب في تأدية هذا الحق أو هذه الحقوق.

إن زرع الإخلاص وغرس المراقبة في النفوس وتصحيح العقيدة أساس لا غنى عنه في التربية الإسلامية، "فإذا كانت التربية تعني إكساب سلوك أو أخلاق أو قدرة على عمل معين لدى الإنسان، فلكي تنجح هذه المسألة وتتم بكفاءة أكثر، لابد من العقيدة الصحيحة التي نربى على أساسها النفوس للصلة الشديدة والارتباط الوثيق بين العقيدة وبين السلوك والأخلاق.

إن التربية الصحيحة وإكساب الأخلاق، لا يمكن أن يتم بمجرد التلقين الصوري، وإنما تؤتي هذه العملية ثمارها حين تستند إلى عقيدة سليمة وتوجهٍ صحيح"[١].

إن أهم ما ينبغي غرسه في نفوس المتربين الإخلاص لله تبارك وتعالى، فإن النية والإخلاص فيها يجعل العمل الصغير عظيماً، كما أنه قد يجعل ثواب العمل الكبير صغيراً أو معدوماً، لذا يجب على المسلم الحق أن يراعي صفاء النية لينال فضيلة الإخلاص، إذا أن نية الرياء تُصَيِّر الطاعات معاصي لأنها لم يبتغ بها وجه الله عز وجل[٢].



---

(١) انظر: محاضرات ودراسات في أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب ص ١٢٧- ١٣٩.

(٢) انظر: الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد ص ٣٢.

١٥٦- باب استحباب تكثير المصلين علَى الجنازة وجعل صفوفهم ثلاثة فأكثر

الحديث رقم (٩٣٣)

٩٣٣- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((مَا مِنْ مَيتٍ يُصَلّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِئَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم(٢).

غريب الألفاظ:

أمة: جماعة[2].

يشفعون له: الشفاعة: السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم وتكون فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة[3]. والمعنى: يدعون الله بأن يغفر له.

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ باستغراق الجنس بالإضافة وقوع النكرة (ميت) في سياق النفي والتي حققت العموم، وقوله (أمة) تشير إلى الاجتماع، وقوله (من المسلمين)، لأن شفاعة غيرهم لا تصلح في هذا الموضع، وذكر العدد يؤكد معنى الاجتماع المفهوم من لفظ أمة، ولفظ كل المضاف للضمير (هم) يؤكد المعنى، وينفي وهم المبالغة في الشفاعة، والحديث قائم على أسلوب القصر لمعنى صلاة العدد المذكور من المسلمين، وشفاعتهم له على تحقق الشفاعة مما يرغب في تكثير المصلين على الجنازة.

---

(١) برقم ٩٤٧/٥٨. أورده المنذري في ترغيبه (٥١٤٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ا م م).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ف ع)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٦٥٩.

فقه الحديث

تشير هذه الأحاديث إلى الأحكام الآتية:

أولاً: حكم الجماعة في صلاة الجنازة: تجوز صلاة الجنازة فرادى بلا خلاف ولكن السنة أن تصلى جماعة وذلك لإجماع المسلمين على ذلك[١].

ثانيًا: حكم تجزيئ الصفوف إلى ثلاثة فصاعدًا: يستحب أن تكون صفوف المصلين ثلاثة فصاعدًا[٢].

ثالثًا: أقل العدد الذي تصح به صلاة الجنازة: قيل بأن أقل عدد تصح به صلاة الجنازة ثلاثة لأن أقل الجمع ثلاثة. وقيل يكفي واحد لأنها صلاة ليس من شرطها الجماعة، فلم يكن من شرطها العدد كسائر الصلوات[٣].

رابعًا: حكم صلاة الجنازة في المسجد: مذهب الحنفية أنه تكره الصلاة على الجنازة في المسجد، وقال ابن عابدين إذا كانت عادة أهل البلاد ذلك لتعذر المكان فينبغي الإفتاء بالقول بكراهة التنزيه الذي هو خلاف الأولى. وقال مالك: أكره أن توضع الجنازة في المسجد. وقال الشافعية: تندب الصلاة على الميت إذا أمن تلويثه أما إذا خيف تلويث المسجد فلا يجوز إدخاله. وقال الحنابلة: تباح الصلاة على الجنازة في المسجد مع أمن تلويثه، فإن لم يؤمن لم يجز)[٤].

خامسًا: حكم صلاة النساء: وأما النساء فإن كن مع الرجال صلّين مقتديات بإمام الرجال، وإن تمحضن استحب أن يصلين منفردات كل واحدة وحدها فإن صلّت بهنّ إحداهن جاز.

وذهب جماعة من السلف منهم الحسن بن صالح وسفيان الثوري وأحمد وأصحاب

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٧٢/٥، وحاشية البجيرمي على شرح الخطيب ٢٧٧/٢، والبحر الزخار ١١٥/٣.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٧٢/٥، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٠/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٢/٥.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ومصادرها ٣٦/١٦.

أبي حنيفة إلى أنه تسن لهن الجماعة، وقال الإمام مالك يصلين فرادى[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب تكثير المصلين على الجنازة.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على فعل ما أرشدهم إليه النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب تكثير المصلين على الجنازة:

هذا واضح من الأحاديث الثلاثة، ولعل ما يوضح الأمر أكثر أن حديث ابن عباس فيه قصة، وهي عن كريب مولى ابن عباس عن عبدالله بن عباس: ((أَنَّهُ مَاتَ ابْنٌ لَهُ بِقُدَيْدٍ أَوْ بِعُسْفَانَ. فَقَالَ: يَا كُرَيْبُ! انْظُرْ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ النَّاسِ. قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَاسٌ قَدِ اجْتَمَعُوا لَهُ. فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ: تَقُولُ هُمْ أَرْبَعُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَخْرِجُوهُ. فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ))[3]. قال ابن هبيرة: (هذا الحديث يدل على أن المصلين على الميت شفعاء فيه، وأنهم كلما كثروا كان أفضل عند الله عز وجل)[4].

قال الشوكاني: ("قوله يبلغون مائة"[5]: فيه استحباب تكثير جماعة الجنازة ويطلب بلوغهم إلى هذا العدد والذي يكون من موجبات الفوز، وقدر ذلك بأمرين: الأول: أن يكونوا شافعين فيه، أي مخلصين له الدعاء. الثاني: أن يكونوا مسلمين ليس فيهم من يشرك بالله شيئًا كما في حديث ابن عباس)[6].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٧١/٥.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٣٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٣٤، ٩٣٥).

(٣) أخرجه مسلم ٩٤٨.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٣٠/٣.

(٥) وذلك في حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧١٢.

وقال ابن عثيمين: (وكلها [أي هذه الأحاديث] تدل على أنه كلما كثر الجمع على الميت كان ذلك أفضل وأرجى للشفاعة، ففي حديث عائشة أنه من صلّى عليه طائفة من الناس يبلغون مائة يشفعون له إلا شفعهم الله فيه، ومعلوم أن المصلين على الجنازة يشفعون إلى الله عز وجل لهذا الميت، فهم يسألون من الله له المغفرة والرحمة، والدعاء للميت في الجنازة من أوجب ما يكون في الصلاة، بل هو ركن من أركان الصلاة لا تصح صلاة الجنازة إلا به، إلا المسبوق، وحديث ابن عباس يدل على أنه من قام على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه - أي قَبِل شفاعتهم فيه - وهذه بشرى للمؤمن، إذا كثر المصلون على جنازته فشفعوا له عند الله أن الله تعالى يشفعهم فيه.

أما حديث مالك بن هبيرة ففيه أن الرسول ﷺ قال: من صلّى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب، يعني وجبت له الجنة، وهذه الأحاديث كلها تدل على أنه كلما كثر الجمع كان أفضل، ولهذا نجد أن بعض الناس إذا صلى على جنازة في مسجد نبه أهل المساجد الأخرى ليحضروا إليه، حتى يكثر الجمع، فينبغي للإمام إذا رأى الناس جاءوا ليشهدوا صلاة الجنازة قد فاتهم شيء من صلاة الفريضة ألا يتعجل بالصلاة على الميت، حتى ينتهي الذين يقضون صلاتهم ليشاركوا الحاضرين في الصلاة على الميت، فيكون ذلك أكثر للجمع، وربما تكون دعوة واحد منهم هي المستجابة، وكون بعض الناس بعد ما يسلم يقوم ويصلي على الجنازة وخلفه صف أو أكثر فهذا - وإن كان جائزًا- لكن الأفضل أن ينتظر حتى يتم الناس صلاتهم ويصلون على الجنازة وهذا لا يفوت شيئًا كثيرًا، غاية ما هنالك عشر دقائق على الأكثر)[1].

ثانيًا - من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين:

هذا واضحٌ من هذه الأحاديث التي بينت فضل الله على عبده الميت في قبوله دعاء المصلين[2]. قال الطيبي: (قال التوربشتي: لا تضاد بين حديث كريب وحديث عائشة،

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١١٩٧-١١٩٨.

(٢) أي المصلين عليه صلاة الجنازة التي من مقصودها الدعاء له.

لأن السبيل في أمثال هذا المقام أن يكون الأقل من العددين متأخرًا، لأن الله تعالى إذا وعد المغفرة في المعنى الواحد مرتين، وإحداهما أيسر من الأخرى، لم يكن من سنته أن ينقص من الفضل الموعود بعد ذلك، بل يزيد عليه فضلاً منه وتكرمًا على عباده. أقول [أي الطيبي]: هذا كلام حسن، لأن الحديث الثاني [أي حديث عائشة في تحديد العدد بمائة] فيه مبالغة وتشديد ليس في الأول، وذلك أنه ﷺ جعل قوله: "يصلى عليه أمة من المسلمين" توطئة لقوله "يبلغون مائة" ثم أكد بقوله كلهم يشفعون له"[(١)].

قال المباركفوري: (في قوله ﷺ "من صلّى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب" فمعنى أوجب أي: أوجب الله عليه الجنة، أو أوجب مغفرته وعدًا منه وفضلاً)[(٢)].

قال النووي: (يحتمل أن يكون النبي ﷺ أُخبر بقبول شفاعة مائة فأخبر به، ثم بقبول شفاعة أربعين، ثم ثلاثة صفوف، وإن قل عددهم. فأخبر به. ويحتمل أن يقال: هذامفهوم عدد ولا يحتج به جماهير الأصوليين، فلا يلزم من الإخبار عن قبول شفاعة مائة منع قبول ما دون ذلك، وكذا في الأربعين مع ثلاثة صفوف، وحيئنذ كل الأحاديث معمول بها، ويحصل الشفاعة بأقل الأمرين: من ثلاثة صفوف وأربعين)[(٣)].

وقال أبو العباس القرطبي: (قيل: سبب هذا الاختلاف اختلاف السؤال، وذلك أنه سئل مرّة عمن صلّى عليه مائة واستشفعوا له فقال: "شفعوا"، وسئل مرة أخرى عمن صلّى عليه أربعون فأجاب بذلك، ولو سئل عن أقل من ذلك لقال ذلك. والله أعلم. إذ قد يستجاب دعاء الواحد ويقبل استشفاعه)[(٤)].

وقال ابن تيمية: (قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب، فذكرها وذكر منها: (السبب الرابع -الدافع للعقاب-: دعاء

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٦٨/٣.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٩٢/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٠/٩/٤.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٠٥/٢.

المؤمنين للمؤمن، مثل صلاتهم على جنازته، فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مَائَةً. كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ. إلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ))[1] وعن ابن عباس قال: ((مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إلاَّ شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ))[2] رواهما مسلم، وهذا دعاء له بعد الموت، فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن النقي الذي اجتنب الكبائر وكفرت عنه الصغائر، وحده، فإن ذلك مغفور له عند المتنازعين [أي عند أهل الاختلاف من أهل العلم] فعلم أن هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت.

السبب الخامس: ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ونحوها، فإن هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة واتفاق الأئمة، وكذلك العتق والحج بل قد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ((مَن ماتَ وعليهِ صيامٌ صامَ عنهُ وليُّه))[3].

وثبت مثل ذلك في الصحيح من صوم النذر من وجوه أخرى[4]. ولا يجوز أن يعارض هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[5] لوجهين:

أحدهما: أنه قد ثبت بالنصوص المتواترة وإجماع سلف الأمة أن المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه، كدعاء الملائكة واستغفارهم له، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[6] الآية ودعاء النبيين والمؤمنين واستغفارهم كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[7] وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ

---

(١) أخرجه مسلم ٩٤٧.

(٢) أخرجه مسلم ٩٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٥٢، ومسلم ١١٤٧.

(٤) أخرجه مسلم ١٥٦-١١٤٨.

(٥) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٦) سورة غافر، آية: ٧.

(٧) سورة التوبة: آية: ١٠٣.

قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾[١] وقوله عز وجل ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٢] وكدعاء المصلين للميت، ولمن زاروا قبره من المؤمنين.

الثاني: أن الآية ليست في ظاهرها: أنه ليس له إلا سعيه، وهذا حق. فإنه لا يملك ولا يستحق إلا سعي نفسه، وأما سعي غيره فلا يملكه ولا يستحقه، لكن هذا لا يمنع أن ينفعه الله ويرحمه به، كما أنه دائمًا يرحم عباده بأسباب خارجة عن مقدورهم، وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد بأسباب يفعلها العباد، ليثيب أولئك على تلك الأسباب، فيرحم الجميع كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: ((مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لأَخِيهِ بِدَعْوَةٍ إِلاَّ وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ مَلَكًا، كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ قَالَ الملك: آمِينُ ولَكَ بِمِثْلٍ))[٣] وكما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: ((مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ وَلَمْ يَتْبَعْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ. فَإِنْ تَبِعَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ))[٤] فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له، ويرحم الميت -أيضًا- بدعاء هذا الحي له.

السبب العاشر: رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد)[٥].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

هذا واضح في الأحاديث الثلاثة: ففي حديث عائشة وحديث ابن عباس رضي الله عنهم رغب ﷺ في تكثير المصلين في الصلاة على الميت، بأن أخبر أن الله يقبل دعاءهم له بالمغفرة والرحمة. كما أخبر ﷺ (أن من صلى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب أي أوجب الله عليه الجنة أو أوجب مغفرته وعدًا منه وفضلاً)[٦]. ولا شك أن هذا ترغيب للمدعوين وحث لهم أن يفعلوا ما أخبر به النبي ﷺ، وخاصة في وقت يكون فيه الميت أحوج ما

(١) سورة التوبة، آية: ٩٩.

(٢) سورة محمد، آية: ١٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧٣٣.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٢٥، ومسلم واللفظ له ٩٤٥.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩٩/٤-٣٠٨، ٤٨٦/٧-٥٠٠.

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٩٢/١.

يكون إلى دعاء إخوانه المسلمين وشفاعتهم له عند ربه عز وجل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على فعل ما أرشدهم إليه النبي ﷺ

هذا واضح من قول ابن عباس رضي الله عنهما لمولاه كريب لما مات ابن له: انظر ما اجتمع له من الناس، قال كريب: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه".

كما يتضح ذلك أيضًا من فعل مالك بن هبيرة رضي الله عنه لما صلّى على جنازة فتقالّ الناس عليها، فجزأهم عليها ثلاثة أجزاء ثم قال: قال رسول الله ﷺ: "من صلى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب".

ومن هذا القبيل ما رواه حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: ((سألتُ رسولَ اللّهِ ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألتهُ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثمَّ قال: يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوةُ، فمن أخذَهُ بَسخاوةِ نفسٍ بوركَ له فيه، ومن أخذَهُ بإشرافِ نفسٍ لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ. اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلى. قال حكيمٌ: فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ، والذي بَعثَكَ بالحقِّ لا أرزأُ أحدًا[1] بعدَكَ شيئًا حتى أُفارِقَ الدنيا. فكان أبو بكرٍ ﷺ يَدعو حكيمًا إلى العطاءِ فيأبى أن يَقبلَه منه. ثمَّ إن عمرَ رضي الله عنه دعاهُ ليعطِيَهُ فأبى أن يَقبلَ منهُ شيئا، فقال عمرُ: إني أُشهِدُكم يا معشرَ المسلمينَ على حكيمٍ أني أعرِضُ عليهِ حقَّهُ من هذا الفَيْءِ فيأبى أن يأخُذَه، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا منَ الناسِ بعدَ رَسولِ اللّهِ ﷺ حتى تُوُفِّي))[2].

وإنما حرص الصحابة على فعل ما أرشدهم النبي ﷺ لأنه ﷺ رسول رب العالمين، المبلغ عنه عز وجل، فكان ﷺ لا يأمر إلا بما فيه خير وصلاح، ولا ينهى إلا عما فيه شر وفساد. وفي هذا يقول الشافعي: (لم تُمْسِ بنا نعمةٌ ظهرت ولا بطنت، نلنا بها حظًا في دين ودنيا، أو دفع بها عنا مكروه فيهما وفي واحد منهما إلا ومحمد ﷺ

---

(١) أي لا أنقص ماله بالطلب منه، فتح الباري، ابن حجر ٣/٣٣٦.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٧٢، ومسلم ١٠٣٥.

سببها القائد إلى خيرها، والهادي إلى رشدها، الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد، المنبه للأسباب التي تورد الهلكة، القائم بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فيها)[1].

(١) الرسالة ٤٥.

الحديث رقم (٩٣٤)

٩٣٤- وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

شَفَّعَهُمُ: قبل شفاعتهم واستغفارهم له، وغفر له[٢].

الشرح الأدبي

أسلوب التعميم للكلام يعطي الحكم صلاحية عبر الزمان، والمكان، وله طرق متعددة منها وقوع النكرة في سياق النفي كما ورد في هذا الحديث، فالحكم يشمل كل ميت من المسلمين يصلي عليه أربعون موحداً، وتخصيص المسلم لنفي الحكم عن غيره والتعبير بالقيام يفيد العناية، والاهتمام بأمر الصلاة عليه، والدعاء له، وقوله (رَجُلاً) لن النساء لا يحضرون الجنائز، وقوله: (لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئاً) تكميل بلاغي أفاد الإشارة إلى تمام الإخلاص، وأكدته النكرة التي أفادت التعميم فنفت قليل الشرك، وكثيره، وقوله: (إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ) بقية جملة القصر التي شملت الحديث كله، وقد قصرت صفة قيام الأربعين مسلماً على ما وصفوا على الشفاعة لا يتعدونها إلى الحرمان، وفي الحديث استحباب تكثير المصلين على الجنازة، ويطلب بلوغهم إلى هذا العدد الذي يكون من موجبات الفوز، وقد قيد ذلك بأمرين الأول أن يكونوا شافعين فيه أي مخلصين له الدعاء سائلين له المغفرة الثاني أن يكونوا مسلمين ليس فيهم من يشرك بالله شيئا.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) برقم ٩٤٨/٥٩، وتقدم برقم ٤٣٠. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٤٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ف ع).

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٣٥)

٩٣٥ - وعن مرثد بن عبد الله اليَزَنِيِّ، قَالَ: كَانَ مَالِكُ بن هُبَيْرَة رضي الله عنه إذَا صَلَّى عَلَى الجِنَازَةِ[١]، فَتَقَالَّ النَّاس عَلَيْهَا، جَزَّأَهُمْ عَلَيْهَا[٢] ثَلاثَةَ أجْزَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلاثَةُ صُفُوفٍ فَقَدْ أوْجَبَ)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[٣]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

مالك بن هُبَيْرَة: وهو مالك بن هُبَيْرة بن خالد بن مسلم، السكوني الكندي، وكان يكنى بأبي سعيد، له صحبة، ولم يرو إلا حديثًا واحدًا في الصف على الجنازة، وهو موجود في سنن أبي داود، وابن ماجه، والترمذي، ومستدرك الحاكم، وهو معدود في الشاميين من أهل حمص، وقيل هو معدود فيمن نزل مصر من أصحاب رسول الله ﷺ، أما عن جهاده فيقال: كان فيمن شهد فتح مصر من الصحابة، وكان أميرًا على الجيوش لمعاوية في غزو الروم، وكان قد شهد مع مروان بن الحكم المرج - مرج راهط- سنة (٦٥)، وكان على الرّجّالة.

ولاه معاوية على حمص سنة (٥٦) ثم عزله في شهر المحرم سنة (٥٧)، وكانت له دار عند الباب الشرقي بدمشق.

ومات رضي الله عنه زمن مروان بن الحكم بقرية تسمى بيت رأس - قرية بنواحي الأردن، وأخرى من نواحي حلب-[٤].

---

(١) لفظ الترمذي: (جنازة) بدون أل التعريف.

(٢) (عليها) لا توجد عند الترمذيّ.

(٣) أخرجه أبو داود ٣١٦٦، والترمذي واللفظ له ١٠٢٨. وقال الحاكم ٣٦٣/١: هذا حديث صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه. قال الحافظ ابن حجر في الإتحاف ١١٦/١٢: وأشار الترمذي إلى انقطاعه، وأنّ بعضهم أدخل بين مرثد ومالك رجلاً.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٦٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٤٩/٥، ٥٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١١٦٩، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٢٣/٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١٦/٤، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٧١٠/٣.

غريب الألفاظ:

تقالَّ: من القلة: إذا رأى الشيء قليلاً[١].

أوجب: وجبت له الجنة[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يحمل جانباً عملياً يتمثل في تطبيق عملي من الصحابي لتوجيه النبي ﷺ مما يدل على حرص الصحابة -رضوان الله عليهم- امتثال أمره، ، وقوله (جَزَّأَهُمْ عَلَيْهَا ثَلاَثَةَ أَجْزَاءٍ) فيه جناس يؤكد المعنى، ويقويه، وقول الرسول ﷺ (مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلاَثَةُ صُفُوفٍ فَقَدْ أَوْجَبَ) التعريف بالموصول يشير إلى أنه جدير بما يوصف به من جملة الصلة، والفعل الماضي يدل على التحقق، وقوله (ثلاثة صفوف) فيه إيجاز بالحذف أي من المسلمين ثلاثة صفوف، وقوله: (فقد أوجب) معناه وجبت له الجنة أو وجبت له المغفرة.

المضامين الدعوية[٣]

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ل ل).

(٢) المرجع السابق في (و ج ب).

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٣٥- مع المضامين الدعوية للحديث (٩٣٣، ٩٣٤).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على تصحيح العقيدة والابتعاد عما يناقضها:

اهتمت التربية الإسلامية بالعقيدة اهتماماً كبيراً، وركزت على أهمية تصحيحها لما لذلك من آثار عظيمة في حياة الأفراد والمجتمعات، ولذا جاءت التربية النبوية لتؤكد على أهمية تصحيح العقيدة، وتبين أن مناط القبول عند الله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة الصحيحة.

ففي حديث ابن عباس اشترط النبي ﷺ لقبول شفاعة مصلي الجنازة في الميت صحة العقيدة والابتعاد عن الإشراك بالله تعالى فقال ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَىٰ جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئاً إلاَّ شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ».

وهذا ليس قاصراً على الجنازة فحسب بل إنه يسري على جميع الأعمال، فلا قيمة لعمل لا يعتمد على أساسٍ من العقيدة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾(١).

لذا ينبغي على المربين تعميقُ العقيدة وتصحيحُها وترسيخُها في قلوب المتعلمين خاصة الناشئة منهم، والتحذير من عمل من شأنه أن يؤثر على العقيدة أو يفسدها.

إن الإنسان يولد مفطوراً على الإيمان لكن تأثير البيئة والثقافة ونحوهما قد يؤثر على الفطرة، لذا يجب أن يعمل القائمون على التربية والتوجيه على التحذير من الأمور التي من شأنها أن تؤثر على سلامة العقيدة من الأفكار الهدامة والعقائد الباطلة، ويكون ذلك من خلال عدد من الأمور من أبرزها ما يلي:

أ- التحذير من عبادة غير الله وتوضيح أن العبادة لا تكون إلا لله وحده فهو سبحانه المستحق للعبودية.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

ب- التحذير من التقليد الأعمى.

ج- التحذير من السخرية من الدين وشعائره.

د- التحذير من تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله.

هـ- التحذير من الإلحاد، وجحود الشرائع السماوية التي جاء بها الرسل[١].

لذا ينبغي على المسلم أن يحذر من كل ما من شأنه أن يؤثر على عقيدته أو يشوب صفاءها، لأنه إذا صلحت العقيدة صلحت الأعمال وإذا فسدت العقيدة خاب صاحبها وخسر، فلا ينتفع بعمل ولا تقبل منه شفاعة، ولا يؤخذ منه عدل، فلا ينتفع هو بعمله، ومن ثَمَّ من باب أولى لا ينتفع الآخرون منه بعمل.

ثانياً- التربية بالقدوة والممارسة العملية:

إن التربية الإسلامية تعوّل بشكل أساسي على القدوة والممارسة العملية لما لها من تأثير مباشر على النفوس، وقد ركز النبي ﷺ على التربية بالقدوة فيما قام به من تطبيقات عملية لأقواله، مما أثر تأثيراً قوياً ومباشراً في نفوس أصحابه رضي الله عنهم، وبالتالي كانوا هم قدوة لغيرهم، لأن التربية بالقدوة ممتدة الأثر لأنها تعتمد على المصداقية والتطابق بين القول والعمل، ومن الشواهد في أحاديث الباب على التربية بالقدوة ما ورد عن مَرْثَدِ بن عَبْدِ الله اليَزَنِيِّ ، قالَ: كانَ مَالِكُ بنُ هُبَيْرَةَ رضي الله عنه إذا صَلَّى على جَنَازَةٍ فَتَقَالَّ النَّاسَ عَلَيْهَا جَزَّأَهُم ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ ثُمَّ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلاثَةُ صُفُوفٍ فقد أَوْجَبَ»، فمالك بن هبيرة رضي الله عنه في الحديث لم يكتف بنقل حديث رسول الله ﷺ إلى الناس وإنما شفع ذلك بالممارسة العملية لهذا الإرشاد، مما يرسخ عملية التربية في النفوس من خلال التطبيق العملي.

إن أسلوب القدوة منهج تربوي إسلامي أصيل درج عليه المربون على مر الأجيال والعصور.

فالرسول ﷺ هو القدوة والأسوة، قال سبحانه وتعالى في حقه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢].

---

(١) انظر: تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ٢٠٦- ٢٠٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

وقد اقتدى الصحابة رضي الله عنهم برسول الله ﷺ في كافة الأمور وفي سائر الأحوال.

واقتدى التابعون بالصحابة، ساروا سيرهم وسلكوا سلوكهم واقتفوا آثارهم.

وفي كل عصر وُجِدت المثُلُ التي تُقتدى، والإنسان الذي يَقْتدى، ومن هنا انطلقت الصيحات المصلحة في كل ميادين الحياة فكانت النهضات الثقافية والعلمية والاجتماعية.

لذا فإن أسلوب القدوة من أنجح الأساليب في نقل منهج التربية الإسلامية بمقوماته وبأساليبه وبأهدافه، وقد تخرج على هذا المنهج أعظم قادة الحرب وأبرع رجال السياسة وأعلم العلماء في الطب والرياضيات والعلوم والاجتماع، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وابتعدوا عن منهج القدوة فتخلفوا والتقط غيرهم هذا المنهج فتقدموا[1].

لذا ينبغي على المربين ألا يغفلوا أسلوب التربية بالقدوة بأي حالٍ من الأحوال، خاصة مع الناشئة والأطفال "فالأطفال بمراقبتهم لسلوك الكبار فإنهم يقتدون بهم فإن وجدوا أبويهما صادقين سينشئون على الصدق، وهكذا في باقي الأمور، كذا الوالدان مطالبان بتطبيق أوامر الله تعالى وسنة رسوله ﷺ سلوكاً وعملاً والاستزادة من ذلك ما وسعهم ذلك لأن أطفالهم في مراقبة مستمرة لهم صباح مساء وفي كل آن"[2].

ثالثاً- التربية على المشاركة في فعل الخيرات:

ترنو التربية الإسلامية إلى صياغة الشخصية الإسلامية الإيجابية التي تسارع في الخيرات، وتسعى في جلب الخير للآخرين سواء كانوا أحياءً أم أمواتاً، ومن هنا ربى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على المشاركة الإيجابية الفاعلة والتي من جملتها حضور الجنائز والمشاركة في الصلاة على الميت ومسارعة الجميع لذلك، نظراً للخير المترتب على حضور تلك الصلاة والدعاء للميت والشفاعة له، ولا شك أن هذه التربية متميزة تحرص على جلب الخير للمسلمين وتزرع في نفس المسلم حب هذا العمل وتجعله حريصاً

---

(١) انظر: التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، محمد أحمد جاد صبح، ١/١٤٠-١٤٤.

(٢) المنهج النبوي في تربية الطفل، عبدالباسط السيد ص ٧٤، ٧٥.

على المشاركة فيه، نظراً للخير الذي سيصل إلى الميت من دعاء وشفاعة مَنْ صلوا عليه صلاة الجنازة، ولن يحرم من صلى على الميت من الثواب العظيم المتمثل في حصوله على قيراط لقول النبي ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّىٰ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ»، والقيراط مثل الجبل العظيم من الثواب، وقد حث النبي ﷺ ورغب في الصلاة على الميت فقال: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مَائَةً. كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ. إلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ»، مع مراعاة ما ورد في صلاة الجنازة وغيرها من آداب.

وفي حديث ابن عباس «أربعون رجلاً» وكذا في عدد الصفوف كما في حديث مالك بن هبيرة رضي الله عنه «من صلى عليه ثلاثة صفوف...» "فإن العدد هنا لا مفهوم له"[١].

لذا ينبغي التربيةُ والتنشئةُ على امتثال ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من عبادات وغيرها والالتزام بما جاء من آداب وحدود وكيفيات وهيئات، فذلك كله تعظيم لأمر الله سبحانه، وأمر رسوله ﷺ، ولنا في الجيل الأول - الصحابة- الذي رُبي على يد رسول الله ﷺ القدوة الحسنة والأسوة الطيبة، فقد كانوا يسارعون إلى تنفيذ أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ عملاً بقوله الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[٣][٤].

رابعًا- من الأساليب التربوية: الإلقاء:

كما في الحديثين الأولين من أحاديث الباب؛ والإلقاء يكون عن طريق العرض الشفهي للمعلومات، وهو يمكن المتعلم من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت أمام أكبر عدد من المتعلمين، ولذا كان مناسبًا في المراحل التعليمية المتقدمة: كالمرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية.

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥١١.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٢.

(٤) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٥١، ٥٢.

خامسًا- من مهام المربي: تطبيق السنة:

وهذا يتضح جليًا في تصرف مالك بن هبيرة رضي الله عنه عندما كان يصلي على جنازة وكان عدد المصلين قليلاً، فكان يجعلهم ثلاثة صفوف، وذلك لكي يكون الميت ممن قال في حقه النبي صلى الله عليه وسلم: "من صلى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب" أي أن مالك بن هبيرة فعل ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم وحض ورغب، وفي ذلك إرشاد للمربين والمعلمين وكل من يضطلع بمسؤولية توجيهية ووعظية ونحو ذلك، أن يعملوا على تربية الناشئة وغيرهم على أن يطبقوا ما تكلموا به من السنة النبوية الشريفة، وليس هذا فحسب، بل إن عليهم أيضًا أن يكونوا أول المطبقين للسنة المنفذين لها الممتثلين لها المدافعين عنها؛ فهي سنة من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم.



١٥٧- باب ما يقرأ في صلاة الجنازة

يُكَبِّرُ أرْبَعَ تَكبيرَاتٍ، يَتعوَّذُ بَعْدَ الأولَى، ثُمَّ يَقْرأُ فَاتِحَةَ الكِتَابِ، ثُمَّ يُكَبِّرُ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ يُصلِّي عَلَى النَّبيِّ ﷺ، فيقول: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ. وَالأفْضَلُ أنْ يُتَمِّمَهُ بقوله: كَمَا صَلَّيتَ عَلَى إبرَاهِيمَ - إلَى قَوْله - إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وَلاَ يَقُولُ مَا يَفْعَلُهُ كَثيرٌ مِنَ العَوامِّ مِنْ قراءتِهِمْ: ﴿إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَه يُصلُّونَ عَلَى النَّبيِّ﴾[الأحزاب: ٥٦] الآية، فَإنَّهُ لاَ تَصحُّ صَلاَتُهُ إذَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُكَبِّرُ الثَّالِثَةَ، وَيَدعُو للمَيِّتِ وَللمُسلِمِينَ بِمَا سَنَذكُرُهُ مِنَ الأحاديث إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ يُكَبِّرُ الرَّابِعَةَ وَيَدْعُو. وَمِنْ أحْسَنِهِ: ((اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنَا أجْرَهُ، وَلاَ تَفْتِنَّا بَعدَهُ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ)). وَالمُخْتَارُ أنه يُطَوِّلُ الدُّعاء فِي الرَّابِعَة خلافَ مَا يَعْتَادُهُ أكثَرُ النَّاس، لحديث ابن أبي أَوْفى الذي سَنَذْكُرُهُ إنْ شَاء اللهُ تَعَالَى.

وَأمَّا الأدْعِيَةُ المَأثُورَةُ بَعْدَ التَّكبيرَةِ الثالثة، فمنها:

الحديث رقم (٩٣٦)

٩٣٦- عن أبي عبد الرحمان عوف بن مالك رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّى رسول الله ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: **((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِن الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأبْيَضَ مِنَ الدَّنَس، وَأبدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأهْلاً خَيرًا مِنْ أهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأدْخِلهُ الجَنَّةَ، وَأعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ))** حَتَّى تَمَنَّيتُ أن أكُون أنَا ذَلِكَ المَيِّت. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عوف بن مالك الأشجعي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٢٨).

غريب الألفاظ:

أكرم نزله: أي أحسن نصيبه من الجنّة[2].

---

(١) برقم ٨٥/٩٦٣.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٤٩.

مدخله: الموضع الذي يدخل فيه وهو قبره الذي يدخله الله فيه[١].

الدنس: الوسخ[٢].

أعذه: خلصه[٣].

الشرح الأدبي

قول الراوي (فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ) يشير إلى أنه لم يحفظ الدعاء كله، والحديث يدور حول ثلاثة محاور: الأول محور المغفرة، والثاني التطهير، الثالث، التبديل، وقد قام المحور الأول على الأسلوب الإنشائي بالأمر بمعنى الدعاء (اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ) وجملة الأوامر تحيط بكل ما يلزم الميت من مغفرة تقتضي ستر الذنب، وعافية تقتضي محوه وتتخطى به هول المواقف، وإكرام، وسعة، والمحور الثاني: ويقوم على الأمر الدعائي مع التشبيه (وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّه مِن الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ،)، وذكر الثلج، والبرد مع الماء مبالغة في التطهير مع الإشارة إلى الصفاء، والنقاء وسلامة الفطرة التي تثيرها هذه الكلمات، والتشبيه بالثوب لظهور الصورة للجميع لأنه أمر معتاد للناس، ويتساوى في فهمها الجميع، ثم إن الثوب مما تفارقه الأوساخ بالغسل مفارقة تامة، واختيار الأبيض فيه إشارة إلى الفطرة، ولأنه يظهر عليه أقل وسخ فيتتبع بالغسل، فإذا تم غسله كان في قمة النقاء لا يخفي شيئاً، المحور الثالث، وهو محور التبديل، ويقوم على أسلوب الأمر بغرض التضرع، والدعاء مع أسلوب التفضيل (وَأبدلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ، وَأهْلاً خيراً مِنْ أهْلِهِ، وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وَأدْخِلهُ الجَنَّةَ، وَأعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ) والتبديل شمل الدار، والأهل، والزوجة مع ضمان الخير من التفضيل، ثم إنه ختم له بالدعاء بالجنة، والنجاة من النار، حتى أن الراوي تمنى أن يكون هو الميت من عظمة ما سمع لأنه يعلم أن دعاء الرسول ﷺ مستجاب.

---

(١) المرجع السابق ١١٤٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د ن س).

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٤٩.

فقه الحديث

تشير هذه الأحاديث إلى الأحكام التالية:

أولاً: حكم الدعاء للميت: ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن الدعاء ركن من أركان صلاة الجنازة(١).

والواجب أدنى الدعاء؛ لأن النبي ﷺ قال: ((إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء))(٢). وهذا يحصل بأدنى الدعاء؛ لأن المقصود الشفاعة للميت والدعاء فيجب أقله، وأقله ما يقع عليه اسم الدعاء(٣).

ثانيًا: تخصيص الميت بدعاء: ذهب جمهور الفقهاء ومنهم الحنفية والمالكية والشافعية في مقابل الأصح والحنابلة إلى أن الميت لا يخصص بدعاء معين وإنما يدعو المصلي بالمأثور(٤).

---

(١) فتح القدير، كمال الدين بن الهمام ١١٨/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٣/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٩٥/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٥، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٨١/٢، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٣٦٠/١.

(٢) أخرجه أبو داود ٣١٩٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٧٤٠).
وأخرجه ابن ماجه ١٤٩٧ من حديث أبي هريرة أيضًا وحسنه السيوطي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٣٩٢/١ ووافقه المناوي، قال ابن حجر: فيه محمد بن إسحاق وقد عنعن لكن أخرجه ابن حبان ٣١/٥ من طريقين آخرين مصرحًا بالسماح أ. هـ. من تلخيص الحبير ١٢٢/٢ ط/ شركة الطباعة الفنية.

(٣) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٨١/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٥.

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٩٧/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٣/٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٥، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٨/١ - ٩، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٣٦٠/١.

وذهب الشافعية في الصحيح إلى وجوب تخصيص الميت بالدعاء[١].

ثالثًا: محل الدعاء: هل يكون الدعاء في كل تكبيرة أم يكون بعد التكبيرة الثالثة أو الرابعة؟

ذهب جمهور الفقهاء ومنهم الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أن الدعاء يكون بعد التكبيرة الثالثة[٢].

وذهب المالكية إلى أن الدعاء يكون بعد كل تكبيرة ويدعو وجوبًا بعد التكبيرة الرابعة على المختار[٣].

المضامين الدعوية[٤]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الدعاء للميت في صلاة الجنازة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: طلب الحياة على الإيمان والموت عليه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التقدير العظيم من الصحابة لكلام النبي ﷺ.

رابعًا: من وسائل الدعوة: الدعاء.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الدعاء للميت في صلاة الجنازة:

هذا واضح من هذه الأحاديث وغيرها التي في الباب[٥]، قال النووي عن حديث عوف

---

(١) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٣١٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٥.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٦٧/٢، ودرر الحكام شرح غرر الأحكام لملا خسرو ١٦٣/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٦/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٣١٩/١، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٣٦٠/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٨١/٢.

(٣) الشرح الكبير للدردير ٤١٢/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٩٧/١.

(٤) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٣٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٣٧).

(٥) انظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٨٥-١٨٦.

ابن مالك رضي الله عنه: (فيه إثبات الدعاء في صلاة الجنازة، وهو مقصودها ومعظمها، وفيه استحباب هذا الدعاء)[١]، وقال ابن القيم: (ومقصود الصلاة على الجنازة، هو الدعاء للميت، لذلك حفظ عن النبي ﷺ ونقل عنه ما لم ينقل من قراءة الفاتحة والصلاة ﷺ)[٢].

وقال ابن تيمية: (فالله قد يرحم المصلّي على الميت بدعائه له، ويرحم الميت -أيضًا- بدعاء هذا الحي له)[٣].

وقال محمد بن إبراهيم التويجري: (شهود الجنازة واتباعها فيه فوائد جمة، أهمها: أداء حق الميت بالصلاة عليه، والشفاعة فيه والدعاء له، وأداء حق أهله، وجبر خاطرهم عند مصيبتهم في ميتهم، وتحصيل الأجر العظيم للمشيع، وحصول العظة والاعتبار بمشاهدة الجنائز وغير ذلك)[٤].

قال ابن عثيمين في شرح حديث عوف بن مالك رضي الله عنه: (قوله: "اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله" يعني ضيافته يعني أكرمه في ضيافته، لأن الميت في ضيافة الله عز وجل، إذا انتقل من هذه الدنيا إلى قبره، فهو إما أن يكون في قبره معذبًا أو منعمًا. ويقول "وأوسع مدخله" يعني: أوسع قبره، لأنه يدخل فيه "واغسله بالماء والثلج والبرد" يعني: طهره من الذنوب بالماء والثلج والبرد، ذكر الثلج والبرد، لأنه بارد، وذكر الماء لأن به النظافة، والذنوب - أجارنا الله وإياكم منها-عقوبتها حارة، فناسب أن يقرن مع الماء الثلج والبرد، فيحصل بالماء التنظيف ويحصل بالثلج والبرد التبريد.

"ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس" يعني نظفه كاملاً من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ، وذكر الثوب الأبيض، لأنه هو الذي تظهر فيه أدنى دنسة، فإذا كان الثوب الأبيض نقيًا فمعناه أنه ليس به دنس إطلاقًا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٢/٧/٤، .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٠٥/١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٠٧/٤، ٤٩٩/٧.

(٤) مختصر الفقه الإسلامي ٥٧٨. وهو بلفظه في توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٥٣٤/٢.

بخلاف الثوب الأسود والأحمر والأخضر وما أشبه ذلك، فإنه ليس كالأبيض تبين به الدنسة بيانًا واضحًا. "اللهم أبدله دار خيرًا من داره" لأنه انتقل من دار الدنيا إلى دار البرزخ، ودار الدنيا -كما نعلم- دار محن وأذى وكدر، فيقول "أبدله دارًا خيرًا من داره" ليكون منعمًا في قبره[١]. "وأهلاً خيرًا من أهله" أهله: ذووه كأمه وخالته وبناته وأبيه وابنه وما أشبه ذلك. "وزوجًا خيرًا من زوجه" يعني زوجة خيرًا من زوجته، وذلك من الحور العين، وكذلك بزوجته في الدنيا، لأن الإنسان إذا تزوج امرأة في الدنيا وماتت على الإيمان، فإنها تكون زوجته في الآخرة، فإن قال قائل: كيف تكون خيرًا من زوجتي وهي واحدة في الدنيا؟ نقول: خيرًا منها في الصفات والجمال وغير ذلك[٢].

"وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار" كل هذا هو دعاء يدعو به الإنسان للميت، وينبغي أن يخلص الإنسان للميت في هذا الدعاء)[٣].

وقال ابن عثيمين في شرح حديث "اللهم اغفر لحينا وميتنا ... إلخ" قال: (وهذه الجمل تغني عنها جملة واحدة لو قال: اللهم اغفر لحينا وميتنا شمل الجميع. لكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط والتفصيل، لأن الدعاء كل جملة منه عبادة لله عز وجل، وإذا كررته ازددت بذلك ثوابًا، فقوله: "حينا وميتنا" يشمل الحي الحاضر، والميت القديم والميت في عصره، "وصغيرنا وكبيرنا" كذلكم أيضًا يشمل الصغير والكبير الحي والميت، وذكر الصغير مع أن الصغير لا ذنب له من باب التبعية [أي جاء ذكره تبعًا لذكر الكبير]. وإلا فإن الصغير ليس له ذنب حتى تسأل له المغفرة "وذكرنا وأنثانا" مثلها عامة "وشاهدنا وغائبنا" الحاضر والمسافر مثلاً. "اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته فتوفه على الإيمان" الحياة ذكر معها الإسلام وهو الاستسلام الظاهر.

---

(١) وقال عبدالله البسام: بأن تبدله دار كرامتك الجنة عن دار الدنيا التي رحل عنها. توضيح الأحكام ٥٢٤/٢.

(٢) وقال البسام: هذا التبديل إما بالأعيان بأن يعوضه الله عنهم في دار كرامته، وإما تبديل أوصاف بأن تعود العجوز شابة، وسيئة الخلق حسنة خلق. السابق ٥٢٤/٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١١٩٩/٢، وانظر شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٦٤/٣. وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٢٤/٢-٥٢٥.

وأما الموت فقال: توفه على الإيمان، لأن الإيمان أفضل ومحله القلب. والمدار على ما في القلب عند الموت وفي يوم القيامة "اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده" لا تحرمنا أجره يعني: بالصلاة عليه، لأن الإنسان يؤجر بالصلاة على الميت -كما سبق- أن من شهدها حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان[1]. كذلك أيضًا أجر آخر للمصاب بهذا الميت الذي حزن لفراقه، يؤجر أيضًا على صبره على المصيبة[2] "ولا تفتنا بعده" يعني لا تضلنا عن ديننا بعده، لأن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، ما دام الإنسان لم تخرج روحه، فإنه عرضة لأن يفتن في دينه والعياذ بالله. ولهذا قال: "لا تفتنا بعده" فينبغي للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء اقتداءً برسول الله ﷺ)[3].

وقال الصنعاني معلقًا على اختلاف الروايات عن النبي ﷺ في الدعاء للميت قال: (واختلاف الروايات دالٌّ على أن الأمر متسع في ذلك ليس مقصورًا على شيء معين... وإنما الشأن في إخلاص الدعاء للميت؛ لأنه الذي شرعت له الصلاة والذي ورد به الحديث[4])[5].

قال عبدالله البسام: (قال العلماء: إن أصح ما ورد من الدعاء على الميت هو ما جاء في هذين الحديثين، حديث عوف بن مالك وحديث أبي هريرة، وهو من أنفع الأدعية، حتى إن عوف بن مالك لما سمعه من النبي ﷺ تمنَّى أنه هو ذلك الميت، فهو من أجمع الأدعية وأحسنها.

فقد اشتمل على الدعاء للميت بالمغفرة والرحمة، وتنقيته من الذنوب، والدعاء له بحسن المنقلب، وإعاذته من شرور الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٢٥، ومسلم ٩٤٥.

(٢) قال البسام: أي لا تحرمنا الأجر الذي نكسبه من تجهيزه والصلاة عليه وتشييعه، وكذلك الأجر الذي نحصله من صبرنا على المصيبة فيه، أما أجر عمله فهو له وليس لنا منه شيء، ولو طلبنا لكنا معتدين في الدعاء. توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٢٨/٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٢٠٠/٢-١٢٠١، وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٨٨/١.

(٤) وهو الحديث التالي في الرياض برقم ٩٣٨.

(٥) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني، حققه محمد صبحي حسن حلاق ٣٥٧/٣.

وأما حديث أبي هريرة فدعاء لعموم المسلمين الحاضرين والغائبين، والأحياء والميتين، الكبار والصغار، الذكور والإناث، الدعاء لهم بأحسن مطلوب من الثبات على الإسلام، والوفاة على الإيمان، والاستعاذة من الضلال والفتنة بعده)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: طلب الحياة على الإيمان والموت عليه:

هذا واضح من دعاء النبي ﷺ "اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان، اللهم لاتحرمنا أجره ولا تفتنا بعده".

قال المباركفوري: ("فأحيه على الإسلام" أي الاستسلام والانقياد للأوامر والنواهي "فتوفه على الإيمان" أي التصديق القلبي إذ لا نافع حينئذ غيره)[٢].

قال الطيبي: (الإسلام والإيمان يعبران عن الدين كما هو مذهب السلف الصالح)[٣].

قال عبدالله البسام: (قوله "فأحيه على الإسلام-فتوفه على الإيمان" إذا أفرد الإسلام شمل الإيمان وبالعكس، أما إذا اجتمعا كما في حديث عمر[٤] رضي الله عنه حينما جاء جبريل إلى النبي ﷺ فيراد بالإسلام الشرائع العملية الظاهرة، ويراد بالإيمان الاعتقاد في الأمور الستة. وهنا كل منهما مفرد فالإسلام في حال الحياة، والإيمان في الممات، وخص الإيمان في حال الوفاة لأنه أكمل وأولى عند الختام.

وقوله: "ولا تفتنا بعده" فيه الخوف من الفتنة في حال الحياة، إما فتنة شبهة وضلال، وإما فتنة شهوة، فالإنسان في حال الحياة معرض لذلك، وكان من دعاء النبي ﷺ: ((يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك))[٥] والإنسان قد يصاب بالفتنة من حيث لا يشعر، وقد يظن أنه على حق كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٦] فيجب

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٢٩/٢.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٨٨/١.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٧٤/٣.

(٤) أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٩.

(٥) أخرجه الترمذي ٢١٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٣٩).

(٦) سورة الزخرف، الآية: ٣٧.

على الإنسان محاسبة نفسه، وطاعة الله تعالى، وإظهار الفقر بين يديه، فهذا من أسباب العصمة)[١].

وقد قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢].

قال ابن كثير: (هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت النعمة عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: ((اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى، اللَّهُم فِي الرَّفِيقِ الأَعْلى))[٣]. ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله وانقضى عمره، لا أنه سأل ذلك منجزًا[٤]، كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام ويقول الداعي: "اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين)[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التقدير العظيم من الصحابة لكلام النبي ﷺ:

هذا واضح من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه لما سمع النبي ﷺ يدعو بهذه الكلمات للميت في صلاته ﷺ فقال: ((حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ)) وفي رواية:

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٥٢٨.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٤٤٣٧، ومسلم ٢٤٤٤.

(٤) أي حاضرًا معجلًا. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٩٠٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٤١٤، وانظر: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٩/٢٨١.

((فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لَوْ كُنْتُ أَنَا الْمَيِّتَ، لِدُعَاءِ رَسُولِ اللّهِ عَلَى ذٰلِكَ الْمَيِّتِ))[١].

ومن ذلك مارواه عمرو بن تغلب رضي الله عنه: ((أَنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ أُتِيَ بمال - أو سَبيٍ - فقسَمه، فأَعطى رِجالاً وتركَ رجالاً. فبلغَهُ أَنَّ الذينَ تَركَ عَتبوا، فحمِدَ اللّهَ ثمَّ أثنى عليه ثم قال: أَمّا بعدُ فواللّهِ إني لأُعطِي الرجُلَ وأدع الرجل والذي أَدَعُ أَحبُّ إِليَّ من الذي أُعطِي، ولكنْ أُعطِي أَقوامًا لِما أَرَى في قلوبِهمْ منَ الجَزَعِ وَالهَلَع، وأَكِلُ أَقوامًا إلى ما جعلَ اللّهُ في قلوبِهمْ مِنَ الغِنى والخيرِ، فيهم عمرُو بنُ تَغلِبَ، فواللّهِ ما أُحبُّ أَنَّ لي بكلمةِ رسولِ اللّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَم))[٢].

قال النووي: (حمر النعم هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه، وإن تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة الباقية خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها لو تصورت)[٣].

ومن أمثلة تقدير الصحابة رضي الله عنهم لكلام النبي ﷺ ما حدث في غزوة خيبر، فقد قال ﷺ: "لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" فقال سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه راوي الحديث: ((فباتَ الناسُ يَدوكون[٤] ليلَتهم أيُّهم يُعطاها. فلما أصبحَ الناسُ غَدَوا على رسولِ الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها))[٥]. وقالَ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ((فَتَطَاوَلْنَا لَهَا))[٦].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((مَا أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ. قَالَ: فَتَسَاوَرْتُ لَهَا[٧] رَجَاءَ أَنْ أُدْعَى لَهَا))[٨].

---

(١) صحيح مسلم ٨٦-٩٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ٩٢٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٥/١٨٠، .

(٤) أي يخوضون ويتحدثون. رياض الصالحين ١٢١.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٠١، ومسلم ٢٤٠٦.

(٦) أخرجه مسلم ٣٢-٢٤٠٤.

(٧) أي اظهرت وجهي وتصديت لذلك ليتذكرني. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧٠ الدولية.

(٨) أخرجه مسلم ٣٣-٢٤٠٥.

ويمكن أن يستأنس في هذا المقام أيضًا بما رواه ابن إسحاق في المغازي، قال: وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، أن عبدالله بن مسعود ﷺ كان يحدث قال: قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فاتَّبعتها أنظر إليها. قال: فإذا رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر، وإذا عبدالله ذو البجادين قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبوبكر وعمر يدليانه إليه، وإذا هو يقول: "أدنيا إليَّ أخاكما". فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: "اللهم إني قد أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه". قال: يقول ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[1].

قال ابن هشام: إنما سمي ذا البجادين؛ لأنه كان يريد الإسلام، فمنعه قومه وضيقوا عليه، حتى خرج من بينهم وليس عليه إلا بجادٌ، وهو الكساء الغليظ، فشقه باثنتين، فائتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، ثم أتى رسول الله ﷺ، فسمي ذا البجادين[2].

رابعًا- من وسائل الدعوة: الدعاء:

وهذا واضحٌ من الحديثين، فقد دعا النبي ﷺ وهو في صلاة الجنازة، دعا بهذه الدعوات الطيبة، ليدل المدعوين على ما يدعون به لميتهم، فينال المغفرة وينالون هم الثواب والأجر، كل ذلك بفضل الله تعالى. قال الشوكاني: (واختلاف الأحاديث في ذلك محمول على أنه كان يدعو لميت بدعاء والآخر بآخر، والذي أمر به ﷺ إخلاص الدعاء)[3].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ١٦٨/١٤، وقال ابن حجر في الإصابة ص ٨٠٢: رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا.

(٢) سيرة ابن هشام ١٦٨/٤-١٦٩.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧١٨.

الحديث رقم (٩٣٧)

٩٣٧– وعن أَبي هريرة وأبي قتادة وأَبي إبراهيم الأشهلي، عن أبيه –وأبوه صَحَابيٌّ– رضي الله عنهم، عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ، فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرنَا وَكَبيرنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وشَاهِدنَا وَغَائِبِنَا، اللَّهُمَّ مَنْ أحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأحْيِهِ عَلَى الإسْلاَمِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوفَّهُ عَلَى الإيمَان، اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنَا أجْرَهُ، وَلاَ تَفْتِنَّا بَعدَهُ)) رواه الترمذيُّ من رواية أَبي هريرة[1]، والأشهليُّ[2].

ورواه أَبُو داود من رواية أَبي هريرة[3]، وأبي قتادة[4]. قَالَ الحاكم[5]: (حديث أَبي هريرة صحيح عَلَى شرط البخاري ومسلم)، قَالَ الترمذي: (قَالَ البخاري[6]: أصَحُّ رواياتِ هَذَا الحديث رواية الأشْهَلِيِّ، قَالَ البخاري: وأصح شيء في هَذَا الباب حديث عَوْفِ بن مَالِكٍ[7]).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

---

(١) أخرجه الترمذي عقب الحديث رقم ١٠٢٤. وصحّحه ابن حبان الإحسان، ٣٠٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي ١٠٢٤ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٢٠١. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٣٠٧٠.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى، عمل اليوم والليلة ١-٨٦، وأحمد ١٧٥٤٦، و٢٢٥٥٤ من طريق همام، عن يحيى بن أبي كثير، واختلف فيه على يحيى بن أبي كثير في الوصل والإرسال ومن أي مسند هو. ورواية همام هذه مرجوحة عن يحيى.

(٥) المستدرك ٣٥٨/١.

(٦) قول البخاري أورده الترمذي ٣٢٥/٣ مختصرًا، وأورده بتمامه البيهقي في السنن الكبرى ٤١/٤ حيث قال: قال أبو عيسى الترمذي فيما بلغني عنه، سألتُ محمدًا –يعني: البخاري– عن هذا الباب، فقلتُ: اي الروايات عن يحيى بن أبي كثير أصحُّ في الصلاة على الميت، فقال: أصحُّ شيء فيه حديث أبي إبراهيم الأشهليّ، عن أبيه، ولوالده صحبة، ولم يعرف اسم أبي إبراهيم، قال أبو عيسى: قلتُ له: فالذي يقال هو عبد الله بن أبي قتادة، فأنكر أن يكون هو عبد الله بن أبي قتادة، وقال: ابو قتادة هو سلمي، وهذا اشهليٌّ، قال محمد: وحديث أبي سلمة عن ابي هريرة، وعائشة، وابي قتادة في هذا الباب غير محفوظ، وأصحُّ شيء في هذا الباب حديث عوف بن مالك.

(٧) حديث عوف بن مالك أخرجه مسلم ٩٦٣/٨٥.

أبو قتادة الأنصاريّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٢٢).

أبو إبراهيم الأشهلي عن أبيه: أبو أبي إبراهيم الأشهلي صحابي من الأنصار، فهو من قبيلة بني عبدالأشهل، إحدى قبائل الأنصار.

لكن لا نعرف اسمه ولا اسم ابنه، قال أبو حاتم عن أبي إبراهيم: لا يدري من هو ولا أبوه. وقال الترمذي: سألت البخاري عن اسم أبي إبراهيم فلم يعرفه.

وقال قوم: إن أبا إبراهيم هذا هو عبدالله بن أبي قتادة، ابن الصحابي أبي قتادة الأنصاري. قال المزي مُعقِّبًا على هذا: ولا يصح ذلك، وإن كان عبدالله بن أبي قتادة كنيته أبو إبراهيم. لأنه من بني سلمة، وهذا من بني عبدالأشهل[1].

الشرح الأدبي

يقوم الدعاء في هذا الحديث على عدة عناصر منها نداء التضرع، والخضوع، والخشوع (اللهم)، ومنها الأمر بمعنى الدعاء (اغفر) ومنها الطباق فقد طابق في الدعاء بين الحي، والميت، وبين الصغير، والكبير، والذكر، والأنثى، ، والشاهد، والغائب، وهذا الطباق أفاد العموم، والاستغراق لكل مسلم، وهو مستحب في الدعاء حيث يكرم بعضهم ببعض، كما أن في تكثير المدعو لهم إلحاح في الشمول، والله يحب من عبده الإلحاح في دعائه، كما أكد هذا التعميم بإضافة (نا) إلى الأسماء المذكورة، وفي الحديث جناس بين أحييته، وأحيه، وبين: توفيته فتوفه كما أن بين العبارتين تضاد يجعل الجميع تحت مظلة الإسلام، ثم جاء النهي بمعنى الدعاء (لاَ تَحْرِمْنَا أجْرَهُ، وَلاَ تَفْتِنَّا بَعدَهُ) حماية من حرمان الأجر، وحجاباً يمنع الفتنة.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) الجرح والتعديل ٣٣٢/٩ وسنن الترمذي ٢٤٣ الحديث ١٠٢٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٤٣/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١٥٩٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٢٢٤/٨، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٧٧/٤.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٣٨)

٩٣٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ ، يقول: ((إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ، فَأخْلِصُوا لَهُ الدُّعاء)) رواه أبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

قول الراوي سمعت رسول ﷺ يشير إلى أن الراوي قريب من رسول الله ﷺ زماناً ومكاناً وراوي الحديث أبو هريرة رضي الله عنه قريب من الرسول ﷺ مكاناً، ومكانة، كما أن في قوله سمعت توكيد للخبر، وقول الرسول ﷺ (إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ، فَأخْلِصُوا لَهُ الدُّعاء) المعنى يدور حول إخلاص المصلين في الدعاء على الميت لأنه أحوج ما يكون إلى ذلك، وقد جاء في أسلوب الشرط الذي يربط الصلاة على الميت بالإخلاص يوجد بوجودها، وينتفي بانتفائها، وأمر الرسول ﷺ بالإخلاص الدعاء توجيه، وإرشاد إلى استشعار الموقف التبادلي فكل مصل سوف يصلى عليه، وهذا الشعور يساعد على الإخلاص، ويمنع الرياء المفسد للعمل.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإخلاص في الدعاء للميت.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين.

أولاً - من موضوعات الدعو: الإخلاص في الدعاء للميت:

هذا واضح من الحديث، قال الصنعاني: (لأنهم شفعاء، والشافع يبالغ في طلبها يريد قبول شفاعته فيه)[2] وقال شرف الحق العظيم آبادي: (قال ابن الملك: أي ادعو له

---

(١) برقم ٣١٩٩، وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٣٠٧٦. وقال الذهبي في المهذب ١٣٤٨/٣: إسناده صالح.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢٥٨/٣.

بالاعتقاد والإخلاص انتهى. وقال المنذري: أي ادعوا له بإخلاص، لأن القصد بهذه الصلاة إنما هو الشفاعة للميت، وإنما يرجى قبولها عند توفر الإخلاص والابتهال. انتهى)[١].

وقال الشوكاني: (فيه دليل على أنه لا يتعين دعاء مخصوص من هذه الأدعية الواردة، وأنه ينبغي للمصلي على الميت أن يخلص الدعاء له، سواء أكان محسنًا أو مسيئًا، فإن مُلابس المعاصي أحوج الناس إلى دعاء إخوانه المسلمين وأفقرهم إلى شفاعتهم، ولذلك قدموه بين أيديهم وجاءوا به إليهم، لا كما قال بعضهم: إن المصلّي يلعن الفاسق [أي الميت الفاسق] ويقتصر في الملتبس [أي بالمعاصي] على قوله: "اللهم إن كان محسنًا فزده إحسانًا، وإن كان مسيئًا فأنت أولى بالعفو عنه"[٢].

فإن الأول [أي لعن الفاسق] من إخلاص السبّ لا من إخلاص الدعاء. والثاني من باب التفويض باعتبار المسيء لا من باب الشفاعة والسؤال. وهو [أي هذا الدعاء الثاني] تحصيل للحاصل، والميت غنيٌّ عن ذلك)[٣]. وقال الشيخ عبدالله البسام: (الأحاديث في الدعاء للميت كثيرة ولم يرد تعيين أحدها، وإنما الشأن في إخلاص الدعاء للميت؛ لأنه

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٣٦٦.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٩٦١ ومن طريقه عبدالرزاق في المصنف ٦٤٢٥ وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ ٩٣، تحقيق الألباني، والبغوي في شرح السنة ١٤٩٦ موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الشيخ الألباني: إسناده موقوف صحيح على شرط الشيخين اهـ. وأخرجه ابن حبان ٣٠٧٣ عن أبي هريرة مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ وقال محقق صحيح ابن حبان: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ص ٧١٨. لكن ما ذهب إليه الشوكاني غير مسلم فقد قال ابن القيم: (المصلي على الميت شرع له تعليق الدعاء بالشرط، فيقول: اللهم أنت أعلم بسرّه وعلانيته، إن كان محسنًا فتقبل حسناته، وإن كان مسيئًا فتجاوز عن سيئاته. فهذا طلب للتجاوز عنه بشرط، فكيف يمنع تعليق التوبة بالشرط؟ وقال شيخنا [أي ابن تيمية]: كان يشكل عليّ أحيانًا حال من أصلّي عليه الجنائز، هل هو مؤمن أو منافق؟ فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فسألته عن مسائل عديدة منها هذه المسألة، فقال: يا أحمد الشرط الشرط. أو قال: علق الدعاء بالشرط. وكذلك أرشد أمته ﷺ إلى تعليق الدعاء بالحياة والموت بالشرط، فقال: "لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به، ولكن ليقل: اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي". إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص ٧٦٣، والحديث أخرجه البخاري ٥٦٧١، ومسلم ٢٦٨٠.

الذي شرعت له الصلاة، والذي ورد به الحديث "إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء" لكن يبقى فضل كبير للمأثور عنه ﷺ ولما دعا به ﷺ فليتحراه المسلم في دعائه)[١].

ثانيًا - من أساليب الدعوة: الشرط:

هذا واضح من استخدام أداة الشرط "إذا"، وهو شرط جواب الشرط فيه فعل أمر "فأخلصوا له الدعاء"، ولذلك بوّب ابن حبان على هذا الحديث في صحيحه باب: ذكر الأمر لمن صلّى على ميت أن يخلص له الدعاء[٢] وذلك لأن الصلاة على الميت فرض على الكفاية عند جمهور العلماء[٣]، وعلى ذلك فإن الصلاة على الميت واقعة ومقصودها الدعاء ومن ثمَّ أمر النبي ﷺ بالإخلاص فيه. قال ابن القيم: (وكان ﷺ يأمر بإخلاص الدعاء للميت)[٤].

ثالثًا - من أهداف الدعوة: سوق الخير للمدعوين:

هذا واضح من الأمر بإخلاص الدعاء للميت في الصلاة عليه، قال ابن عثيمين: (المعنى أنك تدعو بحضور قلب أو إلحاح على الله لأخيك، لأنه محتاج لك)[٥] وقال ابن القيم: (ومقصود الصلاة على الجنازة هو الدعاء للميت)[٦]. وقال عبدالله البسام: (يدل الحديث على وجوب الدعاء للميت وتخصيصه به هو معنى الدعاء له، فلا يكفي الدعاء العام، ولكنه يكفي أي دعاء وأقل دعاء، فلو قيل في الصلاة: اللهم اغفر له لحصل الواجب. وإن كل أحد محتاج إلى الدعاء ولو استغنى عنه أحد لاستغنى عنه الصحابة ﵃ أصحاب الفضائل العالية والأعمال الحميدة)[٧].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٢٩/٢.

(٢) صحيح ابن حبان ٣٤٥/٧، رقم ٣٠٧٦.

(٣) انظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/١٦.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٠٦/١.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٢٠١/٢.

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٠٥/١.

(٧) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٢٧/٢.

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: (السنة في الصلاة على الجنائز أن يكبّر ثم يقرأ بأم القرآن ثم يصلى على النبي ﷺ ثم يخلص الدعاء للميت)[١].

ومن هذا القبيل [قبيل سوق الخير للمدعوين] إعلام الناس بموته. قال ابن حجر: (قال ابن المرابط: إن النعي الذي هو إعلام الناس بموت قريبهم مباح، وإن كان فيه إدخال الكرب والمصائب على أهله، لكن في تلك المفسدة مصالح جمّة لما يترتب على معرفة ذلك من المبادرة لشهود جنازته وتهيئة أمره والصلاة عليه والدعاء له والاستغفار وتنفيذ وصاياه وما يترتب على ذلك من الأحكام)[٢].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (يستحب أن يعلم جيران الميت وأصدقاؤه حتى يؤدوا حقه بالصلاة عليه والدعاء له)[٣].

وقال ابن العربي: (يؤخذ من مجموع الأحاديث ثلاث حالات: الأولى: إعلام الأهل والأصحاب وأهل الصلاح فهذا سنة. الثانية: الدعوة للمفاخرة بالكثرة. الثالثة: الإعلام بنوع آخر كالنياحة ونحو ذلك، فهذا يحرم)[٤].

ومن هذا القبيل أيضًا - قبيل سوق الخير للمدعوين- ما رواه أبو هريرة ﷺ ((أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ -أَوْ شَابًّا- فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللّهِ. فَسَأَلَ عَنْهَا -أَوْ عَنْهُ- فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: أَفَلاَ كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي. قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا -أَوْ أَمْرَهُ-. فَقَالَ: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فَدَلُّوهُ. فَصَلَّى عَلَيْهَا. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هـذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق ٦٤٢٨ ومن طريقه ابن الجارود في المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان الباجي ٥٤٠ وإسناده صحيح إلا أن أبا أمامة بن سهل ابن حنيف قال البخاري: أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه. كما في الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ص ٤٠. وقد أخرجه الشافعي في مسند الشافعي ١٦٤٧، والحاكم ٣٦٠/١، والبيهقي ٣٩/٤. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وانظر: حواشي زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٠٥/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١٦/٣-١١٧.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/١٦.

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٢٠٠/٤، فتح الباري، ابن حجر ١١٧/٣، ، وانظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/١٦.

وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ))[١].

قال النووي: (فيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع والرفق بأمته وتفقد أحوالهم، والقيام بحقوقهم والاهتمام بمصالحهم في آخرتهم ودنياهم)[٢].

(١) أخرجه البخاري ١٣٣٧، ومسلم واللفظ له ٩٥٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤/٧/٢٨.

الحديث رقم (٩٣٩)

٩٣٩- وعنه، عن النبيِّ ﷺ في الصَّلاَةِ عَلَى الجنَازَةِ: ((اللَّهُمَّ أنْتَ رَبُّهَا، وَأنْتَ خَلَقْتَهَا، وَأنتَ هَدَيْتَهَا للإِسْلاَمِ، وَأنتَ قَبَضْتَ رُوحَهَا، وَأنْتَ أعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلاَنِيَتِهَا، وَقَدْ جِئنَاكَ[1] شُفَعَاءَ لَهُ، فَاغْفِرْ لَهُ)) رواه أبُو داود[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الصلاة على الجنازة لها طبيعة خاصة تنبعث من الموقف الوجداني من حالة شعورية تنقبض لها النفوس، وترتجف عندها القلوب لعلمها بأنها ستكون مكانها يوماً، ودعاء الرسول ﷺ يتصدره نداء يتناسب مع الموقف الوجداني (اللهم) والذي يدخل بالمؤمن في حوار مع ربه، وذكر الضمير (أنت) فيه اختصاص يبعث استشعار قربه، وذكر الرب، وإضافته للضمير العائد على الجنازة يستحضر معانى الرعاية، والتربية، والحفظ، التي هي لوازم الربوبية، وقوله (أنت خلقتها) اختصاص بإفراد الله تعالى بخلقها يقتضي انفراده برحمتها، وكذلك قوله (أنت هديتها) وتخصيص الإسلام يشير إلى النعمة العظمى التي أنعم الله بها عليه ابتداءً، وقوله (وأنت قبضت روحها) تخصيص لله بقبض الروح، وذكر هذه النعم من باب التضرع لله بالاعتراف بعطاياه، وقولها: (وَأنْتَ أعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلاَنِيَتِهَا) فيه طباق بين السر، والعلانية يقرر استغراق علم الله للأحوال الخاصية بالميت، وغيره، وقوله (وَقَدْ جِئنَاكَ شُفَعَاءَ لَهُ) الدعاء بصيغة الجمع فيه مزيد تذلل، وإظهار للمسكنة، وتبرأ من غيره، وختمه بالطلب الذي أرصد له من بداية دعائه، وقدم بين يديه الثناء على الله، وأظهر التضرع، والمسكنة حرصاً على الإجابة، وحصول المغفرة.

---

(١) لفظ أبي داود: (جئنا) فقط، بدل: (وقد جئناك).

(٢) برقم ٣٢٠٠.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الدعاء للميت عند الصلاة عليه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بَدء الدعاء بالثناء على الله سبحانه وتمجيده.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ ورحمته بأمته.

رابعًا: من وسائل الدعوة: الدعاء.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الدعاء للميت عند الصلاة عليه:

هذا واضح من الحديثين، قال العظيم آبادي في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ("أنت ربها"؛ أي سيدها ومالكها "للإسلام" المشتمل على الإيمان انتهاءً. "وأنت قبضت روحها" أي أمرت بقبض روحها "بسرها وعلانيتها" بتخفيف الياء أي باطنها وظاهرها، "جئنا شفعاء" أي: بين يديك)[2].

قال ابن الأثير: (وقد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة، فهو شافع وشفيع. والمشفِّع: الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع: الذي تقبل شفاعته)[3].

وقال الشوكاني عن قول النبي ﷺ في حديث واثلة رضي الله عنه: ("اللهم إن فلان بن فلان": فيه دليل على استحباب تسمية الميت باسمه واسم أبيه، وهذا إن كان معروفًا وإلا جعل مكان ذلك: اللهم إن عبدك هذا أو نحوه، والظاهر أنه يدعو بهذه الألفاظ الواردة في هذه الأحاديث، سواء كان الميت ذكرًا أو أنثى، ولا يحول الضمائر المذكرة إلى صيغة التأنيث إذا كانت الميت أُنثى، لأن مرجعها الميت، وهو يقال على الذكر والأنثى)[4].

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٣٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٤٠).

(٢) عون المعبود شرح سنن ابي داود، محمد شمس الحق العظيم ابادي ١٣٦٦.

(٣) النهاية في غريب الحديث ٤٨٥.

(٤) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من احاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧١٩.

وقال ابن الأثير: ("فيْ ذِمّتك وحَبْل جِوَارك" كان من عادة العرب أن يُخيفَ بَعْضُها بعضًا، فكانَ الرجُل إذا أراد سَفَرًا، أخذ عَهْدًا من سَيِّد كلّ قَبيلة، فَيأمَنُ به ما دام فيْ حُدُودها حتى ينتهي إلى الأخرى فيأخذ مِثْل ذلك، فهذا حَبْلُ الجوَار: أي ما دام مُجَاوِرًا أرْضَه، أو هو من الإجَارة: الأمانِ والنُّصْرة)[1].

قال الطيبي: (الثاني أظهر "وحبل جوارك"، بيان لقوله: "ذمتك" نحو أعجبني زيد وكرمه. وقوله "فيْ ذمتك" أي أن فلانًا فيْ عهدك فنسب إلى الجوار ما كان منسوبًا إلى الله تعالى، فجعل للجوار عهدًا مبالغة فيْ كمال حمايته)[2].

وقال العظيم آبادي: ("فقه" بالضمير أو بهاء السكت "من فتنة القبر وعذاب النار" أي امتحان السؤال فيه، أو من أنواع عذابه من الضغطة والظلمة وغيرهما[3] "وأنت أهل الوفاء" أي الوعد، فإنك لا تخلف الميعاد "أنت الغفور" أي كثير المغفرة للسيئات "الرحيم" كثير الرحمة بقبول الطاعات، والتفضل بتضاعف الحسنات)[4].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بَدء الدعاء بالثناء على الله سبحانه وتمجيده:

هذا واضح فيْ الحديثين، فحديث أبي هريرة ﷺ بدأ النبي ﷺ بالدعاء للميت: "اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للإسلام، وأنت قبضت روحها، وأنت أعلم بسرها".

وفيْ حديث واثلة ﷺ بدأ النبي ﷺ بقوله "اللهم إن فلان بن فلان فيْ ذمتك وحبل جوارك".

ونقل النووي فيْ الأذكار: (أن آداب الدعاء عشرة، منها: "التاسع: أن يفتتح الدعاء

---

(١) النهاية فيْ غريب الحديث ١٨٤.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٧٤/٣، وانظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم ابادي ص ١٣٦٨.

(٣) قال عبدالله البسام: (فتنة القبر: الفتنة لابدّ منها والطلب هو الوقاية من شرها. وعذاب النار: يسأل الله تعالى أن يقيه العذاب الذي لا تتصور شدته ولا هوله ولا طوله). توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٢٥/٢.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم ابادي ١٣٦٨.

بذكر الله تعالى، قلت [أي النووي]: وبالصلاة على رسول الله ﷺ بعد الحمد لله تعالى والثناء عليه، ويختمه بذلك كله أيضًا)[١].

وقد روى فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: ((سَمِعَ النبيُّ رَجُلاً يَدْعُو فِي صَلاَتِهِ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النبيِّ فقالَ النبيُّ عَجِلَ هَذَا ثُمَّ دَعَاهُ، فقالَ لَهُ ولِغَيْرِهِ: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النبيِّ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ ما شَاءَ))[٢].

وفي رواية أن الرجل قال: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي فقالَ رسولُ الله ﷺ عَجِلْتَ أَيُّهَا المُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فاحْمَدِ اللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَصَلِّ عَلَيَّ ثُمَّ ادْعُهُ، قالَ ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللهَ وصَلَّى عَلَى النبيِّ فقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: أَيُّهَا المُصَلِّي ادْعُ تُجَبْ))[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((كُنْتُ أُصَلِّي والنبيُّ ﷺ وأبُو بكرٍ وعُمَرُ معه، فلما جَلَسْتُ بَدَأْتُ بالثناءِ على الله ثم الصَّلاةِ على النبيِّ ﷺ، ثم دَعوْتُ لنَفْسِي، فقال النبيُّ ﷺ: سَلْ تُعْطَهْ. سَلْ تُعْطَهْ))[٤].

قال ابن القيم: (وإذا جمع الدعاء حضور القلب بكليته على المطلوب وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة، وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعًا وانكسارًا بين يدي الرب وذلة له وتضرعًا ورقة، واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحّ عليه في المسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ص ٤٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي ٣٤٧٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٦٥).

(٤) أخرجه الترمذي ٥٩٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٤٨٦).

- فإن هذا لا يكاد يرد أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: شفقة النبي ﷺ ورحمته بأمته:

وهذا واضح من دعاء النبي ﷺ للميت، قال ابن القيم: (ومقصود الصلاة على الجنازة هو الدعاء للميت، لذلك حفظ عن النبي ﷺ ونقل عنه ما لم ينقل من قراءة الفاتحة والصلاة عليه ﷺ)[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ((أنَّه كانَ إذا صَلَّى على جِنَازةٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إن هذا عَبْدُكَ وابْنُ عَبْدِكَ كانَ يَشْهَدُ أن لا إله إلا اللَّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ ورَسُولُكَ، وأنتَ أعلَمُ به مِنِّي، إن كان مُحْسِنًا فزِدْ في إحسانِه، وإن كانَ مُسيئًا، فاغْفِرْ لَهُ، ولا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ ولا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ))[٣] وقد بوب ابن حبان في صحيحه على هذا الحديث: ذكر ما يستحب للمرء إذا صلى على جنازة أن يسأل الزيادة للمصلَّى عليه في حسناته والمغفرة لسيئاته[٤].

وقد بلغ من إحسان النبي ﷺ في دعائه على الميت أن تمنى الصحابي عوف بن مالك بعد أن سمع دعاءه ﷺ، تمنى أن يكون ذلك الميت[٥].

وفي رواية: ((فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لَوْ كُنْتُ أَنَا الْمَيِّتَ، لِدُعَاءِ رَسُولِ اللهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَيِّتِ))[٦].

ومن ذلك أيضًا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ((أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا))[٧].

---

(١) الداء والدواء، ابن قيم الجوزية ٧٥١هـ، تحقيق علي بن حسن الحلبي الأثري ص ١٤-١٥، وانظر الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم كذلك ٢/٣٦٥-٣٦٦ مجموعة الأحاديث.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٥٠٥، ثم ذكر أدعيته ﷺ المذكورة في الباب.

(٣) أخرجه ابن حبان ٣٠٧٣، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٤) صحيح ابن حبان ٧/٣٤٢، الحديث ٣٠٧٣.

(٥) أخرجه مسلم ٩٦٣.

(٦) أخرجه مسلم ٩٦٣.

(٧) أخرجه البخاري ١٢٤٥، ومسلم ٩٥١.

قال ابن حجر: (الظاهر إنما خرج بالمسلمين إلى المصلّى لقصد تكثير الجمع الذين يصلون عليه، ولإشاعة كونه مات على الإسلام، فقد كان بعض الناس لم يَدْرِ كَوْنَه أسلم)(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

قال ابن كثير: ("حريص عليكم" أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم)(٣).

وقال أبو ذر: ((تَرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ إلاوَيَذْكُرُنَا مِنْهُ عِلْمًا، قَالَ ﷺ: مَا بَقِي شَيْءٌ يُقَرِبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلاَّ وَقَدْ بُيِنَ لَكُمْ))(٤).

رابعًا - من وسائل الدعوة: الدعاء:

لقد دعا النبي ﷺ في هذين الحديثين وبدأهما بقوله: "اللهم" ولاشك أن هذا الفعل منه ﷺ دعوة للمدعوين أن يفعلوا مثلما فعل ويعملوا مثلما عمل، فإنه ﷺ قدوتهم ومثلهم، يتبعونه ويهتدون بهديه، ويستنيرون بضيائه.

قال الشوكاني: (واختلاف الأحاديث في ذلك محمول على أنه كان يدعو لميت بدعاء ولآخر بآخر، والذي أمر به ﷺ إخلاص الدعاء)(٥).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٨٨/٣.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤١/٤، وانظر: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣٦٥/٨.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ١٥٥/٢ رقم ١٦٤٧، وقال الهيثمي في المجمع ٢٦٥/٧: ورجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبدالله بن يزيد المقري وهو ثقة.

(٥) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧١٨.

الحديث رقم (٩٤٠)

٩٤٠- وعن وَاثِلَة بنِ الأَسْقَعِ رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّى بِنَا رسول الله ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ إنَّ فُلانَ ابْنَ فُلانٍ فِي ذِمَّتِكَ (وَحَبْلِ جِوَارِكَ) [1]، فَقِهِ فِتْنَةَ القَبْرِ، وَعذَابَ النَّار، وَأنْتَ أهْلُ الوَفَاء وَالحَمْدِ؛ اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، إنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ)) رواه أَبُو داود[2].

ترجمة الراوي:

واثلة بن الأسقع: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٤٤).

غريب الألفاظ:

ذمتك: أمانك[3].

حبل جوارك: قال ابن الأثير: (كان من عادة العرب أن يُخِيفَ بَعْضُها بعضًا، فكانَ الرجُل إذا أراد سَفَرًا أخذ عَهْدًا من سَيّد كلّ قَبيلة، فيأمَنُ به ما دام في حُدُودها حتى ينتهي إلى الأخرى فيأخذ مِثْل ذلك، فهذا حَبْلُ الجِوَار: أي ما دام مُجَاوِرًا أرْضَه، أو هو من الإجَارة: الأمانِ والنُّصْرة)[4].

الشرح الأدبي

قول الراوي رضي الله عنه (صلّى بنَا رسول الله ﷺ) يشير إلى اجتماعهم في صلاة الجنازة كما وجّه الرسول ﷺ وكانوا يتسابقون إلى تنفيذ توجيهاته، وقولهم (عَلَى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ) تنكير كلمة رجل يشير إلى أنه من عامة المسلمين، وهو ما يؤكد تواضع النبي، وحرصه على صالح المسلمين دون النظر إلى الشرف، أو الخمول مادام مسلماً

---

(١) هذه الزيادة من رواية عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، كما نبّه عليها أبو داود. وليست في رواية إبراهيم بن موسى الرازي.

(٢) برقم ٣٢٠٢. قال الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية ١٧٧/٤: هذا حديثٌ حسنٌ.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ م م).

(٤) المرجع السابق في (ح ب ل).

ليس عليه دين، (إنَّ فُلانَ ابْنَ فُلانٍ) كناية عن اسم الميت واسم أبيه، والتعبير بالذمة، وحبل الجوار تأكيد لحاجته إلي ربه وانقطاع صلته بالخلق، وتمام اتصاله بالخالق، وحاجته إليه، ليرتب عليها الاستعاذة من فتنة القبر، وعذاب النار، ثم قد الثناء قبل الرجاء (وَأَنْتَ أهْلُ الوَفَاءِ وَالحَمْدِ؛ اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ) ثم ختم بتخصيصه بالمغفرة، والرحمة، وتقديم الضمير (أنت) يفيد قصره على ما بعده من الصفات، ونفيها عن من سواه، والدعاء متضمن لما يحقق للميت الستر، والصفح، والعافية من العذاب في القبر، وفي النار، وتقديم القبر لأنه أول منازل الآخرة، وبعده النار أو الجنة بحسب عمل العبد، والاستعاذة من النار تستلزم دخول الجنة، وهو الغاية المرجوة.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٤١)

٩٤١- وعن عبد الله بنِ أبي أَوْفى رضي الله عنهما: أنَّهُ كَبَّرَ عَلَى جَنَازَةِ ابْنَةٍ لَهُ أرْبَعَ تَكْبيرَاتٍ، فَقَامَ بَعْدَ الرَّابِعَةِ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ التَّكْبيرَتَيْنِ يَسْتَغْفِرُ لَهَا وَيَدْعُو، ثُمَّ قَالَ: كَانَ رسول اللهِ ﷺ يَصْنَعُ هكَذَا[1].

وفي رواية: كَبَّرَ أرْبَعًا فَمَكَثَ سَاعَةً حَتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سَيُكَبِّرُ خَمْسًا، ثُمَّ سَلَّمَ عَنْ يَمينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْنَا لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: إنِّي لاَ أزيدُكُمْ عَلَى مَا رأيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُ[2]، أَوْ: هكَذَا صَنَعَ رسول الله ﷺ. رواه الحاكم[3]، وقال: (حديث صحيح).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن أبي أوفى: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٣).

الشرح الأدبي

الحديث يبين عملياً كيفية صلاة الجنازة كما كان يصليها رسول الله ﷺ، والراوي ينقل الخبر بالفعل في صورة الماضي الدال على الحصول والتحقق، وقد سبق بتوكيد من بداية الجملة، ونسبة الجنازة للفظ ابن المضاف إلى الضمير العائد على المصلى يجعل للحدث خصوصية في نقل الأحداث، وتصويرها، وتطبيقها، لأن حنين الأبوة يجعله في قمة الدقة في تطبيق صلاة الجنازة بحذافيرها لحرصه على حصولها على

---

(١) اخرجه الحاكم في المستدرك ٣٦٠/١، وعنه البيهقي في السنن الكبرى ٤٢/٤. من طريق أحمد بن حنبل، وهو في المسند ١٩١٤٠. وقال الحاكم: هذا حديث صحيحٌ ولم يخرجاه، وإبراهيم بن مسلم الهجري لم ينقم عليه بحجة.

قلت: تابع الهجري في روايته، ابو يعفور، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٥/٤). وإسناده صحيح.

(٢) اخرجه أبوبكر الشافعي في الغيلانيات ٣٤١ ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى ٤٣/٤ عن يزيد، عن شريك، عن إبراهيم الهجري، عنه. بهذا اللفظ.

(٣) تنبيه: الحديث باللفظ الأول، أخرجه الحاكم في المستدرك، وأما اللفظ الثاني فلم يخرجه الحاكم كما عزاه إليه المؤلف.

الوجه الأكمل المحقق للغاية مع وجدان مشتعل، وقلب يقظ، وقوله: (فَقَامَ بَعْدَ الرَّابِعَةِ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ التَّكْبِيرَتَيْنِ يَسْتَغْفِرُ لَهَا) التشبيه لبيان مقدار الوقوف، والتعبير بالقيام يضفي على الوقوف هيبة موقف الصلاة، مع تضمنه لمعنى الإصلاح، والتقويم، والاستفهام في قولهم (فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْنَا لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ) إنكار عليه، وتعجب من فعله؛ لأنه أطال بعد التكبيرة الرابعة حتى ظنوا أنه سيكبر الخامسة، وفيه مبالغة في بيان حد الإطالة، وقوله (كَانَ رسول اللهِ ﷺ يَصْنَعُ هكَذَا) التعبير بكان يوحي بالعادة في الفعل في صلاة الجنازة، والتشبيه بصنعه يفيد انه لم يزد على ما كان رسول يصنع كما نص عليه في الرواية الثانية كما يقرر التشبيه بأنها صارت سنة لهم تتبع في الصلاة على الجنازة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على التأسي بالنبي ﷺ.

ثانيًا: من فقه الداعية: البيان والتوضيح لأفعاله.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على التأسي بالنبي ﷺ:

هذا واضح من الحديث بروايتيه، وقوله في آخره: "كان رسول الله ﷺ يصنع هكذا" أو "إني لا أزيدكم على ما رأيت رسول الله ﷺ يصنع. أو هكذا صنع رسول الله ﷺ" والحديث رواه ابن ماجه[1] بلفظه قال إبراهيم بن مسلم الهجري: ((صَلَّيْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الأَسْلَمِيِّ، صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى جِنَازَةِ ابْنَةٍ لَهُ. فَكَبَّرَ عَلَيْهَا أَرْبَعًا. فَمَكَثَ بَعْدَ الرَّابِعَةِ شَيْئًا. قَالَ فَسَمِعْتُ الْقَوْمَ يُسَبِّحُونَ بِهِ مِنْ نَوَاحِي الصُّفُوفِ. فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: أَكُنْتُمْ تُرَوْنَ أَنِّي مُكَبِّرٌ خَمْسًا؟ قَالُوا: تَخَوَّفْنَا ذَلِكَ. قَالَ: لَمْ أَكُنْ لأَفْعَلَ. وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُكَبِّرُ أَرْبَعًا. ثُمَّ يَمْكُثُ سَاعَةً. فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ يُسَلِّمُ)).

---

(١) سنن ابن ماجه ١٥٠٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٢٠).

وفي رواية أحمد بن حنبل لهذا الحديث[1] ((عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْهَجَرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى أَوْفَى وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ فَمَاتَتِ ابْنَةٌ لَهُ وَكَانَ يَتْبَعُ جِنَازَتَهَا عَلَى بَغْلَةٍ خَلْفَهَا فَجَعَلَ النِّسَاءُ يَبْكِينَ فَقَالَ لاَ تَرْثِينَ، "فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْمَرَاثِى"، فَتُفِيضُ إِحْدَاكُنَّ مِنْ عَبْرَتِهَا مَا شَاءَتْ. ثُمَّ كَبَّرَ عَلَيْهَا أَرْبَعًا ثُمَّ قَامَ بَعْدَ الرَّابِعَةِ قَدْرَ مَا بَيْنَ التَّكْبِيرَتَيْنِ يَدْعُو ثُمَّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ فِى الْجِنَازَةِ هَكَذَا")).

قال السندي: (قوله "لا ترْثيْن": من رثى الميت إذا عد محاسنه "فتفيض" من الإفاضة، يريد أن البكاء بلا صياح جائز "يصنع" أي: لا أنه يسلم بعد التكبيرة الرابعة بلا دعاء كما اعتاده ناس)[2].

وقال الشوكاني: (فيه [أي الحديث] دليل على استحباب الدعاء بعد التكبيرة الآخرة قبل التسليم، وفيه خلاف، والراجح الاستحباب لهذا الحديث)[3].

ولعل من أبلغ الأمثلة على حرص الصحابة على الاقتداء بالنبي ﷺ ما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((اتخذَ النبيُّ ﷺ خاتمًا من ذَهبٍ فاتخذَ الناس خَواتيم من ذهب، فقال النبيُّ ﷺ: إني اتخذتُ خاتمًا من ذهبٍ فنَبَذَه وقال: إني لن ألبَسَهُ أبدًا، فنَبذَ الناسُ خواتيمهم))[4].

وكذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه ((أنه رأى في يد رسولِ الله ﷺ خاتمًا من وَرِق يومًا واحدًا، ثم إن الناس اصطنَعوا الْخواتيمَ من وَرِقٍ ولَبِسوها، فطَرَحَ رسولُ الله ﷺ خاتمهُ، فطَرَحَ الناسُ خَواتيمَهم))[5].

قال ابن حجر: (وفي حديثي الباب مبادرة الصحابة رضي الله عنهم إلى الاقتداء بأفعاله ﷺ، فمهما أقرهم عليه استمروا عليه، ومهما أنكره امتنعوا منه)[6].

---

(١) مسند أحمد ٣٥٦/٤، رقم ١٩١٤٠، وضعفه محققو المسند ٤٨٠/٣١.

(٢) حاشية السندي على مسند أحمد ٤٨١/٣١.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧١٩.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٩٨، ومسلم ٢٠٩١.

(٥) أخرجه البخاري ٥٨٦٨، ومسلم ٢٠٩٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٢١/١٠.

وقد بوب البخاري على حديث ابن عمر رضي الله عنهما باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ[١].

ثانيًا - من فقه الداعية: البيان والتوضيح لأفعاله:

هذا واضح من قول عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه لما ظن المصلون وراءه أنه سيكبر الخامسة، قال لهم: إني لا أزيدكم على ما رأيتُ رسول الله ﷺ يصنع أو هكذا صنع رسول الله ﷺ. فقد بيّن سبب تطويله الدعاء بعد التكبيرة الرابعة، وأن ذلك اقتداء بالنبي ﷺ.

ومن هذا القبيل ما رواه الصعب بن جثامة ((أنه أهدى إلى رسول ﷺ حمارًا وحشيًا فرده عليه رسول الله ﷺ فلما رأى ما في وجهي قال: إنّا لَمْ نردَّ عَلَيْكَ إلاّ أنّا حُرُمٌ))[٢].

قال النووي: (فيه جواز قبول الهدية للنبي ﷺ بخلاف الصدقة، وفيه أنه يستحب لمن امتنع من قبول هدية ونحوها، لعذرٍ أن يعتذر بذلك إلى المهدي تطييبًا لقلبه)[٣].

ومن هذا القبيل ما فعله عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال طلحة بن عبدالله بن عوف قال: ((صليتُ خلفَ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما على جَنازةٍ فقرأ بفاتحةِ الكتابِ. قال: لتعلَموا أنَّها سنَّة))[٤]، وفي رواية: ((صَلَّيْتُ خَلْفَ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى جَنَازَةٍ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخَذْتُ بِيَدِهِ فَسَأَلْتُهُ فَقُلْتُ: تَقْرَأُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُ حَقٌّ وَسُنَّةٌ))[٥].

وسورة الفاتحة هي أم القرآن وفاتحته وقراءتها بعد أول تكبيرة من صلاة الجنازة في غاية المناسبة، ذلك أن صلاة الجنازة دعاء وشفاعة للميت، فأدب الدعاء أن يقدم بين يديه الثناء على الله تعالى، وأحسن الثناء هو مقدمة فاتحةالكتاب. وفي الحديث دليل على أنه يحسن في الإمام أن يجهر في بعض القراءة أو الذكر في الصلاة، ليعلم المأمومين حكم ذلك، فإن ابن عباس جهر بالفاتحة ليعلم الناس أن قراءتها في صلاة

---

(١) صحيح البخاري ٧٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٢٥، ومسلم ١١٩٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٠/٨/٤، . وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٣٤/٤.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٣٥.

(٥) أخرجه النسائي ١٩٨٨، وابن خزيمة كما في فتح الباري، ابن حجر ٢٤٢/٣، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ١٨٧٩) وانظر: فتح الباري فقد ذكر ابن حجر روايات أخرى.

الجنازة سنة، أي أنها سنة النبي ﷺ وطريقته التي قد تكون مستحبة وقد تكون واجبة، وهي هنا واجبة من أدلة أخر)[1].

ولعلّ من هذا القبيل أيضًا ما رواه أسلم أبو عمران قال: ((كُنَّا بالقِسْطَنْطِينِيَّةِ، وعَلَى أهلِ مِصْرَ عقبةُ بنُ عامرٍ، وعلى أهلِ الشامِ رجلٌ، يريدُ فَضَالَةَ بنَ عُبَيْدٍ، فَخَرَجَ من المدينةِ صَفٌّ عظيمٌ من الرومِ، فَصَفَفْنَا لَهُمْ، فَحَمَلَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ على الرومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ ثم خَرَجَ عَلَيْنَا، فَصَاحَ الناسُ إليهِ فقالُوا: سُبْحَانَ الله أَلْقَى بيدِهِ إلى التَّهْلُكَةِ، فقامَ أبو أيوبَ الأنصاريُّ صاحبُ رسولِ الله ﷺ فقالَ: يَا أَيُّهَا الناسُ إنَّكُمْ لَتُأَوِّلُونَ هذِهِ الآيةَ على هَذَا التأويلِ، إنَّمَا أُنْزِلَتْ هذِهِ الآيةُ لآي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2] فِينَا معشرَ الأنصارِ، إنَّا لَمَّا أَعَزَّ الله دينَهُ وكَثُرَ ناصِرُوهُ فقُلْنَا فِيمَا بَيْنَنَا بَعْضُنَا لبعضٍ سرًّا مِنْ رسولِ الله ﷺ: إنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فَلَوْ أَقَمْنَا فِيهَا فَأَصْلَحْنَا ما ضاعَ مِنْهَا، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ يَرُدُّ عَلَيْنَا ما قلنا ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فَكَانَتِ التَّهْلُكَةَ في الإقامةِ في الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو. قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية))[3].

ثالثًا – من أساليب الدعوة: الإخبار:

وهذا واضح من قول الصحابي عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يصنع هكذا" وفي الرواية الأخرى: "إني لا أزيدكم على ما رأيت رسول الله ﷺ يصنع. أو هكذا صنع رسول الله ﷺ".

والإخبار كان وسيلة فعالة -وما يزال- في نقل أفعال النبي ﷺ إلى المدعوين وكذلك أوصافه الخلقية والخُلقية، وذلك ليقتدي المدعوون به ﷺ في أخلاقهم وأفعالهم

---

(١) توضيح الحكام من بلوغ المرام ٥٢٢/٢. وانظر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٣٥٣/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٣) اخرجه أبوداود ٢٥١٢، والترمذي ٢٩٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٢١٩٣).

وحياتهم اليومية، فهو ﷺ قدوتهم وأسوتهم، وقد قال الله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالدعاء:

إن من الأساليب التربوية، التربية بالدعاء سواء كان الدعاء للنفس أم كان للغير، فبالدعاء تزداد شحنة العاطفة وقوداً وتتمكن الرحمة والرأفة من القلوب[١]، وقد تضمنت أحاديث الباب كلها الدعاء حيث جاء الباب لبيان ما يقرأ ويدعى به في صلاة الجنازة، وإن كان الدعاء في أصل صلاة الجنازة إلا أن الأدعية جاءت عامة شاملة للجميع، للأحياء والأموات، للصغار والكبار، والشهود والغائبين، للإناث والذكور، كما جاء في صريح حديث أبي هريرة وأبي قتادة رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ صلى على جنازة فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا. اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ. اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلاَ تُضِلَّنَا بَعْدَهُ».

إن التربية بالدعاء لها أكبر الأثر في تطهير النفس وتزكية السلوك وحسن التوجه إلى الله تبارك وتعالى، فما من إنسان يمسه الضر وتضيق به السبل إلا ويلجأ إلى القوة المعينة التي فُطِرَ على دعوتها والتضرع إليه.

إن الدعاء له أثره التربوي الذي لا ينكر فهو:

-ثمرة المعرفة، والإيمان بمنهج القرآن وفكرته عن الكون، وشعور عميق بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله، وضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء، ففي غفلة النفس عن حقيقة عبوديتها لله وحاجتها إليه سبيل إلى طغيانها واعتدائها، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٢].

كما أن في الدعاء تذكير للنفس بحقيقة فقرها إلى الله تعالى وصلتها به، ومن ثَمَّ كانت حياة رسول الله ﷺ دعاءً دائماً لنفسه وللمؤمنين، يدعو مع كل عمل وكل

---

(١) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٨٥.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

حركة بالليل أو النهار وله في ذلك دعوات مأثورة كان يدعو بها ويعلمها لأصحابه، كما نرى ذلك واضحاً في أحاديث الباب في أدعية الجنازة حفظها الصحابة رضي الله عنهم ونقلوها إلى الأمة جيلاً بعد جيل.

-كما أن الدعاء هو سبيل القوة الحقة، فلا يَقْضى على النفس ويوردها موارد التهلكة، كإحساسها بالضياع وفقدان السند المعين واليد المعينة، إنه إحساس يأتي على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق، وهو سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة من كثرة حوادث الانتحار وضحايا القلق والصرع والجنون، رغم ما تنعم به من متعة وراحة مادية في الحياة، وفي إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته، وأنه يستمع إليه إذا شكا ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعينه إذا احتاج، إحساس يملأ النفس سكينة وراحة ويخلق فيها القوة الحقة والعزم والثقة والرضا[1].

ثانياً- التربية الفقهية:

من أولويات التربية الإسلامية الفقه في الدين وتعلم أحكامه لاسيما الأحكام المتعلقة بالعقيدة والعبادات، كما أن التربية الإسلامية لا تحرص على مجرد التعليم للأحكام بل لابد من فهمها وفقهها، "ولقد عاب الله تعالى في كتابه -في غير ما موضع- الذين لا يفقهون، فقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[2]. وأخبر ﷺ أن من إرادة الله الخير بالعبد أن يُفَقّهه في الدين، فعن حميد بن عبدالرحمن قال: سَمِعْتُ مُعاوِيةَ رضي الله عنه خَطيباً يقول: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيراً يُفَقّهْهُ في الدّين. وإنّما أنَا قاسِمٌ، واللّهُ يُعطِي. ولنْ تزالَ هذهِ الأمَّةُ قائِمةً على أَمْرِ اللّهِ لا يَضُرُّهمْ مَنْ خالَفَهُم حتىٰ يأتيَ أمرُ اللّه»[3]. وتواصت الأمة بالعلم بأحكام

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢١٨-٢٢٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٣) أخرجه البخاري، ٧١، ومسلم، ١٠٣٧.

الدين والتفقه فيها[١]، خاصة من نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الله تعالى وتعريف الناس بأحكام دينهم.

وقد بينت أحاديث الباب بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بما يقرأ في صلاة الجنازة، كعدد تكبيراتها، وما يقال ويقرأ بعد كلٍ منها، ومن ذلك ما جاء في حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه أنه: «كبر على جنازة ابنه له أربع تكبيرات ... ثم قال: كان رسول الله ﷺ يصنع هكذا» والتسليم، كما في رواية: «ثم سلم عن يمينه وعن شماله».

لذا كان من أهداف التربية الإسلامية الاهتمام بتعلم العلم النافع ومعرفة المسائل الشرعية وأدلتها من الكتاب والسنة[٢].

وأهم ما ينبغي التركيز عليه في تعليم الناشئة وتربيتهم، تعليم الطهارة والصلاة وأحكامهما، وأحكام الصيام، مع التركيز على التربية بالقدوة من قِبل الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات ليقتدى بهم أولادهم وبناتهم، ولذا يستحب أداء النوافل في البيت، وعللوا ذلك باقتداء الأولاد بأبيهم، وتدريبهم على أداء الصلاة، فيقتدوا بوالدهم في أفعاله ما داموا صغاراً لم يذهبوا للمسجد، كما أن على الأمهات تعليم بناتهن أحكام النساء الخاصة بهن في الطهارة والصلاة والحجاب والحياء وغير ذلك[٣].

ثالثاً- التربية العقدية:

إن من أعظم الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية الأساس العقدي، وقد تضمنت أحاديث الباب الإشارة إلى عدد من أمور العقيدة الإسلامية ومنها:

أ-الإيمان بربوبية الله تعالى، وأنه المتصرف في خلقه وما يجب له من صفاتٍ وأفعال فهو الخالق، الهادي العالم بأسرار النفوس وعلانيتها، وغير ذلك من صفات كالرحمة والمغفرة وغيرها، ومن أحاديث الباب التي جمعت هذه المعاني حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في صلاة الجنازة: «اللَّهُمَّ أنْتَ رَبُّهَا وَأنْتَ خَلَقْتَهَا وَأنْتَ هَدَيْتَهَا لِلإسْلاَمِ

---

(١) انظر: تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ٨٢، ٨٣.

(٢) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ١٠٤، ١٠٥.

(٣) انظر: آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي ص ٣٣، ٣٤.

وَأَنْتَ قَبَضْتَ رُوحَهَا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلاَنِيَتِهَا، وقَدْ جِئْنَاكَ شُفَعَاءَ فَاغْفِرْ لَه»، وفي حديث أبي عبدالرحمن عوف بن مالك ... «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ. وَاعْفُ عَنْهُ ...».

ب-الإيمان بالغيبيات والتي لا علم لإنسان بها إلا من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كالجنة ونعيمها، والنار وعذابها، والقبر وفتنته -نسأل الله السلامة- وقد وردت الإشارة إلى ذلك في أحاديث الباب، كما في حديث عوف بن مالك رضي الله عنه ... «... وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ومِنْ عَذَابِ النَّارِ».

إن للتربية العقدية أكبر الأثر في نفس وحياة المسلم بوصفها الأساس الأول من أسس التربية في الإسلام من حيث كون العقيدة الإسلامية قاعدة تتبني عليها كل حركة، وكل سكنة من حركات وسكنات المسلم في حياته، ولذا فإنها والحالة تلك، تكون مقياساً حتمياً لكل سلوك يسلكه، سواء أكان سلوكاً دنيوياً أم كان سلوكاً أخروياً بحيث يقبل ويأخذ ما وافق العقيدة ويرد ويرفض كل ما خالف العقيدة الإسلامية.

كما أن غرس العقيدة الإسلامية في نفس المسلم بوصفه عملاً رئيساً من مهام المربي المسلم يجعل سلوك الفرد متفقاً مع أهداف التربية الإسلامية، ويضمن بالتالي تحقيق التوازن النفسي والوجداني عند الفرد بخاصة حيال مظاهر الكون، وأخيراً يستطيع أن يصدر الأحكام المبنية على وجهة نظر الإسلام تجاه الأشياء والظواهر والعلاقات بصورة صحيحة[1].

رابعاً- الحفظ:

من وسائل التربية الإسلامية والبناء العلمي والفكري الحفظُ، وقد كان النبي ﷺ يقوم بتلقين أصحابه وتحفيظهم القرآن والسنة، وكذلك في كثير من الأعمال والعبادات يأتي بها مع إعطائه الفرصة للصحابة أن يسمعوا له ويحفظوا عنه، كأن يدعو بصوت يُسْمِع مَنْ معه كما في حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص ٨١-٨٦.

الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول:...»، وذلك مما يُمَكِّنُ الصحابة من المتابعة والحفظ، كما في حديث عوف بن مالك قال: «صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول...».

إن أول ما ينبغي توجيه الناشئة والمتربين لحفظه هو كتاب الله وسنة رسوله الله ﷺ، وذلك لما لهما من أهمية في بناء وتكوين عقل الطفل، وهما مصدرا إشعاع العلوم.

ولقد كان من فعل الصحابة والسلف أن أول ما يلقنونه للطفل القرآن والسنة، لأنهما المصدران الأساسيان في بناء الطفل علمياً، ولهذا قال ابن سينا في كتاب "السياسة" فإذا تهيأ الصبي للتلقين وَوَعَى سمعُه أَخَذَ في تعلم القرآن وصُوِّرَت له حروفُ الهجاء ولُقِّن معالم الدين[1].

خامساً- من أهداف التربية الإسلامية: الحث على الإخلاص:

إن شرط قبول الأعمال قاطبة الإخلاص لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[2].

وقد ورد الأمر بالإخلاص في أحاديث الباب في صريح قوله ﷺ: «إذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ».

وإذا كان الإسلام أمرنا بإخلاص النية في كل عمل وفي كل مجال فأولى الناس بإخلاص النية الذين نصبوا أنفسهم لتعليم الناس وتربية الناشئة، وذلك استحضاراً لقيمة العمل الذي يقومون به يبتغون من الله الفضل والثواب، "إذ أن المعلم القدير هو الذي يشعر بمدى أهمية عمله وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه، وأن يقصد بعمله مرضاة الله تعالى وبلوغ الحق وإحقاقه، ويسعى لنشر العلم وتعليم الناشئة من أبناء المسلمين.

إن المعلم القدير الذي يخلص في عمله، وتَكُون نيته منفعة أبناء المسلمين، فإنه

---

(١) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٣١٦.

(٢) سورة البينة، آية: ٥.

سيحظى بقبول عمله، ويلقى المثوبة والأجر من رب العزة جل وعلا، وعليه فإنه يجب على المربي أن يحرر نيته، ويقصد بها وجه الله تعالى في كل ما يقوم به من أقوال وأفعال، ويخلص في عمله سواء أكان هذا العمل تعليماً أو توجيهاً أو تربية أو نصحاً أو أمراً أو نهياً أو تشجيعاً أو عقوبة، حتى يكون عند الله من المقبولين، وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

فالمعلم المخلص في نيته، يحظى بقبول علمه، ويلقى الأجر والثواب من رب الأرباب -عز وجل- وإذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله عليه بقلوب عباده[2].



(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) انظر: المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي جان ص ١٤٢-١٤٥.

١٥٨- باب الإسراع بالجنازة

الحديث رقم (٩٤٢)

٩٤٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ ، قَالَ: ((أسْرِعُوا بالجِنَازَةِ، فَإنْ تَكُ صَالِحَةً، فَخَيرٌ تُقَدِّمُونَهَا إلَيْهِ، وَإنْ تَكُ سِوَى ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

وفي روايةٍ لمسلمٍ[2]: ((فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا عَلَيْهِ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (أسرعوا بالجنازة) الْجِنَازَةُ وَالْجِنَازَةُ - بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، بِالْفَتْحِ هُوَ الْمَيِّتُ، وَبِالْكَسْرِ: النَّعْشُ، فَعَلَى هَذَا: يَلِيقُ الْفَتْحُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ (سَارِعُوا بِالْجِنَازَةِ) يَعْنِي بِالْمَيِّتِ فَإِنَّهُ الْمَقْصُودُ بِأَنْ يُسْرَعَ بِهِ. وهو أمر توجيه، وإرشاد يندب الأمة إلى سرعة دفن الميت، وقد علل لذلك بقوله (فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً، فَخَيرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيْهِ) وفيه مقابلة بين قوله صالحة، والتعبير الكنائي عن مقابل الصلاح، وهو الفساد في قوله: (وَإِنْ تَكُ سِوَى ذَلِكَ) كما قابل بين خير، وشر الذي يشير إلى تبليغ الميت لمصيره الذي يتقرر بناءً على ما قدم، وفيه ترغيب في العمل الصالح، وتحذير من ضده، والإسراع بتجهيز الميت.

فقه الحديث

اتفق العلماء على استحباب الإسراع بالجنازة، إلا أن يخاف من الإسراع انفجار

---

(١) أخرجه البخاري ١٣١٥، ومسلم ٩٤٤/٥٠ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٥٦.

(٢) بالرقم الذي تقدم، وفيه في نسخة: (إليه) بدل: (عليه).

الميت أو تغيره[1]. وخالف ابن حزم الظاهري وقال بوجوب الإسراع بالجنازة[2].

واختلف الفقهاء بعد ذلك في تفسير الإسراع: فذهب الأحناف إلى أنه يُسرع بالميت بلا خبب، وهو كالرمل، وحَدُّه أن يسرع به بحيث لا يضطرب الميت على الجنازة[3].

وذهب المالكية إلى أن المراد بالإسراع بالجنازة، مايعم غسلها وتكفينها وحملها والمشي معها مشيًا دون الخبب، فإنه يكره الإسراع الذي يشق على ضعفة من يتبعها. ولا يمشى بالجنازة مشي الهوَيْنى ولكن مشية الرجل الشاب[4]. وذهب الشافعية إلى أن المراد بالإسراع ماكان فوق المشي المعتاد ودون الخبب. فإن خيف عليه تغيير أو انفجار أو انتفاخ زيد في الإسراع[5].

وذهب الحنابلة إلى أن الإسراع المستحب إسراع لا يخرج عن المشي المعتاد[6]. والراجح ما ذهب إليه الحنابلة، وذلك لأن المشي غير المعتاد يؤدي إلى اضطراب الميت وانفجاره وتغيره، كما أن الذين يتبعون الجنازة منهم الضعيف وكبير السن.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٠٦/٢، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٤٤/١، وفتح العلي المالك ١٥٥/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان الباجي ١٤/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٥/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/٧، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢٨/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٧٤/٢.

(٢) المحلى، ابن حزم ١٥٤/٥.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٠٦/٢، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢٤٤/١.

(٤) فتح العلي المالك ١٥٥/١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان الباجي ١٤/٢.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٥/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢/٧، وشرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ١٦٩/٢.

(٦) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢٨/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٧٤/٢.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الإسراع بالجنازة.

ثالثًا: من فقه الداعية: التعبير عن المعاني المكروهة بما يدل عليها دون التصريح.

رابعًا: من موضوعات الدعوة مصاحبة الصالحين والبعد عن الأشرار.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل:

الأمر هو قوله ﷺ "أسرعوا بالجنازة"، قال ابن حزم: (الإسراع بها أمر)[2]. أما التعليل فقوله ﷺ: "فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم" والإتيان بالتعليل بعد الأمر، دعوة للمدعوين أن يزدادوا في الامتثال والانقياد، لكونهم على بيّنة من علة الأمر وسببه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الإسراع بالجنازة:

هذا واضح من الأمر في الحديث "أسرعوا بالجنازة" قال النووي: (فيه الأمر بالإسراع للحكمة التي ذكرها ﷺ)[3]. وقال ابن حجر: (وفيه استحباب المبادرة إلى دفن الميت، لكن بعد أن يتحقق أنه مات، أما مثل المطعون والمفلوج والمسبوت[4]، فينبغي ألا يسرع بدفنهم حتى يمضي يوم وليلة ليتحقق موتهم)[5].

قال أبو العباس القرطبي: (قوله ﷺ: "أسرعوا بالجنازة" أي أسرعوا بحملها إلى قبرها في مشيكم، يدلُّ عليه قوله في آخره: "فخيرٌ تقدمونها إليه، أو شر تضعونه عن

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٤١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٤٢).

(٢) المحلى، ابن حزم ٥٠٢ المسألة رقم ٥٩٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤/٧/٤.

(٤) المطعون من أصابه الطاعون، والمفلوج: من تعطل بعض أعضائه عن الحركة لموت الأعصاب فيها. والمسبوت: المغشي عليه. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٤١٢، ٥٥٨، ٦٩٩، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤١٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٨٤/٣.

رقابكم". وقيل: يعني به: الإسراع بتجهيزها بعد موتها لئلا تتغيّر، قال [أي القرطبي] والأول أظهر. ثم لا يبعد أن يكون كلٌّ واحدٍ منهما مطلوبًا؛ إذ مقتضاه مطلق الإسراع. فإنه لم يقيده بقيد. والله أعلم. ثم على الأول: فذلك الإسراع يكون في رفقٍ ولطفٍ؛ فإنه إن لم يكن كذلك تعب المتبع، ولعله يضعف عن كمال الاتباع، وانخرقت حرمةُ الميت لكثرة تحريكه، وربما يكون ذلك سبب خروج شيء منه، فيتلطخ به، فيكون ذلك نقضُ المقصود الذي هو النظافة. ومقصود الحديث: ألا يُتباطأ في حمله بالمشي فيؤخَّر عن خير يقدم به عليه. أو يستكثر من حمل الشر إن كان من أهله. ولأن المبطئ في مشيه يخاف عليه الزهو والتكبر، وهذا قول الجمهور.

وقد تضمَّن هذا الحديث: الأمرَ بحمل الميت إلى قبره. وهو واجبٌ على الكفاية إن لم يكن له مالٌ يحملُ منه)[1].

وقال ابن عثيمين: (الإسراع في الجنازة يشمل الإسراع في تجهيزها والإسراع في تشييعها والإسراع في دفنها، وذلك أن الميت إذا مات، فإما أن يكون صالحًا، وإما أن يكون سوى ذلك، فإن كان صالحًا، فإن حبسه حيلولة بينه وبين ما أعده له الله من النعيم في قبره، لأنه ينتقل من الدنيا إلى خير منها وإلى أفضل، لأنه حين احتضاره ومنازعته من الموت يبشر، يقال لروحه: ((أبشري برحمة من الله ورضوان))[2]، فيشتاق لهذه البشرى فيجب أن يتعجل وأن يُعجَّل به، فإذا حبس كان في هذا شيء من الجناية عليه، والحيلولة بينه وبين ما أعده الله له من النعيم إليه، فإن كان غير صالح - والعياذ بالله - فإنه لا ينبغي أن يكون بيننا، وينبغي أن نسارع بالتخلص منه، ولهذا قال النبي ﷺ: "أسرعوا بالجنازة" أسرعوا بها في تجهيزها وتشييعها ودفنها لاتؤخروها "فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه" خير يعني خيرًا مما انتقلت منه "تقدمونها إليه" لأنها تقدم -جعلنا الله وإياكم منهم- إلى رحمة الله ونعيم وسرور ونور فتقدمونها إلى خير

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٦٠٢-٦٠٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٢٦٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٣٤٣٧).

"وإن تك سوى ذلك" يعني ليست صالحة "فشر تضعونه عن رقابكم" تسلمون منه، لأنه ما لا خير فيه لا خير في بقائه. إذًا يستفاد من هذا الحديث أنه يسن الإسراع بالجنازة وألا تؤخر)[١].

قال عبدالله البسام: (ما يؤخذ من الحديث: الأمر بالإسراع بالجنازة من مكان الصلاة إلى القبر، وصفة الإسراع مشي سريع الخطا دون الخَبَب[٢]. وقال الموفق[٣]: هذا الأمر للاستحباب بلاخلاف بين العلماء اهـ. وذكر غير واحد من العلماء أن الإسراع لا يصل إلى الإفراط الذي يمخض مخضًا، فيرج الجنازة ويؤذي تابعيها، وإنما تراعي السنة بالإسراع، ويراعى الرفق بالميت والمشيِّعين. وقال ابن القيم: أما دبيب الناس اليوم خطوة خطوة، فبدعة مكروهة مخالفة للسنة للتشبه بأهل الكتاب اهـ.

وقال شيخ الإسلام: كان الميت في عهد النبي ﷺ يخرج به الرجال يحملونه إلى المقبرة، لا يسرعون ولا يبطئون، بل عليهم السكينة، ولا يرفعون أصواتهم لا بقراءة ولا بغيرها، وهذه هي السنة باتفاق المسلمين اهـ.

والإسراع بالجنازة هنا يشمل الإسراع في تجهيزها ودفنها، فهو أعم من أن يكون الإسراع في حملها إلى القبر، لما روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: ((لا ينبغي لجيفة مسلم أن تبقى بين ظهراني أهله))[٤].

هذا ما لم يكن في تأخيرها مصلحة من حضور الأقارب ونحوهم، أو يكون مات في حادث جنائي يتطلب بقاء جثة الميت للتحقيق في أمرها، فإن حقق التأخير مصلحة ظاهرة فلا بأس ببقائها، لا سيما مع وجود الأماكن المبردة التي تحفظ الجسد من الفساد)[٥].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٢٠٢/٢.

(٢) نوع من الجري والعدو يميل فيه العادي على يمينه مرة وعلى يساره مرة. معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٧٠.

(٣) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٩٤/٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٣١٥٩، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ٦٩٢).

(٥) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٣٢/٢.

ثالثًا- من فقه الداعية: التعبير عن المعاني المكروهة بما يدل عليها دون التصريح:

هذا واضح من قوله ﷺ "وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم" قال ابن عثيمين: (يستفاد منه أن ينبغي أن يعبر عن الألفاظ السيئة بما يدل عليها بدون سوء، لأن قسيم الصالحة: الفاسدة، ولكن النبي ﷺ عدل عن كلمة "تك فاسدة" إلى قوله "وإن تك سوى ذلك" وهذا من باب التأدب في اللفظ وإلا فالمعنى واحد. والتأدب في اللفظ له شأن عجيب، انظر إلى قوله تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[1] لما أرادوا الخير أضافوه إلى الله "أم أراد بهم ربهم رشدا" وفي الشر قالوا "أشر أريد" وما قالوا: "شر أراده الله"، مع أن الله مريد للخير والشر، لكن الشر الذي يريده الله ليس شرًا في فعله بل في مفعولاته، أما فعله عز وجل فلاشك أنه خير، لكن يقدر الشر للخير لحكمة يريدها عز وجل، المهم أنه ينبغي للإنسان أن يتأدب في صياغة الألفاظ من غير إخلال بالمعنى.

ويذكر أن ملكًا من الملوك رأى رؤيا، وهي أن أسنانه قد سقطت واهتّم لذلك، فجمع الذين يعبرون الرؤيا -أي يفسرونها- فقال له واحد: إن حاشيتك تموت وأهلك معهم، ففزع الملك ولم يعجبه هذا التفسير، فأمر بالرجل فجلد، ثم دعا آخر وقال له ما رأى. قال إن الملك يكون أطول أهله عمرًا، المعنى واحد، فأكرمه وأجازه، فالألفاظ لها تأثير، ولهذا قال: الرسول ﷺ "وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم")[2].

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾[3].

---

(١) سورة الجن، آية: ١٠.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٠٢-١٢٠٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

قال القاسمي: (الرفث أصله قول الفحش، وكنّى به هنا عن الجماع وما يتبعه، كما كنّى عنه في قوله ﴿فَلَمَّا تَغَشَّنهَا﴾[1]، وقوله ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾[2]، فالله كريم يكني، وإيثار الكناية عنه -هنا- بلفظ الرفث الدال على معنى القبح -عدا بقية الآيات- استهجانًا لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختيانًا لأنفسهم، والكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه، من سنن العرب، وللثعالبي في آخر كتابه "فقه اللغة" فصل في ذلك بديع)[3].

وقال النووي: (المستحب في مثل هذا، الكناية عن قبيح الأسماء، واستعمال المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض، ولا يكون في صورتها ما يستحيا من التصريح بحقيقة لفظه، وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز والسنن ... وقد يستعملون صريح الاسم لمصلحة راجحة، وهي إزالة اللبس، أو الاشتراك، أو نفي المجاز، أو نحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾[4] وكقوله ﷺ: ((أنِكْتَها؟))[5] وكقوله ﷺ: ((أدبرَ الشيطانُ وله ضُراطٌ))[6] وكقول أبي هريرة ﷺ: ((الحَدَثُ فُسَاءٍ أَوْ ضُرَاطٍ))[7] ونظائر ذلك كثيرة)[8].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: مصاحبة الصالحين والبعد عن الأشرار:

وهذا واضح من قول النبي ﷺ "فشر تضعونه عن رقابكم" قال النووي: (معناه أنها بعيدة من الرحمة، فلا مصلحة لكم في مصاحبتها، ويؤخذ منه ترك صحبة أهل

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٣.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣/١١١-١١٢.

(٤) سورة النور، آية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٨٢٤ بهذا اللفظ.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٨، ومسلم ٣٨٩.

(٧) أخرجه البخاري ١٣٥.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٣.

البطالة غير الصالحين)[١]. وقال عبدالله البسام: (فيه طلب مصاحبة الأخيار والابتعاد عن الأشرار)[٢].

وقد قال النبي ﷺ: ((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ. فَحَامِلُ الْمِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً))[٣].

وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث بقوله: (ذكر الأمر بمجالسة الصالحين، وأهل الدين دون أضدادهم من المسلمين)[٤].

قال النووي: (فيه فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل الخير، والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر، وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة)[٥].

وقال ابن حجر: (وفي الحديث النهي عن مجالسة من يتأذى بمجالسته في الدين والدنيا، والترغيب في مجالسة من ينتفع بمجالسته فيهما)[٦].

ولاشك أن مصاحبة الأخيار طريق لاكتساب الخير، كما أن مصاحبة الأشرار طريق للتهوين من فعل الشر وإتيانه وملابسته، لذا كانت مصاحبة الأخيار يحث عليها الشرع وأصحاب الأفهام الراشدة، يقول محمد بن إبراهيم الحمد عن أثر مصاحبة الأخيار وأهل الهمم العالية في اكتساب الهمة العالية والإرادة القوية، يقول: (فهذا الأمر من أعظم ما يبعث الهمة، ويربي الأخلاق الرفيعة في النفس؛ فالإنسان مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثر بمن يصاحبه.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥/٧/٤، ، ونقل ابن حجر ذلك القول في فتح الباري، ابن حجر ١٨٤/٣.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٣٢/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢١٠١، ومسلم ٢٦٢٨.

(٤) صحيح ابن حبان ٣٢٠/٢ الحديث رقم ٥٦١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨١/١٦/٨، .

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٤/٤.

والصداقة الشريفة -لا صداقة المنفعة- تشبه سائر الفضائل من حيث رسوخُها في النفس، وإيتاؤها ثمرًا طيبًا في كل حين؛ فهي تُوجد من الجبان شجاعة، ومن البخيل سخاء؛ فالجبان قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يخوض في خطر؛ ليحمي صديقه من نكبة.

والبخيل قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يبذل جانبًا من ماله؛ لإنقاذ صديقه من شدة.

فالصداقة المتينة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة.

فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة في نفسه شيئًا من كظم الغيظ، فيجلس إلى أصدقائه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعد ذلك متواضعًا حليمًا.

بل إن كثيرًا من النابغين يَعْزُون نبوغهم إلى أنهم وفقوا لاختيار صاحب أو أصحاب أثَّروا فيهم أثرًا صالحًا، ونبَّهوا فيهم قوى كانت خاملة.

فإذا ما وفق المرء لصحبة الأجلاء العقلاء من ذوي الدين والمروءة، فإن ذلك من علامات توفيقه، ومن مهيئات نبوغه.

فإذا كان الأمر كذلك، فما أجدر المرء أن يبحث عن إخوان الثقات؛ حتى يعينوه على كل خير، ويقصروه عن كل شر.

قال ابن حزم: من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة)[1].

---

(١) الهمة العالية "معوقاتها ومقوماتها"، محمد بن إبراهيم الحمد ٢٠٧-٢٠٨. وانظر مراجعه ومصادره.

الحديث رقم (٩٤٣)

٩٤٣- وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النبي ﷺ، يقُولُ: ((إِذَا وُضِعَت الجَنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أعناقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قالتْ: قَدِّمُونِي، وَإنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ لأَهْلِهَا: يَا وَيْلَهَا أيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إلاَّ الإنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَ الإنسَانُ لَصَعِقَ)) رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

يا ويلها: الويل: الحُزن والهلاك والمشقة من العذاب، ومعنى النداء فيه: يا حزنها وهلاكها وعذابها، احضُر فهذا وقتك وأوانك[٢].

صَعِقَ: غُشي عليه من شدة الصوت، وربما مات منه[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يتناول جانباً غيبياً يعرض لكل ميت فالمعنى يشمل الجميع، وقد أخذ هذا العموم من أسلوب الشرط، وبناء فعل الشرط فيه لما لم يسم فاعله، والتعبير بالاحتمال عن الحمل في قوله (واحتملها) يدل على التكلف، والمشقة الجسدية، والنفسية؛ لأن ذكر الموت مما تنقبض له القلوب لاسيما قلوب غير المؤمنين، بالإضافة إلى أن الجنازة تكون حاضرة قريبة على أعناقهم، وقوله (على أعناقهم) توكيد للحمل، والقول المحكي عن الميت الصالح: (قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي) الأمر على غير حقيقته، والمقصود به الإشادة، والتنويه بصاحب العمل الصالح ترغيباً في العمل الصالح، وتكراره يوحي بحسن المصير، وجميل ما أطلعت عليه، والقول المحكي عن الميت غير الصالح (يَا

---

(١) برقم ١٣١٦، وتقدم برقم ٤٤٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ي ل).

(٣) المرجع السابق في (ص ع ق).

وَيْلَهَا! أَيْنَ تَذْهَبُونَ بها؟) صدر على سبيل التجريد كأنها لما رأت سوء مصيرها كرهت أن تنسب هذا المصير إليها فجردت من نفسها مثلها، وخاطبتها هذا الخطاب، بنداء الترهيب، وإضافة الويل لها، ثم الاستفهام بغرض التهويل، وهو يشير إلى سوء ما رأت، وما ينتظرها، ويؤكد هذا الهول بلوغ مدى الصوت من الألم كل شيء عد الإنسان قال: (يَسْمَعُ صَوْتَها كُلُّ شَيْءٍ إلاَّ الإنْسانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ) والتعبير بالصعق يحكي قوة الصوت الذي يبلغ حده قتل السامع، وهو هول يستلزم الجد، والاجتهاد في العمل الصالح.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الإيمان بالله واليوم الآخر:

تضمن حديثا الباب الدعوة والتربية على الإيمان باليوم الآخر، ويشمل ذلك ما يقع للميت بعد قبض روحه وما يجده في القبر من نعيم أو عذاب، وما بعده من بعث وحشر ونشر ووزن للأعمال والإيمان بالصراط والجنة والنار، وغير ذلك.

ورؤية الإنسان بعد موته لما أُعد له من نعيم أو عذاب، فإن كان من الذين أنعم الله عليهم فرح بمصيره فتُنَادي جنازُتُه بالتقديم، وإن كان غير ذلك نادت بالويل، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا وُضِعَتِ الجنازةُ فاحتمَلَها الرِّجالُ على أعناقهم. فإِنْ كانت صالحةً قالت: قدِّموني، وإن كانت غيرَ صالحةٍ قالت لأهلِها: يا وَيلَها، أينَ تذهَبونَ بها؟ يَسْمَعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلاّ الإنسانُ، ولو سَمِعَ الإِنسانُ لصَعِقَ».

إن الإيمان باليوم الآخر يجعل المؤمن في راحة وسرور لما ينتظره بإذن الله في جنة عرضها كعرض السماء والأرض مهما كانت عليه حاله من غنى وفقر وصحة ومرض وغير ذلك[1].

إن تربية الإنسان على الإيمان بالله واليوم الآخر ومعرفته بما يحدث له منذ موته إلى أن يستقر به المقام في جنة أو نار يورثه الرغبة فيما عند الله من نعيم وفضل فيدفعه ذلك إلى عمل الصالحات، كما يورثه الرهبة من عذاب الله وانتقامه فيدفعه إلى اجتناب الذنوب والموبقات.

إن مما نلحظه في حديثي الباب أن الرسول صلى الله عليه وسلم في نقله لأحوال الناس بعد الموت وهم يُحملون على الأعناق إلى قبورهم، قَابَل بين الجنازة الصالحة وغير الصالحة، فقال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله تعالى في ضوء حديث ابن عمر رضي الله عنهما، د. احمد بن محمد بن عبدالله أبابطين، بحث من إصدارات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ص ٨٠، ٨١.

«فإنْ كانت صالحةً قالت: قدِّموني، وإن كانت غيرَ صالحةٍ قالت لأهلِها: يا وَيلَها، أينَ تذهَبونَ بها؟...»، وفي ذلك "عرض للصورة كلها مكتملة الأجزاء واضحة المعالم فيسهل تصورها وتسهل المقارنة بين أجزائها وبضدها تتميز الأشياء، وفي ذلك إبراز لميزات التربية الإسلامية الجامعة المانعة التي تجمع بين الترغيب والترهيب بين الخوف والرجاء فتضرب على جميع الأوتار لا تهمل وتراً منها ليظل الكائن البشري متحفزاً للعمل مستعداً للمواءمة بين الظروف المختلفة فيكتمل صلاحه، ويحقق إنسانيته وأسبقيته وخلافته في الأرض"[1].

ثانياً: التربية الفقهية:

وقد تضمن حديثا الباب الإشارة إلى عدة أمور فقهية منها:

أ- استحباب الإسراع بالجنازة مع مراعاة الحفاظ على حرمة الجنازة، في قوله ﷺ: «أسرعوا بالجنازة ...».

ب- أن حمل الجنائز موكل بالرجال إلا لضرورة، فقال ﷺ: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ...».

وهذا يشير إلى أهمية التربية على تعلم الأمور الفقهية وتعليم الناشئة والتلاميذ أحكام الدين خاصة الأحكام الخاصة بالعبادات الواجب الإتيان بها، فإن تعلم الفقه له أهميته الرئيسة في حياة المسلم مع التركيز على التربية بالقدوة من قِبَل الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات ليقتدي بهم أولادهم وبناتهم، ولذا يستحب أداء النوافل في البيت، وعللوا ذلك باقتداء الأولاد بأبيهم وتدريبهم على أداء الصلاة فيقتدوا بوالدهم في أفعاله ما داموا صغاراً لم يذهبوا للمسجد، كما أن على الأمهات تعليم بناتهن أحكام النساء الخاصة بهن في الطهارة والصلاة والحجاب والحياء"[2].

لذا كان لابد لمن يتصدرون للتربية والتعليم والآباء من الإلمام ببعض الأمور الفقهية والمسائل الشرعية التي تُعد من متطلبات التربية الإسلامية مما يكثر الناس السؤال عنه

---

(١) انظر: التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح ١٥٦/١، ١٥٧.

(٢) انظر: آداب المتعلمين، د. أحمد الباتلي ص ٣٣، ٣٤.

ويلجؤون عادة إلى الدعاة والمربين يلتمسون منهم الفتوى في ذلك، فمن لم يكن متضلعاً في الفقه سكت أو تهرب، وفي ذلك إضعاف لموقفه وتأثيره، أو أفتى بغير علم، وهذه هي الطامة.

كما أن الفقه في الدين يجعل المربي متمكناً من تصحيح ما يقابله من أخطاء وتقويم ما يواجهه من انحرافات في ضوء الأحكام الشرعية، فإذا رأى بعض الآداب الفاشية أو المنكرات السائدة أو الأخطاء الدينية الشائعة واجهها بعلم وفقه لا بمجرد غضب وعاطفة[1].

ثالثاً: التربية بالتعليل:

إن على المربي أن يُعوِّد المتعلم بأن يقتنع بكل معلومة يتعلمها أو سلوك يسلكه ويستخدم في ذلك أسلوب التعليل، كما نرى واضحاً في حديثي الباب في تعليل النبي ﷺ لإرشاده بالإسراع بالجنازة بأنها إن كانت صالحة يعجل لها بالإسراع إلى الخير وإن كانت غير صالحة يتخلص حاملوها من شرها، فقال ﷺ: «أسْرِعُوا بالْجَنَازَةِ فَإنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا إلَيْهِ، وَإنْ تَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عنْ رِقَابِكُمْ».

إن سوْق الأحكام والمعلومات مع تعليلها أدعى إلى قبولها والتسليم بها، فما أحرى بالآباء المعلمين أن يخاطبوا عقول الأبناء والطلاب، وأن يقفوا بقدرة هذه العقول على التفكير في كثير من الموضوعات، وأن يصححوا أفكارهم في حالة وجود خطأ فيها، وأن يوجهوهم للتفكير السليم، ومن الملاحظ أن البعض لا يقيمون وزناً لتفكير أبنائهم أو مَنْ يعلمونهم، وكأنهم لا عقول لهم، أو كأن تفكيرهم دائماً عاجزٌ وضعيفٌ، فيجب الاهتمام بتنمية عقول الأبناء وتعويدهم على التفكير السليم[2].

أخرج أحمد في مسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه «أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا

---

(١) انظر: ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٨٠، ٨١.

(٢) انظر: التربية الإسلامية، "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد محمد عطية ص ١٢٥-١٢٧.

الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: ولا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصّن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[1].

فالفتى هنا لم يكن يغيب عنه حكم الزنا وحرمته، ولذلك جاء يستأذن فيه، فالقول له هنا: اتق الله. هذا حرام، قد لا ينفع الفتى، لأن الحكم عنده معلوم، لكنه يحتاج إلى شيء آخر، لذلك سلك الرسول ﷺ معه أسلوباً آخر وهو بيان الحكمة من منع الزنا، وهو أن المزني بها إما أن تكون أما لأحدٍ أو ابنته أو أخته أو عمته أو خالته، لا يمكن غير ذلك، ولما كان هذا الفتى لا يرضي ذلك لنفسه فكذلك الناس لا يرضون لأنفسهم، فكان في هذه الحجة النفسية قطعاً لدابر الأمر في نفس الفتى، ثم كان الدعاء من الرسول ﷺ له أن يثبته على الحق والعفة.

فهكذا نفعل في مثل هذه المواقف، ويمكن أن يُقال عن هذا التصرف: كن أنت مكانه وقل لي ماذا تفعل؟ ولو أن الإنسان عمل ذلك في أمور كثيرة لانحلت إشكالات تقوم بين الناس، ولو وضع الإنسان نفسه مكان مَنْ يعترض على مسلكه وتصرفه فربما اتخذ المسلك نفسه أو قريبًا منه، فلذلك ينبغي على المربي أن يرشد إلى هذا الطريق[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد ٢٥٧/٥، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، انظر: الموسوعة الحديثية، حديث رقم ٢٢٢١١، ٥٤٥/٣٦.

(٢) انظر: نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ، محمد بن شاكر الشريف ص ١٥١، ١٥٢.

١٥٩- باب تعجيل قضاء الدين عن الميت

والمبادرة إلى تجهيزه إلا أن يموت فجأة فيترك حتى يُتَيَقَّنَ مَوْتُه

الحديث رقم (٩٤٤)

٩٤٤- عن أَبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قَالَ: ((نَفْسُ المُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضى عَنْهُ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يبين خطر الدين، لأن التهاون فيه تضييع لحقوق الناس، وبعضهم يتهاون فيه، ويماطل في سداده، ويسوف حتى يكون عرضة لفاقة تعجزه، أو موت يفجأه فيضيع حقوق الناس، وقد جاء هذا الحديث في صورة خبرية خالية من المؤكدات في عبارة قليلة الألفاظ عظيمة الدلائل، والتعبير بالنفس يقصد به الروح، والتعبير بالنفس يشمل الروح، والجسد، وكأن الكيان كله أخذ حكم التعليق، وإضافة النفس للمؤمن إضافة تخصيص تشير إلى أن السبب فيما هو فيه من تعلق النفس بسبب الديْن وليس لسبب الكفر، أو غيره، وقوله (معلقة) يوحي بعدم الاستقرار لأن المعلق يكون متأرجحاً بين شيئين لا يصل إلى أحدهما، والتعليق كناية عن عدم بلوغ النفس مقامها التي يجب أن تكون فيه مع المؤمنين، والتصوير الكنائي يوحي للمخاطب بحيرة المعلق الذي لا يستطيع فكاك نفسه بعد موته، مما يدفعه إلى فكاك نفسه في حياته قبل أن يموت بقضاء دينه، كما أن هذه الصورة تجعله يسارع في قضاء دين ميته حتى

---

(١) برقم ١٠٧٨، و١٠٧٩، وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٣٠٦١، وقال الحاكم في المستدرك ٢/٢٦: هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٢٧٠٢.

يريحه مما هو فيه، ولفظ (حتى) يشير إلى الغاية التي يبلغها التعليق، ووجودها يرغب في المسارعة في القضاء حتى لا يتعرض لطول التعليق، وبناء الفعل (يقضى) لما لم يسم فاعله يفتح الباب لكل قلب خيِّر لكي يقضي، أو يساعد في قضاء دين الميت، وإن لم يكن من أهله، وهو شكل من أشكال التعاون في الأمة الإسلامية في قضاء الديون على مستوى الأفراد، أو على مستوى الدول.

فقه الحديث

استحباب قضاء الدين عن الميت:

يستحب أن يسارع إلى قضاء دين الميت أو إبرائه منه، وبه قال أحمد لحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: "نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه".

قال السيوطي: سواء ترك الميت وفاء أم لا، وشذّ الماوردي فقال: إن الحديث محمول على من يخلف وفاءً.

وقال الحنابلة: إن تعذر الوفاء استحب لوارثه أو غيره أن يتكفل، والكفالة بدين الميت قال بصحتها أكثر الأئمة، خلافًا لأبي حنيفة، فإنه لا تصحّ عنده الكفالة بدين على ميت مفلس، وإن وعد أحد بأداء دين الميت صح عنده عِدَة لا كفالة، وذهب الطحطاوي إلى قول الجمهور[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تعجيل قضاء الدَّيْن عن الميت.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الترهيب من الدَّيْن.

---

(١) غاية المنتهى ٢٢٨/١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١١٢٧/١ ، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٧٠/٤ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٧/١٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٦٧/٣-٣٦٨ .

أولاً- من موضوعات الدعوة: تعجيل قضاء الدين عن الميت:

وهذا واضح من الحديث، قال الصنعاني: (هذا الحديث من الدلائل على أنه لا يزال الميت مشغولاً بدينه بعد موته، ففيه حث على التخلص منه قبل الموت، وأنه أهم الحقوق وإذا كان هذا في الدين المأخوذ برضا صاحبه، فكيف بما أخذ غصبًا ونهبًا وسلبًا)[١].

قال المباركفوري: (قوله "نفس المؤمن معلقة" قال السيوطي: أي محبوسة عن مقامها الكريم. وقال العراقي: أي أمرها موقوف، لا حكم لها بنجاة ولا هلاك، حتى ينظر هل يقضى ما عليها من الدين أم لا. انتهى)[٢].

وقال الشوكاني: (فيه الحث للورثة على قضاء دين الميت، والإخبار لهم بأن نفسه معلقة بدينه حتى يقضى عنه، وهذا مقيد بمن له مال يقضي منه دينه، وأما من لا مال له ومات عازمًا على القضاء، فقد ورد في الأحاديث ما يدل على أن الله تعالى يقضي عنه، بل ثبت أن مجرد محبة المديون عند موته للقضاء موجبة لتولي الله سبحانه لقضاء دينه، وإن كان له مال ولم يقض منه الورثة)[٣].

وقال ابن عثيمين: (وذلك يدل على أن الإنسان إذا مات، فإنه يجب على أهله أن يبادروا بقضاء دينه، إذا كان عليه دين، ولا يجوز لهم أن يؤخروا ذلك، لأن المال الذي ورثوه من ماله ليس لهم فيه حق إلا إذا انتهى الدين، يعني: الورثة ليس لهم حق في شيء من التركة حتى يقضى الدين، ولهذا قال الله تعالى في آيات المواريث ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾[٤] فليس للورثة حق أن يأخذوا شيئًا من التركة حتى يقضوا دين الميت، ويجب عليهم المبادرة في قضاء الدين إلا إذا كان مؤجلاً، فإنه يطلب من أهل الدين أن ينتظروا، فإن أبوا فإنه يعجل لهم، وإلا إذا وثّق الورثةُ [الدين] برهن أو كفيل، وقد

---

(١) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٣/٢١٤.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١/١١٢٧.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ص ٦٩٢، وقد ساق من الأحاديث ما يدلل به على كلامه فلتنظر. وانظر كذلك: الترغيب والترهيب ص ٤٠٦-٤١٠.

(٤) سورة النساء، آية: ١١.

تهاون الناس في قضاء الدين عن الأموات، فتجد الميت يموت وعليه الدين، فيلعب الورثة بالتركة ويؤخرون قضاء الدين، فيكون مثلاً عليه مئات الآلاف وترك عقارات كثيرة، فيقول الورثة: لا نبيع العقارات، بل ننتظر حتى تزيد العقارات ثم نبيع، هذا حرام الواجب أن يبادروا حتى ولوا باعوا الشيء بنصف الثمن، لأن المال ليس لهم بل هو للميت...

ثم ذكر المؤلف -النووي- حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه" يعني أن نفسه وهو في قبره معلقة بالدين، كأنها -والله أعلم- تتألم من تأخير الدين، ولا تفرح بنعيم ولا تنبسط؛ لأن عليه دينًا، ومن ثم قلنا: إنه يجب على الورثة أن يبادروا بقضاء الدين)[١].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

لقد أخبر النبي ﷺ بأن نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه، وفي هذا الإخبار دعوة للمدعوين أن يعجلوا بقضاء الديون عن الميت، ولا يؤخروا ذلك، لما في ذلك من ضرر يلحق بالميت ويصيبه، ومثل الإخبار قوله ﷺ ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ. مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ. إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ))[٢] وهذا الإخبار بيان لفضل هذه العبادات المذكورة، ومن ثم دعوة للمدعوين أن يفعلوها ويلتزموها.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الترهيب من الدين:

وهذا يستفاد من الحديث، حيث دل على التشديد في أمر الدين، وأن نفس المؤمن مرهونة به حتى يقضى عنه، ومعنى رهنها حبسها عن مقامها الكريم. والمراد بالنفس في هذا الحديث، هو الروح التي فارقت البدن بعد الحياة، لما روى الإمام أحمد من حديث سمرة أن النبي ﷺ قال: ((إن صاحبكم محتبس على باب الجنة في دين عليه))[٣][٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/١٢٠٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٥/١١، رقم ٢٠١٢٤ وقال محققو المسند: للحديث شواهد تشدّه وتقويه ٣٣/٣١٠.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٤٨٦-٤٨٧.

والحديث أخرجه أبو داود بلفظ: ((خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فقالَ: ههُنَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي فُلاَنَ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أحَدٌ، ثُمَّ قالَ: ههُنَا أحَدٌ مِنْ بَنِي فُلاَنٍ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: ههُنَا أحَدٌ مِنْ بَنِي فُلاَنٍ؟ فَقَامَ رَجُلٌ فقالَ: أنَا يَارَسُول الله، فقالَ: مَا مَنَعَكَ أنْ تُجِيبَنِي فِي المَرَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ أمَا إنِّي لَمْ أُنَوِّهْ بِكُمْ إلاَّ خَيْرًا إنَّ صَاحِبَكُم مَأْسُورٌ بِدَيْنِهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ أدَّى عَنْهُ حَتَّى مَا بَقِيَ أحَدٌ يَطْلُبُهُ بِشَيْءٍ))[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: الدين))[2].

ومن ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: ((قال رسولُ اللّه ﷺ لأبي طلحة: التمسْ لنا غُلامًا من غِلمانِكم يَخدُمني. فخرَجَ بي أبو طلحة يُردِفُني وراءه، فكنتُ أخدُمُ رسولَ اللّه ﷺ كلما نزَل، فكنتُ أسمعُهُ يُكثرُ أن يقول: اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من الهمِّ والحَزَن، والعجز والكسل، والبُخلِ والجبْن، وضَلَع الدَّين وغلبةِ الرجال))[3].

قال ابن حجر: (قوله "وضلع الدين" أصل الضلع وهو بفتح المعجمة واللام الاعوجاج، يقال ضلع بفتح اللام يضلع أي مال، والمراد به هنا ثقل الدين وشدته، وقال بعض السلف ما دخل هم الدين قلبا إلا أذهب من العقل ما لا يعود إليه)[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ مَا يَتَعَوَّذُ مِنَ الْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرَ مَا تَتَعَوَّذُ مِنَ الْمَغْرَمِ. قَالَ: إِنَّهُ مَنْ غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ))[5].

قال ابن القيم: (جمع النبي ﷺ بين المأثم والمغرم، فإن المأثم يوجب خسارة الآخرة، والمغرم يوجب خسارة الدنيا)[6].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٣٤١ وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٨٥٨) والحديث في مسند أحمد بن حنبل ٢٠٢٣١/٣٣.

(٢) أخرجه أحمد ١٤٦/٤، ١٥٤، رقم ١٧٣٢٠، ١٧٤٠٧. وقال محققو المسند: حديث حسن ٥٧٧/٢٨، ٦٢٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٦٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/١١.

(٥) أخرجه البخاري ٨٣٢، ومسلم ٥٨٩، والنسائي واللفظ له ٥٤٥٤.

(٦) الفوائد ٩١.

وعن أبي قتادة الأنصاري ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ. إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ. وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ. إِلاَّ الدَّيْنَ. فَإِنَّ جِبْرِيلَ، ﵇، قَالَ لِي ذَلِكَ))[١].

قال النووي: (فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين، وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين، وإنما يكفر حقوق الله تعالى)[٢].

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٨٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٣٢.

الحديث رقم (٩٤٥)

٩٤٥- وعن حُصَيْنِ بن وَحْوَحٍ رضي الله عنه : أنَّ طَلْحَةَ بْنَ البَرَاء بن عَازِبٍ رضي الله عنهما مَرِضَ، فَأتَاهُ النَّبيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَالَ: ((إنِّي لاَ أرى طَلْحَةَ إلاَّ قَدْ حَدَثَ فِيهِ المَوْتُ، فآذِنُوني بِهِ وَعَجِّلُوا بِهِ، فَإنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لجِيفَةِ مُسْلِمٍ انْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانِيْ اهْلِهِ)) رواه أبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

حُصَين بن وَحوَح: هو حصين بن وَحْوَحٍ بن جعفر الأنصاري الأوسيُّ.

له صُحبة، وقد روى حديثًا واحدًا عن النبي ﷺ في ذكر طلحة بن البراء.

وقتل هو وأخوه مِحْصَن بالقادسية وقيل: قتل بالعُذيبً[2].

غريب الألفاظ:

آذنوني به: أعلموني به[3].

الجيفة: جثة الميت[4].

بين ظهراني أهله: كأن ظهرًا منهم قُدَّامه وظهرًا منهم وراءه، فهو مكنوف من جانبيه[5].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ دائم التفقد لأصحابه دائم السؤال عنهم، فإذا علم أن أحدهم في شدة

---

(١) برقم ٣١٥٩، قال الذهبي في المهذب ١٣٢٠/٣: غريبٌ جدًا، وفي سنده سعيد مجهول.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٣٨/٢-٣٩، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ١٦٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٢٨٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد امين ٢١٧/٢-٢١٨.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ا ذ ن).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ي ف).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ظ هـ ر).

أسرع إليه، وهذا ما يجب على كل من تولى أمراً من أمور المسلمين أن يكون راعياً أميناً عليهم، والحديث يحكي زيارة الرسول ﷺ لطلحة بن البراء بن عازب ﷺ، وقول الراوي (أنَّ طَلْحَةَ بْنَ البَرَاءِ بن عَازِبٍ رضي الله عنهما مَرِضَ، فَأتَاهُ النَّبيُّ ﷺ يَعُودُهُ) يشير استخدام الفاء للعطف بين المرض، والإتيان لعيادته يشير إلى سرعة تجاوبه معهم، والتعبير بالعيادة يشير إلى التكرار؛ لأنه يؤنس المريض، ويشد من أزره، واستخدام الرسول ﷺ لأسلوب القصر في قصر حال طلحة على الموت يشير إلى التوكيد، والجزم، وهو من فراسته ﷺ أو مما أعلمه الله به أنه يموت قريباً، قوله: (فآذنوني به) أي أعلموني به مما يدل على حرصه على شهود جنازته، والتعبير بالإيذان لتوكيد التبليغ، والأمر بالتعجيل أمر نصح، وإرشاد، وقدّم إعلامه على التعجيل حرصاً على عدم تفويت الفرصة للصلاة عليه، والتعبير بالجيفة فيه تنفير من تأخير دفنها، وهو ما يؤكد الأمر السابق بتعجيل دفنها، كما أن في التعبير بالجيفة إعلاء لشأن الروح التي إذا خرجت أصبح الجسد جيفة يُسارع إلى دفنها، حتى يتنبه خدام الأجسام إلى أن ما يفعلونه ليس له قيمة، فيجب أن ينشغلوا بما يبقى، ونسبة الجيفة إلى المسلم تخصيص يكتنفه تكريم يستلزم سرعة دفنها، والتعبير بالحبس فيه إشارة إلى التضييق، والتعبير به فيه تنفير من الفعل لما يستحضره اللفظ من معنى التضييق، والإكراه، وقوله (بين ظهراني أهله) أي وسط أهله، والتعبير يشير إلى أصفيائه من أهله، وأنصاره.

فقه الحديث

قال ابن قدامة: (ويستحب المسارعة إلى تجهيزه إذا تيقن موته، لأنه أصون له وأحفظ من أن يتغير؛ وتصعب معاناته، قال أحمد: كرامة الميت تعجيله. وفيما روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: "إني لأرى طلحة قد حدث فيه الموت ..." الحديث. ولا بأس أن ينتظر به مقدار ما يجتمع لها جماعة، لما يؤمل من الدعاء له إذا صلّى عليه، ما لم يخف عليه أو يشق على الناس. نصّ عليه أحمد، وإن اشتبه أمر الميت اعتبر بظهور أمارات الموت، من استرخاء رجليه، وانفصال كفيه، وميل أنفه، وامتداد جلدة وجهه وانخساف

صُدْغيه، وإن مات فجأة كالمصعوق، أو خائفًا من حرب أو سبعُ، أو تردى من جبل، انتظر به هذه العلامات حتى يتيقن موته)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (اتفق الفقهاء على أنه إن تيقنّ الموت، يبادر إلى التجهيز ولا يؤخر)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: عيادة المريض.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التيقن من موت الميت.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الإسراع بدفن الميت.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والقصر والأمر والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عيادة المريض:

هذا واضح من عيادة النبي ﷺ لطلحة بن البراء رضي الله عنه.

وقد قال النبي ﷺ: ((أَطْعِمُوا الجَائِعَ، وَعُودُوا المَرِيضَ، وفُكّوا العاني))[٣]. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ((أمرَنا رسولُ الله ﷺ بسَبع ونهانا عن سبع: نهانا عن خاتم الذهب، ولبس الحرير والديباج والاسْتَبرَق، وعن القَسيِّ، والميثرَة. وأمرَنا أن نَتبعَ الجنائزَ، ونعود المريضَ، ونُفْشي السلام))[٤].

وقد بوب البخاري على هذين الحديثين: باب وجوب عيادة المريض[٥].

قال ابن حجر: (قوله "باب وجوب عيادة المريض" كذا جزم بالوجوب على ظاهر الأمر بالعيادة. قال ابن بطال: يحتمل أن يكون الأمر على الوجوب بمعنى الكفاية

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/٣٦٦-٣٦، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٧٩ .

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦/٧، وانظر: الفتاوى الهندية، الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ١/١٥٧ وما بعدها، والغاية ١/١٦٧، ٢٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ٥٦٤٩.

(٤) أخرجه البخاري ٥٦٥٠، ومسلم ٢٠٦٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٠/١١٢.

كإطعام الجائع وفك الأسير، ويحتمل أن يكون للندب على التواصل والألفة. وجزم الداودي بالأول فقال: هي فرض يحمله بعض الناس عن بعض، وقال الجمهور: هي في الأصل ندب، وقد تصل إلى الوجوب في حق بعض دون بعض، وعن الطبري: تتأكد في حق من ترجى بركته، وتسن فيمن يراعى حاله، وتباح فيما عدا ذلك، ونقل النووي[١] الإجماع على عدم الوجوب يعني على الأعيان)[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التيقن من موت الميت:

هذا يستفاد من الحديث، كما يوضح ذلك تبويب النووي عليه في رياض الصالحين، جاء في الموسوعة الفقهية[٣]: (نظرًا لتعذر إدراك كنه الموت، فقد علّق الفقهاء الأحكام الشرعية المرتبة عليه بظهور أماراته في البدن، فقال ابن قدامة: (إذا اشتبه أمر الميت اعتبر بظهور أمارات الموت، من استرخاء رجليه، وانفصال كفيه، وميل أنفه، وامتداد جلدة وجهه، وانخساف صدغيه)[٤].

وجاء في روضة الطالبين: (تستحب المبادرة إلى غسله وتجهيزه إذا تحقق موته، بأن يموت بعلة، وتظهر أمارات الموت، بأن تسترخي قدماه ولا تنتصبا، أو يميل أنفه، أو ينخسف صدغاه، أو تمتدُّ جلدةُ وجهه، أو ينخلع كفّاه من ذراعيه، أوتتقلّص خصيتاه إلى فوق مع تدلي الجلدة. وإن شك بأن لا يكون به علة، واحتمل أن يكون به سكتة، أو ظهرت أمارات فزع أو غيره، أخر إلى التيقن بتغير الرائحة أو غيره)[٥].

وقال د. محمد رواس قلعه جي: (الموت هو انسحاب الروح من البدن. وأمارات الموت: أمارة الموت المحققة هي بدء تحلل دماغ المرء، لأنه إذا تحلل انعدمت وظائفه، وإذا تحلل لا يعود.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٠٦٦، .

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٠/١١٢-١١٣.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٩/٢٤٨.

(٤) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/٣٦٧.

(٥) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ١/٦١٢.

ومن أماراته المحققة أيضًا: توقف القلب عن العمل مدة تزيد على أربع دقائق، لأن توقف القلب أكثر من أربع دقائق يتبعه تحلل الدماغ، ومن أماراته: شخوص البصر، وقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك بقوله: ((إن الروح إذا قُبِض تبعه البصر))[١]، ومنها: توقف التنفس، واسترخاء القدمين، وميل الأنف، وامتداد جلدة الوجه، وانخساف الصدغين، وتقلص الخصيتين إلى فوق وتدلّي الجلدة، وبرودة البدن)[٢].

وقال عبدالله البسام عن حقيقة الوفاة: (قال الأطباء: جذع الدماغ هو المتحكم في جهازي التنفس والقلب والدورة الدموية، ولذا فإن توقف جذع الدماغ وموته، يؤديان لا محالة إلى توقف القلب والدورة الدموية والتنفس ولو بعد حين.

ولذا فإن لجنة (المجمع الفقهي في جدة) المكونة من أعضائها الشرعيين والأطباء وهم كل من:

١- مختار السلامي - مفتي تونس.

٢- مصطفى الزرقاء من كبار فقهاء حلب.

٣- الطبيب أشرف الكردي- اختصاصي الأمراض العصبية.

٤- الطبيب محمد علي البار- اختصاصي الأمراض الباطنة.

قرروا في ١١ صفر عام ١٤٠٧هـ ما يلي:

بحكم النظرين الشرعي والطبي بأن الشخص قد مات إذا تبين فيه إحدى العلامتين:

الأولى: إذا توقف قلبه وتنفسه توقفًا تامًا، وحكم الأطباء بأن هذا التوقف لا رجعة بعده.

الثانية: إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلاً نهائيًا، وحكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بأن هذا التعطل لا رجعة فيه، وأخذ الدماغ في التحلل، ففي هذا الحال يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على المحتضر، وإن كان بعض الأعضاء كالقلب مثلاً لا يزال يعمل آليًا بفعل الأجهزة المذكورة.

---

(١) أخرجه مسلم ٩٢٠.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢/١٨٤٩-١٨٥٠.

أما مجلس المجمع الفقهي الإسلامي، ففي دورته العاشرة المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة في يوم السبت ١٤٠٨/٢/٢٤هـ إلى يوم الأربعاء الموافق ١٤٠٨/٢/٢٨هـ فنص قراره ما يلي:

وبعد المداولة في الموضوع انتهى المجلس إلى القرار الآتي:

المريض الذي ركبت على جسمه أجهزة الإنعاش، يجوز رفعها إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلاً نهائيًا، وقررت لجنة من ثلاثة أطباء اختصاصيين خبراء أن التعطل لا رجعة فيه، وإن كان القلب والتنفس لا يزالان يعملان آليًا بفعل الأجهزة المركبة، لكن لا يحكم بموته شرعًا إلا إذا توقف التنفس والقلب توقفًا تامًا بعد رفع هذه الأجهزة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

قال محرره عفا الله عنه [أي البسام]: ما دمنا علمنا من الأطباء أن موت الدماغ هو موت حقيقي لا رجعة بعده، وأنه يتبعه موت القلب لا محالة وإن استمر نبضه وضخّه بفعل أجهزة الإنعاش، فيعتبر نزع أجهزة الإنعاش عن المحتضر ليس قضاء عليه وتعجيلاً بموته، لأنه في عداد الموتى طبيًا، فيكون نزعها جائزًا شرعًا)[1].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الإسراع بدفن الميت:

هذا واضح من قول النبي ﷺ "فآذنوني به وعجلوا به، فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله" قال ابن عثيمين: (يسن الإسراع في الجنازة، ولهذا قال: "لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهلها"، لكن لو حبست لساعة أو ساعتين لانتظار كثرة الجمع، كما لو مات في أول النهار مثلاً يوم الجمعة وقالوا: ننتظر للصلاة لكثرة الجمع فهذا لا بأس به - إن شاء الله - وهو تأخير لا يضر)[2]. وقد قال النبي ﷺ: ((أسرعوا بالجنازة))[3].

وقال ابن حجر: (والحاصل أنه يستحب الإسراع، لكن بحيث لا ينتهي إلى شدة

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٤٨٠-٤٨١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٠٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٣١٥، ومسلم ٩٤٤.

يخاف معها حدوث مفسدة بالميت أو مشقة على الحامل أو المشيع، لئلا ينافي المقصود من النظافة وإدخال المشقة على المسلم، قال القرطبي: مقصود الحديث ألا يتباطأ بالميت عن الدفن، ولأن التباطؤ ربماأدى إلى التباهي والاختيال اهـ. ويؤيده حديث ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به إلى قبره" أخرجه الطبراني بإسناد حسن[١])[٢].

وقال العظيم آبادي: (والحديث يدل على مشروعية التعجيل بالميت، والإسراع في تجهيزه، وتشهد له أحاديث الإسراع بالجنازة)[٣].

قال عبدالله البسام: (الإسراع بالجنازة يشمل الإسراع في تجهيزها ودفنها والإسراع في حملها إلى القبر، هذا ما لم يكن في تأخيرها مصلحة من حضور الأقارب ونحوهم، أو يكون مات في حادث جنائي يتطلب بقاء جثة الميت للتحقيق في أمرها، فإن حقق التأخير مصلحة ظاهرة فلا بأس ببقائها، لا سيما مع وجود الأماكن المبردة التي تحفظ الجسد من الفساد)[٤].

رابعًا - من أساليب الدعوة: التوكيد والقصر والأمر والتعليل:

أما التوكيد فقوله ﷺ "إني" وأما القصر فقوله ﷺ:"لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت" وأما الأمر فقوله ﷺ "فآذنوني وعجلوا به" وأما التعليل فقوله ﷺ: "فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله".

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين بن أبي بكر الهيثمي ٣/٤٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣/١٨٤.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٣٤٧.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٥٣١-٥٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التحذير من الدين ومن التراخي في سداده:

إن مما تحرص التربية الإسلامية على التحذير منه والتورط فيه: الديون التي تؤدي إلى شتات الإنسان وتُلحق به الهم والغم، وتؤثر سلباً على حياته، وتؤدي إلى عدم راحته في مماته، حيث تتعلق نفس المؤمن بدينه، قال ﷺ: «نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ»، وفي هذا تحذير من الدين إلا لضرورة مُلحة وحث على المسارعة في أداء الدين عن الميت وبراءة ذمته، ولكن أيضمن كل إنسان أنه إذا مات سيُقضى دينه من قِبَلِ ورثته وذويه؟ فالحذرَ الحذرَ من رِقِّ النفس وتثقيلها بأغلال الديْن وأصفاده في الدنيا والآخرة.

إن الديْن قد بلغ من الخطورة ما جعل الرسول ﷺ يرشد أمته إلى الاستعاذة من الديْن وغلبته، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ : أَبُو أُمَامَةَ جَالِساً فِيهِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا أُمَامَةَ مَا لِي أَرَاكَ جَالِساً فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلاَةٍ؟» قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «أَفَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلاَماً إِذَا قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟» فَقَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُلْ، إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ»[1]. فإن الدَّيْن إذا غلب الإنسان ذهب بعزه وأودى بنعيمه وأنسه، وأتى على طارفه وتليده وقديمه وجديده.

الدَّيْنَ إذا غلب الإنسان ملك عليه فكره وعقله وصوابه ورشده فلا يذوق طعم الهناءة ولا يحسن التفكير ولا يهتدي إلى الصواب، وإنما يغلب الدَّيْن إنساناً استدان بلا بصيرة ولم يدبر أمره وينظم شأنه، ويجدُّ في تلمس الطرق المشروعة في الكسب لسداد

---

(١) أخرجه أبو داود، ١٥٥٥، وقال المناوي فيه غسان بن عوف بصري ضعيف، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي، ١١٢/٣.

الديْن، وإنما يغلب من استدان ولم يعزم على الوفاء بل كانت نيته التقصير، أما من استدان لضرورة ملجئة فإن الله تعالى سيعينه ويوفقه للسداد وردّ الحقوق إلى أصحابها.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[1][2].

ثانياً- التربية على المبادرة والمسارعة في أداء الحقوق:

من المضامين التربوية التي وردت في حديثي الباب المبادرة والإسراع في أداء الحقوق وسداد الديون خاصة إذا تعلقت بالميت لأنه أحوج ما يكون لمن يكفيه حاجته، كما جاء في الحديث الأول حيث بين النبي ﷺ أن نفس المؤمن معلقة بديْنه، ودعا بطريق غير مباشر إلى المسارعة إلى راحة الميت الذي تعلقت نفسه بديْنه من خلال سداد ديونه. فقال ﷺ: «نَفْسُ المُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ».

ومن الحقوق التي يجب أداؤها للميت حقه في غسله وتكفينه ودفنه وسرعة ذلك، كما جاء التصريح بذلك في حديث حصين بن وَحْوَح رضي الله عنه «أن طلحة بن البراء رضي الله عنه: مَرِضَ فَأتَاهُ النَّبيُّ ﷺ يَعُودُهُ فقال: إنِّي لاَ أُرَى طَلْحَةَ إلاَّ قَدْ حَدَثَ فِيهِ المَوْتُ، فَآذِنُونِي بِهِ وَعَجِّلُوا به، ...».

إن التربية على المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة فيها ليست قاصرة على ما ورد في الباب، فيما يتعلق بأداء حقوق الميت، وإنما ذلك أمر عام يتناول جميع شئون المسلم في الدنيا والآخرة، سواء أكان يتعلق به أم بغيره.

إننا إذا ما نظرنا إلى منهج التربية الإسلامية بصفة عامة "نجده يوجه الإنسان الوجهة الصحيحة السليمة، وذلك بحثه على فعل الخير والمسابقة إليه، باستمراره دون أن يكون هناك تباطؤ أو كسل، نرى ذلك من خلال الأمر الإلهي المتكرر بفعل الخير، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٢٧.

تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

إن الشخصية الإسلامية لتيقنها أن الدنيا دار سعي وعمل ومدتها محدودة قليلة والآخرة دار حساب وجزاء وهي حياة أبدية، فإننا نجدها تسارع في هذه الدنيا إلى كل عمل طيب، سباقة إلى كل فعل خير، وما ذاك إلا ليكون لها زاداً تتزود به يوم القيامة وتحصل به على الثواب العظيم من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٢].

إن غرس روح المبادرة والمسارعة في فعل الخيرات وأداء الحقوق والواجبات من الأهمية بمكان، إذ أن غالب الناس يحمل نفساً طيبة تحب الخير وتركن إلى المعروف، ولكنها قد بليت بالإهمال وكثرة التسويف، فليس عندها خلق المبادرة والإسراع، وإنما تسمع منهم مشروعات متعددة من أفعال الخير يرسمونها وتمضي الأيام وتتوالى الشهور والأعوام، دونما تطبيق لتلك المشروعات والأفكار.

لذا كانت أهمية التربية على المبادرة والمسارعة إلى فعل الخيرات والقيام بأعبائها وذلك يتطلب ترويض النفس وتعويدها عليها حتى تألفه مع الأخذ في الاعتبار بأهميتها والاستشعار بأنه يقوم بواجبه الذي أمر به الإسلام وحث عليه حتى لا يكون عمله مجرد عادة فقط[٣].

ثالثاً- التربية بالوقاية:

إن التربية على الوقاية مبدأ إسلامي أصيل، فهو أصل من أصول الفقه الإسلامي التشريعية المعتبرة، سواء في الأمور الجسدية أم الأخلاقية، وخلاصة القول في الوقاية أنها الحذر مما يؤدي إلى الضرر، في جميع المجالات الفكرية والعقدية والأخلاقية والتشريعية، ومبدأ الوقاية يدور في فلكه جميع القواعد التي تنهي عما يقرب من

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي ص ٣٦١-٣٧٩.

الحرام أو المفاسد أو أهل الحرام أو أهل الفساد، فكل هذا وقاية لا تختلف في محصولها الأخير - أيضاً- عن الوقاية في الإطار الصحي المعروف[١].

وقد وردت التربية في حديثيْ الباب، وذلك من خلال أمر رسول الله ﷺ بتعجيل دفن الميت والإسراع في ذلك، كما جاء في صريح قوله ﷺ عن طلحة بن البراء رضي الله عنه، وقد نزل به الموت: «إِنِّي لاَ أُرَى طَلْحَةَ إِلاَّ قَدْ حَدَثَ فِيهِ المَوْتُ، فَآذِنُونِي بِهِ وَعَجِّلُوا، فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِجِيفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ»، وذلك يتضمن وقاية للميت وللناس:

أ- أما للميت ففي تعجيل دفنه صونٌ لكرامته ووقاية لها من أن تهان كأن تتفسخ جثته، وتفوح رائحته أو ما شاكل ذلك، وفي ذلك تحقيق لاحترام الميت وصيانة كرامته، "فكما أن الإسلام ضمن حماية الإنسان في حال حياته كذلك كفل له الاحترام بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه والتعجيل بذلك، وفي ذلك دليل على بقاء حرمة المسلم حتى بعد موته فيُصَانُ جسمه وعرضه وسمعته لئلا تلوكها الأفواه وتتندر بها الألسنة"[٢].

ب- وقاية المجتمع من الأوبئة والحفاظ على سلامة الناس وصحتهم:

إذ أن تأخير دفن الموتى يسبب في انتشار الأمراض والأوبئة نتاجاً لتعفن الجثث وتحللها، وهذا أمر لا ينكر، ويلمسه العالم بصورة واضحة أيام الحروب والكوارث الكونية وما شاكلها، لذا وضع الإسلام من الأسباب والوسائل الوقائية التي تحمي من الأوبئة والعدوى وتقلل من آثارها سواء كان ذلك بتضييق الخناق على الأماكن الموبوءة أو بما يسمى بالحجر الصحي، أم كان بالقضاء على أسباب الأمراض وانتشارها، ومن هنا كان الأمر بدفن الموتى والتعجيل بذلك، كما جاء في صريح قوله ﷺ: «وَعَجِّلُوا بِهِ فَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِجِيفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ».

"إن الوقاية الصحية للإنسان، تكمن في تحذيره من ارتياد الأماكن الموبوءة، أو تناول بعض الأغذية والعقاقير والمشروبات التي تتسبب في تدهور حالته الصحية، أو

---

(١) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، د. عبدالحليم عويس، ١/٣١٠.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٨٧، ٨٨.

حقنه بجُرع خاصة من شأنها أن تجعل لدى الجسم مناعة كافية لمقاومة مرض معين، وقد استخدم الإسلام أسلوب الوقاية للفرد المسلم وللأسرة والمجتمع من خلال تحذيرات الرسول ﷺ من بعض السلوكيات الخاطئة، التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، والمجتمع والدولة إلى الضعف والهوان، أو من خلال بعض التوجيهات التي تحض الفرد وتدفعه نحو الاستقامة والاعتدال.

وهذه التحذيرات والتوجيهات قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف والإشفاق تجاه الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة.

وهي بمثابة جرعة وقائية إن أخذت ستقي المجتمع من الأخطار المتوقعة والهلاك المحقق، وهي كذلك بمثابة حمية وقائية يتقي بها من الأمراض المهلكة"[1].



(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٥٦.

١٦٠- باب الموعظة عند القبر

الحديث رقم (٩٤٦)

٩٤٦- عن عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ في بَقيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رسولُ الله ﷺ فَقَعَدَ، وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ وَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((**مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**)) فقالوا: يَا رسولَ الله، أفَلا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابنَا؟ فَقَالَ: ((**اعْمَلُوا؛ فكلٌّ مُيَسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ...**)) وذكَر تَمَامَ الحديث. متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عليّ بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٦٨).

غريب الألفاظ:

مقبرة أهل المدينة: وهي اليوم داخل المدينة المنورة بجوار المسجد النبوي الشريف شرقًا[٢].

مِخْصرة: ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا لطيفة وعكاز لطيف وغيرهما[٣].

فنكس: خفض رأسه وطأطأ إلى الأرض على هيئة المهموم[٤].

ينكت: يخط خطًا يسيرًا مرة بعد مرة[٥].

نتَّكل: من الاتكال وهو الاعتماد[٦].

كتابنا: مكتوبنا السابق من السعادة وضدها[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٤٥، ومسلم ٢٦٤٧/٦، والسياق للحميدي في جمعه ١٦٣/١ رقم ١٣١.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٧٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٦٩.

(٤) المرجع السابق ص ١٥٦٩.

(٥) المرجع السابق ص ١٥٦٩.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٥٦.

(٧) المرجع السابق ١١٥٦.

الشرح الأدبي

حال الرسول ﷺ الدالة من هيئة النكس، وهو خفض الرأس، والطأطأة بها إلى الأرض ثم النكت في الأرض، وهو الضرب فيها بقضيب يؤثر فيها، أو إصبع هو كناية عن الهم، والانشغال بطارق خطير، والتفكير فيه، وهو ما يتعلق بأهوال القبور، وأحوال الناس بين شقي، وسعيد، ودخوله ﷺ في هذه الحالة وهو الذي ينزل عليه الوحي يُشعر بعظمة ما رأى، وما علم الأمر وهو ما انعكس على أسلوبه البلاغي فجاء معبراً أتم تعبير، وتأمل كيف بدأ بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء ليخصص، ويقصر كل نفس على مكانها من الجنة أو من النار (ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها) وقد استخدم طريق النفي والاستثناء الذي يستخدم فيما من شأنه أن يكون منكرا من المخاطب أو مشكوكا فيه، وقد سلّط النفي على الجار والمجرور العائد من كاف الخطاب على المخاطبين ليجعلهم أبطال الحدث، وفي هذا ما فيه من سيطرة على عقل المخاطب ووجدانه؛ لأنه صار المعنىّ بالحديث (ما منكم) ثم جاء بـ (من) للاستغراق في قوله (ما منكم) حتى لا يظن أحد المخاطبين أنه خارج دائرة الحوار فيغفل عما سيقال، ثم قوله: (ما منكم من نفس منفوسة) بعد قوله (ما منكم من أحد) يحتمل أن يكون بدلاً من قوله (ما منكم من أحد) فيكون الفصل بينهما لكمال الاتصال، وأيضاً (إلا) ثانياً بدلا من (إلا) أولاً، ويحتمل أن يكون من باب اللف والنشر ويحتمل أن يكون تعميماً بعد تخصيص إذ الثاني في كل منهما أعم من الأول، وقوله (ما من نفس منفوسة) (من) بيانيه، ومنفوسة أي مخلوقة وفي العبارة جناس يجذب السمع ويؤكد المعني، وقوله (اعملوا) أسلوب الحكيم منعهم عن الاتكال، وأمرهم بامتثال ما يجب على العبد من امتثال أمر ربه وعبوديته عاجلا، وتفويض الأمر إليه آجلا يعني: أنتم عبيد ولابد لكم من العبودية بما أمرتم، وإياكم والتصرف في الأمور الإلهية؛ لا تجعلوا العبادة وتركها سببا مستقلا لدخول الجنة والنار بل هي أمارات وعلامات ولا بد في الإيجاب من لطف الله أو خذلانه، والأسلوب بمفهومه من الحال الدالة بجلوس الرسول ﷺ ناكس الرأس ينكت بمخضرته الأرض عند القبور في

حضور جنازة يشيع حالة من الرهبة، والوجل وبمنطوقة الذي جعلهم دون استثناء أبطال الحديث، وأطراف الحوار سيطر عليهم، وجعلهم في قمة الإدراك، والاستعداد لتلقي المعني، وقبوله، والتفاعل معه إيجاباً ومناقشة جوانبه حتى يتم استيعابه على الوجه الذي يريد كما حدث في الحديث[1].

فقه الحديث

١-الجلوس لمن اتبع الجنازة: بوّب البخاري على هذا الحديث: باب موعظة المحدِّث عند القبر وقعود أصحابه حوله[2]. فقال ابن حجر: (كأنه يشير إلى التفصيل بين أحوال القعود، فإن كان لمصلحة تتعلق بالحيّ أو الميت لم يكره، ويحمل النهي الوارد عن ذلك على ما يخالف ذلك[3])[4].

٢ -الموعظة عند القبر: قال ابن عثيمين: (وقد أخذ بعض الناس ترجمة النووي وترجمة البخاري في صحيحه: باب الموعظة عند القبر، أخذوا منها أن يكون الرجل خطيبًا في الناس يرفع صوته: يا عباد الله" وما أشبه ذلك من الكلمات التي تقال في الخطب، وهذا فهم خاطئ غير صحيح، فالموعظة عند القبر تقيّد بما جاء في السنة فقط، لئلا تتخذ المقابر منابر، فالمواعظ الهادئة يكون الإنسان فيها جالسًا، ويبدو عليه أثر الحزن والتفكر وما أشبه ذلك، وليست موعظة وكأنه ينذر الجيش)[5].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الجلوس حول النبي ﷺ.

---

(١) ينظر الحال الدالة في الحديث النبوي، بحث منشور في كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر بأسيوط د. ناصر راضي الزهري، العدد: ٢٦، ١/٦٦٩.

(٢) الحديث ١٣٦٢.

(٣) أخرج البخاري ١٣١٠، ومسلم ٩٥٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها، فمن تبعها فلا يجلس حتى توضع".

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٢٥.

(٥) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٠٦-١٢٠٧.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الموعظة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إثبات القدر.

رابعًا: من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

خامسًا: من فقه الداعية: الحكمة في الجواب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الجلوس حول النبي ﷺ:

هذا واضح من قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه "فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومه مخصرة...".

قال ابن عثيمين: (لأن كل الناس يحبون أن يكونوا جلساء للنبي ﷺ)[١].

وقال البراء بن عازب: ((خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في جَنَازَةِ رَجُلٍ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُؤوسِنَا الطَّيْرُ))[٢].

قال ابن الأثير: (وصفهم بالسكون والوقار وأنه لم يكن فيهم طيش ولا خفة، لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شيء ساكن)[٣].

وقال ابن عثيمين: (كأن على رؤوسهم الطير، احترامًا لرسول الله ﷺ وإجلالاً لهذا المجلس وهيبة)[٤].

ثانيًا - من أساليب الدعوة: الموعظة:

هذا واضح من الحديث كله، وقد بوب البخاري على هذا الحديث في صحيحه في كتاب الجنائز: باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله[٥] وقد ذكر البخاري في هذا الباب بعض الآيات المتعلقة بالقبر مع تفسيرها. قال ابن حجر: (وهذه التفاسير أوردها لتعلقها بذكر القبر استطرادًا، ولها تعلق بالموعظة أيضًا. قال الزين بن المنير: مناسبة إيراد هذه الآيات في هذه الترجمة [أي الباب] للإشارة إلى أن المناسب لمن

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٠٥-١٢٠٦.

(٢) أخرجه أبوداود ٣٢١٢، وابن ماجه واللفظ له ١٥٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٧٥١).

(٣) النهاية في غريب الحديث ٥٧٣.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٠٦.

(٥) الحديث ١٣٦٢ والباب برقم ٨٢، وكتاب الجنائز برقم ٢٣.

قعد عند القبر أن يقصر كلامه على الإنذار بقرب المصير إلى القبور، ثم إلى النشر لاستيفاء العمل)[١]. وقال النووي: (ويشتغل القاعدون بتلاوة القرآن والدعاء للميت والوعظ وحكايات أهل الخير وأحوال الصالحين)[٢].

ووقال البراء بن عازب رضي الله عنه: ((خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللّه ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤوسِنَا الطَّيْرُ وفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقالَ: اسْتَعِيذُوا بالله مِنْ عذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَو ثَلاثًا. فإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ: يَا هذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ...)) الحديث بطوله[٣].

وقال ابن حجر عن نكت النبي ﷺ الأرض بالمخصرة: (هي عادة لمن يتفكر في شيء يستحضر معانيه، فيحتمل أن يكون ذلك تفكرًا منه ﷺ في أمر الآخرة بقرينة حضور الجنازة، ويحتمل أن يكون فيما أبداه بعد ذلك لأصحابه من الحكم المذكورة. ومناسبته للقصة أن فيه إشارة إلى التسلية عن الميت بأنه مات بفراغ أجله)[٤]. وقال ابن هبيرة: (فيه جواز نكت الأرض بشيء يكون في يد المتكلم، استراحة في القول وتتميمًا للكلام)[٥].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: إثبات القدر:

هذا واضح من قوله ﷺ "ما منكم من أحدٍ إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة".

قال ابن عثيمين: (كل إنسان من بني آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، ومقعده من النار إن كان من أهل النار، وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٢٦/٣.

(٢) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٩٠.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٧٥٣ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٧٩).

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٤٩٧/١١-٤٩٨، . وانظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ١٢٠٥/٢-١٢٠٦.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٥٧/١.

(٦) شرح رياض الصالحين ١٢٠٦/٢.

وقال النووي: (وفي هذه الأحاديث[1] كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره، خيرها وشرها، نفعها وضرها، قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[2] فهو ملك لله تعالى، يفعل ما يشاء ولا اعتراض على المالك في ملكه، ولأن الله تعالى لا علة لأفعاله.

قال أبو المظفر السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة، دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه، ضل وتاه في بحار الحيرة. ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص الله به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم، لما علمه من الحكمة، وواجبنا أن نقف حيث حدّ لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم؛ فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وقيل إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها)[3].

والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان: ولا يذكر القدر إلا ويذكر معه القضاء فما الفرق بينهما؟ جاء في كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: (ذكر العلماء في التفريق بين القضاء والقدر. أن القدر: هو تقدير شيء قبل قضائه، والقضاء هو الفراغ من الشيء. ومن الشواهد التي ذكرها أبو حاتم للتفريق بين القضاء والقدر، أن القدر بمنزلة تقدير الخياط للثوب، فهو قبل أن يفصله يقدره، فيزيد وينقص، فإذا فصله فقد قضاه وفرغ منه وفاته التقدير. وعلى هذا يكون القدر سابقًا للقضاء. قال ابن الأثير: (فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر؛ بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء ونقضه)[4].

---

(١) انظر هذه الأحاديث في: صحيح مسلم في كتاب القدر رقم ٤٦، الأحاديث رقم ٢٦٤٣-٢٦٥١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٦/٢٠٠-٢٠٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/٤٩٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث ٧٥٩.

والقضاء والقدر إذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى، فأصبح لكل منهما معنى يخصه، وإذا افترقا في الذكر دخل أحدهما في معنى الآخر. ذكر ذلك بعض أهل العلم[1].

وقال ابن تيمية في نسبة أفعال العباد إليهم، وأن الله هو الذي خلق أفعالهم: (والعباد فاعلون حقيقة، والله خلق أفعالهم. والعبد هو: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمُصلي والصائم.

وللعباد قُدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وقدرتهم وإرادهم؛ كما قال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2])[3].

وقال محمد خليل هراس في شرح كلام ابن تيمية: (لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء، وبين كون العبد فاعلاً لفعله؛ فالعبد هو الذي يوصَفُ بفعله، فهو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمُصلي والصائم، والله خالقه، وخالق فعله؛ لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما فعل.

قال عبدالرحمن السعدي: (إن العبد إذا صلّى، وصام، وفعل الخير، أو عمل شيئًا من المعاصي؛ كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح، وذلك العمل السيء، وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره، وهو يحسُّ ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل، وكان هذا هو الواقع؛ فهو الذي نصَّ الله عليه في كتابه، ونصَّ عليه رسوله؛ حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد، وأخبر أنهم الفاعلون لها، وأنهم ممدوحون عليها -إن كانت صالحة- ومثابون، وملومون عليها -إن كانت سيئة- ومعاقبون عليها.

فقد تبيَّن بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم، وأنهم إذا شاؤوا فعلوا، وإذا شاؤوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحسًّا وشرعًا ومشاهدةً.

---

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٢٨-٢٩.

(٣) العقيدة الواسطية مع شرحها، محمد خليل هراس.

ومع ذلك؛ إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة في القدرة، وكيف تشملها المشيئة؟! فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فيقال: بقدرتهم وإرادتهم؛ هذا يعترف به كل أحد. فيقال: ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم؟ فالجواب الذي يعترف به كل أحد أن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، والذي خلق ما به تقع الأفعال هو الخالق للأفعال.

فهذا هو الذي يحلُّ الإشكال، ويتمكَّن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ومع ذلك فهو تعالى أمدَّ المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوِّعة وصرف عنهم الموانع؛ كما قال ﷺ: ((أما من كان من أهل السعادة؛ فسييسر لعمل أهل السعادة))[1].

وكذلك خذل الفاسقين، ووكلهم إلى أنفسهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يتوكَّلوا عليه، فولاهم ما تولَّوا لأنفسهم) ا هـ.

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العباد، ما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها، وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات، فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة، وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقًا لما علمه منها بعلمه القديم، ولما كتبه وقدَّره في اللوح المحفوظ، وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم، وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم، وأنهم لهذا يستحقُّون عليها الجزاء: إما بالمدح والمثوبة، وإما بالذم والعقوبة، وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلاً لا ينافي نسبتها إلى الله إيجادًا وخلقًا؛ لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها)[2].

ولا شك أن الإيمان بالقدر له الأثر البالغ، والمنافع الجمة، والثمرات الطيبة في حياة

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٦٢، ومسلم ٢٦٤٧.

(٢) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس ص ٢٥٩-٢٦١.

المؤمن وفي مجتمعه، فمن ذلك:

(١- الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب لأنه مقدر الأسباب والمسببات.

٢- راحة النفس وطمأنينة القلب إذا أدرك العبد أن كل شيء بقضاء الله وقدره.

٣- طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد، لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره، من أسباب ذلك الخير والنجاح، فيشكر الله ويدع الإعجاب.

٤- طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه، لأن ذلك بقضاء الله وقدره فيصبر على ذلك ويحتسب)[١].

رابعًا - من آداب المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

وهذا واضح من قول الصحابة ﭬ: "يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟" قال ابن حجر: ("قوله: رجل من القوم"[٢] في رواية سفيان وشعبة: فقالوا: "يا رسول الله"[٣] وهذا الرجل وقع في حديث جابر عند مسلم[٤] أنه سراقة بن مالك بن جُعْشم ولفظه: "جاء سراقة فقال: يا رسول الله أنعمل اليوم فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير أو فيما يستقبل؟ قال: بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. فقال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له" وأخرجه الطبراني وابن مردويه نحوه وقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٥] وأخرجه ابن ماجه[٦] من حديث سراقة نفسه لكن دون تلاوة الآية.

ووقع هذا السؤال وجوابه سوى تلاوة الآية لشريح بن عامر الكلابي أخرجه أحمد

---

(١) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) هذه رواية البخاري في الحديث رقم ٦٦٠٥، وبنحوها في الحديث ١٣٦٢، وعند مسلم ٦-٢٦٤٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٩٤٥، ٤٩٤٦، ٤٩٤٩، ومسلم بعد الرواية ٦-٢٦٤٧.

(٤) صحيح مسلم ٢٦٤٨.

(٥) سورة الليل، الآية: ٥-١٠.

(٦) سنن ابن ماجه ٩١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٧٤).

والطبراني[١] ولفظه: قال: ففيم العمل إذن؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، وأخرج الترمذي[٢] من حديث ابن عمر قال: قال عمر يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع أو أمر قد فرغ منه؟ قال: فيما قد فرغ منه" فذكر نحوه. وأخرج البزار والفريابي من حديث أبي هريرة أن عمر قال: يا رسول الله" فذكره. وأخرجه أحمد والبزار والطبراني[٣] من حديث أبي بكر الصديق: قلت يا رسول الله أنعمل على ما فرغ منه. ووقع في حديث سعد بن أبي وقاص فقال رجل من الأنصار، والجمع بينها تعدد السائلين عن ذلك. فقد وقع في حديث عبدالله بن عمرو أن السائل عن ذلك جماعة، ولفظه فقال أصحابه: ففيم العمل إن كان قد فرغ منه؟ فقال: سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل... الحديث أخرجه الفريابي)[٤].

قال ابن أبي جمرة عن أن السؤال طريق التفقه في الدين والتثبت فيه - قال: (من الفقه التثبت في العلوم الشرعية حتى تعلم على تحقيق ويقين، والبحث عن ذلك مع الرفيع والوضيع على حد سواء بالأدب، لأن ذلك هو الطريق اللائق بالعلم، وإلا فصاحبه بدعي زائغ عن العلم، وسيرة السلف الصالح من الصحابة ﷺ وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، جعلنا الله من المتبعين لهم بمنه)[٥].

خامسًا - من فقه الداعية: الحكمة في الجواب:

هذا واضح من جواب النبي ﷺ عن سؤال الصحابة: أفلا نتكل على كتابنا؟ أي: (أفلا نعتمد على ما كتب لنا في الأزل، ونترك العمل؟ يعني إذا سبق القضاء لكل أحد منا بالجنة أو النار فأي فائدة في السعي؟ فإنه لا يرد قضاء الله وقدره)[٦] أجاب ﷺ عن سؤالهم بقوله ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" قال الطيبي: (وهو من الأسلوب

---

(١) مسند أحمد ١٦٦٣٠/٢٧، ١٦٦٣١، والطبراني في الكبير ٤٢٣٦، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) أخرجه الترمذي ٢١٣٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٣٤).

(٣) أخرجه أحمد ١٩/١، والبزار ٢٨، والطبراني ٤٧، وقال محققو المسند: حسن لغيره.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٤٩٦/١١-٤٩٧، .

(٥) بهجة النفوس ٢٣٦/٤.

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٢٤/١.

الحكيم، منعهم عليه الصلاة والسلام عن الاتكال وترك العمل، وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من امتثال أمر مولاه، وهو عبوديته عاجلاً وتفويض الأمر إليه آجلاً، يعني: أنتم عبيد ولابد لكم من العبودية، فعليكم بما أمرتم به وإياكم والتصرف في الأمور الإلهية، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فلا تجعلوا العبادة وتركها سببًا مستقلاً لدخول الجنة والنار، بل أمارات وعلامات لها، ولابد في الإيجاب من لطف الله وكرمه أو خذلانه)[2].

وقال النووي: (وفي هذه الأحاديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له، لا يقدر على غيره، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعملهم)[3].

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن الأرزاق والآجال قد سبق ما قسم الله عز وجل منها، وأن أهل النار قد سبق في علم الله عز وجل ذكرهم، ومقاعدهم منها.

وفيه من الفقه أن هذا الخبر لا ينبغي أن يؤثّر في ترك العمل بل في زيادته، ويؤثّر في ترك الإدلال بالطاعة؛ ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"؟!

وقد روي عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه لما روى الحديث الذي فيه: ((يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ))[4]، قال: هذا أشد الحديث أو أشد الأحاديث بعثًا على العمل، أو كما قال. والغرض أن هذا الحديث ليس يقتضي تقتير العمل، بل يقتضي الحذر من

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٢٥/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٠٢/١٦/٨، .

(٤) هذا جزء من حديث عبدالله بن مسعود في خلق الآدمي في بطن أمه، وفيه "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها..." أخرجه البخاري ٣٢٠٨، ومسلم ٢٦٤٣.

الإعجاب، كما أنه لا يقتضي التتابع في المعاصي، بل يقتضي أن لا يقنط فاعلها من رحمة الله إن كثرت ذنوبه.

وقوله: ((أما من كان مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فسيصير لِعَمَلِ السَّعَادَةِ. وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فسيصير لِعَمَلِ الشَّقَاءِ))[1]، فاعلم أن السين تخلص الفعل المضارع للاستقبال، فقوله: "سيصير لعمل أهل السعادة" يدلك على أن المعوَّل عليه هو الخاتمة، فلا يغترَّ أحد بعمل ولا يقنط من ذنب)[2].

---

(١) هذا تكملة حديث الباب، وقد مضى ذكر هذه الجملة منه قريبًا.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٥٧/١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالموعظة:

جاء في حديث الباب أنموذج من استخدام رسول الله ﷺ لأسلوب الموعظة في التربية في موعظته عند القبر، فعن علي رضي الله عنه قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رَسُول اللَّهِ ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ...». ولما كان الحديث قائما على أسلوب الموعظة بَوَّب النووي له تحت باب "الموعظة عند القبر".

إن الموعظة من الأساليب التربوية المؤثرة خاصة إذا كانت ممن يقتدى به نظراً لأهمية القدوة في العملية التربوية، إلا أن هذه الوسيلة لا تكون كافية لتجعل الولد أخلاقياً مستقيماً في كل تصرفاته، إذ لابد من حصول الموعظة مع وجود القدوة "لأن النفس الإنسانية على استعداد تام للتأثر بما يلقى إليها من كلمات لكن ذلك الاستعداد كما هو للخير فهو استعداد أيضاً للشر، فإذا أردنا أن نصلح جنوح الأحداث[1]، فإن الموعظة ذات تأثير بالغ في التغيير الإيجابي خاصة إذا ما أحسن توظيفها بالأسلوب وبالشكل المناسب.

إن النفوس الصافية والقلوب المتفتحة والعقول الواعية المتدبرة، إذا تراءى لها الحق منساباً بالكلمة المؤثرة والموعظة البليغة والنصيحة الرشيدة والتذكرة المخلصة فإنها سرعان ما تخضع للحق وتتقبل هدي الله الذي أنزله، هذا في الكبير، فكيف بالولد الصغير الذي ولد على الفطرة، وقلبه الطاهر البريء لم يتلوث بعد، ونفسه البيضاء الصافية لم تتدنس بمفاسد الجاهلية ولم تتقلب في مدارج الإثم والعدوان، فلاشك أن تأثيره بالموعظة أبلغ وقبوله للتذكرة أقوى[2].

---

(١) انظر: نحو تربية إسلامية، د. حسن الشرقاوي، مؤسسة شباب الجامعة: ١٩٨٣م ص ٢١٥.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ١٩٢/١. وانظر: الأولاد وتربيتهم في ضوء الإسلام، محمد بن مقبل ابن محمد المقبل ص ١٤٧، ١٤٨.

ثانياً- انتهاز الفرص للتعليم والتوجيه:

"يجب على المعلم انتهاز الفرص العارضة والمناسبات الطارئة لتعليم خبرات جديدة، أو لشرح أمر مهم أو لتوضيح فكرة غامضة، أو القيام بغرس الفضائل وتكوين الاتجاهات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1]، وحديث الباب مثال عملي على هذا النوع من التربية، حيث انتهز النبي ﷺ اجتماع ذلك الجمع الكريم من الصحابة، وذلك الجو الذي يجعل النفس أكثر تقبلاً للموعظة، وأعظم استعداداً لسماعها، فوعظهم مبيناً حال نهاية كل إنسان ومآله إلى مصيره من جنة أو نار، فعن علي رضي الله عنه قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رَسُول اللّهِ ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد ....».

"لقد كان ﷺ كثيراً ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم لتكون أبلغ في التأثير وأفضل للفهم والمعرفة"[2]، والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيّاً فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[3].

إن انتهاز الفرص واستغلالها في الدعوة والتربية أسلوب تربوي اتبعه الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، ومن أمثلة ذلك في تاريخ الدعوة "ما قام به يوسف الصديق عليه السلام عندما سجن ودخل معه السجن فتيان، وقصا ما رأياه في منامهما وطلبا منه تأويلها، قام عليه السلام بانتهاز الفرصة للدعوة إلى دين الله تعالى قبل أن يفسر لهما رؤياهما"[4]، قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ

---

(١) المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي جان ص ٢٠٢.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٧١٩/٢.

(٣) أخرجه البخاري، ٥٥٤٠.

(٤) المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي جان ص ٢٠٢.

إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾[1].

ثالثاً- التربية على العمل وقوة العزيمة:

تهدف التربية الإسلامية إلى بيان الغاية الحقيقية التي لأجلها خلق الإنسان وهي عبادة الله تعالى وإقامة منهجه في الحياة، والسعي في إعمار هذا الكون والأخذ بالأسباب مع قوة اليقين في الله تعالى وعدم القعود والكسل بدعوى التوكل، وأن كل شيء مكتوب ولن يغير، فلا شك أن كل شيء بقدر وأن ما قدره الله تعالى سوف يكون لا محالة، ولكن على الإنسان أن يسعى ويبذل وسعه ملتمسًا الأسباب، لأنه كما بين رسول الله ﷺ، وأمر بأن يعمل كل إنسان ولا يتوقف فكل ميسر لما خلق له، هكذا ربى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على هذا الفهم الصحيح والواضح، لأجل أن يكون المسلم فاعلاً ومؤثراً ومنتجاً ومتوكلاً على الله مع حسن ظنه بربه.

إن التربية الإسلامية تعمل على دفع المسلم إلى العمل والمشاركة الإيجابية البناءة، وعدم التواكل والبعد عن السلبية والانهزامية التي تسلب الإنسان مقوماته وتهدر طاقاته.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٦-٤١.

لقد بيّن النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم أن ما في الكتاب مخبوء، وعلى الإنسان أن يعمل ما استطاع، فلعله من أهل السعادة فيهمل فيعمل عمل أهل الشقاوة، وهكذا يحل الإسلام مشكلة القضاء والقدر بالحث على العمل وعدم الاتكال عليه والتسليم لله في كل الأمور[1].

لذا كان من واجب المربين والمعلمين أن يبثوا في روح الناشئة النشاط ويغرسوا فيهم حب العمل وقوة العزيمة والابتعاد عن الكسل والتواكل، فلابد من المبادرة بتخليص المُرَبين خاصة الناشئة والشباب من هذه الخصال الذميمة في وقت مبكر قبل أن تستفحل وتتحول إلى خلق يصعب اجتثاثه[2]، فالعاجز الكسول المتواكل هو الذي لا يزال في حضيض طبعه محبوساً، وقلبه عن كماله الذي خُلق له مصدوداً منكوساً، قد أسأم نفسه مع الأنعام راعياً مع الهمل، واستطاب لُقَيْمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رُفِع له عَلَمُ فشمر إليه، وبُورِك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلى الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله[3].

رابعًا- من الأساليب التربوية:

وردت في حديث الباب بعض الأساليب التربوية، منها:

أ- الوسائل الإيضاحية: ويمكن أن يستشهد لذلك بقول علي بن أبي طالب راوي الحديث رضي الله عنه: "وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكّس وجعل ينكت بمخصرته".

ومما لا شك فيه أن الوسائل الإيضاحية تجذب انتباه المتعلمين وتزيد الأمر وضوحًا في عقولهم وأذهانهم، والمعلم البارع مَن استخدم الموارد المتاحة لديه في البيئة المحيطة به وسائل إيضاحٍ.

ب- المناقشة والحوار: كما في قول الصحابة رضي الله عنهم: "يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له".

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥١٦.

(٢) انظر: تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش ص ١٦٣، ١٦٤.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٤٦/١.

ومن الجدير بالذكر أن أسلوب المناقشة والحوار يتيح للمتعلم أن يعبر عن نفسه وعن أفكاره بحرية في جوٍّ مشجع ومحفز، كما أنه يعتمد في كثيرًا من الأحيان على الإقناع العقلي، مما يتيح الفرصة لأن يشارك المتعلم بدور إيجابي في العملية التعليمية، مما يزيد دافعيته إلى التعلم.



١٦١- باب الدعاء للميت بعد دفنه والقعود عند قبره ساعة للدعاء لَهُ والاستغفار والقراءة

الحديث رقم (٩٤٧)

٩٤٧- عن أَبي عمرو - وقيل: أَبُو عبد الله، وقيل: أَبُو ليلى- عثمان بن عفان ﷺ، قَالَ: كَانَ النبيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِن دَفْنِ المَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ، وقال: ((اسْتَغْفِرُوا لأخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسألُ)) رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

عثمان بن عفان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤٨١).

الشرح الأدبي

الحديث يروي حال النبي ﷺ عند دفن الموتى في يراجع المؤمن فيها نفسه، ويتفكر في آخرته، وقول الراوي: (إِذَا فُرِغَ مِن دَفْنِ المَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ) أسلوب شرط يربط دفن الرسول ﷺ للميت بالوقوف، والاستغفار له، وأسلوب الشرط يجعل الفل عادة متكررة، ويجعل الفعلين مرتبطين، وقوله (اسْتَغْفِرُوا لأخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسألُ) أمر توجيه، وإرشاد يندب الحاضرين للاستغفار للميت، ويرغبهم في ذلك، والتعبير بالأخ تذكير بتلك الرابط التي تجمع المؤمنين وما تستلزمه من مودة، ورحمة، وشفقة، وقوله (وسلوا له التثبيت) يشير إلى أن الموقف موقف اضطراب، وخوف، يحتاج فيه الإنسان إلى يدعوا له، والرسول ﷺ رحمة بالمؤمنين، أحياءً، وأمواتاً قلبه مع الميت، ومع الحي، وقد علل لذلك الأمر ليحقق مزيداً من الإقناع بقوله (فإنه الآن يسئل) والظرف (الآن) يقرب الظرف الزماني حال وجودهم في ظرفه المكاني مما يشعرهم بالهيبة، والإشفاق، ثم إن بناء الفعل لما لم يسم فاعله يجعل القلوب تذهب في تصوره كل مذهب.

---

(١) برقم ٣٢٢١، وصحّحه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٧٠، وقال المؤلف في الخلاصة ٣٦٧٤، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٣٦: إسناده حسن.

فقه الحديث

الوقوف على القبر والدعاء للميت:

قال ابن قدامة: (وسئل أحمد عن الوقوف على القبر بعد ما يدفن، يدعى للميت؟ قال: لا بأس به، قد وقف عليٌّ والأحنف بن قيس، وروى أبو داود بإسناده عن عثمان: قال: كان النبي إذا دفن الرجل وقف عليه فقال: "استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل". وروى مسلم بإسناده: ولما حضرت عمرو بن العاص الوفاة، قال: اجلسوا عند قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم، فإني استأنس بكم)[1].

وقال النووي: (يستحبّ أن يمكث على القبر بعد الدفن ساعة، يدعو للميت ويستغفر له، نص عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه وسؤال التثبيت له.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: سؤال الميت.

ثالثاً: من بلاغة الداعية: استخدام الألفاظ المناسبة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه وسؤال التثبيت له:

هذا واضح من قوله ﷺ: "استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبت، فإنه الآن يسأل"، (فالدعاء للميت عند قبره بعد دفنه ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين)[3] وقال ابن تيمية: (المستحب عند الدفن، يقام على قبره، ويدعى له بالتثبيت، كما روى أبو داود في سننه [وذكر الحديث] وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٢٧/٣ ، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/١٦-٤٤.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٨٥/٥.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٥٥٩/٢.

تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[١]، فإنه لما نهى نبيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين وعن القيام على قبورهم، كان دليل الخطاب، أن المؤمن يصلى عليه قبل الدفن، ويقام على قبره بعد الدفن. فزيارة الميت المشروعة بالدعاء والاستغفار، هي من هذا القيام المشروع)[٢].

وقال الشوكاني: (فيه مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه وسؤاله التثبيت له، لأنه يسأل في تلك الحال)[٣].

وقال أبو عبدالله القرطبي: (قال أبو عبدالله الترمذي الحكيم [صاحب نوادر الأصول]: الوقوف على القبر وسؤال التثبيت في وقت دفنه - مدد للميت بعد الصلاة، لأن الصلاة بجماعة المؤمنين كالعسكر له، قد اجتمعوا بباب الملك يشفعون له، والوقوف على القبر لسؤال التثبيت، مدد للعسكر، وتلك ساعة شغل للميت، لأنه يستقبله هول المطلع وسؤال وفتنة القبر)[٤].

وقال الطيبي: (قوله ﷺ "سلوا له التثبيت" اطلبوا من الله أن يثبته على جواب الملكين بالقول الثابت، وضمّن سلوا معنى الدعاء، كما قال الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[٥] أي ادعوا له بدعاء التثبيت أي قولوا: ثبته الله تعالى بالقول الثابت)[٦]

وقال ابن عثيمين: (وذلك أن الميت إذا دفن، فإنه يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه فكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، يعني عنده وقال: استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل"، فيسن للإنسان إذا فرغ الناس من دفن الميت أن يقف عنده ويقول: اللهم اغفر له ثلاث مرات اللهم ثبته ثلاثاً؛ لأن النبي ﷺ كان غالب أحيانه إذا دعا دعا ثلاثاً، ثم ينصرف ولا يجلس بعد ذلك، لا للذكر ولا

---

(١) سورة التوبة، آية: ٨٤.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤١٥/١٢.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧٣٥.

(٤) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١٠٦.

(٥) سورة المعارج، آية: ١.

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٨٩/١.

للقراءة ولا للاستغفار، هكذا جاءت به السنة)[١].

وقال الخطابي: (في هذا الحديث دليل على أن الدعاء نافع للميت؛ وليس فيه دلالة على التلقين عند الدفن، كما هو العادة[٢]، ولا نجد فيه أيضاً حديثاً مشهوراً، ولا بأس به، لأنه ليس فيه إلا ذكر الله تعالى. وعرض الاعتقاد على الميت والحاضرين، والدعاء له وللمسلمين، وإرغام لمنكري الحشر، وكل ذلك حسن)[٣].

وقال ابن القيم: (وكان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت، قام على قبره هو وأصحابه، وسأل له التثبيت، وأمرهم أن يسألوا له التثبيت، ولم يكن يجلس يقرأ عند القبر، ولا يلقن الميت كما يفعله الناس اليوم)[٤].

لكن ابن تيمية قال: (تلقينه بعد موته ليس واجباً بالإجماع، ولا كان من عمل المسلمين المشهور بينهم على عهد النبي ﷺ وخلفائه، بل ذلك مأثور عن طائفة من الصحابة كأبي أمامة وواثلة بن الأسقع. فمن الأئمة من رخص فيه كالإمام أحمد، وقداستحبه طائفة من أصحابه وأصحاب الشافعي، ومن العلماء من يكرهه لاعتقاده أنه بدعة. فالأقوال فيه ثلاثة: الاستحباب والكراهة والإباحة. وهذا أعدل الأقوال. فأما المستحب الذي أمر به وحضّ عليه النبي ﷺ فهو الدعاء للميت)[٥].

ثانياً - من موضوعات الدعوة: سؤال الميت:

هذا واضح من قوله ﷺ: "فإنه الآن يسأل" قال الشوكاني: (فيه دليل على ثبوت حياة القبر، وقد وردت بذلك أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر. وفيه أيضاً دليل على أن الميت يسأل في قبره، وقد وردت به أيضاً أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما)[٦].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٢٠٧/٢.

(٢) انظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ص ١٩٠-١٩١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٦/١٢، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢٨٦/٣-٢٨٨.

(٣) نقله الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ٢٨٩/١.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٢٢/١.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩٦/١٢.

(٦) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من احاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٧٣٥.

وقال الصنعاني: (فيه دلالة على أن الميت يسأل في القبر، وقد وردت به الأحاديث الصحيحة كما أخرج ذلك الشيخان "فمنها": من حديث أنس[١] أنه ﷺ قال: إن الميت إذا وُضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم" زاد مسلم[٢]: "وإذا انصرفوا أتاه ملكان" زاد ابن حبان[٣] والترمذي[٤] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أزرقان أسودان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير" زاد الطبراني في الأوسط[٥]: "أعينهما مثل قدور النحاس، وأنيابهما، مثل صياصي[٦] البقر، وأصواتهما مثل الرعد" زاد عبدالرزاق[٧]: "ويحفران بأنيابهما ويطآن في أشعارهما، معهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى لم يقلُّوها" وزاد البخاري من حديث البراء: "فيعاد روحه في جسده"[٨] ويستفادُ من مجموع الأحاديث[٩] أنهما يسألانه فيقولان له: "ما كنت تعبد، فإن كان هداه الله فيقول: كنت أعبد الله. فيقولان: ما كنت تقولُ في هذا الرجل: لمحمدٍ؛ فأمَّا المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله - وفي رواية: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله - فيقال له: صدقت فلا يسأل عن شيء غيرها، ثم يقال له: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى" وفي لفظ: "فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، وألبسوه من الجنة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها ويفسح له مد بصره ويقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٣٨، ١٣٧٤، ومسلم ٢٨٧٠.

(٢) صحيح مسلم ٢٨٧٠.

(٣) صحيح ابن حبان ٣١١٧ وقال محققه: إسناده قوي

(٤) سنن الترمذي ١٠٧١.

(٥) كما في مجمع الزائد ٣/٥٢-٥٤، وقال الهيثمي: وفيه ابن لهيعة.

(٦) قرونها. واحدتها صيصة. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ص ا ص).

(٧) في المصنف ٣/٥٨٤ رقم ٦٧٤٠.

(٨) ليس هذا الحديث في البخاري وإنما أخرجه أحمد ٣٠/١٨٥٣٤، وأبو داود ٤٧٥٣، والحاكم ١/٣٧-٣٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، وانظر تتمة تخريجه هناك.

(٩) انظر: التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ١١٦-١٢٣.

الله مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً فيقول: دعوني حتى أذهب أبشر أهلي، فيقال له اسكت ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ خضراً إلى يوم القيامة" وفي لفظ: "ويقال له: نم فينام نومة العروس لا يوقظه إلا أحب أهله. وأما الكافر والمنافق فيقول له الملكان: من ربك فيقول هاه[1] هاه لا أدري ويقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقال: لا دريت ولا تليت، أي: لا فهمت ولا تبعت من يفهم ويضرب بمطارق من حديد ضربة لو ضرب بها جبل لصار تراباً فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين".

ثم قال الصنعاني: واعلم أنه قد وردت أحاديث دالة على اختصاص هذه الأمة بالسؤال في القبر دون الأمم السالفة قال العلماء: والسر فيه أن الأمم كانت تأتيهم الرسل، فإن أطاعوهم فالمراد، وإن عصوهم اعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب، فلما أرسل الله محمداً ﷺ رحمة للعالمين أمسك عنهم العذاب، وقبل الإسلام ممن أظهره سواءٌ أخلص أم لا، وقيض الله لهم من يسألهم في القبور، ليخرج الله سرهم بالسؤال، وليميز الله الخبيث من الطيب، وذهب ابن القيم إلى عموم المسألة وبسط المسألة في كتاب الروح)[2].

ثالثاً - من بلاغة الداعية: استخدام الألفاظ المناسبة:

هذا واضح من قوله ﷺ: "استغفروا لأخيكم" قال عبدالله البسام: (فيه إثبات الأخوة الإسلامية، وهو أقوى أواصر الأخوة وأوثقها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، وفيه معنى آخر: تقريب قلوب المشيعين، وتليين قلوبهم للميت، ليخلصوا له الدعاء والاستغفار).

---

(١) هذه كلمة تقال في الإبعاد وفي حكاية الضحك، وقد تقال للتوجع، وهو الأليق بمعنى هذا الحديث. النهاية في غريب الحديث ١٠١٦.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٣/٣٨٤-٣٨٦ ولكن جاء في كتاب أصول الإيمان: والذي يظهر من النصوص عدم اختصاص هذه الأمة بالسؤال في القبر، بل هو عام في كل الأمم، وعلى هذا أكثر المحققين من أهل العلم. أصول الإيمان ٢٢٦.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

ويمكن الاستئناس في هذا المقام بقوله سبحانه وتعالى عن تضرع أيوب عليه السلام: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1].

قال ابن القيم: (جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا، كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مراتٍ، ولا سيما مع هذه المعرفة، كشف الله ضره)[2].

رابعاً - من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل:

أما الأمر فقوله ﷺ "استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت"، ولاشك أن أسلوب الأمر أسلوب مباشر للامتثال والفعل والعمل[3].

كما علل النبي ﷺ هذا الأمر بكون الميت يسأله الملكان في قبره، وعبّر ﷺ عن الميت بلفظ "أخيكم" ليحث المدعوين على الإخلاص في ذلك، واستجماع القلوب والهمم على ذلك.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٨٣.

(٢) الفوائد ٢٨٤.

(٣) انظر: تعليم أصول الفقه، د. نور الدين الخادمي ص ٢٦١-٢٦٦.

الحديث رقم (٩٤٨)

٩٤٨- وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قَالَ: إِذَا دَفَنْتُمُونِي[١] ، ... فَأَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ، وَيُقَسَّمُ لَحمُهَا حَتَّى أَسْتَأنِسَ بِكُمْ، وَأَعْلَمَ[٢] مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي. رواه مسلم[٣]. وَقَدْ سبق بطوله.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: ((وَيُسْتَحَبُّ أنْ يُقْرَأَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ القُرآنِ))[٤]، وَإنْ خَتَمُوا القُرآنَ عِنْدَهُ كَانَ حَسَناً[٥].

ترجمة الراوي:

عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٣٠).

غريب الألفاظ:

الجزور: الناقة[٦].

---

(١) عند مسلم زيادة: (فشنّوا عليَّ التراب شنًّا).

(٢) عند مسلم: (انظر).

(٣) برقم ١٩٢/١٢١ ، وتقدم برقم (٧١١). قال الشافعيُّ: (قد بلغني عن بعض من مضى أنه أمرَ أن يقعد عند قبره إذا دفن قدر ما يجزرُ جزورٌ، وهذا أحسنُ، ولم أرَ النَّاسَ عندنا يصنعونه). معرفة السنن والآثار ٥/٣٣٤، ف ٧٧٤٨.

(٤) نقل الإمامُ البيهقيُّ في معرفة السنن والآثار ٥/٣٣٣، ف ٧٧٤٦ عن الشافعي المطلبيّ أنه قال: (وأحبُّ لو قرئ على القبر، ودُعي للميت). وليس ما قاله بدعًا على الإمام الشافعيّ رحمه الله، فقد روى البيهقي في السنن الكبرى ٤/٥٦ عن ابن عمر أنَّه استحبَّ أن يُقرأ على القبر بعد الدفن أول البقرة وخاتمتها، قال النووي في الأذكار ص: ٢٣٧، والخلاصة ٣٦٧٧: رواه البيهقي بإسناد حسن.

(٥) القول الأول، هو للإمام الشافعيّ رحمه الله، والقول الأخير هو للأصحاب، وهذا النصُّ نقله النووي في كتابه الأذكار ص: ٢٣٦، باب ما يقوله بعد الدفن بأوضح مما هنا حيث قال: (قال الشَّافعي والأصحابُ: يُستحبُّ أن يقرأوا عنده شيئًا من القرآن، قالوا: فإنْ ختموا القرآن كلَّه كان حسنًا). وقال النووي في المجموع ٥/٢٨٦: والأفضل أن يكون السلام والدُّعاء بما ثبت في الحديث، ويُستحبُّ أن يُقرأ من القرآن ما تيسر، ويدعو له عقبها، نصَّ عليه الشَّافعيُّ، واتفق عليه الأصحاب.

(٦) لسان العرب، ابن منظور في (ج ز ر).

الشرح الأدبي

هـذا الحـديث يتعلـق بعمـرو بـن العـاص رضي الله عنه وقولـه (: إِذَا دَفَنْتُمُـونِي) يـدل حديثـه بفحواه أن حديثه في مرض موته عندما شعر بدنو أجله يشعرك بذلك استخدامه لأداة الشرط (إذا) التي توحي بتحقق الشرط، وتدخل على الماضي فتخلصه للاستقبال، ثم ذكره الدفن، والقبر، وقوله (أقيموا) أمر فيه التماس وإشفاق، ورجاء، وقوله (حَوْلَ قَبْرِي) يشير إلى الالتفاف، والإحاطة التي تشعر بالطمأنينة، وتذهب الرهبة، وقوله: (قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ، وَيُقَسَّمُ لَحمُهَا) هي الفترة التي يظن أن يستغرقها سؤال الملكين، وقوله (أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ) أي أطلب الأنس بكم، وهو دليل على يقينه بالغيب، وشدة خوفه تنبع من هذا اليقين، والتعبير بالمراجعة يشير إلى تجاوب، وحوار مع رسل ربه بين سؤال، وجواب، وهما منكر، ونكير، فتأمل خوف الأتقياء الذي عاشوا مجاهدين ينشرون الإسلام، ويفتحون الفتوحات، وإنما الخوف على قدر المعرفة، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بالنِّساءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى)[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) البخاري حديث (٦١٢٠).

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٧١١)، وقد ورد بتمامه مع اختلاف يسير في بعض ألفاظ الحديث المشار إليه.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- ربط المسلم بالعقيدة:

من أهداف التربية الإسلامية ربط المسلم بالعقيدة من خلال بيان التصورات الإيمانية الصحيحة التي يجب أن تستقر في القلوب وترسخ في الأذهان، ولاشك أن مثل هذه التصورات الصحيحة لا تتأتى إلا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية.

ولقد حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضي الله عنهم على الفهم الصحيح لأمور العقيدة، ومن ذلك بيانه ﷺ لما يجب فعله بعد دفن الميت من الاستغفار له وسؤاله تعالى التثبيت للميت، إنها تربية إيمانية عالية تعمق في نفس المسلم حبه لإخوانه وشفقته عليهم ورحمته بهم حتى بعد مماتهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب: قوله ﷺ: «اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التثبيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»، وعلى هذه العقيدة تربى المسلمون واعتقدوا بها اعتقاداً جازماً لا يشوبه شك أو خلل يتضح ذلك في الحديث الثاني من خلال ما ورد في وصية عمرو بن العاص رضي الله عنه لأهله وذويه «إذا دفنتموني فأقيموا حول قبري ... وأَعْلَمُ ماذا أراجعُ به رسلَ ربي».

إنه لا يخفى على المربي أنه إذا عمق في الولد والمتربي حقيقة الإيمان بالله ورسخ في قلبه هذه التصورات الإيمانية وسعي جهده دائماً في أن يربطه بالعقيدة الإلهية، فإن الولد ينشأ على المراقبة لله والخشية منه والتسليم له، والتزام منهجه في كل ما يأمر به وينهى عنه، بل يكون عنده من حساسية الإيمان وإرهاف الضمير، ما يكف عن المفاسد الاجتماعية والوساوس النفسية والمساوئ الخلقية، وبهذا ينصلح روحياً وخلقياً، ويكتمل عقلياً وسلوكياً، بل يكون من الذين يُشار إليهم بالبنان لأنه على الهدى والدين والحق والصراط المستقيم[1].

إن التربية الإسلامية تهدف إلى تربية المسلم على العقيدة والإيمان الصحيح والأخلاق

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/ ٨١٨، ٨١٩.

الفاضلة، وغرس القيم الإسلامية، كما تهدف إلى إعداد الإنسان للعبادة، وتنمية الفرد العابد الذي يفي بشرط الاستخلاف في الأرض، ويستغل طاقاته للإبداع في حدود تقوى الله تعالى، حتى تصبح العبادة شاملة لكل ما يقوم به الإنسان من عمل وفكر وشعور[1].

ثانياً- تخير الوقت المناسب للتوجيه والإرشاد:

إن تخير الوقت المناسب للتوجيه والإرشاد والوعظ والتعليم أمر مهم في عملية التربية لأن للنفوس إقبالاً وإدبارًا، لذا فإنه يَحسن بالمربي أن يتخير الأوقات المناسبة لتوجيهاته التربوية، حتى تجد طريقها إلى قلوب السامعين.

والمعلم القدير هو الذي يستغل فترة إقبال الطلبة واستعدادهم لسماع وتقبُّل ما يقول، حتى يكون توجيهه مواتياً، وإلا فإن أي نصح أو توجيه يكون ثقيلاً على القلب وتمله النفوس وربما ترفضه، ويكون المعلم قد أضاع وقته، ووقت الطلبة فيما لا طائل فيه، وذهب ما قاله أدراج الرياح.

ويبدو لنا حسن تَخَيّر الرسول ﷺ للوقت المناسب للتوجيه واضحاً في حديث عثمان رضي الله عنه «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»، حيث انتهز النبي ﷺ فرصة اجتماع ذلك الجمع من الصحابة في الجنازة كذلك الجو الروحي والعاطفي الذي يعيشونه ويجعلهم أقرب ما يكونون لقبول ما يلقى على أسماعهم، فعلمهم النبي ﷺ ما يجب عليهم نحو أخيهم من الاستغفار وسؤال التثبيت له، لأنه أحوج ما يكون لمثل هذه الدعوات خاصة في وقت سؤاله في قبره بعد دفنه، فقال النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ».

لقد بات معلوماً في علم التربية وطرق التدريس أن المعلم القدير هو الذي يستغل المناسبات والأحوال الطارئة للتعليم والتوجيه وتقديم النصح والإرشاد وإظهار العبرة، إذ أن كثرة الكلام في غير مناسبة مدعاة للسأم والملل والانصراف، وعدم الإصغاء، وهذا ما يفقد الموعظة قيمتها ويجعلها ثقيلة على النفس أو قد لا يلتفت إليها الطلبة ألبتة.

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٦٦.

لقد كان رسول الله ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة والنصح والإرشاد بين الحين والآخر وهم على ما هم عليه من اليقين وقوة الإيمان وهو بينهم لأنه يخشى عليها السآمة والملل، فكان ﷺ يتحين الفرص والمناسبات الملائمة التي تجعل الموعظة أوقع في النفس وأبلغ في الأثر، والمعلم القدير هو الذي يراعي الزمان والمكان المناسبين للتوجيه ليكون التعليم مثمراً وليكون السلوك المراد تعليمه مدركاً[1].

ثالثاً- الموازنة بين الموعظة والتعليم والوقت الكافي لها:

إن من وسائل نجاح العملية التعليمية والتربوية مراعاة التوازن والمناسبة بين الدرس والوقت المخصص له فلو كان الوقت أكبر لشعر المتعلمون بالملل والتكرار، ولو كان الوقت قليلاً بحيث لا يكفي لعرض الأفكار وتوضيحها لأدى ذلك إلى نوع من القصور، ويمكن أن نستلخص هذا المعنى من وصية عمرو بن العاص رضي الله عنه لأهله وذويه «إذا دفنتموني فأقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأعلم ماذا أراجع به رسل ربي»، فنراه رضي الله عنه طلب منهم إيناسه بهذا الوقت الذي يسع لنحر جزور وتقسيم لحمها الذي رآه مناسباً لإيناسه ومساعدته على مراجعة رسل ربه، فلم يطلب منهم وقتاً أقل من ذلك فيفوته الإيناس وفي نفس الوقت لم يطلب منهم وقتاً أكثر فيحملهم فوق طاقتهم ويشعرون بالسآمة والملل والضجر، ونحو ذلك خاصة إذا فاتتهم مصلحة أو منفعة دينية أو دنيوية.

لذا كان من الواجب على المربين خاصة من يضع منهم المناهج والخطط الدراسية والحصص الدراسية أن يوازنوا بين المنهج وبين الوقت المخصص له.

"كما ينبغي أيضاً على المعلم أن يكون ماهراً في توزيع محاور الدرس على زمن الحصة، حتى لا يقف في موقف لا يحسد عليه، إما لأنه لم يستطع إنهاء الدرس المحدد بسبب استطراده وخروجه عن الدرس في مواضيع جانبية أو أشياء ثانوية، أو بسبب تكراره أشياء سهلة لا تحتاج لذلك، وإما أنه أنهى الدرس قبل نهاية الحصة بوقت طويل

---

(١) انظر: المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس للآباء والدعاة والمعلمين، ومن يهمه تربية أبناء المسلمين، د. محمد صالح بن علي جان ص ١٩٢-١٩٤.

بسبب استعجاله في إلقاء الدرس مما يجعله يكرر أقواله ويضطرب وينفعل وتكثر أخطاؤه ويتجرأ عليه الطلبة وينفلت زمام الأمر من يده فيكثر الشغب والقيل والقال[1].



(١) انظر: المرجع السابق ص ٢٥٥ ، ٢٥٦.

١٦٢- باب الصدقة عن الميت والدعاء لَهُ

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾[الحشر: ١٠].

الحديث رقم (٩٤٩)

٩٤٩- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رجلًا قَالَ للنبيِّ ﷺ: إنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا وَأُرَاهَا[١] لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، فَهَلْ لَهَا أجْرٌ إنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

افُتلتت نفسها: ماتت فجأة[٣].

أراها: أظنها[٤].

الشرح الأدبي

تنكير الرجل السائل لعدم العلم به، أو لعدم تعلق غرض بذكره وقوله: (إنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا) كناية عن موت الفجأة، والتعبير بالإفتلات يدل على المباغتة، والتعبير بـ (رأى) هنا لا يقصد به الرؤية البصرية، وإنما الظنية، أي غلب على ظنه ذلك، وقوله (لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ) جملة شرطية تربط الكلام بالصدقة، واستخدام (لو) في الشرط لأنها حرف امتناع لامتناع أي: امتناع الجواب وهو التصدق لامتناع الشرط، وهو الكلام، وقوله: (فَهَلْ لَهَا أجْرٌ إنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟) استفهام على حقيقته يعكس بره

---

(١) عندهما بلفظ: (واظنها)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٤/١٤٢ رقم ٣٢٥٣، وكذا عند البخاري ٢٧٦٠.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ١٣٨٨، ومسلم ٥١/١٠٠٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٠.

(٤) صحيح البخاري ١٣٨٨، ومسلم ١٠٠٤.

بأمه، وجملة الشرط بعد الاستفهام فيها إيجاز بحذف الجواب، لدلالة السبق عليه أي إنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا، فهل لها أجر؟، وإجابة الرسول ﷺ جاءت على وفق مراده.

فقه الحديث

انتفاع الميت بالقرب:

قال ابن قدامة: (وأي قربة فعلها وجعل ثوابها للميت، نفعه ذلك إن شاء الله، أما الدعاء والاستغفار والصدقة وأداء الواجبات فلا أعلم فيه خلافًا، إن كانت الواجبات مما يدخله النيابة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[1].

وجاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: ((أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته؟)) قالت: نعم. قال: ((فدين الله أحق أن يقضى))[2].

وهذه أحاديث صحاح وفيها دلالة على انتفاع الميت بسائر القرب، لأن الصوم والحج والدعاء والاستغفار عبادات بدنية، وقد أوصل الله نفعها إلى الميت، فكذلك ما سواها ... وقال الشافعي: ما عدا الواجب والصدقة والدعاء والاستغفار لا يفعل عن الميت، ولا يصل ثوابه إليه، لقول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[3]وقول النبي ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٠.

(٢) هما حديثان جمعهما المصنف، فأخرج البخاري ١٥١٣، ومسلم ١٣٣٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة قالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه. قال: نعم. وأخرج البخاري ١٩٥٣، ومسلم ١١٤٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه؟ قالت: نعم. قال: فدين الله أحق بالقضاء.

(٣) سورة النجم، آية: ٣٩.

ولأن نفعه لا يتعدى فاعله، فلا يتعداه ثوابه[1]. وقال النووي: (وأجمع المسلمون على أن الصدقة عن الميت تنفعه وتصله)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضوان الله عليهم على استفتاء النبي ﷺ في أمور الدين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الصدقة عن الميت.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى عمل البر والمبادرة إلى بر الوالدين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضوان الله عليهم على استفتاء النبي ﷺ في أمور الدين:

هذا واضح من سؤال الرجل النبي ﷺ عن أمه التي ماتت فجأة: هل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ فقال النبي ﷺ: نعم.

ومن هذا القبيل ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادة رضي الله عنه استفتى رسول الله ﷺ فقال: إن أمي ماتت وعليها نذر، فقال: اقضه عنها[3].

ومن هذا القبيل أيضًا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما كذلك قال: إن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه، قالت: نعم، قال: فدين الله أحق بالقضاء[4].

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/٥١٩-٥٢٠، و انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٠/٩٩-١٠٠ ومراجعها ومصادرها.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٠٩، وانظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٩٣-١٩٤ .

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٦١، ومسلم ١٦٣٨.

(٤) أخرجه البخاري ١٩٥٣، ومسلم ١١٤٨.

قال ابن حجر: (وفيه ما كان الصحابة عليه من استشارة النبي ﷺ في أمور الدين)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الصدقة عن الميت:

هذا واضح من إقرار النبي ﷺ للرجل عندما سأله عن الأجر الذي يصل إلى أمه إن تصدق عنها بعد موتها.

وقد بوب البخاري على حديث عائشة وحديث ابن عباس عن سؤال سعد بن عبادة عن قضاء النذر الذي على أمه وقد ماتت - بوب على ذلك باب: ما يستحب لمن توفى فجأة أن يتصدقوا عنه وقضاء النذور عن الميت[٢].

قال ابن حجر: (وفي حديث الباب من الفوائد: جواز الصدقة عن الميت وأن ذلك ينفعه بوصول ثواب الصدقة إليه ولاسيما إن كان من الولد. وهو مخصص لعموم قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[٣]، ويلتحق بالصدقة العتق عنه عند الجمهور خلافًا للمشهور عند المالكية)[٤].

وقال النووي: (وفي هذا الحديث أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابها، وهو كذلك بإجماع العلماء، وكذا أجمعوا على وصول الدعاء وقضاء الدين بالنصوص الواردة في الجميع، ويصح الحج عن الميت إذا كان حج الإسلام، وكذا إذا وصى بحج التطوع على الأصح عندنا (أي عند الشافعية). واختلف العلماء في الصوم إذا مات وعليه صوم، فالراجح جوازه عنه للأحاديث الصحيحة فيه [٥] والمشهور في مذهبنا أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها. وقال جماعة من أصحابنا: يصله ثوابها، وبه قال أحمد بن حنبل، وأما الصلاة وسائر الطاعات فلا تصله عندنا ولا عند الجمهور، وقال أحمد: يصله ثواب الجميع كالحج)[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٩٠/٥ .

(٢) صحيح البخاري: كتاب الوصايا رقم ٥٥، الباب ٧٩، الحديثان ٢٧٦٠، ٢٧٦١.

(٣) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣٩٠/٥.

(٥) وهو حديث عائشة مرفوعًا: "من مات وعليه صيام، صام عنه وليه" أخرجه البخاري ١٩٥٢، ومسلم ١١٤٧.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٨/٧/٤ .

وقال ابن تيمية: (ففي الأحاديث الصحيحة أنه أمر ﷺ بحجج الفرض عن الميت وبحج النذر، كما أمر بالصيام، وأن المأمور تارة يكون ولدًا وتارة يكون أخًا، وشبه النبي ﷺ ذلك بالدين يكون على الميت، والدين يصح قضاؤه من كل أحد، فدل على أنه يجوز أن يفعل ذلك من كل أحد، لا يختص ذلك بالولد، كما جاء مصرحًا به في الأخ، فهذا الذي ثبت بالكتاب والسنة والإجماع علم مفصل مبين، فعلم أن ذلك لا ينافي قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١]، وقوله ﷺ: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...))[٢]. بل هذا حق، وهذا حق....)[٣].

وقال ابن القيم: (وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء. قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك. وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق، وأحمد ومن وافقه مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب. يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب. بدنيها وماليّها، والجامع للأمرين. واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله: "يارسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد مماتهما، قال: (نعم).... فذكر الحديث[٤].

وقد قال ﷺ: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه"[٥])[٦].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى عمل البر والمبادرة إلى بر الوالدين:

هذا واضح من سؤال الرجل عن الصدقة عن أمه ووصول الأجر إليها بعد موتها. وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: "بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم ١٦١٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٠٢/١٢ - ٤٠٣، ٣١١/٢٤ - ٣١٢.

(٤) وبقيته: "الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإيفاء بعهودهما من بعد موتهما، وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما. والحديث أخرجه أبو داود ٥١٤٢، وابن ماجه ٣٦٦٤، والحديث ضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ٨٠٠).

(٥) أخرجه البخاري ١٩٥٢، ومسلم ١١٤٧.

(٦) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٧٥/١ - ٢٧٦.

فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية وإنها ماتت، قال: فقال ﷺ: وجب أجرك وردها عليك الميراث. قالت: يارسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال: صومي عنها. قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال: حجي عنها"[١].

قال ابن حجر: عن حديث الباب: (وفيه السؤال عن التحمل والمسارعة إلى عمل البر والمبادرة إلى بر الوالدين)[٢].

ولعل من هذا القبيل ما رواه عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبدالله بن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير. فقال عبدالله بن عمر: إن أبا هذا كان وادًّا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه"[٣].

وقال النووي: (في هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم، وهو متضمن لبر الأب وإكرامه، لكونه بسببه، ويلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزوج والزوجة)[٤].

رابعًا - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

هذا واضح من سؤال الرجل وجواب النبي ﷺ وهذا الأسلوب له (قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات عن أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين)[٥].

---

(١) أخرجه مسلم، ١١٤٩

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥/٣٩٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٥٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠/١٦/٨ .

(٥) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٨/٢.

الحديث رقم (٩٥٠)

٩٥٠- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ[1]: صَدَقةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يعتمد الأسلوب البلاغي لهذا الحديث أسلوب التشويق في عرض المعنى عن طريق أسلوب الشرط، والتفصيل بعد الإجمال مع حسن التقسيم، والإيجاز غير المخل فأسلوب الشرط (إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ)، ويحقق التشويق من حيث أن النفس تتعلق بالجواب إذا ذكر الشرط، والإجمال في قوله: (ثلاث) وهي تحقق التشويق برغبة النفس في معرفة ما يسفر عنه العدد فإذا فصَّل بعد ذلك كان له في النفس فضل تمكن، وقد بدأ تفصيلها بقوله (صَدَقةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) ووصف الصدقة بالجارية يعطيها بعداً إيحائياً بالامتداد، والتجدد في العطاء، الذي يترتب عليه استمرار الأجر، ووصف العلم بالانتفاع به يشير إلى العلم المؤثر الفاعل، فكم من علم يضر، ولا ينفع !، وكم من علم نفع الناس، وضر صاحبه يوم قصد به غير وجه الله !، والفعل المضارع (ينتفع) يصور التجدد، والاستمرار حتى بعد موت صاحبه مما جدد له الأجر، ووصف الولد بالصالح يشير إلى عمل والده على إصلاحه في حياته، واستمراره على الصلاح الذي تدل عليه اسمية الوصف (صالح)، وقوله (يدعو له) يصور الفعل المضارع استمرار الفعل، وتجدده، الذي يؤدي إلى تجدد الثواب،

---

(١) لفظ مسلم: (ثلاثة).

(٢) برقم (١٤/١٦٣١) وسيكرره المؤلف برقم ١٣٨٥. أورده المنذري في ترغيبه ١٢٤.

واستمراره، وهي دعوة لكل عاقل لكي يتخذ لنفسه عملاً ينتفع به بعد مماته يصله بمدد من الحسنات لا ينقطع.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ما ينتفع به الميت بعد موته.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى اغتنام الحياة الدنيا في عمل الطاعات وما ينفع في دار المعاد.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط والاستثناء.

أولاً- من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

هذا واضح من الحديث: قال النووي: (قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته. وينقطع تجدد الثواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة، لكونه سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف)[1].

وقال الطيبي: عن معناه: (ينقطع عنه ثواب أعماله من كل شيء من الصلاة والزكاة والحج، ولا ينقطع ثواب أعماله من هذه الثلاثة، والمعنى إذا مات الإنسان لا يكتب له بعده أجر أعماله، لأنه جزاء العمل، وهو ينقطع بموته، إلا فعلاً دائم الخير، مستمر النفع مثل وقف أرض، أو تصنيف كتاب، أو تعليم مسألة يعمل بها، أو ولد صالح، وكل منها يلحق أجره إليه، وإنما جعل الولد صالح من جنس العمل لأنه هو السبب في وجوده، وسبب لصلاحه بإرشاده إلى الهدى، كما جعل نفس العمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[2]، وأما فائدة القيد بالولد "يدعو له" مع أن الغير من المسلمين لو دعا له لنفعه، فزيادة للبيان وتحريض للولد على الدعاء، وأنه كالواجب عليه)[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٨/١١/٦ .

(٢) سورة هود، آية: ٤٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٦١/١.

وقال أبو العباس القرطبي: (هذه الثلاث الخصال إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه؛ لأنه تسبب في ذلك، وحرص عليه، ونواه. ثم إن فوائدها متجددة بعده دائمة، فصار كأنه باشرها بالفعل، وكذلك حكم كل ما سنه الإنسان من الخير، فتكرر بعده؛ بدليل قوله ﷺ: ((من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة))[1]. وإنما خص هذه الثلاثة بالذكر في هذا الحديث، لأنها أصول الخير، وأغلب ما يقصد أهل الفضل بقاءه بعدهم. والصدقة الجارية بعد الموت هي: الحبس[2]، فكان حجة على من ينكر الحبس، وفيه ما يدل: على الحض على تخليد العلوم الدينية بالتعليم والتصنيف، وعلى الاجتهاد في حمل الأولاد على طريق الخير والصلاح، ووصيتهم بالدعاء عند موته، وبعد الموت)[3].

ومن قبيل بيان الداعية الحقائق للمدعوين قوله ﷺ: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"[4].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: ما ينتفع به الميت بعد موته:

هذا واضح من الحديث فقد أخبر ﷺ أن ينتفع بعد موته بثلاثة هي: (صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

وقال ﷺ: "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علمًا علمه ونشره وولدًا صالحًا تركه، ومصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته"[5].

قال النووي عن حديث الباب: (وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه، وبيان

---

(١) أخرجه مسلم، ١٠١٧.

(٢) الحبس: الوقف. معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي، ١٥٢.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٥٥٤ - ٥٥٥.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٤٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه،١٩٨).

فضيلة العلم والحث على الاستكثار منه، والترغيب في توريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع. وفيه أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت وكذلك الصدقة، وهما مجمع عليهما. وكذلك قضاء الدين)[١].

وقال ابن القيم: (والعبادات قسمان: مالية وبدنية، وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة على وصول ثواب سائر العبادات المالية، ونبه بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب سائر العبادات البدنية، وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص الاعتبار)[٢].

وقال ابن تيمية: (أما الحديث فإنه قال: "انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) فذكر الولد ودعاءه له خاصية، لأن الولد من كسبه، كما قال: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[٣]، قالوا: إنه ولده. وكما قال النبي ﷺ: ((إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه))[٤]. فلما كان هو الساعي في وجود الولد، كان عمله من كسبه، بخلاف الأخ والعم والأب ونحوهم، فإنه ينتفع - أيضًا- بدعائهم، بل بدعاء الأجانب، لكن ليس ذلك من عمله.

والنبي ﷺ قال: انقطع عمله إلا من ثلاث ..." لم يقل: إنه لم ينتفع بعمل غيره، فإذا دعا له ولده كان هذا من عمله الذي لم ينقطع. وإذا دعا له غيره لم يكن من عمله لكنه ينتفع به. وأما الآية فللناس عنها أجوبة متعددة. كما قيل: إنها تختص بشرع من قبلنا، وقيل: إنها مخصوصة. وقيل: إنها منسوخة. وقيل: إنها تنال السعي مباشرة وسببًا. والإيمان[٥] من سعيه الذي تسبب فيه.

ولا يحتاج إلى شيء من ذلك. بل ظاهر الآية حق لا يخالف بقية النصوص، فإنه قال:

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١/٦ - ٨٨ .

(٢) انظر الروح لابن القيم ١١٧ - ١٤٣، وقد أفاض في الاستدلال لما ذهب إليه. وانظر كذلك: جامع الفقه من كتب ابن القيم مع يسري السيد محمد ٥١٧/٢ - ٥٤٩.

(٣) سورة المسد، آية: ٢.

(٤) أخرجه الترمذي ١٣٥٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٠٩٥).

(٥) كذا في المطبوع من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[١]، وهذا حق. فإنه إنما يستحق سعيه، فهو الذي يملكه ويستحقه، كما أنه إنما يملك من المكاسب ما اكتسبه هو. وأما سعي غيره، فهو حق وملك لذلك الغير، لا له، لكن هذا لا يمنع أن ينتفع بسعي غيره كما ينتفع الرجل بكسب غيره)[٢].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: المسارعة إلى اغتنام الحياة الدنيا في عمل الطاعات وما ينفع في دار المعاد:

وهذا واضح من إخبار النبي ﷺ أن الميت ينقطع انتفاعه بعمله إلا بهذه الثلاثة، قال القرطبي: (إنما خص هذه الثلاثة بالذكر في هذا الحديث لأنها أصول الخير وأغلب ما يقصد أهل الفضل بقاءه بعدهم، والصدقة الجارية بعد الموت هي الحبس، وفيه ما يدل على الحض على تخليد العلوم الدينية بالتعليم والتصنيف، وعلى الاجتهاد في حمل الأولاد على طريق الخير والصلاح، ووصيتهم بالدعاء عند موته وبعد الموت)[٣].

من علم أن الدنيا دار سباق وتحصيل الفضائل، وأنه كلما علت مرتبته في علم وعمل زادت مرتبته في دار الجزاء، أنهب الزمان[٤] ولم يضع لحظة، ولم يترك فضيلة تمكنه إلا حصلها، ومن وفق لهذا فليغتنم زمانه بالعلم، وليصابر كل محنة وفقر، إلى أن يحصل له ما يريد)[٥].

قال محمد بن إبراهيم الحمد: (إن المرء إذا تذكر قصر الدنيا وسرعة زوالها، وأدرك أنها مزرعة للآخرة، وأنها فرصة لكسب الأعمال الصالحة، وتذكر ما في

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٠٣/١٢، ٢١١/٢٤ - ٢١٢. وانظر: المغني لابن قدامة، ٥١٩/٣ - ٥٢٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٥/١٦ - ٤٦.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٥٥/٢.

(٤) يقال: إنه لينهب الأرض: يسرع في السير. وإنه لينهب الغاية: سباق. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٩٥٦.

(٥) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٥٣/٢.

الجنة من النعيم المقيم، وما في النار من العذاب الأليم - زهد في مُتع الدنيا، وأقصر عن الاسترسال في الشهوات، وانبعثت همته للأعمال الصالحات.

قصر الآمال في الدنيا تَفُزْ فدليل العقل تقصير الأمل

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)). وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[1].

قال ابن رجب تعليقًا على هذا الحديث: (وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئن فيها. ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يهيِّئ جهازه للرحيل.

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم.

قال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[2])[3].

قال ابن عقيل: (ما تصفو الأعمال والأحوال إلا بتقصير الآمال؛ فإن كل من عد ساعته التي هو فيها كمرض الموت حسنت أعماله، فصار عمره كله صافيًا).

وقال ابن الجوزي: (من تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر)[4].

وقال ابن القيم: (صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته؛ فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله، وعلى

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٦.

(٢) سورة غافر، آية: ٣٩.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٣٧٧.

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٥٧.

محبته، وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أخرى، وعلومًا أخر. وولده ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة، كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه، فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة. وكما كان بطن أمه حجابًا لجسمه عن هذه الدار - فهكذا نفسه هو حجاب لقلبه عن الدار الآخرة؛ فخروج قلبه عن نفسه بارزًا إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار)[1].

والمقصود أن صدق التأهب هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله، ومنازل السائرين إليه من اليقظة، والتوبة، والإنابة، والمحبة، والرجاء، والخشية، والتفويض، والتسليم، وسائر أعمال القلوب والجوارح؛ فمفتاح ذلك كله صدق التأهب، والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم، لا إله غيره، ولا رب سواه[2])[3].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط والاستثناء:

فالشرط قوله ﷺ: "إذا مات الإنسان انقطع عمله"، إما الاستثناء فقوله: "إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"، ولا شك أن الشرط يرتب الجزاء على الفعل، وهنا في الحديث إخبار عن انقطاع عمل الإنسان بموته إلا من حالات ثلاثة. وهذا الاستثناء يدفع المدعو أن يلتزمها في حياته ويعمل على الإكثار منها والزيادة فيها.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ٣٢٠.

(٢) طريق الهجرتين ٣٢١.

(٣) الهمة العلمية معوقاتها ومقوماتها، ١٩٨ - ٢٠٠، ومراجعها ومصادرها.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على بر الوالدين:

إن من الأصول التي ينبغي ألا يُغفل عنها في مجال التربية رعاية حقوق الوالدين وبرهما في حياتهما براً دائماً لا ينقطع حتى بوفاتهما، فإن حق الوالدين عظيم، ومن سعة رحمة الله تعالى أن جعل بر الوالدين لا ينقطع حتى بعد مماتهما فقد يقصر أحد الناس في حق والديه وهما أحياء فإذا ماتا عضّ يده وقرع سنه ندماً على تفريطه وتضييعه لحق الوالدين، وتمنى أن يرجعا للدنيا ليعمل معهما صالحاً غير الذي عمل، ومن هنا يستطيع المسلم أن يستدرك ما قد فات فيبر والديه وهما في عالم البرزخ، وذلك بأمور منها:

أ- أن يكون الولد صالحاً في نفسه.

ب- كثرة الدعاء والاستغفار لهما.

ج- صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما.

د- وإنفاذ عهدهما.

هـ- التصدق عنهما[1].

إن التربية الإسلامية تعمل على تعميق قيم البر والوفاء، وأولى الناس بالبر والوفاء من كانا سبباً في مجيء الإنسان إلى هذه الحياة وهما الوالدان، لذا حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضي الله عنهم على البر بالوالدين حتى بعد مماتهما وانقطاعهما عن الحياة.

ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب ما ورد في قوله: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

كما ورد ذلك الأنموذج في بر الوالدين عن طريق التصدق عنهما وتأكيد النبي ﷺ على وصول الأجر إلى الوالدين وانتفاعهما به كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في الباب: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أمي افْتُلِتَتْ نَفْسُها، وأراها لو تَكَلَّمَتْ، تصَدَّقَتْ؛ فهل لها أجرٌ إن تَصَدَّقْتُ عنها قال: (نعم)».

---

(١) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٣٩، ٤٠.

فما أحرى بالمربين أن يغرسوا في نفوس المتعلمين حب الوالدين ويحثوهم على برهما براً دائماً غير منقطع في حياتهما ولا بعد مماتهما.

إن العلاقة بين الولد وأبيه لا تقوم على أساس المصلحة المادية ومنطق الربح والخسارة، إنما تقوم على البذل والعطاء والطاعة والبر والإحسان فيقرن الإحسان بالوالدين بعبادة الله وشكرهما بشكره اعترافاً بفضلهما ورعاية للمستوى الخلقي الرفيع الذي ينبغي أن تبنى عليه العلاقة بين الأبناء والآباء[1].

ثانياً- التركيز على الأعمال المتعدية النفع الممتدة الأثر:

إن من أهداف التربية الإسلامية: التركيز على الأعمال ذات الأثر الممتد والمحمود، ولذا حرص النبي ﷺ على توجيه أصحابه والمؤمنين من بعدهم إلى الاهتمام بالأعمال التي يمتد أثرها وينتفعون بها حتى بعد مماتهم وانقطاعهم عن الحياة، وهذا نوع من التربية على علو الهمة وعدم الإخلاد إلى الدنيا وما فيها، بل وتعمل التربية الإسلامية على ترقية الاهتمامات والإعداد والاستعداد بالأعمال التي يمتد أثرها بعد موت الإنسان.

لذا ينبغي لفت أنظار المتعلمين إلى القصد إلى تلك الأعمال الفاضلة وإعطائها الأولوية، إذ أنه من الأحرى أن تعطى الأولوية لكل عمل له أثر طويل المدى، من ذلك:

- الصدقة الجارية بحيث يوظف الفرد وقته وجهده وحركته في الحياة لإفادة غيره من الناس خلال حياته وبعد مماته، وهي تشمل كل مشروع يخدم الناس في معاشهم وفي أمور دينهم.
- وكذلك العلم النافع، وهو الاستفادة من الوقت في طلب العلم وتعليمه وتوريثه، وخاصة العلم الشرعي الذي يعود على الناس بالنفع في دنياهم وأخراهم والذي تمتد ديمومة الانتفاع به إلى ما بعد موت صاحبه.
- وكذلك تربية الولد الصالح، في ذلك إشارة إلى تكوين أسرة كريمة وتنشئة الأولاد على خلق ودين، فإذا مات الوالدان خلفهما جيل يحمل منهج الله في قلبه ويقدم الخير للبشرية، كما أنه يدعو لهما طالما حيي.

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ١٥٤، وأصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٣٩.

وهذه الأعمال الثلاثة وردت الإشارة إليها في حديثي الباب لاسيما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

ومن ثَمَّ كان الواجب الاهتمام بتلك الأعمال التي لا تكون محدودة بسنين العمر المحدودة، وإنما تبقى خالدة في نفعها إلى ما شاء الله، ومن أهم تلك الأعمال: تربية النشء المسلم، وتعليمه، وتعويده السلوك القويم، حتى يكون سجية له لا ينفك عن شخصيته، وقد نص على ذلك في الحديث في قوله ﷺ: «وعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ» فإن المربي المسلم الذي يكرس وقته في تربية النشء وتعليمه وتقويم سلوكه تبقى أعماله تلك رصيداً يمتد بمدى تحقيقه للفائدة كماً وكيفاً وزماناً[1].

ثالثاً- التوجيه غير المباشر:

من فطنة المعلم الحاذق والمربي الأريب أن يُنوِّع في أساليب تربيته وتعليمه، فلا يسلك منهجاً واحداً فتمل منه النفوس وتنفر منه القلوب والأسماع، وإنما يختار من الأساليب ما يراها ملائمة وموافقة لأحوال من يقوم على توجيههم وتربيتهم.

ونلاحظ ذلك في حديثي الباب حيث جاء في الحديث الأول توجيه مباشر في إجابته لذلك الرجل عن سؤاله فيما لو أراد أن يتصدق عن أمه المتوفاة حيث قال النبي ﷺ: «إن أمي افْتُلِتَتْ نَفْسُها، وأراها لو تَكَلَّمَتْ، تصَدَّقَتْ؛ فهل لها أجرٌ إن تَصَدَّقْتُ عنها قال: (نعم)».

كما نجد في الحديث الآخر توجيهاً غير مباشر فلم يقل النبي ﷺ مثلاً تصدقوا بالصدقات الجارية، أو تعلموا وعلموا الناس العلم الذي ينتفع به، وإنما جاء توجيهه ﷺ في صورة خبر يحمل معنى الحث والأمر والتوجيه، فقال ﷺ: «إذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». فهذا الحديث وإن جاء في صيغة الخبر لكن المراد منه التوجيه والحث والترغيب.

---

(١) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة ص ٩٩، ١٠٠.

إن التوجيه غير المباشر أسلوب تربوي له من الوجاهة وحسن التأثير ما لا ينكر، وقد شاع هذا الأسلوب في أحاديث النبي ﷺ، ونضرب مثالاً لهذا بحديث جابر ابن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رحِمَ اللّهُ رجلاً سمحاً إذا باعَ وإذا اشْترى وإذا اقْتضى»[1]. ففي ذلك توجيه مباشر على المسامحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق وترك المشاحنة والحث على ترك التضييق على الناس في المطالبة وأخذ العفو منهم[2].

إن التوجيه غير المباشر هو دفع المربي أتباعه لعمل ما دون التصريح به، ولقد كان هذا الأسلوب من أكثر الأساليب التي اعتمدها الرسول ﷺ في تربيته لأصحابه بل لا تكاد تخلو أحاديثه وتوجيهاته وأقواله من هذا الأسلوب لماله من فوائد جمة قد لا تتوفر في غيره، ومن فوائده:

أ- أن الرسول ﷺ أراد أن يكون الدافع للعمل ذاتياً خالياً من ضغط العوامل الأخرى كالحياء والرياء والعاطفة والمجاملة.

ب- أن ينشأ عند الفرد الثقة بالنفس واستقلال الشخصية حتى إذا فُقِد المربي استطاع المسلم الاستمرار بالعمل الصالح وأن يشق طريقه بنفسه.

ج- ربما توجد بعض النفوس التي تتثاقل من قبول النصيحة المباشرة ويصيبها الخجل والإحباط إذا حصل التصريح بالتوجيه والإرشاد، فكان التوجيه غير المباشر دافعاً لما قد يحصل من ذلك.

د- أن ينمي عند الفرد المسلم القدرة على التصرف السليم واتخاذ القرار الصحيح المناسب.

هـ- في التوجيه المباشر يكون المرء ملزماً بالتطبيق الفوري وفي حالة الامتناع قد يقع في معصية، أما التوجيه غير المباشر فالتنفيذ متروك للمرء على التراخي أحياناً[3].

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٦.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٣٨٤/٤.

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٨٩، ٢٩٠.

١٦٣- باب ثناء الناس علَى الميت

الحديث رقم (٩٥١)

٩٥١- عن أنسٍ رضي الله عنه ، قَالَ: مَرُّوا بجنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْراً، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : ((وَجبَتْ)) ثُمَّ مَرُّوا بأُخْرَى، فَأثْنَوْا عَلَيْهَا شَرّاً، فَقَالَ النبي ﷺ : ((وَجَبَتْ))، فَقَالَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مَا وَجَبَت؟ فقَالَ: ((هَذَا أثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وهَذَا أثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّار، أنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرضِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول معنى شهادة المؤمنين للميت، وأثرها عليه، وأسلوبه خبري مبني على الحوار قوله: (مروا بجنازة) أي بميت، وإسناد الفعل لواو الجماعة يؤكد الفعل لأنه فعل جماعة بخلاف فعل الواحد في التوكيد، والثناء الشكر، وقول الرسول ﷺ (وجبت) أي لزمت، وقول الراوي (ثم مروا) حرف العطف يدل على فترة زمنية وأنها لم تتبعها مباشرة، وقوله (فأثنوا عليها شراً) الثناء يكون بالخير، واستخدامه في الشر من باب المشاكلة، والإشارة في قول الرسول (هَذَا أثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ) لتمييز المشار إليه، واستحضاره في ذهن المخاطب والخبر عنه بوجوب الجنة مدح له، والإشارة الثانية كذلك، والإخبار عنه بوجوب النار ذم له، وحاصل الجملتين يشير إلى قيمة شهادة المؤمنين، وأنهم لا يجمعون على باطل، وقول الرسول (أنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرضِ) وصفهم بالشهداء تكريم له، وإضافة الشهداء لله تشريف لهم، والقيد بقوله (في الأرض) تخصيص لهم، وتمييز عن غيرهم من الشهداء.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ١٣٦٧ ، ومسلم ٩٤٩/٦٠. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٦١.

فقه الحديث

ذكر الأموات بشرٍّ:

قال النووي: (كيف مكنوا بالثناء بالشر مع الحديث الصحيح في البخاري وغيره في النهي عن سبِّ الأموات[١]؟، فالجواب أن النهي عن سب الأموات هو في غير المنافق وسائر الكفار، وفي غير المتظاهر بفسق أو بدعة، فأما هؤلاء فلا يحرم ذكرهم بشر للتحذير من طريقتهم ومن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم. وهذا الحديث محمول على أن الذي أثنوا عليه شرًا، كان مشهورًا بنفاق أو نحوه مما ذكرنا، هذا هو الصواب في الجواب عنه)[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من موضوعات الدعوة: ثناء المؤمنين على الميت.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: جواز ذكر مساوئ الميت لمصلحة شرعية.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تزكية رسول الله ﷺ لأمته.

رابعاً: من آداب المدعو: السؤال عما خفي عليه.

خامساً: من آداب المدعو: الاستكثار من رحمة الله وفضله.

أولاً - من موضوعات الدعوة: ثناء المؤمنين على الميت:

هذا واضح من الحديثين، وحديث أنس عند مسلم بلفظ ((مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ. أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ. أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ))[٤].

وقال النووي: (وأما معناه ففيه قولان للعلماء، أحدهما: أن هذا الثناء بالخير لمن أثنى

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٩٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٨/٧/٤، وانظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٩٥، وفتح الباري، ابن حجر ٣/٢٥٨-٢٥٩.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٥١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٥٢).

(٤) صحيح مسلم ٩٤٩.

عليه أهل الفضل، فكان ثناؤهم مطابقاً لأفعاله، فيكون من أهل الجنة، فإن لم يكن كذلك فليس هو مراداً بالحديث، والثاني: -وهو الصحيح المختار- أنه على عمومه وإطلاقه، وأن كل مسلم مات، فألهم الله تعالى الناس أو معظمهم الثناء عليه، كان ذلك دليلاً على أنه من أهل الجنة، سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا. وإن لم تكن أفعاله تقتضيه فلا تحتم عليه العقوبة، بل هو في خطر المشيئة، فإذا ألهم الله عز وجل الناس الثناء عليه، استدللنا بذلك على أنه سبحانه وتعالى قد شاء المغفرة له، وبهذا تظهر فائدة الثناء. وقوله ﷺ "وجبت... وأنتم شهداء الله" ولو كان لا ينفعه ذلك إلا أن تكون أعماله تقتضيه، لم يكن للثناء فائدة، وقد أثبت النبي ﷺ له فائدة)[1].

قال ابن حجر: (قوله "أنتم شهداء الله في الأرض" أي المخاطبون بذلك من الصحابة ومن كان على صفتهم من الإيمان، وحكى ابن التين أن ذلك مخصوص بالصحابة[2]، لأنهم كانوا ينطقون بالحكمة بخلاف من بعدهم. قال: والصواب أن ذلك يختص بالثقات والمتقين، انتهى وسيأتي في الشهادات[3] بلفظ "المؤمنون شهداء الله في الأرض" ولأبي داود[4] من حديث أبي هريرة في نحو هذه القصة "إن بعضكم على بعض لشهيد")[5].

وقال ابن حجر كذلك: (قال الداودي: المعتبر في ذلك شهادة أهل الفضل والصدق، لا الفسقة، لأنهم قد يثنون على من يكون مثلهم، ولا من بينه وبين الميت عداوة؛ لأن شهادة العدو لا تقبل)[6].

وقال الطيبي: (قوله: "فأثنوا عليها شراً" الثناء إنما يستعمل في الخير، واستعماله

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤/٧/٢٢-٢٣، .

(٢) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١/١٩٢.

(٣) أي كتاب الشهادات من صحيح البخاري، الحديث ٢٦٤٢.

(٤) سنن أبي داود ٣٢٣٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٧٧٠).

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٢٩.

(٦) المرجع السابق ٣/٢٣٠-٢٣١.

ههنا في الشر إما مشاكلة لقوله "فأثنوا عليها خيراً"[1] أو تهكم كاستعمال البشارة في النذارة)[2].

ثانياً - من موضوعات الدعوة: جواز ذكر مساوئ الميت لمصلحة شرعية:

هذا يستفاد من قوله ﷺ: "وهذا أثنيتم عليه شراً"، وفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما مرت عليه جنازة فأثنى على صاحبها شراً.

ولكن هذا الجواز يعارضه النهي عن سب الموتى، فقد قال النبي ﷺ "لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا"[3]. وروي أن النبي ﷺ قال: ((اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وكُفوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ))[4]، وقد ذكر أبو العباس القرطبي أربعة أوجه للجمع بين هذه الأحاديث منها أن الذي تحدث عنه بالشرّ كان مستظهراً له ومشهوراً به، فيكون ذلك من باب لا غيبة لفاسق، ومنها أن الذي أثنى عليه الصحابة بالشر يحتمل أن يكون من المنافقين ظهرت عليه دلائل النفاق، فشهدت الصحابة بما ظهر لهم[5].

لكن عبدالله البسام قال عن حديث النهي عن سب الأموات: (ظاهر الحديث يدل على منع وتحريم سب الأموات مطلقاً، سواء كان الميت مسلماً أو كافراً، أو كان مسلماً فاسقاً أو صالحاً. لكن هذا العموم مخصوص - على أصح ما قيل-بأن أموات الكفار والفساق يجوز ذكر مساوئهم للتحذير منهم، والتنفير عنهم، وعن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم، والضابط في ذلك جواز سبهم إذا كان لمصلحة شرعية للمسلمين. وعلل ﷺ النهي عن سبهم بأنهم أفضوا ووصلوا إلى جزاء ما قدّموا وعملوا من خير أو شر، والله هو المجازي، فلا فائدة في سبهم، فيحرم إلا لمصلحة شرعية أو ما خصّه الدليل من عموم هذا النهي.

---

(١) ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة﴾[الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله﴾[آل عمران: ٥٤] وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣/٧/٤ .

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٦٨/٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٩٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩٠٠، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ١٠٤٧).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٦٠٧-٦٠٨.

والعلة الثانية في هذا النهي لئلا يتأذى الأحياء بسبهم، من أولادهم وأقاربهم ومن يلوذ بهم، إذ العلة الأولى في النهي عن سبهم أنهم أفضوا إلى ما قدموا، وهذا يدل على العموم إلا لمصلحة شرعية، فإن كان في سبهم أذية للأحياء فيكون محرماً من جهتين، وإلا كان محرماً من جهة واحدة.

وأجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياءً وأمواتاً، لابتناء أحكام الشرع على بيان حالهم)[١].

ثالثاً - من موضوعات الدعوة: تزكية رسول الله ﷺ لأمته:

وهذا واضح من قوله ﷺ: "أنتم شهداء الله في الأرض" وقوله ﷺ: "أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة".

قال ابن حجر: (وفي الحديث فضيلة هذه الأمة)[٢].

وقال الطيبي: ("قوله أنتم شهداء الله" إن الإضافة فيه للتشريف، وأنهم بمكان ومنزلة عالية عند الله، وهو أيضاً كالتزكية من رسول الله ﷺ لأمته وإظهار عدالتهم بعد أداء شهادتهم وبصدق ظنونهم في حق المثنى عليه، كرامة لهم وتفضلاً عليهم كالدعاء والشفاعة، فيوجب لهم الجنة أوالنار على سبيل الوعد أو الوعيد، لأن وعده حق لابد من وقوعه، فهو كالواجب إذ لا أثر للعمل ولا للشهادة في الوجوب. وإلى معنى الحديث يرمز قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣] أي جعلناكم عدولاً خياراً لتشهدوا على غيركم، ويكون الرسول رقيباً مهيمناً عليكم ومزكياً لكم ويبين عدالتكم)[٤].

وقال أبو هريرة ((أتي النبي ﷺ بجنازة يصلي عليها فقال الناس: نعم الرجل. فقال

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٥٨٠-٥٨١. وانظر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٣/٤١٢-٤١٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٣١، .

(٣) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣/٣٦٩.

النبي ﷺ: وجبت. وأتي بجنازة أخرى فقال الناس: بئس الرجل. فقال: وجبت. قال أبي ابن كعب: ما قولك؟ فقال: قال تعالى ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(١)])[(٢)].

قال ابن هبيرة: (هذه كرامة أكرم الله بها المؤمنين، وهي قبول شهادتهم، وهذا لأنهم كانوا: أمناء علماء، فهماء، فأما كونهم أمناء، فإن الأمين لا يشهد لأحد بخير حتى يتحقق أنه على خير، وكذلك لا يشهد على أحد بالسوء حتى يتيقن أنه قد كان ذا سوء.

وأما كونهم علماء، فأنهم كانوا يفرقون بين الخير والشر، فلا يلتبس عليهم الباطل بالحق، ويعرفون السنة وأهلها، ويعرفون الخير والعاملين به، وكانت شهادتهم معبرة.

وأما كونهم فهماء، فأنهم كانوا أولي فهم واطلاع، يذوقون طعم الإيمان من المؤمن، ويذوقون طعم النفاق من المنافق، فإن للإيمان أرجاً وعَرْفاً على نحو المسك، وللنفاق والكفر ثقلاً ودفراً[(٣)] يفهمه كل ذي لب، فكانت شهادتهم على هؤلاء وهؤلاء عن أمانة وعلم، فلذلك قال: "وجبت، وجبت، وجبت" فوجبت من حيث الأمانة، ووجبت من حيث العلم، ووجبت من حيث الفهم، فكل واحدة واجبة فيها)[(٤)].

وقال ابن تيمية: (والوسط: العدل الخيار، وقد جعلهم الله شهداء على الناس وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول... فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل، فإذا شهدوا أن الله أمر بشيء فقد أمر به، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٦٣٢/٢، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢١/٢، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٦٠٠.

(٣) دفر اللحم أو الطعام: تولد الدود فيه. ودفر الشيء: خبثت رائحته، فهو دفر. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٨٨.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٠٧/٥-٢٠٨.

عنه، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء لله في الأرض، بل زكاهم الله في شهادتهم، كما زكّى الأنبياء فيما يبلغون عنه، أنهم لا يقولون عليه إلا الحق، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا بحق)[1].

رابعاً - من آداب المدعو: السؤال عما خفي عليه:

هذا واضحٌ من قول عمر بن الخطاب للنبي ﷺ ما وجبت؟ وقول أبي الأسود لعمر: وما وجبت يا أمير المؤمنين؟" ومن هذا القبيل ما رواه أبو زهير الثقفي قال: ((سمعت النبيّ ﷺ يقول: يا أيُّها النّاسُ إنَّكُمْ تُوشِكُونَ أنْ تَعْرِفُوا أهْلَ الجَنَّةِ مِنْ أهْلِ النّارِ أو قال: خِيارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ قال: فقال رجل من الناس: بم يا رسول الله؟ قال: بالثَّناءِ السَّيِّيءِ، والثَّناءِ الحَسَنِ، وأنْتُمْ شُهَداءُ الله بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ))[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

قال السعدي: (إن الله قد أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم، أي إلى أهل العلم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال)[4].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (السؤال على وجه التبين والتعلم عمّا تمس إليه الحاجة في أمور الدين أو الدنيا مأمور به، أو مباح بحسب حال المسؤول عنه، أما السؤال عما لا تترتب عليه مصلحة دينية ولا دنيوية، على طريق التكلف والتعنت، لغرض التعجيز وتغليط العلماء، فهو غير جائز ومنهي عنه)[5].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٩٧/١١، ١٧٧/١٩-١٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ١٧٢/٢٤ رقم ١٥٤٣٩، وابن ماجه ٤٢٢١، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٤) تفسير السعدي ٣٩٤.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٦/٢٤.

خامساً - من آداب المدعو: الاستكثار من رحمة الله وفضله:

وهذا واضح من قول الصحابة لما سمعوا قول النبي ﷺ "أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة" فقلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة فقلنا: واثنان؟ قال: واثنان ثم لم نسأله عن الواحد.

قال ابن حجر: (قال الزين بن المنير: إنما لم يسأل عمر عن الواحد، استبعاداً أن يكتفى في مثل هذا المقام العظيم بأقل من النصاب)[1].

ومن هذا القبيل ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((اللَّهمَّ ارحمِ المحلِّقِينَ. قالوا: والمقصرينَ يارسولَ اللَّهِ، قال: اللَّهمَّ ارحمِ المحلِّقينَ. قالوا: والمقصِّرينَ يارسولَ اللَّهِ، قال: والمقصِّرين))[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: وَلِلْمُقَصِّرِينَ))[3].

ومن هذا القبيل كذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال للنساء: ((ما منكُنَّ امْرأةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِن وَلَدِها إلاّ كانَ لَها حِجاباً مِنَ النار فقالت امرأةٌ: واثنينِ؟ فقال ﷺ: واثنين))[4].

قال ابن رجب: (من أهم ما يسأل العبد ربه مغفرة ذنوبه، أو ما يستلزم ذلك كالنجاة من النار، ودخول الجنة. وقد قال النبي ﷺ ((حولها ندندن))[5] يعني حول سؤال الجنة والنجاة من النار، قال أبو مسلم الخولاني: ما عرضت لي دعوة فذكرت النار إلا صرفتها إلى الاستعاذة منها)[6].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٣٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٧٢٧، ومسلم ٣١٧-١٣٠١.

(٣) أخرجه البخاري ١٧١٨، ومسلم واللفظ له ١٣٠٢.

(٤) أخرجه البخاري ١٠١، ومسلم ١٥١-٢٦٣٣.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٩١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٧٤٢).

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٠٤.

ويمكن أن يستأنس في هذا المقام بما رواه ثابت عن أنس عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: ((آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ. فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً. وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً. فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا. فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ. لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئاً مَا أَعْطَاهُ أَحَداً مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: لاَ. يَا رَبِّ وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ. لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ. فَيُدْنِيهِ مِنْهَا. فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا. ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا. لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ. لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا. فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا. ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَن لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى. يَا رَبِّ هَذِهِ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا. فَيُدْنِيهِ مِنْهَا. فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا، فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي[1] مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِىءُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَلاَ تَسْأَلُونِّي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِىءُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِىءُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ))[2].

---

(١) يا ابن آدم ما يصريني منك؟ معناه: ما يقطع مسألتك مني، قال أهل اللغة: الصرى بفتح الصاد وإسكان الراء هو القطع. والمعنى: أي شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك. شرح صحيح مسلم، للنووي ٤٣/٣/٢ - ٤٤ .

(٢) أخرجه مسلم ١٨٧.

الحديث رقم (٩٥٢)

٩٥٢- وعن أَبي الأَسْوَدِ، قَالَ: قَدِمْتُ المَدِينَةَ[١]، ... فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ فَمَرَّتْ بِهِمْ جَنَازَةٌ، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْراً، فَقَالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِأُخْرَى فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْراً، فَقَالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِالثَّالِثَةِ، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا شَرّاً، فَقَالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، قَالَ أَبُو الأَسْوَدِ: فقلتُ: وَمَا وَجَبَتْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: قُلْتُ كما قَالَ النبي ﷺ: ((**أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيرٍ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**)) فقُلْنَا: وَثَلاثَةٌ؟ قَالَ: ((**وَثَلاثَةٌ**)) فقلنا: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: ((**وَاثْنَانِ**)) ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الواحِدِ. رواه البخاريُّ[٢].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه عن شهادة المؤمنين للميت يقوم على الحوار بين الراوي، وعمر ابن الخطاب ﷺ وقول أَبي الأسودِ: (فقلتُ: وَمَا وَجَبَتْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟) استفهام على حقيقته عن مفهوم الكلمة، والمقصود بها، وقول عمر بن الخطاب ﷺ (قُلْتُ كما قَالَ النبي ﷺ) يدل على متابعته للرسول ﷺ، والتشبيه بقول النبي يستلزم، ويشير إلى دقة المتابعة، قوله: (أيما مسلم) الإبهام في (أي)، و (ما) يعطي الحكم العموم حتى يشمل الجميع، وقوله (شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيرٍ) فيه إيجاز بحذف الصفة أي أربعة من المسلمين الصالحين، وكذلك في سؤال الثالث، وثلاثة؟ أي: وهل شهادة الثلاثة من المسلمين الصالحين كذلك؟، وكذلك قوله، واثنان؟ وقول الراوي: (ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الواحِدِ) تتميم أفاد توقفهم عن السؤال حتى لا يعتقد المخاطب تماديهم في السؤال عن الواحد، وحاصل الحديث أن شهادة المؤمنين، معتبرة في حال الميت؛ لأنهم لا يشهدون بباطل.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) عند البخاري زيادة: (وقد وقع بها مرض).

(٢) برقم ١٣٦٨. أورده المنذري في ترغيبه ٥١٦٢.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية والموعظة بانتهاز المناسبة والفرصة:

إن من فطنة المربي وذكائه ألا يدع فرصة مناسبة للتربية والإرشاد إلا استغلها، "ولقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم لتكون أبلغ في التأثير"[1].

يتضح ذلك من حديثي الباب حيث استثمر النبي ﷺ مرور جنازتين أثنى الصحابة على إحداهما خيراً والأخرى شراً في بيان قيمة ومنزلة شهادة المؤمنين وحكمهم من خلال المعاملة التي عاشوها من بعض الناس، فهؤلاء الصحابة الذين أثنوا على جنازة خيراً، إنهم لم يثنوا من فراغ ولكن من واقع المعايشة والسلوك الذي لمسوه مما ترك آثاراً إيجابية في نفوسهم تجاه من أثنوا عليه خيراً، وكذلك ثناؤهم شراً على جنازة أخرى وذلك من واقع المعايشة والسلوك، مما يؤكد قيمة شهادة المؤمنين، وقد أُكّد من الواقع، لذا كان له مكانته ووقعه بل إننا لنجد الرسول ﷺ يؤكد على شهادتهم، حيث قال: «وَجَبَتْ فقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: ماوَجَبَتْ قال: هذا أثَنيتُم عليهِ خيراً فوَجَبَتْ لهُ الجنَّةُ، وهذا أثنَيتُم عليهِ شرّاً فوَجَبَتْ لهُ النارُ، أنتم شُهَداءَ اللهِ في الأرضِ».

ومما سبق يتبين أهمية التربية باغتنام وانتهاز المناسبات والأحداث "فاغتنام المواقف في التوجيه التربوي من أفضل طرقها وأساليبها فهو يسهل العملية التربوية ويساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل.

إن اغتنام المناسبة من قِبَلِ المربي له أثره الطيب فإذا رأى سلوكاً طيباً أثنى عليه وأوجد في نفس المتربي ما يحفزه للاستمرار على هذا السلوك، كذلك إذا وجد سلوكاً أو موقفاً خاطئاً من شخص وضح له ما وقع فيه من خطأ وفي نفس الوقت وجهه التوجيه الإيجابي الذي يحسن به أن يسلكه.

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٧١٩/٢.

إن اغتنام المواقف في التوجيه التربوي من أفضل طرقها وأساليبها وأظهرها، لأنها تعالج خللاً في الحال، وصورته لا زالت عالقة في الذهن، ونتائجه ظاهرة أو سوف تظهر فيما بعد وكثيرًا ما يغفل الإنسان ولا يدرك فداحة الأمر إلا بعد فواته، فهذا الأساس مما ينبغي ملاحظته واغتنام فرصته[1].

ثانياً: السؤال والحوار:

من أساليب التربية الرئيسة أسلوب السؤال والحوار، وقد ورد استخدام هذا الأسلوب واضحاً جلياً في سؤال الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ حيث دفعهم تطلعهم وحرصهم على العلم والمعرفة أن يسألوا رسول الله ﷺ عن تفسير ومعنى قوله «وجبت» ردّ على ثنائهم المتباين على الجنازتين اللتين مرتا بهم، حيث سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رسول الله ﷺ قائلاً: «ما وَجَبتْ قال: هذا أثنيتُم عليهِ خيراً فوَجَبتْ لهُ الجنَّةُ، وهذا أثنَيتُم عليهِ شرّاً فوَجَبتْ لهُ النارُ»، وكذلك لما أخبر عمر في الحديث الثاني بهذا الحديث لم يكونوا أقل منه حباً وتطلعاً إلى المعرفة فسألوه عن ذلك ومنهم أبو الأسود قال: «وما وَجبَتْ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: قلتُ كما قال النَّبي ﷺ: أيُّما مسلم ....».

فدلالَةً على أهمية السؤال نجد ذلك الحرص من الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عما يخفى عليهم من أمور دينهم.

لكن يجمل بالسائل أن يتأدب بآداب السؤال فلا يرفع صوتاً ولا يقاطع متكلماً ويراعي اختيار الألفاظ المناسبة في غير ما تكلف، ثم ينتظر الإجابة في تواضع واحترام وينصت لفهمها واستيعابها.

إن من عَوّد نفسه على السؤال زادت ثقته بنفسه وشعر بالطمأنينة والارتياح لمعرفة الإجابة عما يجول بخاطره ويشغل ذهنه، وإن لم يجد الإجابة لدى المسئول فحسبه أنه بذل وسعه وربما يعاود السؤال في مناسبة أخرى[2].

كما أنه ينبغي على المعلم أن يعود طلابه السؤال والحوار والمناقشة، ليشحذ

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) انظر: التربية الذاتية، هاشم علي أحمد ص ١٢٣-١٢٥.

أذهانهم ويقوي الحجة لديهم ويعودهم الارتجال والمواجهة والثقة بالنفس، كما أن عليه أن يكون واسع الصدر فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة ومناسبة لمستويات نموهم، حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم وحتى يفيدهم بذلك[1].

ثالثاً- التبشير والتفاؤل:

من أهم الأساليب التربوية المؤثرة أسلوب التفاؤل والتبشير، فذلك هو مذهب الإسلام، أما اليأس والقنوط فهو مذهب لا يعرفه الإسلام ولا يرتضيه لأهله، بل يحذر منه أشد التحذير، بخلاف التفاؤل فإن صاحبه واسع النظرة فسيح الصدر عالي الهمة موفور النشاط[2].

لقد جاء الإسلام موجهاً ومرشداً إلى التفاؤل والتبشير بالخير، ومن دلائل ذلك ما أقره الرسول ﷺ في أحاديث الباب من تفاؤل الصحابة من جنازة مرت بهم فأثنوا عليها خيراً، وبين أن ذلك سبب من أسباب دخولها الجنة، فإن الله لا يخيب بعبد ظن به خيراً، كما في قوله ﷺ: «أيُّما مسلم شَهدَ لهُ أربعةٌ بخيرٍ أدخلهُ اللهُ الجنة. فقلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة. فقلنا واثنان؟ قال: واثنان، ثمَّ لم نسألْهُ عنِ الواحد».

إن التفاؤل يبعث في النفوس الأمل والراحة، ويغمرها بالدعة والطمأنينة، ويزيل عنها الغم والحزن، ويقتل فيها اليأس والقنوط، ويحيي فيها روح التفاؤل والعمل، بخلاف التشاؤم الذي يقضي على الأنفس والآمال، ذلك أن النفوس المتعبة المريضة القلقة الخائفة المتشائمة المتطيرة المرتبكة المترددة الخائرة يصعب على المربي تربيتها وقيادتها، مثل ما يصعب عليها هي أن تؤدي دوراً فاعلاً وإيجابياً تنفع به نفسها أو تنفع به غيرها.

لذلك حرص رسول الله ﷺ على أن تكون نفس المسلم دائمة البشر، إيجابية التفكير، نشطة وصحيحة، قوية وشجاعة، متفائلة ومتطلعة، مطمئنة إلى طريقها،

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٣.

(٢) انظر: الهمة العالية "معوقاتها ومقوماتها"، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٢١١.

واثقة من نفسها حتى يستطيع أن يبني فيها معالي الأمور وصفات الكمال ويبني بها أمة كريمة ودولة عظيمة[(١)].

رابعاً- التربية على التماس أسباب الثناء والذكر الحسن:

لقد جاء في حديثي الباب ضمنياً التربية على التماس أسباب الثناء والذكر الحسن والتجافي والبعد عن أسباب التهلكة والثناء البغيض، وذلك من خلال البيان الضمني لأسباب الثناء الحسن الذي لا يتأتى إلا من خلال العمل الصالح الذي يترك الآثار الطيبة في نفوس الناس، مما يدفعهم إلى الثناء الجميل على صاحب السلوك الطيب، وهذا مما يرغب المؤمن في الاستزادة من أعمال الخير، وهذا مما لا ينقطع ثوابه حتى بعد الممات لذا يحسن بالمؤمن أن يوطن نفسه على ذلك، وفي حديثي الباب تربية على الحذر من أسباب الثناء بالشر نتيجة لاقتراف المعاصي وعدم الامتثال لأوامر الله والسلوك المشين في المجتمع مما يسخط الله ويسخط المؤمنين، وفي هذا تربية بالتحذير من إتيان السلوكيات التي تكون سبباً في الثناء بالشر.

إن الناس متفقون على أن الذكر الحسن الذي يتركه الإنسان بعد موته يعتبر عمراً آخر له، عمراً غير محدود بعد عمره المحدود، قال المتنبي:

ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثّاني وَحاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيشِ أشغَالُ

ويقتبس شوقي هذا المعنى فيصوغه ويقدم له بهذه الصورة الحية حيث يقول:

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد الموت ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثان

ولا عجب أن كان من دعاء أبي الأنبياء خليل الرحمن عليه السلام ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْأَخِرِينَ﴾[(٢)].

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٢٨-٢٣٢.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٨٤.

وفرق كبير بين من يموت والقلوب عليه وَلْهى والأعين عليه باكية، والألسنة كلها تثنى عليه بالخير وتدعو له بالرحمة، ومن يموت ولا تبكي عليه عين ولا يحزن لفراقه قلب ولا يترحم عليه لسان، شأن الذين عاشوا في الحياة سلبيين أو ظالمين متجبرين[1].



(١) انظر: الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي ص ٦٠-٦٢.

١٦٤- باب فضل من مات لَهُ أولاد صغار

الحديث رقم (٩٥٣)

٩٥٣- عن أنسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاَثَةٌ لَمْ يَبْلُغوا الحِنْثَ إلاَّ أدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إيَّاهُمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الحنث: الإثم، أي: لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجري عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بالاستغراق عن طريق تسليط أداة النفي (ما) عن النكرة (مسلم) وتوسيط من لاستغراق الجنس، وقوله (يموت) يدل على تجدد الفعل، واستمراره؛ لأن الموت باق متجدد في الناس ما بقي أحياء لكونه الوجه المقابل لها، وتقديم الجار، والمجرور (له) يفيد الاختصاص أي أولاده لا أولاد غيره، وقوله (لم يبلغوا الحنث) كناية عن موتهم في الطفولة، لأن موت الصغير أقسى على والديه من موت الكبير، وقوله (إلا أدخله الله الجنة) استثناء يستكمل أركان القصر حيث حصر موت الصغار الثلاثة للمسلم في إدخاله الجنة لا يتعداها إلى النار، والمعنى توكيد لدخوله الجنة يدفع المبالغة، ولا يقبل التردد، وصياغة الفعل في صورة الماضي المحقق يزيد من هذا

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٨١، وهذا من أفراد البخاري كما في الجمع بين الصحيحين للحميدي ٦٣٠/٢ رقم ٢٠٧٨ ولم يخرجه مسلم. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩٦٦.

تنبيه: الحديث عزاه المنذري في ترغيبه إلى الصحيحين، وتبعه عليه المؤلف.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٣٦.

التوكيد، ونسبة الإدخال إلى الله تزيد الفعل توكيد؛ لأنه لا يتخلف، وقوله (بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إيَّاهُمْ) الباء للسببية، والعبارة تتميم بلاغي أفاد بيان سبب إدخاله الجنة.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل من مات له أولاد صغار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرص نساء الصحابة رضي الله عنهن على تعلم أمور الدين.

ثالثاً: من أصناف المدعوين: النساء.

رابعاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

خامساً: من أساليب الدعوة: القصر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل من مات له أولاد صغار:

هذا واضح من الأحاديث الثلاثة[٢] وقد بوب البخاري على هذه الأحاديث الثلاثة: باب فضل من مات له ولد فاحتسب، وقول الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[٣][٤].

قال ابن حجر: (قوله "باب فضل من مات له ولد فاحتسب" قال الزين بن المنير: عبر المصنف بالفضل ليجمع بين مختلف الأحاديث الثلاثة التي أوردها؛ لأن في الأول دخول الجنة وفي الثاني: الحجب عن النار، وفي الثالث: تقييد الولوج بتحلة القسم[٥]، وفي كل منها ثبوت الفضل لمن وقع له ذلك، ويجمع بينها بأن يقال: الدخول لا يستلزم الحجب ففي ذكر الحجب فائدة زائدة، لأنها تستلزم الدخول من أول وهلة. وأما الثالث فالمراد بالولوج الورود وهو المرور على النار.

والمار عليها على أقسام: منهم من لا يسمع حسيسها، وهم الذي سبقت لهم الحسنى

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٥٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٥٤، ٩٥٥).

(٢) أي أحاديث الباب.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٤) الباب رقم ٦ من كتاب الجنائز وهو برقم ٢٣، والأحاديث أرقام ١٢٤٨-١٢٥١.

(٥) فقد أخرج البخاري حديث أبي سعيد الخدري قبل حديث أبي هريرة رضي الله عنهما.

من الله كما في القرآن[1]، فلا تنافي مع هذا بين الولوج والحجب. وعبر [أي البخاري] بقوله "ولد" ليتناول الواحد فصاعداً، وإن كان حديث الباب قد قيد بثلاثة أو اثنين، لكن وقع في بعض طرقه ذكر الواحد، ففي حديث جابر بن سمرة مرفوعاً: "من دفن ثلاثة فصبر عليهم، واحتسب وجبت له الجنة"، فقالت أم أيمن: أو اثنين؟ فقال: أو اثنين. فقالت: وواحد؟ فسكت ثم قال: وواحد"[2] وعن أنس أن المرأة التي قالت: واثنان. قالت بعد ذلك: يا ليتني قلت: وواحد[3].

وفي رواية لمحمود بن لبيد عن حاتم "من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة. قلنا: يا رسول الله أو اثنان؟ قال: واثنان. قال محمود: قلت لجابر: أراكم لو قلتم أو واحد لقال: وواحد. قال: وأنا أظن ذلك[4] ويقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة" وهذا يدخل فيه الواحد فما فوقه، وهو أصح ما ورد في ذلك، وقوله: "فاحتسب" أي صبر راضياً بقضاء الله راجياً فضله، ولم يقع التقييد بذلك أيضاً في أحاديث الباب، وكأنه أشار إلى ما وقع في بعض طرقه أيضاً كما في حديث جابر بن سمرة المذكور قبلُ، وكذا في حديث جابر بن عبدالله، وفي رواية: "من احتسب من صُلْبه ثلاثة دخل الجنة" الحديث، ولمسلم[5] من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً "لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبهم إلا دخلت الجنة" الحديث، ولأحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر رفعه ((من أعطى ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على الله وجبت له الجنة))[6] وفي

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢].

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٠٣٠، والأوسط ٢٠٣٠، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٦٢٣٨).

(٣) أخرجه النسائي ١٨٧٢، وابن حبان ٢٩٤٣ ولكن ليس عند ابن حبان موضع الشاهد. وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ١٧٦٦).

(٤) أخرجه أحمد ١٤٢٨٥/٢٢، وابن حبان ٢٩٤٦ وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٥) أخرجه مسلم ١٥١-٢٦٣٢.

(٦) أخرجه أحمد ١٧٢٩٨/٢٨، والطبراني في الكبير ١٧ رقم ٨٢٩، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

الموطأ عن أبي النضر السلمي رفعه: ((لا يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، فَيَحْتَسِبُهُمْ إلاَّ كَانُوا لَهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ))[١] وقد عرف من القواعد الشرعية أن الثواب لا يترتب إلا على النية، فلابد من قيد الاحتساب. والأحاديث المطلقة محمولة على المقيدة.

(وقول الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢] وأراد بذلك الآية التي في البقرة، وقد وُصف فيها الصابرون بقوله ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٣] فكأن المصنف أراد تقييد ما أطلق في الحديث بهذه الآية الدالة على ترك القلق والجزع، ولفظ المصيبة في الآية وإن كان عاماً، لكنه يتناول المصيبة بالولد فهو من أفراده)[٤].

وقال ابن عبدالبر: (وهذا إنما يكون لمن صبر واحتسب ورضي وسلّم... والوجه عندي في هذا الحديث وما أشبهه من الآثار - أنها لمن حافظ على أداء فرائضه، واجتنب الكبائر، والدليل على ذلك، أن الخطاب في ذلك العصر لم يتوجه إلا إلى قوم، الأغلب من أعمالهم ما ذكرنا وهم الصحابة رضوان الله عليهم)[٥].

وقال ابن عثيمين: (حديث أنس وأبي هريرة وأبي سعيد كلها تدل على الفضل الذي يعطاه من مات له أولاد صغار، فاحتسب الأجر من الله عز وجل وصبر، ذلك أن الإنسان إذا مات له أولاد صغار لم يبلغوا الحنث - يعني لم يبلغوا - فإنهم يكونون له ستراً من النار)[٦].

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه، أن موت الولد الذي لم يبلغ الحنث مظنة انزعاج الإيمان، إلا لمن ثبته الله بالقول الثابت، من حيث إنه يراه طفلاً لم يأت من

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٩٩٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١٨/٣-١٢٠. وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٣٨/٦-٦٤٢.

(٥) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبدالبر ٣٢١/٦.

(٦) شرح رياض الصالحين ١٢١٢/٢ بتصرف يسير.

المعاصي ما يكون ما ناله من مرض الموت جزاءً لفعله، ولا بلغ به إلى حيث كان يؤمل من أمره، ولا تعي القلوب الضعيفة النظر ما المعنى في الإتيان به، ثم أخذه من قبل بلوغ الأرب منه، فيلعب الشيطان به بعقول الآدميين عند مشاهدتهم تعذيب الأطفال، وموت من يموت منهم، فمن قوي إيمانه، رأى أن لله جل جلاله في ذلك أسراراً وحكماً.

منها: أنه جل جلاله يخلق من خلقه أطفالاً تقدر أعمارهم إلى مدة معلومة من الصغر، ليكون الموت محذوراً أبداً، فلا يأمنه أحد في حال.

ومنها: أن عمل الوالد قد لا يبلغ إلى المقام المؤهل له في الآخرة، فيتممه الله تعالى، بأن يموت له من الولد الذي لم يبلغ الحنث، من يموت مؤمنًا عند موته بالله سبحانه وتعالى[1]، ويثبت لهذا الامتحان؛ فيكون ذلك مما يبلغه تلك المرتبة، ويقيه من عذاب النار.

ومن ذلك أن من الولد من لو بقي لأرهق أبويه طغياناً وكفراً؛ فيكون الله عز وجل قد منَّ على العبد بأن أخرج ولده ذلك إلى الدنيا، ثم أماته قبل أن يرهق أبويه، فقلب سبحانه وتعالى ذلك الإرهاق للوالدين أجراً، ممن ثبت إيمانه بهذه الأحوال كان له في ذلك الأجر؛ ولأن الناس يحتاجون في القيامة إلى فرط يسبقونهم إلى الورود، ويأتونهم بالماء يوم العطش الأكبر، فقدم الأطفال لذلك)[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حرص نساء الصحابة على تعلم أمور الدين:

وهذا واضح من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ((ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ. فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْماً نَأْتِيكَ فِيهِ. تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ. قَالَ اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا. فَاجْتَمَعْنَ)). وقد ترجم البخاري لهذا الحديث في كتاب العلم باباً بعنوان: باب هل يجعلُ للنساء يوم على حدة في العلم؟[3].

قال أبو العباس القرطبي: (يدل على أن الإمام ينبغي له أن يعلم النساء ما يحتجن

---

(١) هكذا في المطبوع من الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/١٠٣-١٠٤.

(٣) الحديث رقم ١٠١، ١٠٢.

إليه من أمر أديانهن، وأن يخصهن بيوم مخصوص لذلك، لكن في المسجد أو فيما كان في معناه حتى تؤمن الخلوة بهن، فإن تمكن الإمام من ذلك بنفسه فعل، وإلا استنهض الإمام شيخاً يوثق بعلمه ودينه لذلك حتى يقوم بهذه الوظيفة، وفي هذا الحديث ما يدل على فضل نساء ذلك الوقت، وما كانوا عليه من الحرص على العلم، والحديث عن رسول الله ﷺ)[1].

وقال ابن حجر: (وفي الحديث ماكان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعلم أمور الدين)[2].

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: ((نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأنْصَارِ، لَمْ يَكُنَّ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أنْ يَسْأَلْنَ عن الدِّينِ وَأنْ يَتَفَقَّهْنَ فِيهِ))[3].

ومن هذا القبيل ما روته أم سلمة قالت: ((جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسولَ اللّهِ، إنَّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحقِّ، فهلْ عَلَى المرأةِ مِن غُسْلٍ إذا احتَلَمَتْ؟ قال النبيُّ ﷺ: إذا رأَتِ الماءَ. فغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَة - تَعْنِي وَجْهَها - وقالتْ: يا رسولَ اللّهِ، وَتَحتَلِمُ المرأةُ؟ قال: نعم، تَرِبَتْ يَمينُكِ، فبمَ يُشْبِهُها وَلَدُها؟))[4].

قال النووي: (فيه أنه ينبغي لمن عرضت له مسألة أن يسأل عنها، ولا يمتنع من السؤال حياءً من ذكرها، فإن ذلك ليس بحياء حقيقي، لأن الحياء خير كله والحياء لا يأتي إلا بخير. والإمساك عن السؤال في هذه الحال ليس بخير، بل هو شر فكيف يكون حياء؟)[5].

ومن النساء الصحابيات أسماء بنت يزيد بنت السكن رضي الله عنها وقد اشتهرت بأنها خطيبة النساء، ولهذا اللقب قصة تدل على حرص الصحابيات على تعلم أمور الدين[6].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٦٤٠-٦٤١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٣٧/١ .

(٣) أخرجه مسلم ٦١-٣٣٢، وأبو داود واللفظ له ٣١٦.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٠، ومسلم ٣١٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٢٩/١/١ .

(٦) انظر: ترجمتها في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٧٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١٦٣٥-١٦٣٦.

ثالثاً- من أصناف المدعوين: النساء:

وهذا واضح من الحديث الثالث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (فلقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] وتاريخ الإسلام حافل بدور المرأة وجهدها وجهادها ويكفي أن نقول: إن أول مخلوق آمن بمحمد عليه السلام هو امرأة "خديجة" وإن أول من قدم ماله هو امرأة "خديجة" وإن أول من استشهد هو امرأة "سمية" وإن أسماء بنت أبي بكر كانت صاحبة النطاقين، وإن المرأة هي أم الشهداء "الخنساء" وإن أم عمارة وخولة قد جاهدتا بالسيف في سبيل الله تعالى.

وإزاء هذا كله فإن المرأة تحظى بدور كبير، واحترام عال في شريعة الإسلام، سواء كانت بنتاً أو زوجة أو أماً، فهي وإن كانت غير رجل، إلا أنها أم الرجال وأخت الرجال وخالة الرجال وعمة الرجال، إنها مربية الرجال، وما دام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهداً كافياً تجاه النساء، فهن نصف المجتمع وهن راعيات الأطفال، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فإن العناية بالمرأة هي عناية بالدعوة نفسها)[2].

رابعاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

وهذا واضح من قول المرأة للرسول ﷺ: "اجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله قال: اجتمعن يوم كذا وكذا، فاجتمعن فأتاهن النبي ﷺ فعلمهن مما علمه الله".

ومن هذا القبيل ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: ((سَأَلَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ: كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا؟ قال: فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ[3] فَتَطَهَّرُ بِهَا. قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا؟ قال: تَطَهَّرِي بِهَا، سُبْحَانَ اللهِ! وَاسْتَتَر قَالَتْ: عَائِشَةُ: وَاجتَذَبْتُهَا إِلَيَّ، وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ. فَقلت: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمَ))[4].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٧٣.

(٣) الفرصة: القطعة. والمسك: الطيب المعروف، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ر ص).

(٤) أخرجه البخاري ٣١٤، ٣١٥، ومسلم واللفظ له ٦٠-٣٣٢.

قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث من الفوائد، التسبيح عند التعجب، ومعناه هنا كيف يخفى هذا الظاهر الذي لا يحتاج في فهمه إلى فكر؟ وفيه استحباب الكنايات فيما يتعلق بالعورات. وفيه سؤال المرأة العالم عن أحوالها التي يحتشم منها. ولهذا كانت عائشة تقول في نساء الأنصار "لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين" كما أخرجه مسلم في بعض طرق هذا الحديث[1] وفيه الاكتفاء بالتعريض والإشارة في الأمور المستهجنة وتكرير الجواب لإفهام السائل، وإنما كرره مع كونها لم تفهمه أولاً لأن الجواب يؤخذ من إعراضه بوجهه عند قوله "توضيء"[2] أي في المحل الذي يستحيي من مواجهة المرأة بالتصريح به، فاكتفى بلسان الحال عن لسان المقال، وفهمت عائشة رضي الله عنها ذلك عنه فتولت تعليمها...، وفيه تفسير كلام العالم بحضرته لمن خفي عليه إذا عرف أن ذلك يعجبه، وفيه الأخذ عن المفضول بحضرة الفاضل...، وفيه الرفق بالمتعلم وإقامة العذر لمن لا يفهم، وفيه أن المرء مطلوب بستر عيوبه وإن كانت مما جبل عليها من جهة أمر المرأة بالتطيب لإزالة الرائحة الكريهة، وفيه حسن خلقه ﷺ وعظيم حلمه وحيائه زاده الله شرفاً)[3].

خامساً- من أساليب الدعوة: القصر:

هذا واضح في الأحاديث الثلاثة فالحديث الأول: ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم. وكذلك الشأن في الحديث الثاني وأداة النفي فيه "لا". أما الحديث الثالث فأداة النفي "ما".

ولعل استخدام القصر هنا، يزيد تأكيد وقوع الثواب والفضل والجزاء لمن مات له أولاد ثم صبر واحتسب؛ وذلك لكون فقد الأولاد شديداً على النفس، يدفع إلى عدم الصبر، وقد يفتح باب السخط والجزع والهلع، فجاء بيان هذا الفضل ليحث من أصيب بذلك على الصبر حتى ينال ما أعده الله له، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم.

---

(١) صحيح مسلم ٦١-٣٣٢.

(٢) هذه رواية عند البخاري ٣١٥، وقال الحافظ: توضئى: أي تنظفي، فتح الباري، ابن حجر ٤٩٥/١ .

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٤٩٦/١ .

الحديث رقم (٩٥٤)

٩٥٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((**لاَ يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ لا تَمسُّهُ النَّارُ إلاَّ تَحِلَّةَ القَسَمِ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

"وَتَحِلَّة القَسَمِ": قول الله تعالى: (وإن منكم إلا واردها)[مريم:٧١]: وهو العبور على الصراط، وهو جسر منصوب على ظهر جهنم. عافانا الله منها.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

وتحلَّةُ القسم: بالمقدار الذي يُبِرُّ به قسمُه، والمراد بالقسم قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[2].

والورود: العبور على الصراط، وهو جسر منصوب على ظهر جهنَّم، عافانا الله منها[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يؤكد معنى سابقه من ناحية أن من حرم عليه دخول النار فسيدخل الجنة لا محالة، وهو ما قرره الحديث السابق بسبب موت ثلاثة من الصغار للمؤمن، وهو يقوم على أسلوب القصر بطريق النفي، والاستثناء لقصر معنى عدم مس النار لمن مات له ثلاثة من الصغار من المسلمين على تحلة القسم، وهو الورود المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً﴾[مريم: ٧١]، ومعناه لا يدخل النار ليعاقب بها، ولكنه يدخلها مجتازا ولا يكون ذلك الجواز إلا قدر ما يحلل به الرجل يمينه، وهذا مثل في القليل المفرط في القلة، وهو أن يباشر من الفعل

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٦٥٦، ومسلم ٢٦٣٢/١٥٠. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩٦٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ل ل)، سورة مريم آية: ٧١.

(٣) رياض الصالحين ٣٧٢.

الذي يقسم عليه المقدار الذي يبر به قسمه مثل أن يحلف على النزول بمكان فلو وقع به وقعة خفيفة أجزأته فتلك تحلة قسمه، والتعبير بالمس يشير إلى الخفة، والسهولة، والسرعة، و (ال) في لفظ النار للعهد أي النار المعهودة لأهل الآخرة، وهي نار جهنم، و (ال) في لفظ القسم إن كانت للعهد أشارت للقسم المقصود في الآية السابقة، وإن كانت للجنس أفادت عموم القسم الذي يحلفه الإنسان ثم يأتي بأقل ما يمكن أن يتحلل به من قسمه.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٥٥)

٩٥٥- وعن أَبي سعيد الخدري ﷺ، قَالَ: جَاءتِ امْرأةٌ إِلَى رسولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رسولَ الله، ذَهبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْماً نَأتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، قَالَ: ((اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا)) فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ النبيُّ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ[1].

ثُمَّ قَالَ: ((مَا مِنْكُنَّ مِن امْرَأةٍ تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنَ الوَلَدِ إلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ)) فقالتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَينِ؟ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((وَاثْنَيْنِ)) [2] متفقٌ عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

الشرح الأدبي

قول المرأة للرسول ﷺ (ذَهبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثكَ) خبر قصد به لازم الفائدة، وهو التنبيه إلى حاجتهن إلى حديثه ليتعلمن ما يحتجن إليه مما يتعلق بدينهن، وما يخص النساء مما لا يحتاج الرجال إلى السؤال عنه، وقولها: (فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْماً نَأتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ) أمر أريد به طلب التعلم، وتقديم الجارو المجرور (لنا) للتخصيص أي يوماً نختص به دون الرجال، وقوله (اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا) كناية عن اليوم الذي حدده لهن، وقوله (مَا مِنْكُنَّ مِن امْرَأةٍ تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنَ الوَلَدِ إلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ) وهو أسلوب قصر لمن تقدم ثلاثة من الولد على كونهم حجاباً لها من النار، وقوله (ما منكن من امرأة..) أسلوب يفيد العموم، والاستغراق ليشمل كل امرأة

---

(١) إلى هنا لفظ مسلم.

(٢) هذا لفظ البخاري برقم ١٠١.

(٣) أخرجه البخاري ١٠١، ٧٣١٠، ومسلم ٢٦٣٣/١٥٢. انظر: الجمع بين الصحيحين للحميدي ٤٤٧/٢ رقم ١٧٦٢. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩٧١.

تنبيه: الحديث جمعه المنذري بين اللفظين في حديث واحد، وتبعه عليه المؤلف.

على هذه الحال، وقوله (تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنَ الوَلَدِ) كناية عن موتهم، وبراعة التعبير بالكناية أنها تصور الرضا بما يوحيه الفعل (تقدم) من الإشارة للحضور والرضا كأنها تقدمهم بنفسها راضية بحكم ربها، وتقديم (لها) أي لها خاصة، وليس لغيرها، وقوله (من النار) يشير إلى عظمة الحجاب، وقيمته التي تمنع ناراً لا يعلم هولها إلا الله، وفي الحديث ترغيب في الصبر، والاحتساب على الله عند فقد الأبناء، وقول المرأة (واثنين؟) فيه إيجاز بالحذف أي وهل الاثنين يحجبن النار، أو هل الاثنين كذلك، وقد جاءت إجابة الرسول ﷺ مبنية كذلك على الإيجاز فقال (واثنين؟) أي: واثنين يحجبن النار -والله أعلم-.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٥٥- مع المضامين للحديث رقم (٩٥٣، ٩٥٤).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التنشئة على التحلي بالصبر والتحمل:

إن الإنسان قد تعترضه بعض المصائب التي تصيبه في نفسه أو أهله أو ماله، والمنهج الإسلامي في هذه الحالات يدعو الإنسان إلى التحلي بالصبر واعتبار الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وعليه أن يواصل طريقه في الحياة والعمل في سبيلهما مهما اعترضه من المشقات، ويطمئن بأنه مأجور عند ربه على قدر ما أظهر من صبر وجلد.

أما إذا لم يصبر فإن وَقْع المصيبة يشتد عليه، وربما أدى ذلك إلى انكسار همته وذهوله عما حوله، فلا يستطيع بذلك إيجاد السبيل الأقوم الذي يجب أن يسلكه أمام ما وقع فيه مما يؤدي إلى قنوطه من مواصلة الجهاد في الحياة، وهذه ليست سمة الشخصية الإسلامية، فالذي يصبر فإنه يستطيع مواجهة الحياة بإيجاب وثبات دون أن يكون هناك استسلام مهما واجهه من الحوادث والمصائب[1].

حتى وإن كانت هذه المصائب في أعز ما عند الإنسان، فقد أرشد الإسلام إلى الصبر عليها، وذكر من دواعي الصبر وتقويته استحضار الإنسان ما أعده الله تعالى في الجنة من جزاءٍ للصابرين، كما نرى ذلك جلياً في أحاديث الباب، ومنها حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ، إلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إيَّاهُمْ».

إن الأولاد ثمرة القلب وبرد الأكباد، وكلما صغر الولد كان أحب إلى والديه، ولذلك كان ثواب الصبر على فقدهم عظيمًا، حتى إذا مات له ثلاثة أولاد صغار لم يبلغوا الحلم فصبر دخل الجنة ببركة الصبر عليهم ورحمة الله تعالى بعباده الصابرين، وهذا الصبر وحصول الأجر عليه مشترك بين الرجال والنساء وللنساء بوجه خاص لقوة حنانهن وسرعة الجزع إليهن وقوته عليهم[2]، وقد وجه النبي ﷺ الخطاب بقوله: «مَا

---

(١) انظر: الإيمان وأثره في حياة الإنسان، د. حسن الترابي ص ٤٨، ٤٩.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٤٥٩.

مِنْكُنَّ مِنْ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنَ الْوَلَدِ إلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاثْنَيْنِ».

لذا ينبغي للمربي أن يحرص على غرس الأخلاق الحميدة التي هي قوام الشخصية السوية المستقيمة، ومن هذه الأخلاق الصبر، الذي يجعل المسلم "إذا ابتلى يصبر ويثبت في القيام بالواجب، ويبذل جهده لمقاومة الصعاب دون يأس أو هلع، فلابد للمسلم الذي أنيطت به الخلافة في هذه الأرض أن يهيئ نفسه لمشاق الطريق بالصبر في البؤس والفاقة، وفي المرض والضعف، وفي القلة والنقص، والصبر في جميع الأحوال"[١].

فمن تجمل بالصبر وعده الله بمكانة عالية في الجنة لأن الصبر من أحسن الأخلاق والخصال التي ينبغي على المؤمن أن يتحلى بها، وهذا الجزاء في الآخرة، أما في الدنيا فتتجلى آثار الصبر بأنه من أبرز المؤشرات على التكيف السوي والصحة النفسية السوية.

أما الفرد الذي لا يملك القدرة على التذرعس بالصبر تجده يعاني من القلق والتذمر والشكوى لمجرد مواجهته أية صعوبة أو مشكلة، وقد يرتكب بعض الحماقات كالعدوان على الآخرين أو ضد نفسه عندما يواجه حدثاً جللاً كفقد مال أو عزيز[٢].

ثانياً- حث النساء على العلم وطلبه:

إن التعليم في الإسلام حق للرجل والمرأة، وواجب الوالد والوالدة نحو أبنائهما ذكوراً وإناثاً، فالتعليم في الإسلام سبيل المعرفة التي تساعد على فهم آيات القرآن الكريم وتعين على إدراك عظمة آيات الله في الكون المنظور وتهدي إلى دلائل قدرته ووحدانيته تعالى فيؤدي ذلك إلى خشيته والسير في طاعته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٣].

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص٢٦١.

(٢) انظر: مبادئ الصحة النفسية، د. محمد خالد الطحان ص ١٨٦.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٨.

وقد ورد الأمر بالاستزادة من العلم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

والأمر في هذه الآية ومثيلاتها يشمل الرجال والنساء، ولقد حرصت المسلمات في عهد رسول الله ﷺ على تلقي العلم الذي يجعلهن على بينة من أمر دينهن فطلبن من رسول الله ﷺ أن يجعل لهن يوماً على حدة فأجابهن إلى ما طلبن ليحصّلن نصيباً من العلم يعينهن على طاعة الله ويبصرهن بشؤون الحياة، ومن أظهر الدلائل على ذلك ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ من أحاديث الباب، قال: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْماً نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ. قَالَ: «اجْتَمِعْنَ ...».

إن تعليم النساء والاهتمام بهن خاصة في الجوانب التربوية من الأهمية بمكان، فإن الأم التي تعلمت أساليب التربية الصحيحة وكان لها نصيب من الدراسات الدينية وقواعد الأدب والسلوك ودراسة مداخل النفس الإنسانية واتجاهاتها، أمكنها أن تعمل على اعتدال مزاج أولادها وهدوء أعصابهم، ويسهل عليها التعرف على كثير مما يدور في نفوسهم، فترشدهم وتنصحهم وتقودهم إلى ما يرفع مستواهم الاجتماعي وتمنحهم من طباعها ما ينمي فيهم روح المشاركة الوجدانية مع أفراد المجتمع.

فهذه الأم لا تستوي مع أم أخرى ليس لها نصيب من هذه الدراسات، لهذا اهتم الإسلام بتعليم البنت اهتماماً كبيراً لتكون معدة إعداداً سليماً لأداء رسالتها في الحياة.

ثالثاً- التحذير من الاختلاط في التعليم:

لقد سلك الإسلام سياسةً إذا روعيت أَمِنَت الأمة شر الجهل وشر الفتنة، فلم يجعل الإسلام من التعليم سبيلاً لاختلاط الرجال والنساء بحجة التعلم، ولم يجعل مكان التعليم محلاً يثير الشهوات ويبعث الفتنة، بإثارة الدوافع الفطرية الكامنة في نفس كلٍّ من الرجل والمرأة، فأحاط التعليم بعدد من الضوابط الآمنة، ويأتي في مقدمة هذه الضوابط منع اختلاط الرجال بالنساء والفتى بالفتاة في دور التعليم.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

ونجد ذلك واضحاً جلياً في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حيث خصص النبي صلى الله عليه وسلم يوماً للنساء يجتمعن فيه ويعلمهن أحكام دينهن، فعنه رضي الله عنه قال: «جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْماً نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ. قَالَ: «اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا». فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ النَّبِيُّ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ...».

إن الاختلاط بين الرجال والنساء في أي مكان لا يسمح به الإسلام خاصة في أماكن التعليم، وذلك أن الاختلاط بين الفتى والفتاة له من الآثار الأخلاقية السلبية مالا يخفى، فلا يغيب عن ذهن الإنسان ما في الاختلاط من أثر مدمر للأخلاق والفضائل ومن جلب للأمراض النفسية، ذلك أن الدافع الجنسي إذا أثير احتاج إلى تلبية، فإما الإفضاء الفوضوي، وقد حرمه الشرع والمجتمع كذلك يبغضه، وإما الكبت وهو عقدة لا شعورية تعد مبعثاً للأمراض النفسية، ومنهج الإسلام فيما يتصل بهذه الناحية، أنه يضع الضوابط المانعة من إثارة الدافع الجنسي، وما دام الدافع لم تحدث له أي إثارة فإنه سيظل ساكناً حتى يُلبى في زواج مرتقب هادف، ولكي يظل ساكناً فلم يسمح الإسلام بالاختلاط ولا بخروج المرأة تَرْفُل في زينتها، فإن الأولى والثانية من أهم البواعث المحركة للدافع الجنسي في نفس الرجل والمرأة، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة المسلمة أن تكون أداةً لإثارة الفتنة فإن ذلك يعرضها لغضب الله تعالى وسخطه[1].



(١) انظر: تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد عبدالرحمن العك ص ٢٦٣-٢٦٧.

١٦٥- باب البكاء والخوف عِنْدَ المرور بقبور الظالمين ومصارعهم وإظهار الافتقار إلى الله تعالى والتحذير من الغفلة عن ذلك

الحديث رقم (٩٥٦)

٩٥٦- عن ابن عمرَ رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ لأصْحَابِهِ[١] - يعْني لَمَّا وَصَلُوا الحِجْرَ - دِيَارَ ثَمُودَ -: ((لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيهِمْ، لاَ يُصِيبُكُمْ مَا أصَابَهُمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

وفي روايةٍ (٣) قَالَ: لَمَّا مَرَّ رسولُ الله ﷺ بالحِجْرِ، قَالَ: ((لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ، أنْ يُصِيبكُمْ مَا أصَابَهُمْ، إلاَّ أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ)) ثُمَّ قَنَّع رسولُ الله ﷺ، رَأسَهُ وأسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أجَازَ الوَادِي.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الحجـر: ديار ثمود: هي مدائن صالح تقع شمال المدينة المنورة ٣٤٧ كم، وقد سكنها قوم ثمود، وما زال يعرف باسمه: الحجر[٤].

قَنَّع رسول الله ﷺ رأسه: ألقى عليه القناع، وهو ما يستر به الوجه[٥].

أجاز الوادي: قطعه وخلّفه وراءه[٦].

---

(١) عند البخاري برقم ٣٣٧٩ بلفظ: (أرض ثمود الحجر) فعبّر عنه المنذري في ترغيبه بهذا اللفظ، وتبعه عليه النووي.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ٤٣٣، ومسلم ٢٩٨٠. أورده المنذري في ترغيبه ٥٢٠٩.

(٣) أخرجها البخاري ٤٤١٩. أورده المنذري في ترغيبه ٥٢٠٩.

(٤) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٣٨.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٦٧، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ن ع).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج و ز)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٦٧.

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ الْمُعَذَّبِينَ) نهي بغرض التحذير من مثل حالهم حتى يدخلوا دخول اعتبار، واتعاظ وقوله: (إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ) استثناء مما سبق وقوله (فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ) أسلوب شرط يربط انتفاء البكاء بانتفاء الدخول، وقوله (فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لاَ يُصِيبُكُمْ مَا أصَابَهُمْ) نهي بغرض التهديد، والتحذير، والشرط بأن يكون الداخل باكياً فيه دلالة على أن ديار هؤلاء لا تسكن بعدهم، ولا تتخذ وطنا؛ لأن المقيم المستوطن لا يمكنه أن يكون دهره باكيا أبدا، وقد نهى أن يدخل دروهم إلا بهذه الصفة، وفيه المنع من المقام بها، والاستيطان وفيه الإسراع عن المرور بديار المعذبين، وفية الدلالة على البكاء الذي ينشأ عنه التفكر، وقال ابن الجوزي التفكر الذي ينشأ عنه البكاء في مثل ذلك المقام ينقسم ثلاثة أقسام أحدها: تفكر يتعلق بالله تعالى إذ قضى على أولئك بالكفر الثاني: يتعلق بأولئك القوم إذا بارزوا ربهم الكفر، والفساد الثالث: يتعلق بالمار عليهم؛ لأنه وفق للإيمان، وتمكن من الاستدراك، والمسامحة في الزلل، وقوله (ثُمَّ قَنَّع رسولُ الله ﷺ، رَأسَهُ وأسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أجَازَ الوَادِي) وفعله بعد قوله يؤكد التحذير عملياً، ويلقي الرهبة في قلوب المخاطبين بما يذكرهم قهره وبطشه بالظالمين، ورحمته بهم، ونعمته عليهم إذ منَّ عليهم بالهداية، ولم يأخذهم كما أخذهم.

فقه الحديث

الصلاة في مواضع الخسف والعذاب:

بوّب البخاري على هذا الحديث في كتاب الصلاة: باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب. ويذكر أن عليًّا رضي الله عنه كره الصلاة بخسف بابل[1].

قال ابن حجر: (قوله: "إلا أن تكونوا باكين" قال ابن بطال: هذا يدل على إباحة الصلاة هناك، لأن الصلاة موضع بكاء وتضرع، كأنه يشير إلى عدم مطابقة

(١) الحديث ٤٣٣.

الحديث لأثر عليٍّ. قلت [القائل ابن حجر]: والحديث مطابق له من جهة أن كلاً منهما فيه ترك النزول كما وقع عند المصنف [أي البخاري] في المغازي في آخر الحديث "ثم قنع ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي"[1] فدل على أنه لم ينزل ولم يصلِّ هناك كما صنع عليٌّ في خسف بابل)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من تاريخ الدعوة: هلاك ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين.

رابعاً: من أدب المدعو: عدم مقاربة أهل الظلم والظالمين.

خامساً: من آداب المدعو: الاتعاظ والاعتبار بمصارع العصاة.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

هذا واضح في قوله ﷺ "لا تدخلوا" ولكنه ﷺ أباح الدخول مع البكاء، فكان ذلك منه ﷺ نهيًا عن الدخول على ديار الظالمين مع عدم البكاء والخوف، فلم يكن هذا منه ﷺ نهيًا عامًا عن الدخول، وإنما نهي مقيد بعدم استحضار البكاء والوجل، من أن يقع مثل ما وقع لهم من الهلاك والدمار بسبب ظلمهم وكفرهم: وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر الزجر عن دخول المرء أرض ثمود إلا أن يكون باكياً[3].

ثانياً- من تاريخ الدعوة: هلاك ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام:

هذا واضح من الحديث، قال ابن عثيمين: (ثمود هم قوم صالح الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام فذكرهم بالله، ولكنهم كفروا به، فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة

---

(١) الحديث ٤٤١٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٣٢/١ .

(٣) صحيح ابن حبان ٧٩/١٤ رقم ٦١٩٩.

أيام، ثم أخذتهم الصيحة والرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين. وكان الله تعالى قد أعطاهم قدرة وقوة في نحت الجبال، وبناء القصور في السهول. وأصبحوا أمة قوية، ولكن الله تعالى أخذهم برجفة وصيحة فماتوا عن آخرهم)[1].

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[2]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3].

قال ابن كثير: (أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٢١٣.

(٢) سورة هود، الآيات: ٦١-٦٨.

(٣) سورة الحجر، الآيات: ٨٠-٨٤.

بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[2].

وذكر تعالى: أنهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فَقَنَّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: "لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم".

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك)[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين:

هذا واضح من الحديث قال النووي: (فيه الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين، ومواضع العذاب، ومثله الإسراع في "وادي محسر"، لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك. فينبغي للمار في مثل هذه المواضع، المراقبة والخوف والبكاء، والاعتبار بهم وبمصارعهم، وأن يستعيذ بالله من ذلك)[4].

وقال ابن حجر: (قوله: "لا تدخلوا" كان هذا النهي لما مرُّوا مع النبي ﷺ بالحجر:

---

(١) سورة هود، آية: ٦٥.

(٢) سورة فصلت، آية: ١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٤٥/٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٦/١٨/٩.

ديار ثمود في حال توجههم إلى تبوك، وقد صرح المصنف في أحاديث الأنبياء[1] من وجه آخر عن ابن عمر ببعض ذلك قوله "هؤلاء المعذبين" -بفتح الذال المعجمة- وله في أحاديث الأنبياء[2] "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم" قوله "إلا أن تكونوا" ليس المراد الاقتصار في ذلك على ابتداء الدخول، بل دائماً عند كل جزء من الدخول. وأما الاستقرار فالكيفية المذكورة مطلوبة فيه بالأولوية، وسيأتي أنه ﷺ لم ينزل فيه البتة[3].

قوله "لا يصيبكم" بالرفع على أن "لا" نافية والمعنى لئلا يصيبكم، ويجوز الجزم على أنها ناهية وهو أوجه، وهو نهي بمعنى الخبر. وللمصنف في أحاديث الأنبياء "أن يصيبكم" أي خشية أن يصيبكم. ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعثه على التفكر والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء، من تقدير الله تعالى على أولئك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض وإمهالهم مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه مقلب القلوب، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك. والتفكر أيضاً في مقابلة أولئك نعمة الله بالكفر، وإهمالهم إعمال عقولهم فيما يوجب الإيمان به والطاعة له، فمن مرّ عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتباراً بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال، ودل على قساوة قلبه وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم. وبهذا يندفع اعتراض من قال: كيف يصيب عذاب الظالمين من ليس بظالم؟ لأنه بهذا التقرير لا يأمن أن يصير ظالماً فيعذب بظلمه. وفي الحديث الحث على المراقبة والزجر عن السكنى في ديار المعذبين، والإسراع عند المرور بها، وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾[4])[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٧٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣٣٨٠، ٣٣٨١.

(٣) وهذا في الرواية الثانية أخرجها البخاري ٤٤١٩، ومسلم ٣٩-٢٩٨٠.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٦٣٢/١ .

رابعاً- من أدب المدعو: عدم مقاربة أهل الظلم والظالمين:

يتضح هذا من قوله ﷺ: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم" قال ابن هبيرة: (فيه من الفقه أنه إذا مرّ بدار قوم كانوا قد عذبوا، أسرع هارباً، لئلا يتأذى بشيء من العذاب الذي هم فيه، فإن من ذلك استمرار لعنة الله عز وجل لمن عذبه، فإذا أقام فيهم رجل من غيرهم، لم يأمن أن يشتمله شر جوارهم، فيخسر دنياه وأخراه)[١].

كما يتضح ذلك أيضاً من فعل النبي ﷺ أنه قنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي، (فيه دليل على بغض أهل الفساد، وذم ديارهم وآثارهم)[٢] وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما: (أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا منه العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردُها الناقة)[٣].

قال النووي: (وفي هذا الحديث فوائد منها: النهي عن استعمال مياه بئر الحجر إلا بئر الناقة، ومنها لو عجن منه عجينا لم يأكله بل يعلفه الدواب، ومنها أنه يجوز علف الدابة طعاماً مع منع الآدمي من أكله، ومنها مجانبة آبار الظالمين والتبرك بآبار الصالحين)[٤].

وقال ابن تيمية: (نهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي، لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولايخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل. وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم، ماقتاً لهم شائناً ما هم فيه بحسب الإمكان، كما في الحديث

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٤/٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٥٥/٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٧٨، ٣٣٧٩، ومسلم ٢٩٨١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٧/١٨/٩.

((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[1]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾[2] وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر ولقوم كفار، وذلك أن مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين: أحدهما: أن يكون مكرهاً عليها، والثاني: أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة، أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه، فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة، وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما، وهو الأمر الذي أكره عليه)[3].

خامساً- من آداب المدعو: الاتعاظ والاعتبار بمصارع العصاة:

هذا يستفاد من الحديث وقول ابن عمر رضي الله عنهما "ثم قنّع رسول الله ﷺ رأسه، وأسرع السير حتى أجاز الوادي" قال أبو العباس القرطبي: (يستفاد منه كراهة دخول أمثال تلك المواضع والمقابر، فإن كان ولابدّ من دخولها فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ من الاعتبار والخوف والإسراع)[4].

وقال العز بن عبدالسلام تحت عنوان الاعتبار بمصاب العصاة: (قال الله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[5] وقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[6] وقال ﷺ في ثمود: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم". الاعتبار بذلك وسيلة إلى الانزجار عن معاصيهم)[7].

---

(١) أخرجه مسلم ٤٩.

(٢) سورة التحريم، آية: ١١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٨/١٨٩-١٩٠، ١٥/٣٢٤-٣٢٥.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧/٣٥٤.

(٥) سورة الحشر، آية: ٢.

(٦) سورة غافر، آية: ٨٢.

(٧) شجرة المعارف والأحوال ٩٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالعبرة التاريخية:

ورد استخدام هذا الأسلوب في حديث الباب في لفت الأنظار إلى ما نزل بثمود من عذاب، وأمر رسول الله ﷺ مَنْ معه من الصحابة بعدم دخول ديارهم وإن اضطروا لدخولها فليدخلوها باكين، كما في قوله ﷺ: «إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ. فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ». كما أمر بالإسراع حتى يتعدوا ديار الظالمين ويفارقونها كما يترائى لنا ذلك في فعله ﷺ "ثم قَنّع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي".

وذلك لون من ألوان التربية بالعبرة، وهي التربية بالعبرة التاريخية، نظراً لشدة تأثيرها في نجاح التربية وتحقيق الهدف منها، إذ لمّا كانت كل آية من آيات الله في الآفاق، وكل ظاهرة كونية أو حادثة تاريخية كبرى يمكن بشكل أو بآخر أن تؤخذ منها عِبْرة كان من المفيد للمربي أن يعرف خصائص كل عبرة بحسب موضوعها ولمن يصلح كل صنف من هذه العبر؟ وفي أي الظروف يفضل على غيره؟ لكي يحسن الاختيار ويرجو التأثير في النفوس.

وتظهر لنا أهمية التربية بالعبرة في أنها سبب في تقويم الشخصية وتعديل السلوك.

إن السلوك الاجتماعي أو الفردي الذي شقيت به أمة من الأمم الغابرة مثلاً أو طاغوت من طواغيتها يلزم أن تشقى به أمة معاصرة أو فرد من أفرادها إذا أحيط بشروط متشابهة، وكذلك السلوك الذي سعد به مجتمع أو فرد من البشر في الماضي لو طبق في الزمن الحاضر لأعطى النتائج ذاتها.

لذا كانت أهمية التربية بالعبرة بآثار الأمم السالفة، لقد ساق الله العبر التاريخية لنا لنتعظ، ونعتبر بمن طغى، فنحاذر الوقوع فيما وقع فيه من النتائج الوخيمة، ولنعتبر أيضاً بمن ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[1]. من الأنبياء والصالحين حتى نفوز بمثل ما فازوا به في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة النازعات، آية: ٤٠.

إن أسلوب التربية بالعبرة يحتاج إلى معرفته وتطبيقه كلُ مرب وكلُ واعظ وخطيب في تربية العواطف وتوجيه السلوك عن طريق العبرة[1].

ثانياً- الحركات المعبرة:

من الوسائل التربوية والتعليمية المعتبرة استخدام الحركات المعبرة، ويقصد بالحركات المعبرة تغير ملامح الوجه أو هيئة الجلسة أو الإشارة باليد أو بالإصبع أو غيرها بهدف التعبير أو تجسيم الأحاسيس وبَلْورتها بحيث تعرض سماتها الواضحة المعبرة على المشاهد والمتلقي، وهي تختلف عن أفعال الإنسان الأصلية التي يقوم بها في أكله وشربه[2].

وقد ورد استخدام الحركات المعبرة في الحديث في قول ابن عمر رضي الله عنهما "ثم قنع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي"، فإسراعه ﷺ وتقنعه لرأسه تعبير عن البعد عن الظالمين والهرب عن مواطنهم حتى لو كانوا رفاتاً في القبور والأجداث.

وتأتي أهمية استخدام الأساليب التعليمية ومنها الحركات المعبرة والإشارة في كون الحركات المعبرة لها من المعان التي قد لا يعبر عنها الكلام، وقد لا يوفيها حقها في التعبير، وذلك أن الإشارة لغة إنسانية يستطيع أن يتفاهم بها أناس من بلاد مختلفة لا يعرف بعضهم لغة بعض، كما يتفاهم بها البكم فيما بينهم ومع الناطقين أيضاً، وهي إذْ كانت في محلها كانت معينةً على الفهم ملفتة للنظر، طاردة الشرود، مشركة في المتابعة أكثر من حاسة، فالناظر يرى الإشارة ويسمع العبارة، ويذكر كل منهما الأخرى[3]، فالحركة المعبرة تلفت النظر، وتنبه الغافل، وتحفظ من النسيان، وتعين على التذكر والاستظهار.

---

(١) انظر: التربية بالعبرة، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ١٢، ٣٢-٣٥.

(٢) انظر: وسائل التعليم والإعلام، فتح الباب بن عبدالحليم سيد ص ١١٠.

(٣) انظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد الصباغ، ط/٢، المكتب الإسلام، بيروت: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص ٥٢٥.

وتحفل السنة النبوية بالمبادئ التربوية التي تتناول الجوانب العملية التعليمية المختلفة بشكل شامل، حيث استخدم النبي ﷺ كل وسيلة من شأنها أن تساعد على الفهم أو توضح صورة معينة والتي منها الحركات المعبرة والإشارات التعليمية الهادفة[1].

لذا ينبغي على المربين عدم إغفال الوسائل التعليمية في الميدان التربوي والتعليمي لما لها من أثر فاعل في تسهيل عملية التعلم والتعليم والتربية وتوضيح المعاني، وإثارة الحواس التي تساعد على الفهم والاستظهار كالبصر ونحوه.

ثالثاً- التربية بالترهيب:

لقد حمل حديث الباب في مضمونه ومفهومه الترهيب والتحذير من الظلم ببيان مصائر الظالمين الذين تجاوزا حدود العدل سواء أكان ذلك مع الله تبارك وتعالى أم كان مع خلقه، ولقد كان نهي النبي ﷺ عن التواجد في أماكن الظالمين بقوله وفعله كما نرى في إسراعه حتى الخروج من واديهم مع ما صاحب ذلك من تعبيرات وحركات معبرة تعبر عن مدى الرغبة والحرص على الهرب من الظالمين ومواطنهم والبعد عنها والخوف من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما في رواية قال لما مر رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»، ثُمَّ قَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ.

وهكذا نجد أن الحديث بما تحمل دلالاته من الاعتبار بمصير الأمم الغابرة التي ظلمت وتجبرت وتجاوزت، وكذلك نهى الرسول ﷺ عن مساكنة الظالمين أو الركون إليهم، كما نهى الله تعالى عن ذلك ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[2].

وما جاء في الحديث من إسراعه ﷺ وأصحابه معه حتى تجاوزوا وادي القوم

---

(١) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية، د. هدى علي جواد الشمري ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢) سورة هود، آية: ١١٣.

الظالمين، كل ذلك يدل على مدى عظم الظلم وسوء منقلبه، والترهيب منه والنهي عن التلبس به.

ولذا كان الظلم محرماً ومُجرَّماً في جميع ميادين الحياة، ومن ثَمَّ فإنه يجدر بالقائمين على أمور التربية أن يُحذِّروا من الظلم من خلال التربية بالترهيب، وذلك ببيان بعض مظاهر الظلم وبيان آثاره الوخيمة على الفرد والمجتمع، وبيان عاقبة الظلم وأهله يوم القيامة.

لذا كان من واجبات المربي والمعلم التخلق بالعدل والتماس أسبابه والبعد من الظلم وأسبابه، وأن يحرص على عدد من الأمور والتي من أبرزها ما يلي:

أ- تحري العدل وعدم الظلم في تعامله مع أطفاله أو طلابه أو كل مَنْ يربيهم أو يشرف عليهم.

ب- ألا يكلف المربي مَنْ تحت يده فوق طاقتهم ولا يكلفهم إلا بما يبين لهم ضرورته وفائدته لمصلحتهم وما يستطيعون تحقيقه من الأعمال أو السلوك أو العبادة أو الحفظ أو نحو ذلك، فإن الله تبارك وتعالى لم يكلف أمة بشيء إلا بعد أن أرسل فيهم رسولاً منهم ليبين لهم بلسانهم، فإيضاح النموذج المطلوب تعلمه لابد منه ليتم التعليم.

ج- أن يقنع طلابه ويقيم عليهم الحجة والبرهان في كل ما يطالبهم به، وأن تكون الأهداف التربوية واضحة لكل بحسب عقله وقدرته على الفهم فلا تأتي التكاليف والأوامر استبدادية عارية عن كل حجة وبرهان.

د- أن يكون مخلصاً في عمله التربوي لوجه الله تعالى، ويقنع طلابه أو أبناءه بأنه يعمل لمصلحتهم ولسعادتهم وفائدتهم محققاً أمر الله تبارك وتعالى، ليست له غاية أو منفعة شخصية في تقويم سلوكهم وإصلاح نفوسهم ويحوز إعجابهم بذلك فيتخذونه قدوة لهم يقلدونه ويتبعونه على بصيرة[1].

رابعاً- التربية بالتعليل:

من أساليب التربية: التربية بالتعليل ليزداد المتعلم ثقة واطمئناناً إلى ما يلقى على ما

---

(١) انظر: التربية بالآيات، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣٥، ٢٣٦.

معه، فإن إظهار العلة أدعى إلى القبول والالتزام، وأكثر تسهيلاً للفهم والحفظ والاستظهار، ولأهمية هذا الأسلوب التربوي الأصيل استخدمه النبي ﷺ مع علمه بإيمانهم الكامل بكل ما يلقيه على مسامعهم ويزجيه إليهم من نصائح وإرشادات، فنراه ﷺ ساق لهم العلة التي من أجلها نهاهم عن دخول قبور الظالمين إلا لضرورة، فيمرون بها مع مراعاة الإسراع في المشي والانتقال وتغير الحال من بكاء ونحوه، فبين لهم العلة في ذلك بقوله ﷺ: «فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ».

إن استخدام التعليل والإقناع استخدام لأسلوب من أساليب التربية الإسلامية، بل والتربية بصفة عامة، ويقصد بهذا الأسلوب استخدام الدليل والعلة والمنطق العقلي وتقديم الأدلة والبراهين وعدم اللجوء إلى المغالطة وعدم الاعتماد على الهوى أو ما شابه ذلك.

إن التربية الإسلامية قائمة على استخدام العلة والدليل والإقناع والحجة العقلية، وهذا الأسلوب فعال في مجال التربية حيث تقدير قيمة العقل واستخدامه في مختلف شئون الحياة، فعلى المربي أن يعود المتعلم بأن يقتنع بكل معلومة يتعلمها أو سلوك يسلكه ويستخدم في ذلك أسلوب التعليل.

فما أحرى بالآباء والمعلمين أن يخاطبوا عقول الأبناء والطلاب، وأن يقفوا بقدرة هذه العقول على التفكير في كثير من الموضوعات وأن يصححوا أفكارهم في حالة وجود خطأ فيها وأن يوجهونهم للتفكير السليم[1].



---

(١) انظر: التربية الإسلامية، مصادرها وتطبيقاتها، د. عماد محمد محمد عطية ص ١٢٥-١٢٧.

٧- كتاب آداب السفر

١٦٦- باب استحباب الخروج يوم الخميس، واستحبابه أول النهار

الحديث رقم (٩٥٧)

٩٥٧- عن كعب بن مالك ﵁: أنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الخَمِيس، وَكَانَ يُحِبُّ أنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيس. متفقٌ عَلَيْهِ[١].

وفي رواية في الصحيحين[٢]: لقَلَّمَا كَانَ رسولُ الله ﷺ يَخْرُجُ إلاَّ في يَوْمِ الخَمِيسِ.

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

الشرح الأدبي

التعبير بالفعل الماضي (كان) يشير إلى أن الفعل صار عادة - غالباً -، وهو الخروج للغزو، ونحوه يوم الخميس، والتعبير بالمحبة يشير إلى أنه اختيار قلبي للرسول ﷺ، وهو سنة لأمته لمن كان له الاختيار في تحديد موعد الخروج، وقد ساق الخبر كعب بن مالك ﵁ مؤكداً بأكثر من مؤكد تمهيداً للخبر، وليدخله على النفوس دخول الأنوس مع استشعار منه لعظمة من يحدث عنه، والرواية الثانية جاءت في ثوب القصر لتحصر حكم خروجه باستثناء القليل في يوم الخميس.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب أن يكون سفره يوم الخميس فإن فاته فيوم الاثنين وأن يكون باكرًا)[٣].

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٥٠ من حديث هشام بن يوسف، عن معمر، كما في الجمع بين الصحيحين للحميدي ٤٤٨/١ رقم ٧١٢.

هذا الحديث أورده الحميدي في جمعه في المتفق عليه، ولأجل ذلك عزاه المؤلف إلى الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٤٩ من حديث يونس، عن الزهريّ. ولم يخرجه مسلم بهذا اللفظ.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٨٨/٤ ، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤١/٢٥. وانظر كذلك: فتح الباري، ابن حجر ١١٣/٦-١١٥.

(٤) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢١).

الحديث رقم (٩٥٨)

٩٥٨- وعن صخر بن وَداعَةَ الغامِدِيِّ الصحابيِّ ﵁: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ: ((اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)) وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشاً بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ. وَكَانَ صَخْرٌ[1] تَاجِراً، وَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ[2] أَوَّلَ النَّهَارِ، فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ. رواه أبو داود والترمذيُّ[3]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

صخر بن وداعة الغامِدِيّ: وهو صخر بن وداعة الغامدي، وغامِد بطن من الأزد ويقال صخر بن وديعة، وهو معدود في أهل الحجاز، فهو غامدي، أَزْديّ حجازيّ، سَكَنَ الطائف، وله صحبة، ولا يعرف لصخر بن وداعة غير حديث واحد وهو حديث دعاء الرسول ﷺ للأمة في البكور، وكان صخر رجلاً تاجراً، وكان إذا بعث تُجاره بعثهم أول النهار، فأثرى وكثر ماله[4].

غريب الألفاظ:

بكورها: أول نهارها[5].

---

(١) عندهما زيادة: (رجلاً).

(٢) عند أبي داود زيادة: (من).

(٣) أخرجه أبو داود واللفظ له ٢٦٠٦، والترمذي ١٢١٢، وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٤٧٥٤، وقال عبد الحق في الأحكام الوسطى ٢٨/٣: حديثٌ حسنٌ، وقال الحافظ في الفتح ٢١٢/٧: وقد اعتنى بعض الحفاظ بجمع طرقه، فبلغ عدد من جاء عنه من الصحابة نحو العشرين نفسًا. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥١٧.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٤٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٤/٣، ١٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٦٠٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٤٣/٣، ٤٤٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٠٥/٢، والسندي ١٧١/٢٤.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ك ر).

السرية: هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة[1].

الشرح الأدبي

دعوة الرسول ﷺ إلى البكور حسياً هي دعوة بالمضمون إلى التبكير، والمبادرة في كل أمورها بما يجعلها في صدارة الأمم، ولو تأملت هذا التوجيه لرأيت فيه دعوة للأمة إلى النشاط، وترك الكسل، ومباشرة الأسباب التي تحقق لها الريادة في كل مجال، وإلا صارت ذيلا في ركاب الأمم تنتظر طعامها من عدوها، وليس هناك أكثر من هذا ذلا لأمة، ودعاء الرسول ﷺ (اللهم) دعاء خاشع خاضع ذليل متهالك في الخضوع لربه مما يدلل على حرصه على الإجابة للأمة النشيطة التي نسبها لنفسه في قوله (لأمتي) والظرفية التي يدل عليها (في) تشير إلى أن البكور صار بدعوة الرسول ﷺ محلا للبركة، وإضافة البكور إليهم توجيه للبركة حتى تحط في رحالهم في كل بكور.

فقه الحديث

أشار هذا الحديث إلى استحباب التبكير في الأسفار والأعمال وغيرهما، ودليل ذلك ما جاء في الحديث من دعوة النبي ﷺ بالبركة في التبكير فقال: "اللهم بارك لأمتي في بكورها"[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: دعاء النبي ﷺ لأمته بالبركة في بكورها.

ثانياً: من آداب المدعو: التبكير أول النهار.

ثالثاً: من آداب المدعو: الاستجابة لما أرشد إليه النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: دعاء النبي ﷺ لأمته بالبركة في بكورها:

هذا واضح من قوله ﷺ "اللهم بارك لأمتي في بكورها" فهذا الحديث يبين

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ر ى).

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٦٨/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٠/٢٥.

حرص الرسول ﷺ على أمته، وشفقته ورحمته بها، ودعاءه لها بالبركة والخير والسعادة، ويبين لنا أفضل أوقات الأعمال، وأنه في التبكير، ذلك لأمور عديدة: منها فضل الوقت، لأن الجو فيه غير حار، وفيه مميزات عديدة، ويبين لنا أن المسلم في هذا الوقت يكون نشطاً قوياً ومتفاعلاً، ويبين لنا استغلال الوقت صباح اليوم إلى مسائه، ويبين لنا بركة هذا الوقت. وقال ابن عثيمين: (دعاء النبي ﷺ أن يبارك الله في أول النهار فيه لأمته، لأنه مستقبل العمل، فإن النهار كما قال الله تعالى معاش ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[1] فإن استقبله الإنسان من أوله صار في ذلك بركة وهذا شيء مشاهد، أن الإنسان إذا عمل في أول النهار، وجد في عمله بركة، لكن وللأسف أكثرنا اليوم ينامون في أول النهار ولا يستيقظون إلا في الضحى، فيفوت عليهم أول النهار الذي فيه بركة، وقدقال العامة: أمير النهار أوله، يعني أن أول النهار هو الذي يتركز عليه العمل، وكان صخر يبعث بتجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله من أجل دعاء النبي ﷺ بالبركة لهذه الأمة في بكورها)[2].

ونقل الطيبي القول بأن: (المسافرة سُنّة في أول النهار، وكان صخر هذا يراعي هذه السُنّة، وكان تاجراً يبعث ماله في أول النهار للتجارة، فكثر ماله ببركة مراعاة السنة، لأن دعاء النبي ﷺ مقبول لا محالة)[3].

ثانياً- من آداب المدعو: التبكير أول النهار:

هذا واضح من فعل صخر الغامدي رضي الله عنه فقد كان يبعث تجارته أول النهار، وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر ما يستحب للمرء أن يكون إنشاؤه الحرب وابتداؤه الأمور في الأسباب بالغدوات تبركاً بدعاء المصطفى ﷺ فيه[4].

---

(١) سورة النبأ، آية: ١١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٢١٥/٢.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٣٨/٧، وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٢١٧/١-١٢١٨.

(٤) صحيح ابن حبان ٦٣/١١ رقم ٤٧٥٥.

قال ابن العربي: (يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن ما بعد صلاة الصبح وقت يقسم الله فيه الرزق بين العباد، وثبت أنه وقت ينادي فيه الملك: ((اللَّهمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وأَعْطِ مُمْسِكاً تلفاً))[١]. وهو وقت ابتداء الحرص ونشاط النفس وراحة البدن وصفاء الخاطر، فيقسم لأجل ذلك كله وأمثاله)[٢].

وقال ابن مفلح المقدسي الحنبلي: (وظاهر ما ذكره الأصحاب في هذا الفصل والذي قبله، أن نوم النهار لا يكره شرعاً لعدم دليل الكراهة إلا بعد العصر، وأنه تستحب القائلة، والقائلة: النوم في الظهيرة، ذكره أهل اللغة. وظاهره شتاءً وصيفاً، وإن كان الصيف أولى لها ... وجزم بعض متأخري الأصحاب بكراهة النوم بعد الفجر، وعن بعض التابعين أن الأرض تعج من نوم العالم بعد صلاة الفجر، ويروى أن عمر رضي الله عنه لما قدم الشام رأى معاوية حمل اللحم، فقال: يا معاوية ما هذا، لعلك تنام نومة الضحى؟ فقال: يا أمير المؤمنين علمني مما علمك الله، ورأى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ابناً له نائماً نومة الضحى فقال له: قم أتنام الساعة التي تقسم فيها الأرزاق؟ وذلك لأنه وقت طلب الرزق والسعي فيه شرعاً وعرفاً عند العقلاء.

وقال علي رضي الله عنه: من الجهل النوم في أول النهار، والضحك من غير عجب، والقائلة تزيد العقل، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: النوم على ثلاثة أوجه: نوم خُرق ونوم خَلَق ونوم حُمق، فأما النوم الخُرْق فنومة الضحى يقضي الناس حوائجهم وهو نائم، وأما الخلق فنوم القائلة نصف النهار، وأما نوم الحمق فنوم حين تحضر الصلاة)[٣].

(لقد أطلقتُ هذه التسمية "الساعات المباركات" على ساعات الصباح الأولى مستحضراً دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته بالبركة خلال أوقات الصباح الباكر، حيث قال:

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠ من حديث أبي هريرة وأوله: "ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان...".

(٢) عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي لابن العربي، ٢١٥/٥، ٢١٦، ط/ المطبعة الأزهرية: ١٣٥٠هـ، نقلاً عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٥/١٠.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١٤٧/٣-١٤٨.

"اللهم بارك لأمتي في بكورها"، وإننا فعلاً نجد بركة اليوم كله حينما نغتنم هذه الساعات بالعمل، فتطيب أنفسنا وننشط طوال نهارنا، خلافاً لحالنا حينما نمضي تلك الساعات في النوم، وهذا مصداق لقول الرسول ﷺ فيمن بدأ نشاط يومه بصلاة الفجر ومن فاتته: ((يَعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نامَ ثلاث عُقدٍ، يَضربُ على مكان كلِّ عُقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُدْ، فإنِ استيقَظَ فذكرَ اللَّهَ انحلَّتْ عقدةٌ. فإن توضَّأَ انحلَّتْ عقدةٌ، فإن صلَّى انحلَّتْ عقدةٌ، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النّفسِ، وإلاّ أصبحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ))[1].

والفارق عظيم بين من اغتنم بركة يومه وبين من ضيعها، فإن الأول نتيجته نشاط وإنتاج، والثاني نتيجته كسل وفشل، يقول الشيخ القرضاوي معلقاً على هذا الحديث: (وما أعظم الفارق بين المسلم الذي انحلت عقد الشيطان كلها من نفسه، فاستقبل يومه من الصباح الباكر بالذكر والطهارة والصلاة، وانطلق إلى معترك الحياة، نشيط الجسم، طيب النفس، منشرح الصدر، وبين من ظلت عقد الشيطان فوق رأسه، فأصبح نؤوم الضحى، بطيء الخطا، خبيث النفس، ثقيل الجسم، كسلان)[2].

أي الساعات هي؟

قد تتساءل أي ساعات هي تلك الساعات المباركات وكم عددها، أهي من الساعة السادسة حتى التاسعة صباحاً؟ أم من السابعة حتى العاشرة؟ أم من الخامسة حتى السابعة؟ أعتقد أنها ابتداءً من وقت الفجر أو من قبيل وقته بقليل، وقد تكون لقرابة ثلاث ساعات، هذا حسب تجربتي الشخصية، فإن الذهن خلالها صاف، وتنعدم المقاطعات خلال هذه الفترة، وتسبق انغماس الإنسان في معيشته اليومية، من وظيفة أو عمل ما.

لم يتحدّث المسلمون فقط بأهمية هذه الساعات، بل هي أيضاً مبدأ عالمي مهم في علم إدارة الوقت أُطلق عليها "وقت الذروة"، فإن للإنسان ما يسمى بدورة الطاقة

---

(١) أخرجه البخاري ١١٤٢، ومسلم ٧٧٦.

(٢) الوقت هو حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي ص ١٣.

النموذجية التي تتغير حسب الوقت خلال اليوم، ولقد أثبتت التجارب العلمية أن الإنسان يمتلك أعلى درجات طاقته وصفاء ذهنه عند الصباح الباكر، وقد ارتأى معهد فرنكلن للتدريب الإداري قياس الطاقة البشرية منذ الساعة الثامنة صباحاً، وهذا أمر أراه خطأ ويجب أن يكون منذ الخامسة أو السادسة صباحاً، وأعتقد أنه لو قاس هذا المعهد الطاقة البشرية من قبل الساعة الثامنة بساعتين، لوجدها أكبر مما هي عليه عندها، وقد تنبّه لهذا صاحب كتاب العادات العشر حيث أطلق عبارة "الساعات السحرية" على أنها من الخامسة إلى الثامنة صباحاً بالنسبة له، واشترط أن تكون تلك الساعات خاصة بالشخص وحده، وبعيدة عن كل المقاطعات، وخارجة عن نطاق الأعمال اليومية الروتينية، ذكر "ماكنزي" حاجة كل إنسان إلى ساعة أو ساعات هدوء مطلق لا يتخلله أي مقاطعة، قد تحدد في أي وقت مناسب حسب الشخص، لكنها الأفضل في أبكر ساعات الصباح، وأطلق عليها اسم "الساعةالهادئة".

وحينما أختار أن وقت الذروة، أو الساعات المباركات أو الساعات السحرية - حسب اختلاف تسميتها- تبتدئ من الفجر، فهذا يعني أن نفرغها لأهم أولويات حياتنا، فنختار أهم الأعمال والمشاريع وأكثرها تطلباً لحضور الذهن وصفائه، قبل البدء بروتين العمل خلال اليوم، وأن ذلك يتطلب استعداداً مسبقاً لاستغلال اليوم من أوله، وذلك بأن ينام الفرد مبكراً مع استحضار آداب النوم، داعياً الله بالأذكار المأثورة قبل نومه، مستحضراً نية صادقة للاستيقاظ لصلاة الفجر، وليستعن بما ينبهه للاستيقاظ قبيل الفجر، عسى الله أن يرزقه قيام ركعتين، طالباً من الله العون والتسديد، وهذا تحضير لاستغلال الساعات المباركات واليوم كله. ومن أجل استمرارية اغتنام الساعات المباركات، أرى أنّه من الضروري المحافظة على قيلولة يومية لقرابة نصف ساعة إلى ساعة واحدة والله أعلم.

وإن هذا العمل المتواضع الذي تقرؤه مثال على ذلك، حيث كان معظم إنتاجه خلال الساعات المباركات، فلقد أخذت على عاتقي كتابة صفحات في علم إدارة الوقت لشعوري بأهميته لشباب هذه الأمة والعاملين لدينه، ولقد ضاق وقتي تماماً لهذا العمل،

فعزمت على تفريغ تلك الساعات للعمل عليه، فكنت أكتب ما تقرأ بُعيد صلاة الفجر ولقرابة ساعتين أو ثلاث، فكان ذلك في الصيف منذ الساعة الخامسة تقريباً حتى الثامنة، وخلال الشتاء منذ السابعة حتى التاسعة، وذلك لصفاء ذهني آنذاك، ولانعدام وجود أي وقت آخر أتفرغ خلاله من جميع المشاغل اليومية، ولانعدام المقاطعات خلال هذه الفترة، وصدق عبدالفتاح أبو غدة حينما ذكر أنه "من الأعمال العلمية ما لا يكتمل حصوله على وجهه الأتم إلا في الأوقات التي تصفو فيها الأذهان، وتنشط فيها القرائح والأفهام، وتكثر فيها البركات والنفحات، كساعات الأسحار والفجر والصباح، وساعات هدأة الليل والفراغ التام والسكون الكامل للمكان"[(١)][(٢)].

ثالثاً- من آداب المدعو: الاستجابة لما أرشد إليه النبي ﷺ:

هذا واضحٌ من فعل صخر بن وداعة الغامدي رضي الله عنه لما رأى النبي ﷺ إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار، فكان صخرٌ يبعث تجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله.

ومن هذا القبيل ما فعله النعمان بن مقرن في موقعة نهاوند في أيام عمر بن الخطاب، فقد قال جبير بن حية: ((وكانَ النعمان رَجُلا بَكّاءً، فقالَ: قدْ كانَ اللّهُ جلَّ وعلا يُشْهِدُكَ أمثالَها فلا يُخْزيك ولا يعري موقفَكَ، وإنَّهُ واللّهِ ما مَنَعَني أَن أُناجِزَهم إلا لِشَيْءٍ شَهِدْتهُ مِنْ رسولِ اللّهِ، إنَّ رسول الله، كانَ إذا غَزَا، فلَمْ يُقاتِلْ أولَ النهارِ لَمْ يَعْجَلْ حتى تَحْضُرَ الصلواتُ وتَهُبَّ الأَرواحُ ويَطيبَ القِتالُ، ثُمَّ قالَ النعمانُ: اللّهمَّ إنّي أَسْأَلُكَ أنْ تَقرَّ عَيْني اليومَ بفَتْحٍ يكونُ فيهِ عِزُّ الإِسلامِ وأهلِه، وذُلُّ الكفرِ وأهلِه، ثُمَّ اختِمْ لي على إثْرِ ذٰلكَ بالشهادةِ، ثُمَّ قالَ: أَمِّنُوا يرحمُكُمُ اللّهُ، فأَمَّنّا، وبكى وبَكَيْنا. ثُمَّ قالَ النُّعمانُ: إني هازٌّ لِوائي، فتَيَسَّرُوا للسِّلاحِ، ثُمَّ هازُّهُ الثانيةَ، فكونُوا مُتَيَسِّرين لِقتالِ عَدُوِّكُمْ بإزائهم، فإذا هَزَزْتُه الثالثةَ، فليَحْمِلْ كلُّ قومٍ على مَنْ يَليهمْ مِنْ

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ط/٥، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ص ١٠٠.

(٢) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة ص ٤٠٨-٤١١.

عَدُوِّكُمْ على بركةِ اللَّهِ، قالَ: فَلَمَّا حَضَرَتِ الصلاةُ وهَبَّتِ الأَرْواحُ، كَبَّرَ وكَبَّرنا، وقالَ: رِيحُ الفَتْحِ واللَّهِ إنْ شاءَ اللَّهُ، وإنِّي لأَرْجُو أَنْ يَستجيبَ اللَّهُ لي وأنْ يَفْتَحَ عَلَيْنَا، فَهَزَّ اللِّواءَ، فتَيَسَّرُوا، ثُمَّ هَزَّه الثَّانيةَ، ثم هزَّه الثالثةَ، فَحَمَلْنا جَميعاً كُلُّ قومٍ على مَنْ يَليهِمْ، وقالَ النعمانُ: إنْ أنا أُصِبْتُ، فَعَلَى الناسِ حذيفةُ بنُ اليمانِ، فإنْ أُصِيبَ حذيفةُ ففلانٌ، فإنْ أُصِيبَ فلانٌ ففُلانٌ، حتى عَدَّ سبعةً آخِرُهُمْ المغيرةُ بنُ شُعْبَةَ، قالَ جبير: فواللَّهِ ما عَلِمْتُ مِنَ المسلمينَ أَحَداً يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إلى أهلهِ حتى يُقْتَلَ أو يَظْفَرَ، وثَبَتُوا لنا، فَلَمْ نَسمَعْ إلا وَقْعَ الحديدِ على الحديدِ، حَتَّى أُصيبَ في المُسلمين مُصابةٌ عظيمةٌ، فَلَمَّا رَأَوْا صَبْرَنا، وَرَأَوْنا لا نُريد أن نَرْجِعَ، انهزَمُوا، فَجَعَلَ يَقَعُ الرجلُ فيقعُ عليهِ سَبْعَةٌ في قِرانٍ فَيُقْتَلُونَ جميعاً وجعلَ يَعْقِرُهُمْ حَسَكُ الحَديدِ[1] خَلْفَهُمْ. فقالَ النعمانُ: قَدِّمُوا اللواءَ فَجَعَلْنَا نُقدمُ اللواءَ فنقتلُهمْ ونضرِبُهمْ، فَلَمَّا رَأَى النعمانُ أَنَّ اللَّهَ قد استجابَ لَهُ ورَأَى الفَتْحَ جاءَتْهُ نُشَّابةٌ[2]، فأصابت خاصِرَتَهُ فَقَتَلَتْهُ، فجاءَ أخوهُ مَعْقِلُ بنُ مُقَرِّنٍ، فَسَجَّى عليهِ ثوباً، وأَخَذَ اللِّواءَ فَتَقَدَّمَ به، ثمَّ قالَ: تَقَدَّمُوا رَحِمَكُم اللَّهُ، فجعلنا نتقدَّمُ فنهزِمُهم ونقتلُهُمْ، فلما فَرَغْنا واجْتمعَ الناسُ، قالوا: أينَ الأميرُ؟ فقالَ مَعْقِلٌ: هذا أَميرُكُمْ قد أَقَرَّ اللَّهُ عينَهُ بالفتحِ وخَتَمَ لهُ بالشهادةِ، فبايعَ الناسُ حذيفةَ بنَ اليَمانِ.

قال: وكان عُمَرَ بالمدينةِ يدعو اللَّهَ وينتظرُ مِثْلَ صيحةِ الحُبْلَى، فكَتَبَ حُذيفةُ إلى عُمَرَ بالفتحِ مَعَ رَجُلٍ مِنَ المسلمين، فَلَمَّا قَدِمَ عليهِ، قالَ: أَبْشِرْ يا أميرَ المؤمنينَ بفَتْحٍ أعزَّ اللَّهُ فيهِ الإِسلامَ وأهلَهُ، وأذلَّ فيهِ الشِّرْكَ وأهلَهُ، وقال: النُّعمانُ بَعَثَكَ؟ قالَ: احْتَسِبِ النعمانَ يا أميرَ المُؤمنينَ، فَبَكَى عُمَرُ واسترجَعَ، وقالَ: ومَنْ ويحكَ؟ فقالَ: فُلانٌ وفلانٌ وفلانٌ حتى عَدَّ ناساً، ثمَّ قالَ: وآخرينَ يا أميرَ المؤمنينَ لا تَعْرِفُهُمْ. فَقَالَ عُمَرُ وهو يَبْكي: لا يَضُرُّهُمْ أنْ لا يَعْرِفَهُمْ عُمَرُ لكنَّ اللَّهَ يَعْرِفُهمْ))[3].

---

(١) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل، والحسك من الحديد: ما يعمل على مثال الحسك، كان يلقى حول العسكر ويبث في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح س ك).

(٢) النُّشَّاب: النَّبل، واحدته نشابة. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ش ب).

(٣) أخرجه ابن حبان ٤٧٥٦ مطولاً وقال محققه: إسناده قوي.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على اغتنام الأيام والساعات المباركات:

لقد لفت النبي ﷺ في حديثي الباب الأنظار إلى اختيار واغتنام الأيام المباركة الفاضلة المناسبة للأعمال المراد الإتيان بها كالسفر يوم الخميس، كما جاء في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ»، كذلك وجه الأنظار إلى استغلال الأوقات المباركة، وذلك من خلال دعائه بالبركة في البكور حيث دعا النبي ﷺ لأمته أن يبارك الله لهم في أول النهار، لما في ذلك من نهوضهم لصلاة الفجر واغتنامهم اعتدال الجو وقربهم من الراحة واتساع الوقت أمامهم للعمل، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا».

إن اغتنام الأوقات الفاضلة المباركة له أثره الإيجابي على العملية التربوية والتعليمية كأول النهار والتبكير في ذلك لما تتميز هذه الأوقات بحضور الذهن وصفائه لأن "من الأعمال العلمية ما لا يكتمل حصوله على وجهه الأتم إلا في الأوقات التي تصفو فيها الأذهان وتنشط فيها القرائح والأفهام وتكثر فيها البركات والنفحات كساعات الأسحار والفجر والصباح وساعات هدأة الليل والفراغ التام والسكون الكامل للمكان"[1].

إن للإنسان ما يسمى بدورة الطاقة النموذجية التي تتغير حسب الوقت خلال اليوم، ولقد أثبتت التجارب العلمية أن الإنسان يمتلك أعلى درجات طاقته وصفاء ذهنه عند الصباح الباكر[2].

فينبغي على المسلم إذا أراد أن يبارك له في عمره أن يسير على هدي النبي ﷺ في اغتنام الأوقات المباركة ويحرص على المبادرة والمسارعة إلى الأعمال الصالحة، ويتطلب ذلك أن يستيقظ المسلم مبكراً وينام مبكراً.

---

(١) انظر: قيمة الوقت عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة ص ١٠٠.

(٢) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة ص ٤٠٨- ٤١١.

ليبدأ يوم المسلم من مطلع الفجر أو على الأقل قبل مشرق الشمس وبهذا يتلقى الصباح طاهراً نقياً قبل أن تلوثه أنفاس العصاة الذين لا يفيقون من نومهم إلا إذا علت الشمس وأضحى النهار.

وهنا يستقبل المسلم يومه من البكور الذي دعا الرسول ﷺ لأمته بالبركة فيه[1]، كما جاء في حديث صخر بن وداعة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا».

ثانياً- التربية بالدعاء:

ورد استخدام الدعاء كأسلوب تربوي في حث النبي ﷺ في دعائه للأمة بالبركة في البكور، فلم يرشد إلى التبكير كأن يقول بكروا أو عليكم بالبكور مثلاً، وإنما دعا لأمته أن يبارك الله تعالى في بكورها قائلاً «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا». زيادة في لفت الأنظارُ وإثارة الانتباه، وتأكيداً لحلول البركة في البكور إذ أن دعاء الرسول ﷺ مستجاب.

وفي الحديث إرشاد للمعلم والمربي أن يركز في توجيهاته التربوية على بيان أهمية وفضل البكور، وأن يبرز ذلك من خلال تخصيص النبي ﷺ للبكور ودعائه لأمته أن يُبارك لها في بكورها مما يعمل على إثارة روح التنافس المحمود في المسارعة في البكور.

إن للدعاء أثره التربوي الذي لا يُنكر، ومن دلائل ذلك:

- أن الدعاء ثمرة المعرفة بمنهج القرآن وتصوره عن الكون، كما أن الدعاء يشعر الإنسان بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله وضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء، ففي غفلة النفس عن حقيقة عبوديتها لله وحاجتها إليه سبيل إلى طغيانها واعتدائها.
- كما أن في الدعاء تذكيراً للنفس بحقيقة فقرها إلى الله وصلتها به.
- كما أن الدعاء هو سبيل القوة الحقة فلا يقضى على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع، وفقدان السند المُعِين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي

---

(١) انظر: الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥، ٢٦.

على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق، وهو سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة من كثرة حوادث الانتحار وضحايا القلق والصرع والجنون، رغم ما تنعم به من متعة وراحة مادية في الحياة.

إن في إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته له وأنه يستمع إليه إذا شكا ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعينه إذا احتاج إحساس يملأ النفس سكينة وراحة ويخلق فهيا القوة الحقة والعزم والثقة والرضاء[1].

ثالثاً- التربية بالممارسة العملية:

من البديهي في عالم التربية أن التعليم بالممارسة العملية أوقع في النفس وأدعى إلى ترسيخ المعاني وقرارها في القلب والذاكرة، وكما أن التعليم التطبيقي والأسلوب العملي يجعل تصور الطالب للأمور التي يتعلمها أوسَع تفصيلاً وأعمقَ أثراً في نفسه وأقرب إلى الفائدة في الحياة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه بالأساليب المتنوعة ومنها التعليم بالممارسة العملية، وقد بدا ذلك واضحاً جلياً في خروجه وسفره يوم الخميس فلم يقتصر الأمر على مجرد التوجيه أو الإرشاد، وإنما تعدى ذلك إلى الممارسة الفعلية، كما أخبرنا بذلك كعب بن مالك رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ».

وفي ذلك إرشاد إلى التبكير بالممارسة العملية كما في حديث صخر بن وداعة الغامدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا». وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثه من أول النهار، وتبعه ذلك الصحابة رضي الله عنهم وأولهم في ذلك راوي الحديث: «وكان صخر رجلاً تاجراً فكان يبعث تجارته من أول النهار فأثرى وكثر ماله»، وذلك تطبيق عملي من صخر بن وداعة رضي الله عنه وتنفيذ لوصية رسول الله ﷺ فكانت الثمرة بتوفيق الله تعالى له أن أثرى واغتنى واتسعت تجارته وكَثُر مالُه.

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢-٢٢٥. ورسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٥٠٩، ١١٠.

لذا كان على المربي دائماً أن يربي طلابه ويحثهم على التطبيق العملي لما يعلموه من أمور الدين، لأن التربية بالممارسة العملية من أشد وأسرع أنواع التربية في التأثير والتغيير الإيجابي وهي المعوَّل عليها في الجزاء في الدنيا والآخرة، لأن الحكم على الممارسات الإيجابية وليس على مجرد الأقوال والشعارات الجوفاء، ولذا قرن الله تعالى في كثير من الآيات بين الإيمان والعمل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

إن للتربية والتعليم عن طريق التطبيق والممارسة العملية آثارًا تربوية متعددة منها ما يلي:

- الحرص على التطبيق العملي وإتقان العمل وتعود الدقة وتوخي صحة النتائج، فكل متعلم يمارس العمل أمام معلمه أو كل معلم يمارس العمل ثم يتابعه المتعلم ثم يناظره المعلم ويصحح له أخطاءه.
- شعور الإنسان بالمسؤولية عن صحة العمل، وهذا يجعل منهجية التربية الإسلامية منهجية حركية فكرية عاطفية مبنية على الوعي والدقة وصحة الأداء.
- فالدقة في العواطف والاتجاهات والأفكار تتجلى في إخلاص النية وتوجيه العمل نحو إرضاء الله جل جلاله فلا رياء ولا استكبار ولا استهتار.
- التواضع وحب العمل واستبعاد الغرور وترك الكسل والتواكل.

إلى غير ذلك من الآثار التربوية الحميدة لأسلوب التطبيق والممارسة العملية، فعلى المربي أن يقتدي بهذا الأسلوب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً[2].

۞ ۞ ۞

---

(١) سورة يونس، آية: ٩.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢١١-٢١٨.

١٦٧- باب استحباب طلب الرفقة وتأميرهم عَلَى أنفسهم واحداً يطيعونه

الحديث رقم (٩٥٩)

٩٥٩- عن ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لَوْ أنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الوحدَةِ مَا اعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ**)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الوحدة: الانفراد في السفر[2].

الشرح الأدبي

استخدام (لو) في الشرط لأنها حرف امتناع لامتناع أي: امتناع الجواب وهو مسير الراكب ليلا لامتناع الشرط، وهو امتناع العلم، و (ال) في لفظ الناس للجنس، فيعم الجميع في الحكم، وهذا العموم مع عموم الفعل المفهوم من اتصاله بعلامة الجمع (يعلمون) يشير إلى أنهم سيتكاتفون جميعاً لمنع خروج الراكب ليلا وحده لو تحقق علمهم بما يعلم الرسول ﷺ، مما يدلل على عظمته، وخطره، ولفظ (وحده) توكيد للانفراد، وتحديداً لموطن الخطأ.

فقه الحديث

استحباب طلب الرفقة:

قال النووي: (يستحبّ له أن يطلب رفيقًا موافقًا، راغبًا في الخير كارهًا للشر، إن

---

(١) برقم ٢٩٩٨ بنحوه، والسياق للمنذري في ترغيبه ٣/٦٥٢ رقم ٤٥٤٧، وبهذا اللفظ أخرجه ابن خزيمة ٢٥٦٩.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٦٩، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/١٦٠.

نسي ذكره، وإن ذكره أعانه، وإن تيسر له مع هذا كونه عالمًا فليتمسك به، فإنه يمنعه بعلمه وعمله من سوء ما يطرأ على المسافر من مساوئ الأخلاق والضجر، ويعينه على مكارم الأخلاق ويحثه عليها. واستحب بعض العلماء كونه من الأجانب لا من الأصدقاء ولا الأقارب، والمختار أن القريب والصديق الموثوق به أولى، لأنه أعون له على مهماته وأرفق به في أموره، ثم ينبغي أن يحرص على إرضاء رفيقه في جميع طريقه، ويحتمل كل واحد منهما صاحبه، ويرى لصاحبه عليه فضلاً وحرمة، ويصبر على ما يقع منه في بعض الأوقات)[1] وقال النووي كذلك: (يستحب أن يرافق في سفره جماعة)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ من السفر بالليل منفرداً.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ من السفر بالليل منفرداً:

هذا واضح من الحديث، نقل الطيبي أن السفر منفرداً "فيه مضرة دينية، إذ ليس من يصلي معه بالجماعة، ومضرة دنيوية، إذ ليس معه من يعينه في الحوائج". ثم قال الطيبي: (وكان من حق الظاهر أن يقال: ما سار أحد وحده، فقيده بالراكب والليل، لأن الخطر بالليل أكثر، وأن انبعاث الشر فيه أكثر، والتحرز منه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر، لاسيما إذا كان راكباً، فإنه له خوف جفلة[3] المركوب، ونفوره من أدنى شيء والتهوي في الوهدة[4] بخلاف الراجل)[5].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٨٨/٤ .

(٢) السابق ١٩٠/٤ .

(٣) يقال جفل يجفل جفولاً: انزعج وفزع فهو جافل وجفول وجفال. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ف ل).

(٤) الوهدة: الأرض المنخفضة. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و هـ د).

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٢١/٧.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على كراهية أن يسير الرجل بالليل وحده، وعلى هذا فأرى أن هؤلاء الذين يخرجون في السياحة منفردين، ويسمونها سياحة؛ فكل واحد منهم معرض نفسه للسباع وغير ذلك، وتارك للصلوات في الجماعة؛ ولنفع الناس بالتعليم إن كان من أهل التعليم، والانتفاع بالتعليم إن كان من أهل التعلم، وأن يحظى بعيادة المريض، وشهود الجنائز وعمارة المساجد وغير ذلك؛ فإنه يفوّت نفسه ذلك فلو عرف ما في سيرة الوحدة من فوات هذه الخيرات لم يفعله.

وقد جاء النهي عن السياحة عن أكابر أهل العلم، إلا أن ذلك إذا اضطر إليه إنسان أو كان على حال لم يقصد فاعله فعله توخياً لسير الوحدة، بل كلما اضطره إليه امرؤ أو سوء رفقة، فإنه يستغفر الله تعالى من مخالفة السنة في ذلك، ويعمل بحكم الضرورة)[١].

وقد ساق البخاري هذا الحديث وحديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ((نَدَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الناسَ يومَ الخندَقِ، فانتدَبَ الزُّبيرُ، ثمَّ نَدَبَهم فانتدَبَ الزُّبير، ثمَّ ندَبَهم فانتدَبَ الزُّبيرُ. قال النبيُّ: إنَّ لكلِّ نبيٍّ حَوارِيّاً وحَواريَّ الزُّبيرُ)). قال سفيان [أحد رواة الحديث]: الحواري الناصر[٢] ثم ساق حديث الباب، وجعلهما تحت باب السير وحده[٣].

قال ابن حجر: (قال ابن المنير: السير لمصلحة الحرب أخص من السفر، والخبر ورد في السفر، فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر منفرداً للضرورة والمصلحة التي لا تنتظم إلا بالانفراد، كإرسال الجاسوس والطليعة، والكراهة لما عدا ذلك. ويحتمل أن تكون حالة الجواز مقيدة بالحاجة عند الأمن، وحالة المنع مقيدة بالخوف حيث لا ضرورة، وقد وقع في كتب المغازي بعث كل من حذيفة ونعيم بن مسعود وعبدالله بن أنيس وخوات بن جبير وعمرو بن أمية وسالم بن عمير وبُسَيْسة في عدة مواطن وبعضها في الصحيح)[٤][٥].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤/٢١٦-٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٩٧، ومسلم ٢٤١٥.

(٣) كتاب الجهاد رقم ٥٦، الباب رقم ١٣٥، الحديثان ٢٩٩٧، ٢٩٩٨.

(٤) كان بعث حذيفة في غزوة الأحزاب، أخرجه مسلم ١٧٨٨ من حديث حذيفة نفسه، وكان بعث بُسيسة عيناً على عير أبي سفيان في مقدمات غزوة بدر، أخرجه مسلم١٩٠١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٦/١٣٨.

وقال ابن القيم: (وكان ﷺ يكره للمسافر وحده أن يسير بالليل)[١].

وقال ابن عثيمين في شرح الحديث: (إن الإنسان لا ينبغي أبداً أن يسير وحده في السفر، لأنه ربما يصاب بمرض أو إغماء، أو يتسلط عليه أحد أو غير ذلك من المحظورات فلا يكون معه أحد يدافع عنه، أو يخبر عنه أو ما أشبه ذلك، وهذه في الأسفار التي تتحقق فيها الوحدة، وأما ما يكون في الخطوط العامرة، التي لا تكاد تمر فيها دقيقة واحدة إلا وتمر بك فيها سيارة، فهذا - وإن كان الإنسان في سيارة وحده، فليس من هذا الباب - يعني ليس من باب السفر وحده- لأن الخطوط الآن عامرة من محافظة لأخرى، ومن مدينة لثانية، وما أشبه ذلك فلا يدخل في النهي)[٢].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

هذا واضح من قوله "لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وَحْدَهُ" قال ابن حجر: (أي الذي أعلمه من الآفات التي تحصل من ذلك)[٣] وقد بوّب المنذري في الترغيب والترهيب على هذا الحديث والأحاديث الأخرى المذكورة في الباب، بوّب على ذلك: الترهيب من سفر الرجل وحده أو مع آخر فقط، وما جاء في خير الأصحاب عدة[٤].

ومثال الترهيب كذلك قوله ﷺ ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ))[٥].

قال العز بن عبدالسلام: (إعظام الخوف وازع عن المخالفات، وثمرته ملاحظة شدة البطش والنقمة، وأنه لو عذب أهل السماوات والأرض لكان عدلاً منه)[٦].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٤٤٩/٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٢١٦/٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣٨/٦.

(٤) الترغيب والترهيب، عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، ٦٥٦هـ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، دون بيانات أخرى ص ٦٤٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٥٥.

(٦) شجرة المعارف والأحوال ص ٨٤، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٤/٧.

الحديث رقم (٩٦٠)

٩٦٠- وعن عمرِو بن شُعَيْبٍ، عن أبيه، عن جَدِهِ ﵁، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلاَثَةُ رَكْبٌ)) رواه أَبُو داود والترمذي والنسائيُّ[1] بأسانيد صحيحةٍ، وقال الترمذي: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

غريب الألفاظ:

ركب: أي جماعة[2].

الشرح الأدبي

الحديث يرغب في الرفقة في السفر، ويرهب من سفر الإنسان وحده، لما يكتنفه من أخطار لا يجد الإنسان فيها من يعينه، وقد جاء المعنى عن طريق التصوير بالتشبيه فقوله ﷺ (الراكب شيطان) تشبيه بليغ حذف منه وجه الشبه، وأداة التشبيه، وحذفهما يقوي التشبيه، ويؤكد شدة التشابه بين الراكب، والشيطان، ووجه الشبه الانفراد، والعزلة عن الناس، وعدم الأنس بهم، والحرمان من دعاء الصالحين، ونصحهم وَتَرْكِهِ الْجَمَاعَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا، فأشبه فِعْلُهُ فِعْلَ الشَّيْطَانِ، وفي هذا التشبيه تنفير من الانفراد، وتقبيح له، وتكرار الصورة مع المثنى تأكيد للأولى، وتقرير للمعنى الذي أضافته، وهو أن الاثنان كالواحد في الحكم المتعلق بالانفراد، أما إذا زادوا عن ذلك فقد صاروا ركبا، وزال عنهم الشيطان، وزالت عنهم صورته.

المضامين الدعوية[3]

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب الرفقة في السفر.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٦٠٧، والترمذي ١٦٧٤، والنسائي في المجتبى ٢٤٩٥، وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٣٨، وقال الحاكم في المستدرك ١٠٢/١: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٦/٢٠: وقد كان مجاهد ينكر هذا الحديث مرفوعًا، ويجعله من قول عمر، ولا وجه لقول مجاهد، لأن الثقات رووه مرفوعًا.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٤٨٤/٢.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٦٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٦١).

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تأمير المسافرين أحدهم عليهم.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: جمع كلمة المسلمين والتزام الجماعة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب الرفقة في السفر:

وهذا واضح من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً: "الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب".

نقل الطيبي في معنى الحديث: (يعني مشي الواحد منفرداً منهي [عنه]، وكذلك مشي الاثنين، ومن ارتكب منهياً فقد أطاع الشيطان، ومن أطاعه فكأنه هو، فلهذا أطلق ﷺ اسمه عليه)[1].

وقال البغوي في شرح السنة: (قال أبو سليمان الخطابي[2]: معناه - والله أعلم-أن التفرد والذهاب وحده في الأرض من فعل الشيطان، أو هو شيء يحمله عليه الشيطان، فقيل على هذا: إن فاعله شيطان، قال الإمام [أي البغوي]: معنى الحديث عندي ما روي عن سعيد بن المسيب مرسلاً عن رسول الله ﷺ ((الشَّيْطَانُ يَهِمُّ بِالوَاحِدِ والاثْنَيْنِ. فَإِذَا كَانُوا ثَلاَثَةً لَمْ يَهُمَّ بِهِمْ))[3] وروي عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من سرّه بَحْبَحْة الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الاثنين أبعد))[4].

وروي عن عمر أنه قال في رجل سافر وحده: أرأيتم إن مات من أسأل عنه؟ قال الخطابي[5]: المنفرد وحده في السفر إن مات لم يكن بحضرته من يقوم بغسله ودفنه وتجهيزه، ولا عنده من يوصي إليه في ماله، ويحمل تركته إلى أهله ويورد خبره عليهم، ولا معه في السفر من يعينه على الحمولة، فإذا كانوا ثلاثة تعاونوا وتناوبوا المهنة والحراسة، وصلوا الجماعة وأحرزوا الحظ فيها)[6].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٣٨/٧.

(٢) معالم السنن ٤١٣/٣.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٤١٣٥.

(٤) أخرجه أحمد ١٨/١ رقم ١١٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٦٩/١.

(٥) معالم السنن ٤١٣/٣.

(٦) شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي ٥١٦هـ، حققه شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، ط/٢، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٢٢/١١.

وقال ابن العربي: (إن الرفيق قبل الطريق، ولا شيء أصعب على المرء من الانفراد بين سمع الأرض وبصرها، وهو عرضة للشيطان، ولا ينبغي لأحد أن يفعله إلا للضرورة، وأقل الصحبة ثلاثة، لأن أحدهم إن مضى يحتطب أو يستقي بقي اثنان، وجعل النبي ﷺ الواحد شيطاناً مجازاً، كأنه صاحب الشيطان، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، ويدفع خوفه الأذان كما في صحيح مسلم[1]، وآية الكرسي فإن من قرأها لا يقربه شيطان[2]، وهذا الذي ورد منه الحديث موجود في التجربة)[3].

وقال ابن عبدالبر: (في هذا الحديث كراهية الوحدة في السفر، وأتى هذا الحديث بلفظ "الراكب" ويدخل الراجل في معناه إذا كان وحده، ولم تختلف الآثار في كراهية السفر للواحد، واختلف في الاثنين ولم يختلف في الثلاثة فما زاد، أن ذلك حسن جائز. وإنما وردت الكراهية في ذلك، والله أعلم، لأن الوحيد إذا مرض لم يجد من يمرضه، ولا يقوم عليه ولا يخبر عنه، ونحو هذا)[4].

وقال أحمد بن حنبل: (لا يسافر الرجل وحده ولا يبيت في بيت وحده)[5].

وقال ابن عثيمين: (بيّن النبي ﷺ أن الراكب شيطان والراكبين شيطانان والثلاثة ركب، يعني من يسافر وحده شيطان، والذي يسافر وليس معه سوى واحد شيطانان، والثلاثة ركب، يعني ليسوا من الشياطين. بل هم ركب مستقل، وهذا أيضاً على الحذر والتنفير من سفر الوحدة، وكذلك من سفر الاثنين، والثلاثة لا بأس، هذا - كما قلت - مقيد بالأسفار التي لا يكون فيها ذاهب وآت)[6].

كما نقل ابن حجر قول الطبري: (هذا الزجر زجر أدب وإرشاد لما يخشى على

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨٨.

(٢) علقه البخاري في صحيحه ٢٣١١.

(٣) القبس شرح الموطأ ٢٣/٢٩٠ موسوعة شروح الموطأ، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/٥٣، ٥٤.

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/٢٩١، موسوعة شروح الموطأ.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١/٤٥٧.

(٦) شرح رياض الصالحين ٢/١٢١٦.

الواحد من الوحشة والوحدة، وليس بحرام، فالسائر وحده في فلاة، وكذا البائت وحده لا يأمن من الاستيحاش، لا سيما إذا كان ذا فكرة رديئة وقلب ضعيف، والحق أن الناس يتباينون في ذلك، فيحتمل أن يكون الزجر عن ذلك وقع لحسم المادة، فلا يتناول إذا وقعت الحاجة لذلك)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (يستحب أن يرافق في سفره من هو موافق راغب في الخير، كاره للشر، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، ويستحب أن يرافق في سفره جماعة)[٢].

وقال النووي: (قد يقال: ذكرتم أنه يكره الانفراد في السفر، وقد اشتهر عن خلائق من الصالحين الوحدة في السفر. والجواب: أن الوحدة والانفراد إنما يكرهان لمن استأنس بالناس، فيخاف عليه من الانفراد الضرر بسبب الشياطين وغيرهم، أما الصالحون فإنهم أنسوا بالله تعالى، واستوحشوا من الناس في كثير من أوقاتهم، فلا ضرر عليهم في الوحدة، بل مصلحتهم وراحتهم فيها)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تأمير المسافرين أحدهم عليهم:

يتضح ذلك في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم" ووقع عند أبي داود من طريق نافع عن أبي سلمة: عن أبي هريرة مرفوعاً: ((إِذَا كَانَ ثَلاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ. قَالَ نَافِعٌ: فَقُلْنَا لأَبِي سَلَمَةَ فَأَنْتَ أَمِيرُنَا))[٤].

قال البغوي: (وإنما أمر بذلك، لأنهم إذا صدروا عن رأي واحد، يكون ذلك أبعد من وقوع الاختلاف بينهم)[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٦/٥٣، ٥٤.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥/٤١.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩١.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٦٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٧٣).

(٥) شرح السنة ١١/٢٣، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٧/٣٣٩.

وقال النووي: (يستحب أن يؤمر الرفقة على أنفسهم أفضلهم وأجودهم رأياً ويطيعونه لحديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا كَانَ ثَلاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))[1].

وقال ابن عثيمين: (إن الرسول ﷺ أمر المسافرين إذا سافروا أن يؤمروا أحدهم. يعني: يؤمرون واحداً منهم يتولى تدبيرهم، يقول: نذهب ونجلس نتوضأ نتناول العشاء وما أشبه ذلك، لأنهم إذا لم يؤمروا واحداً صار أمرهم فوضى، ولهذا قيل: لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم، لابد من أمير يتولى أمرهم، وظاهر الحديث أن هذا الأمير إذا رضوه وجبت طاعته فيما يتعلق بمصالح السفر، لأنه أمير، أما ما لا يتعلق بأمور السفر فلا تجب طاعته كالمسائل الخاصة بالإنسان، إلا أنه لا يعني ذلك أن هذاالأمير يستبد، بل يكون كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[2]، فعليه أن يشاورهم في الأمور التي يخفى فيها جانب المصلحة، ولا يستبد برأيه، أما الأمور الواضحة فلا حاجة للمشورة فيها)[3].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: جمع كلمة المسلمين والتزام الجماعة:

قال ابن تيمية: (ولهذا أمر النبي ﷺ بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى، ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: ((إِذَا كَانَ ثَلاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))[4].

وفي سننه -أيضاً- عن أبي هريرة مثله[5]. وفي مسند الإمام أحمد عن عبدالله بن

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩١/٤، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/٢٥-٤٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٢١٦/٢.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٦٠٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٧٢).

(٥) سنن أبي داود ٢٦٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٧٣).

عمرو أن النبي ﷺ قال: ((لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم))[(١)].

فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات، أن يولي أحدهم، كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك، ولهذا كانت الولاية - لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله، ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان - من أفضل الأعمال الصالحة)[(٢)].

وقال كذلك: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ ((إذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))... فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود، لاتتم إلا بالقوة والإمارة)[(٣)].

وقد قال رسول الله ﷺ ((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ))[(٤)].

(لقد ذم الله التفرق، ونهى عن الطرق والأسباب المؤدية إليه. وقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة التي تحذر من التفرق والاختلاف، وتبين سوء عاقبته، وأنه من أعظم أسباب الخذلان في الدنيا، والعذاب والخزي وسواد الوجوه في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٢/١٧٧ رقم ٦٦٤٧ مطولاً وقال محققو المسند: حديث حسن ١١/٢٢٧.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٣٠٦، ٢٨/٦٤-٦٥.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٤٨٢، ٢٨/٣٩٠-٣٩١.

(٤) أخرجه أحمد ١/١٨ رقم ١١٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١/٢٦٩.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة)[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3].

فقد دلت الآيات على ذم التفرق وخطورته على الأمة في الدنيا والآخرة، وأنه سبب هلاك أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وسبب كل انحراف وقع في الناس.

وأما السنة فقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في ذم التفرق والاختلاف، والحث على الجماعة والائتلاف، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن معاوية رضي الله عنه أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: ((ألاَ إنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ افترَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الجنة وهِيَ الْجَمَاعَةُ))[4]. فقد أخبر النبي ﷺ بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار، لا ريب أنهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم، ثم هذا الاختلاف الذي أخبر به النبي ﷺ، إما في الدين فقط، وإما في الدين والدنيا، ثم يؤول إلى الدين. وقد يكون الاختلاف في الدنيا فقط. وعلى كل حال فإن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة، والرسول ﷺ يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه مَنْ شاء الله له السلامة)[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٧٢١ وعزاه لابن أبي حاتم، واللالكائي في السنة ٧٤، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/٣٧٩.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٥٩٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٤٣).

(٥) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٩٩-٣٠٠.

الحديث رقم (٩٦١)

٩٦١- وعن أَبي سعيد وأبي هُريرة رضي الله عنهما، قالا: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أحَدَهُمْ**)) حديث حسن، رواه أَبُو داود[1] بإسنادٍ حسن.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الاختلاف وارد بين البشر فهو الوجه المقابل للإتفاق، وقد ندب الرسول ﷺ المسافرين أن يؤمروا أحدهم منعاً للاختلاف المؤدي إلى الشقاق، والإسلام حريص كل الحرص على سلامة الجبهة الداخلية للأمة، والتي تمثل مصدر قوة لها، وقد اهتم في ذلك بالأمور البسيطة، أو التي تبدو كذلك كما اهتم بذات البال، والخطر، واتفاق المسافرين بداية من الثلاثة يصعد بالحكم مع العدد بلا نهاية لاسيما في الخروج للغزو، والجهاد فجاء الأمر النبوي بتأمير من يختارون في ثوب الشرط الذي يعطي الحكم الاطراد عبر الزمان، والمكان، وكلمة (أحد) المعرفة بالإضافة للضمير العائد عليهم تشير أنه فرد منهم، وباختيارهم دلت على ذلك واو الجماعة المتصلة بالفعل (أمّروا) وقد أرسله نموذجاً يقتدى به على مستوى أوسع في رعاية مصالح المسلمين.

فقه الحديث

استحباب تأمير أفضل الرفقة وأجودهم رأيًا:

قال النووي: (يستحب أن يؤمر الرفقة على أنفسهم أفضلهم وأجودهم رأيًا، ويطيعونه لحديث أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعًا: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم" وعن ابن عباس مرفوعًا: "خير الصحابة أربعة ..." الحديث والمراد بالصحابة هنا المتصاحبون)[2].

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم ٢٦٠٨، وقال النووي في المجموع ٥/٣٩٠: إسناده حسن.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩١، وانظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥/٤٢-٤٣.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٦٢)

٩٦٢- وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أرْبَعُمِئَةٍ، وَخَيْرُ الجُيُوشِ أرْبَعَةُ آلافٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ ألْفاً مِنْ قِلةٍ)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

الصحابة: جمع صاحب[2].

السرية: وهي القطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربع مائة[3].

الشرح الأدبي

البداية بكلمة (خير) من براعة الاستهلال لأنها كلمة تداعب النفس بمحبوب يكتنفه الغموض كثرة، وقلة، وبعداً، وقرباً، كما أنها في صيغة التفضيل تزيد تشوف النفس لمعرفة ما تسفر عنه، وإضافتها للصحابة ترجع على سامع الخبر بالنظر في رفقته، وتخصيص الأربعة؛ لأنه عدد تتحقق به الحاجة، ويؤمن به من العطب، قال الغزالي: المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحداً فيتردد في السفر بلا رفيق فلا فيخلو عن ضيق القلب لفقد الأنيس، ولو تردد اثنان كان الحافظ للرحل وحده فلا يخلو عن

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٦١١، والترمذي ١٥٥٥ ولفظهما سواء. وصحَّحه ابن خزيمة ٢٥٣٨، وابن حبان، الإحسان ٤٧١٧، وقال الحاكم ٤٤٣/١: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الترمذي: حديث غريبٌ لا يسنده كبير أحد، وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤٨٤/٣: فعلته إذن عنده الاختلاف فيه بالإيناد والإرسال، وذلك غير قادحٌ في نظر غيره، فالحديثُ صحيح.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ح ب).

(٣) المرجع السابق في (س ر ى).

الحذر، وعن ضيق القلب فإذا ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود، والخامس زيادة بعد الحاجة، واختيار التعبير بالسرية؛ لأنها تضم خلاصة العسكر، وخيارهم من الشيء السري النفيس سموا بذلك، لأنهم ينفذون سرا وخفية، والسر في العدد أربعمائة، أنه الأنسب لتحقيق غاية السرية من ناحية سهولة الحركة، وسرعتها مع تحقيق الحماية، والأمان، وتحقيق الظفر، وكذلك في الجيش كان اختيار العدد مناسباً لتحقيق الغرض من حيث كثرة العدد، وإمكان السيطرة، واتحاد الهجمة، وتناسق العمل في المعركة، وتحقيق الغلبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان خير الصحابة وخير السرايا وخير الجيوش.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ أنه لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والنفي.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان خير الصحابة وخير السرايا وخير الجيوش:

هذا واضح من الحديث، وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث في صحيحه: ذكر الأخبار عن وصَفْ خير الجيوش والصحابة[١].

وقال النووي: (والمراد بالصحابة هنا المتصاحبون)[٢] وقد بوّب أبو داود على هذا الحديث: باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا[٣].

قال الغزالي: (وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد، لابد أن يكون له فائدة، والذي ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رحل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحداً، فيتردد في السفر بلا رفيق، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق، ولو تردد في الحاجة اثنان لكن الحافظ للرحل واحداً، فلا يخلو أيضاً عن الخطر وعن ضيق الصدر، فإذن ما

---

(١) صحيح ابن حبان ١١/١٧ رقم ٤٧١٧.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩١.

(٣) الحديث ٢٦١١.

دون الأربعة لا يفي بالمقصود، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة، فلا ينعقد بينهم الترافق، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة، ومن يستغني عنه لا تتصرف الهمة إليه، فلا تتم المرافقة معه، نعم في كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف، ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة لا للرفاقة العامة، وكم من رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق، لا يكلَّم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه)[١].

ونقل الطيبي القول: (يعني الرفقاء إذا كانوا أربعة خير من أن يكون ثلاثة ومرض أحدهم وأراد أن يجعل أحد رفيقيه وصيَّ نفسه، لم يكن هناك من يشهد بإمضائه إلا واحد فلا يكفي، ولو كانوا أربعة كفى شهادة اثنين، ولأن الجمع إذا كان أكثر تكون معاونة بعضهم بعضاً أتم، وفضل صلاة الجماعة أيضاً أكثر، فخمسة خير من أربعة، وكذا كل جماعة خير ممن أقل منهم لا من فوقهم)[٢].

وقال شرف الحق العظيم آبادي: (قوله "وخير السرايا": جمع سرية وهي القطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه قال النووي: قال ابن رسلان: قال إبراهيم الحربي: هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. قالوا: سميت بذلك لأنها تسري في الليل وتخفي ذهابها، فعيلة بمعنى فاعلة، سرى وأسرى إذا ذهب ليلاً، وضعف ابن الأثير ذلك وعبارته[٣]: وهي الطائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو والجمع السرايا، سموا بذلك لأنهم كانوا خلاصة العسكر، وخيارهم من الشيء السري النفيس، وقيل: سموا بذلك لأنهم ينفذون سراً وخفية. وليس بالوجه، قال ابن رسلان: ولعل السرية إنما خصت بأربعمائة كما تقدم عن الحربي، لأن خير السرايا هي عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر- فعلى هذا خير السرايا من ثلاثمائة إلى الأربعمائة، ومن أربعمائة إلى خمسمائة قاله العلقمي)[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٢/١٠٩٨-١٠٩٩.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٧/٢٣٩-٢٤٠.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ر ى).

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١١٩.

وقال الطيبي: (جميع قرائن الحديث دائرة على الأربع، واثنا عشر ضعف أربع، ولعل الإشارة بذلك إلى الشدة والقوة، واشتداد ظهرانيهم تشبيهاً بأركان البناء)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (صرح الشافعية بأن أكثر السرية: أربعمائة، أو خمسمائة، وأقلها مائة.

واستدلوا بحديث: "خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة).

وقال محمد بن الحسن: إنه لا بأس أن يبعث الإمام الرجل الواحد سرية، أو الاثنين أو الثلاثة، حسب الحاجة، وقال: لم يرد النبي ﷺ بالأربعمائة أن ما دونها لا يكون سرية، إنما كان مراده ﷺ: أنهم إذا بلغوا أربع مائة فالظاهر من حالهم أنهم لا يرجعون من بلاد العدو قبل نيل المراد، بدليل أن النبي ﷺ: ((بعث حذيفة بن اليمان في أيام الخندق سرية وحده))[٢]. "وبعث عبدالله بن أنيس سرية وحده"، و"بعث دحية الكلبي سرية وحده". و"بعث ابن مسعود وخباباً سرية")[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ انه لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة:

هذا واضح من قوله ﷺ: "ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة".

قال شرف الحق العظيم آبادي: (قوله "ولن يُغلب" بصيغة المجهول أي لن يصير مغلوباً "من قلة": معناه أنهم لو صاروا مغلوبين لم يكن للقلة، بل لأمر آخر كالعجب بكثرة العدد والعُدد وغيره، قال العلقمي: أي إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفاً لن يغلب من جهة قلة العدد، قال ابن رسلان: زاد أبو يعلى الموصلي: "إذا صبروا واتقوا"[٤] وكذا زاد ابن عساكر، وزاد العسكري: "وخير الطلائع أربعون" بل يكون الغلب من سبب آخر

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٤٠/٧، وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٤٢٥/١.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٤٩/٢٤ ومصادرها ومراجعها.

(٤) قُلت: رواه ابن حبان من طريق أبي يعلى لكن ليس فيه هذه الزيادة، صحيح ابن حبان ٤٧١٧.

كالعجب بكثرة العدد، وبما زين لهم الشيطان من أنفسهم، من قدرتهم على الحرب وشجاعتهم وقوتهم ونحو ذلك، ألا ترى إلى وقعة حنين، فإن المسلمين كان عدتهم فيها اثني عشر ألفاً أو قريباً منها، فأعجبهم كثرتهم واعتمدوا عليها، وقالوا: لن نغلب اليوم عن قلة، فغلبوا عند ذلك، واستدل بهذا الحديث على أن عدد المسلمين إذا بلغ اثني عشر ألفاً، أنه يحرم الانصراف وإن زاد الكفار على مثليهم، قال القرطبي[١]: وهو مذهب جمهور العلماء لأنهم جعلوا هذا مخصصاً للآية الكريمة[٢] انتهى كلام ابن رسلان ملخصاً)[٣].

وقال الطيبي: (وإنما لم يكونوا قليلين، والأعداء مما لا تعد وتحصى، لأن كل واحد من هذه الأثلاث جيش إذا قوبل بالميمنة أو الميسرة أو القلب فيكفيها، ولأن الجيش الكثير، المقاتلة منهم بعضهم، وهؤلاء مقاتلون)[٤].

جاء في الموسوعةالفقهية: (وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن التولي يوم الزحف وهو الفرار من قتال الكفار حرام، فلا يجوز للمسلم الذي حضر صف القتال أن ينصرف إذا التقى الجمعان وتدانى الصفان، لقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٥] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦] نهى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٨٢/٧/٤.

(٢) وهي وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الأنفال: ١٥-١٦].

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١١٩-١١٢٠.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٤٠/٧.

(٥) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٤٥.

الله تعالى في الآيتين الأوليين -في الذكر هنا- عن الفرار من الكفار، وأمر في الآية الأخيرة بالثبات عند قتالهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء، وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلد له.

وإنما يحرم الفرار والتولي. إذا لم يزد الكفار على مثلي عدد المسلمين، لقول الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[1].

فإن زاد الكفار على مثلي المسلمين لم يحرم الفرار، والصبر أحسن، فقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف.

واعتبر الشافعية وجمهور المالكية في تحريم الفرار العدد لا القوة والعدة، وذهب ابن الماجشون -من المالكية- وهو ما مال إليه القليوبي من الشافعية إلى اعتبار العدة والقوة، فيجوز عندهما انصراف مائة منا ضعفاء عن مائتين إلا واحداً أقوياء، أو مائة فارس من مائة فارس، إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم.

وعلى قول الجمهور لا يحل فرار مائة مثلاً إلا مما زاد على المائتين.

وزاد المالكية حالة أخرى يحرم فيها الفرار، وهي ما إذا بلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، فإن بلغوا هذا العدد لم يحل لهم الفرار، وإن زاد عدد الكفار على المثلين، لقول النبي ﷺ: "... ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة" فإن أكثر أهل العلم خصصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية.

وقال المالكية: إنما يحرم الفرار إذا بلغوا اثني عشر ألفاً ما لم تختلف كلمتهم، وما لم يكن العدو بمحل مدده ولا مدد للمسلمين، وإلا جاز، وقد قيد بعضهم محلّ الحرمة أيضاً: فيما إذا كان في الاثني عشر نكاية للعدو، فإن لم يكن فيهم ذلك وظن المسلمون أن الكفار يقتلونهم جاز الفرار.

وقال ابن عابدين: لا ينبغي للمسلمين أن يفروا إذا كانوا اثني عشر ألفاً وإن كان العدو أكثر، لقوله ﷺ: "لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة"... والحاصل: أنه إذا غلب

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٦.

على ظنه أنه يُغلب لا بأس بأن يفر، ولا بأس للواحد إذا لم يكن معه سلاح أن يفر من اثنين لهما سلاح، ويكره للواحد القوي أن يفر من الكافِرَين، والمائة من المائتين في قول محمد، ولا بأس أن يفر الواحد من الثلاثة والمائة من الثلاثمائة"[١].

واستثنى من الحكم بتحريم التولي عند الزحف - بنص الآية الكريمة- المتحرف لقتال وهو: الذي يظهر الهزيمة وينصرف ليتبعه العدو فيكمن ويهجم عليه فيقتله، أو ينصرف من مضيق ليتبعه العدو إلى متسع سهل للقتال... وذلك من مكايد الحرب وفنون القتال فلا وزر فيه ولا حرمة.

وكذلك استثنت الآية من تحريم التولي عند الزحف المتحيز إلى فئة، وهو: الذي ينصرف عن العدو بنية الذهاب إلى فئة يستنجد ويستعين بها على القتال، ولا حرمة على من ينصرف بنية التحيز.

واشترط المالكية لجواز التحرف أو التحيز: كون المتحرف أو المتحيز غير أمير الجيش والإمام، وأما هما فليس لهما التحرف ولا التحيز لحصول الخلل والمفسدة به.

وزاد الشافعية إلى المتحرف والمتحيز، مَنْ عجز بمرض ونحوه فإن له الانصراف بكل حال.

والفرار -التولي- المحرم كبيرة موبقة بظاهر القرآن الكريم وإجماع الأكثر من الأئمة لما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات...))[٢] وفيه "والتولي يوم الزحف" وهي كبيرة تكفرها التوبة بعفو الله تعالى ومشيئته).

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والنفي:

أما الترغيب فهو وصف الأصحاب إذا كان عددهم أربعة، ووصف السرية إذا كانت أربعمائة، ووصف الجيش إذا كان عدده أربعة آلاف، ووصف ذلك كله بأنه خير، والوصف بهذا ترغيب للمدعوين أن يمتثلوا ويفعلوا لينالوا هذا الخير، ويكونوا

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٢٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩.

موصوفين بالخيرية، ولاشك أن كل نفس بشرية تميل إلى الاتصاف بأنها خيرية، وأنها تفعل الخير وتأتيه.

أما النفي فقوله ﷺ "ولن يغلب اثنا عشر ألف من قلة" وهذا النفي أفاد تقرير حقيقة، يعمل المدعوون في ضوئها ملتزمين بها وخاضعين لها.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس روح الجماعة والتآلف:

لقد جعل الله في الاجتماع القوة والعزة والمنعة والبركة وجعل في التفرق الوهن والضعف وتسلط الأعداء ونزع البركة[١].

ومن شواهد غرس روح الجماعة من أحاديث الباب ما جاء في إرشاده ﷺ إلى التماس الصحبة في السفر وبيّن ﷺ أنه كلما زاد عدد الجماعة زادت الخيرية والأفضلية، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايا أَرْبَعُمَائَةٍ، وخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ، ولا يُغْلَبُ اثنا عشَرَ ألفاً مِنْ قِلَّةٍ»، وحذر من الوحدة خاصة في الأسفار، فقال ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في الوَحْدَةِ ما أعلمُ؛ ما سارَ راكبٌ بليلٍ وحْدَهُ».

لقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة وأقوال السلف ومواقفهم مؤكدة على أهمية الجماعة وإيجابياتها العالية، مما يستوجب الحرص عليها، وإن المبادئ والعبادات الإسلامية تعمل على تأصيل روح الجماعة في نفوس الأفراد، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٢].

لذا كان من الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية غرس روح الجماعة والتآلف لأهمية ذلك في الوقاية من الفتن وغوائلها والتحذير من الفرقة والاختلاف.

ولو أننا تتبعنا أحكام الإسلام ومبادئه لرأيناها مبنية على هذا الأصل فكثير من العبادات تقوم على الاجتماع والترابط والتكافل، وكثير من البيوع والمعاملات المحرمة إنما حرمت لحسم مادة الفرقة والاختلاف والشحناء والبغضاء بين المسلمين.

إن التربية على الوحدة ونبذ الفرقة من أكبر المنجيات، وهي العواصم من قواصم

---

(١) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٢٤٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

الفتن والشرور، وما نمت بذور الفتن إلا في أرض الفرقة والاختلاف، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك، فإن أردنا السلامة من الفتن وشرورها فلنكن عوامل بناء وتأليف وجمع لكلمة المسلمين، ولنحذر من أن نكون عوامل هدم وتفريق بين المؤمنين، وما فرح الشيطان وأولياؤه من الجن والإنس بشيء أشد من فرحهم بالفرقة والتحريش بين المسلمين لأنها فرصتهم الثمينة في نشر ما يريدونه من الشرور والفساد، بل فرصتهم لا تعوض في بسط نفوذهم على بلاد المسلمين وديارهم[1].

ثانياً- التربية بالتحذير:

تعمل التربية الإسلامية على حماية المسلم من كل خطر يهدده أو ضرر يمكن أن يلحق به، ومن هنا جاءت الأساليب التربوية لتحقيق تلك الغايات، ومن بين هذه الأساليب التربوية: التربية بالتحذير، وفي أحاديث الباب تربية نبوية بالتحذير من خطر الوحدة والانفراد، ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في الوَحْدَةِ ما أعلمُ؛ ما سارَ راكبٌ بليلٍ وحْدَهُ».

ذلك لما في الوحدة من مخاطر لاسيما إذا كان الإنسان في سفر، فقد يسبب الانفراد والوحدة أضراراً دينية ودنيوية، فقد يكون الإنسان في بعض الأوقات في أمسٌ الحاجة لمن يوقظه مثلاً للصلاة، ويعينه ويقضي حاجته إن أَلَمَّ به مرض أو ما شابهه.

إن أسلوب التحذير أسلوب تربوي أصيل ورد استعماله في كثير من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، ومن أمثلة ما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾[2].

وقد حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه ﭫ من خلال تحذيرهم من التفرق وعدم الاجتماع، نظراً للآثار السلبية المترتبة على ذلك.

ثالثاً- التربية على القيادة وتقوية المهارات القيادية:

إن من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية أنها تربية إيجابية هادفة بناءة تعمل على

---

(١) انظر: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، ٣/٥٥٤-٥٥٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٧١.

تفعيل الطاقات وإبراز المواهب، وتفعيل المشاركات وتنمية روح العمل الجماعي، والتدريب على تحمل المسؤوليات والقيادة.

وذلك على جميع المستويات والأحوال، إذ أن القيادة واكتساب مهاراتها لا تقتصر على تولي المناصب العليا كالجيش والإمارة والقضاء وما شاكل ذلك، وإنما هي أسلوب حياتي ينبغي أن يُضفي على كل جماعة وحتى وإن كانت أقل الجماعات كثلاثة نفر في سفر، كما أرشدت إلى ذلك أحاديث الباب ومنها حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ». ففي ذلك تربية على النظام وتحديد المسئوليات وتوزيعها على أفراد المجموعة ومنها مسئولية القيادة التي تُوكلها المجموعة إلى واحد منها.

لذا فإن على المربي الاعتناء بتحقيق وغرس القيادة في نفوس المتربين وتنميتها ومن وسائل ذلك:

أ- الاعتناء باختيار العناصر التي تملك السمات القيادية والحرص عليها.

ب- الاعتناء بإبراز السمات القيادية أمام المتربين وبيانها.

ج- الاعتناء بإبراز النماذج القيادية في سِيَر السلف ودراستها.

د- إتاحة فرص عملية لممارسة المهمات القيادية من خلال الأنشطة التربوية وغيرها[1].



(١) انظر: تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ١٣٤.

١٦٨- باب آداب السير والنزول والمبيت والنوم في السفر واستحباب السُّرَى والرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها وأمر من قصّر في حقها بالقيام بحقها وجواز الإرداف عَلَى الدابة إذا كانت تطيق ذلك

الحديث رقم (٩٦٣)

٩٦٣- عن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الخِصْبِ، فَأَعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي الجدْبِ[1]، فَأسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا، وَإِذَا عَرَّسْتُمْ، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ؛ فَإنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ، وَمَأوَى الهَوَامِّ بِاللَّيْلِ)) رواه مسلم[2].

معنى: "أعطُوا الإبل حظها من الأرض": أي: ارْفقُوا بها في السير لترعى في حال سيرها. وقوله: "نِقْيَها" هو بكسر النون، وإسكان القاف، والياء المثناة من تحت، وهو: المخ، معناه: أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مخها من ضَنك السير، و"التَّعْرِيسُ": النزول في الليل.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الهوام: حشرات ودواب الأرض من ذوات السموم[3].

الشرح الأدبي

مَعنَى ((أعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ)) أيْ: ارْفُقُوا بهَا في السَّيْرِ لِتَرْعَى في حَالِ

---

(١) لفظ مسلم: (السنة) والمثبت لفظ أبي داود ٢٥٦٩.

(٢) برقم ١٧٨/١٩٢٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٧١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٧.

سَيرِهَا، وَقوله: ((نِقْيَهَا)) هُوَ بكسر النون وإسكان القاف وبالياءِ المثناة من تَحْت وَهُوَ: المُخُّ، معناه: أسْرِعُوا بِهَا حَتَّى تَصِلُوا المَقصِدَ قَبْلَ أنْ يَذْهَبَ مُخُّهَا مِنْ ضَنْك السَّيْرِ. وَ((التَّعْرِيسُ)): النُزولُ في اللَّيلِ.

تتجلى من ثنايا بلاغة الرسول ﷺ رأفته، ورحمته حتى بالحيوان، فهو يستشعر رغباتها، ويراعي حالتها، ويرفق بها، وأسلوب الشرط دليل على ذلك لأنه يعطي التوجيه النبوي إطراداً عبر الزمان، والمكان، ويجعله عادة لكل من سافر في الخصب أن يعطي فرصة للإبل أن ترعى مما حولها، وقول الرسول ﷺ (فَأعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ) كناية عن تركها ترعى من العشب التي تسير فيه، والتعبير بالحظ يشعر بالخصوصية، ويوحي بأحقيتها فيه، والطباق بين الخصب، والجدب يضع حلولاً لمشاكل السير، وفن المحافظة على الركائب التي هي وسيلة الانتقال، وقوله (فأسرعوا عليها السير) تقابل جملة (فَأعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ) لأن السرعة في الجدب تعيدها إلى الخصب لترعى، أو لموطنها فترتاح، وقوله (وَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا) التعبير بالمبادرة يوحي بخطر الفوت، والعبارة كناية عن أخذها وقت نشاطها، ورعايتها بما لا يفسد حالها، وقوله (وَإذَا عَرَّسْتُمْ، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ) أسلوب شرط يعلمنا قواعد السير، واحترام الناس، وقوله (عرستم) يوحي بطول الإقامة التي تعيق حركة السير، وقوله (فاجتنوا) أمر أريد به النهي عن النزول في الطرقات، وقد علل له بقوله (فَإنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ، وَمَأوَى الهَوَامِّ باللَّيْلِ) حتى يحقق الإقناع القلبي بعد الاقتناع العقلي بلزوم إتباع توجيه النبي ﷺ، والتعبير بالهوام يوحي بالرهبة لما فيه من إبهام النوع، وخطورته، والجهل بمكانه الذي يظهر منه، وزمانه مما يبقي الإنسان في حيرة، وقلق، ثم إن التعبير بالمأوى يشير إلى التجمع، وتجمع المؤذي مع العجز عن تجنبه بسبب الجهل بمصدره، وطبيعته، ووقته يزيد خطره مما يوجه إلى تجنبه.

فقه الحديث

السنة أن يراعي مصلحة الدابة:

قال النووي: (السنة أن يراعي مصلحة الدابة في المرعى والسرعة، والتأني بحسب الأرفق بها)(١).

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/١٩٣ .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط والتعليل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: مراعاة مصلحة الدواب في السير والرفق بها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عدم النوم ليلاً في الطريق.

رابعاً: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما فيه مصلحتهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط والتعليل:

هذا واضح من الحديث، فقد استخدم النبي ﷺ أداة الشرط "إذا" وهذا الشرط يُرتب طلباً على فعل، وذلك ليلتزم المدعو بذلك إن وقع منه هذا الفعل، أما التعليل فقوله ﷺ: "فإنها مأوى الهوام بالليل" بعد قوله: "إذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق" ولاشك أن هذا التعليل يزيد المدعو امتثالاً فوق امتثال؛ لمعرفته علة الطلب وسببه.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: مراعاة مصلحة الدواب في السير والرفق بها:

هذا واضح من قوله ﷺ: "إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذ سافرتم في الجدب فأسرعوا عليها السَّيْر، وبادروا بها نقيها".

قال ابن العربي: (فيه الحضّ على الرفق بالدواب، فلها حق الحيوانية التي تشارك فيها الآدمية، ولها على الناس حق الكفاية، لما تحمل عنهم من المؤن، وتبلّغهم من الآمال، وتجلب إليهم من الفوائد)[1].

وقال أبو العباس القرطبي: (أي ارفقوا بها في الرعي حتى تأخذ منه ما يمسك قواها ويرد شهوتها، ولا تعجلوها فتمنعوها المرعى مع وجوده، فيجتمع عليها ضعف القوى مع ألم كسر شهوتها... وإنما أمر بالإسراع بها في الجدب لتقرب مدة سفرها، فتبقى قوتها الأولى، فإنه إن رفق بها طال سفرها، فهزلت وضعفت. إذ لا تجد مرعىً تتقوى به)[2].

وقال النووي: (ومعنى الحديث: الحث على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها، فإن

---

(١) القبس شرح الموطأ ٢٣/٢٠٦-٢٠٧، موسوعة شروح الموطأ.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٧٦٥.

سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير، فتأخذ حظها من الأرض، بما ترعاه منها، وإن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر، لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف ويذهب نقيها وربما كلت ووقفت، وقد جاء في أول هذا الحديث في رواية مالك في الموطأ[١] ((إِنَّ اللّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ))[٢].

قال ابن عبد البر: (والرفق المذكور في الحديث، أشير به إلى الرفق بالدواب في الأسفار، وأمر المسافر في الخصب بأن يمشي رويداً ومهلاً، ويكثر النزول لترعى دابته، وتأكل من الكلأ وتنال من الحشيش والماء، هذا كله إذا كانت الأرض مخصبة والسفر بعيداً، فإذا كان عام السنة وأجدبت الأرض، فالسنة للمسافر أن يسرع السير ويسعى في الخروج عنها، ... والنقي في كلام العرب الشحم والودك)[٣].

وقال الطيبي: (وإنما أثبت لها الحق؛ لأن الله تعالى أنزل من السماء ماءً فأخرج الكلأ والعشب لرعيها، فلا ينبغي أن يهضم حقها منها. وأن المخ أيضاً من حقها، بخلاف اللحم فإن السير سواء كان في الخصب أو في القحط ينقص من اللحم، فإذا كان المخ الذي منه القوة وعليه قيامها باقياً، لا يتطرق إليها ما ينقص من حقها، وفي إذهابه الظلم)[٤].

وقال الغزالي عن آداب السفر: (التاسع: أن يرفق بالدابة إن كان راكباً، فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم، وتتأذى به الدابة، كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة)[٥].

فعلى المسافر خلال سفره، أن يراعي شؤون وسائل المواصلات التي يركبها إن

---

(١) الموطأ ٤١٣٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٧٥، .

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/٢٠٨ موسوعة شروح الموطأ.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٧/٣٣٢.

(٥) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٢/١١٠٣.

كانت ملكه أو في عهدته، ويتفقد أحوالها، وما تحتاج إليه من تغيير وتبديل باستمرار حتى يمكنه السير دون حدوث أية مشكلات أو أعطال، قد تؤخره وتؤخر من يحملهم معه فيها، وذلك لأن إهمال هذه الوسيلة يكون مسؤولية، وخاصة إذا كانت لنقل الناس من منطقة إلى أخرى وبأجر معلوم، فأي حادث يقع جراء إهمال فيها يعرض صاحبها إلى المسؤولية أمام الله تعالى وأمام الناس.

لذا عليه دائماً أن يتعهدها ويتفقد أحوالها باستمرار، هذا إذا كانت ملكاً خاصاً، أما إذا كانت ملكاً للدولة أو لشركات كبرى، كالطائرات والقطارات والسفن وغيرها من وسائل النقل، فإن مسؤولية صيانتها وتعهدها وتفقدها ترجع إلى الجهات المباشرة لها والمسؤولين عنها، وهم المسؤولون أمام الله تعالى وأمام الناس عن ذلك.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: عدم النوم ليلاً في الطريق:

هذا واضح من قوله ﷺ: "وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق فإنها طرق الدواب، ومأوى الهوام بالليل". قال ابن العربي: (ذكر النهي عن التعريس في الطريق، فإن فيه مضرة الآدمي ومضرة الحيوانات، فإنها سبيل الكل)[1].

قال النووي: (هذا أدب من آداب السير والنزول، أرشد إليه ﷺ، لأن الحشرات ودواب الأرض من ذوات السموم والسباع تمشي في الليل على الطرق، لسهولتها ولأنها تلتقط منها ما يسقط من مأكول ونحوه، وما تجد فيها من رمة ونحوها، فإذا عرس الإنسان في الطريق ربما مر به منها ما يؤذيه، فينبغي أن يتباعد عن الطريق)[2].

وقال ابن عثيمين: (كذلك أمر ﷺ أننا إذا عرسنا - نزلنا-ليلاً لنستريح وننام فإننا لا ننام في الطريق، يعني في الجادة لأنها طرق البهائم، الناس يستطرقون هذا الطريق فربما يأتي إنسان غافل فيقع في هذا الطريق[3]، كذلك هي أيضاً مأوى الهوام في هذه الطرق. فلهذا أمر النبي ﷺ ألا ننام في الطرقات بل نرتفع عنها، حتى لا يحرج

---

(١) القبس شرح الموطأ ٣٠٧/٢٣ موسوعة شروح الموطأ.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٥/١٣/٧، .

(٣) أي: يقع في هذا الطريق حادث، قد يؤدي إلى إضرار تذهب في بعض الأحيان بالأرواح والأموال.

السائرين على الطريق، وحتى لا نتعرض لأذى الهوام. ومثل ذلك -بل من باب أولى- طرق سيارات اليوم، فإن الإنسان يبتعد عنها، لأنه ربما يأتي سائق ينعس ولو لحظة فيقتحم بسيارته هؤلاء الذين ينامون على الطريق، وتحدث كارثة، فابعد عن هذه الطرق السريعة لا تنم حولها حتى لا تقع في الخطر، وهذا من إرشاد النبي ﷺ)[1].

رابعاً- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما فيه مصلحتهم:

لقد بعث الله محمداً ﷺ رحمة للعالمين، فلم يترك خيراً إلا ودلّ المدعوين عليه، ولم يترك شراً إلا وحذرهم منه، وفي الحديث الذي معنا أرشد النبي ﷺ إلى أمرين مهمين، الأول الرفق بالحيوان في السير ومراعاة مصلحته في ذلك، فلا يكلفه ما لا يطيق، لأن في ذلك أذية للحيوان، كما أن فيه إذهاباً لبعض الأموال، والإسلام جاء بحفظ المال وحمايته، الثاني أرشد النبي ﷺ المدعوين إلى عدم النوم ليلاً في الطريق، لما في ذلك من مضرة تلحق الآدمي والحيوان، والإسلام جاء بنفي الضرر، كل هذا دفع القرطبي في المفهم إلى أن يقول: (وهذه الأوامر من باب الإرشاد إلى المصالح والندب إليها)[2]، والخلاصة أن النبي ﷺ جاء برعاية مصالح الإنسان والحيوان، قال العز بن عبدالسلام عن الإحسان إلى الدواب المملوكة: (وذلك بعلفها أو رعيها بقدر ما تحتاج إليه، وبالرفق في تحميلها ومسيرها، فلا يكلفها من ذلك ما لا تقدر عليه، وبأن لا يحلب من ألبانها إلا ما فضل عن أولادها، وأن يهنأ جرباها[3] ويداوي مرضاها، وإن ذبحها: بأن يحد شفرته، ويسرع جرّته، مع إضجاعها برفق، وأن لا يتعرض لها بعد ذبحها حتى تبرد، وإن كان بعضها يؤذي بعضاً بنطح أو غيره، فليفرق بينها وبين ما يؤذيها)[4].

---

(١) شرح رياض الصالحين، ٢/١٢١٧-١٢١٨.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٧٦٥.

(٣) أي يعالج جرب إبله بالقطران. يقال: هنأت البعير أهنؤه: إذا طليته بالهناء، وهو القطران. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ ن ا).

(٤) شجرة المعارف والأحوال ١٦١.

والمقصود أن يقتدي الداعية برسول الله ﷺ الذي دلّ أمته على كل خير، وحذر أمته من كل شر، فيبذل جهده وطاقته في أن يبين للمدعوين ما فيه مصلحتهم، ويدلهم على ما فيه نفعهم وصلاحهم في نفوسهم وأولادهم وأهليهم ومجتمعهم وأموالهم، لأن الله سبحانه وتعالى أقامه مقام الناصح الشفيق، فهو كالقمر في ليلة التمام، يملأ الأرض والسماء ضياءً ونوراً.

الحديث رقم (٩٦٤)

٩٦٤- وعن أَبي قتادة ﷺ، قَالَ: كَانَ رسولُ الله ﷺ إذَا كَانَ فِي سَفَرٍ، فَعَرَّسَ بِلَيْلٍ اضْطَجَعَ عَلَى يَمِينهِ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأسَهُ عَلَى كَفِّهِ. رواه مسلم[1].

قَالَ العلماءُ: إنَّمَا نَصَبَ ذِرَاعَهُ لِئَلاَّ يَسْتَغرِقَ فِي النَّومِ، فَتَفُوتَ صَلاَةُ الصُّبْحِ عَنْ وَقْتِهَا أَوْ عَنْ أوَّلِ وَقْتِهَا.

ترجمة الراوي:

أبو قتادة الأنصاريّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١٧).

غريب الألفاظ:

عرَّس: أقام [2].

الشرح الأدبي

أسلوب الحديث قصصي يتتبع فيه الراوي بعد عادات الرسول ﷺ في سفره، وقد صاغ المعنى في ثوب الشرط الذي يربط الجزاء بالفعل، مما يدل على أنه عادة، ثم إن استخدام (كان) يؤكد ذلك مع تكرارها عند استئناف الشرط الثاني الذي يؤكد أنها كانت عادته في النزول في الليل (فَعَرَّسَ بِلَيْلٍ اضطجع) كناية عن النوم، وقوله (بليل) توكيد للتعريس، لأن معناه النزول ليلاً، فذكره الليل للتوكيد، وقوله (وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأسَهُ عَلَى كَفِّهِ) أسلوب شرط يربط التعريس قبيل الصبح بنصب الذراع ووضع الرأس على الكتف، وهذه الحالة توحي بعدم الاستغراق في النوم لِئَلاَّ يَسْتَغرِقَ فِي النَّومِ، فَتَفُوتَ صَلاَةُ الصُّبْحِ عَنْ وَقْتِهَا أَوْ عَنْ أوَّلِ وَقْتِهَا.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة في كيفية نوم المسافر ما رواه أبو قتادة ﷺ قال: "كان رسول

---

(١) برقم ٦٨٣/٣١٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (ع ر س).

الله ﷺ إذا كان في سفر فعرّس بليل اضطجع على يمينه، وإذا عرّس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه". قال العلماء: نصب الذراعين؛ لئلا يستغرق في النوم فتفوت صلاة الصبح أو أول وقتها)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: اختلاف هيئة النوم باختلاف قرب وقت الصلاة وبعده.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة.

رابعاً: من آداب المدعو: عدم الإخلاد إلى الراحة لئلا تفوته الصلوات والطاعات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اختلاف هيئة النوم باختلاف قرب وقت الصلاة وبعده:

هذا واضح من الحديث، قال النووي في المجموع: (السنة في كيفية نوم المسافر ما رواه أبو قتادة ... فذكر الحديث. ثم قال: قال العلماء: نصب الذراعين لئلا يستغرق في النوم فتفوت صلاة الصبح أو أول وقتها)[2].

وقال ابن عثيمين: (وكان من هديه ﷺ أنه إذا عرّس في أول الليل اضطجع على يمينه، وإذا عرس قبيل الفجر اتكأ على يده اليسرى، لأنه إذا كان أول الليل ينام على اليمين ليعطي النفس حظها من النوم، ولهذا كان ﷺ في بيته إذا نام ينام على الجنب الأيمن بل أمر بذلك[3]. أما إذا كان قبيل الفجر فكان ينصب ذراعه ﷺ وينام على يده لئلا يستغرق في النوم فتفوته صلاة الفجر، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان أيضاً يعطي نفسه حظها من الراحة، ولا ينسى عبادة ربه، ففي أول الليل يمكنه أن ينام ويشبع قبل الفجر ثم يقوم، أما في آخر الليل فإنه لا ينام نومة المطمئن، بل نومة المستيقظ الذي لا يستغرق في النوم لئلا تفوته صلاة الفجر، وفي هذا دليل على أن

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٧ .

(٢) المرجع السابق ٤/١٩٧.

(٣) هو حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن..." أخرجه البخاري ٢٤٧ ومسلم ٢٧١٠.

الإنسان ينبغي له أن يستعمل المنبّه في النوم ينبهه حتى لا تفوته الصلاة، فإنَّ نصب الرسول ﷺ ذراعه من أجل أن ينتبه، كذلك الإنسان ينبغي أن يجعل معه منبهاً للصلاة، فهذا من آداب السفر التي دلّ عليها خير البشر ﷺ)[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من استخدام الصحابي لفظ "كان" ليخبر عن فعل من أفعال النبي ﷺ في السفر، حتى يُعلم المدعوين بذلك، فيقتدوا به ﷺ وينهجوا نهجه فهو قدوتهم وأسوتهم.

قال د. يوسف القرضاوي: (ومن حسن قدر المسلمين أن الله جعل لهم قدوة يقتدون بها، تتجسد فيها مكارم الأخلاق التامة، التي أخذت من ميراث جميع الرسل وزادت عليه، وذلك هو رسول الله ﷺ الذي أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣]... ولا يوجد امرؤ من الناس إلا وجد في سيرته ﷺ الشاملة الجامعة ما يأخذ منه الأسوة والهدي الأكمل، يستوي في ذلك الشاب والشيخ والعزب والمتزوج والغني والفقير والحاكم والمحكوم والمسالم والمحارب، ولا يعرف من اجتمعت له هذه الأوصاف إلا محمد ﷺ فشمول سيرته مكافئ لشمول رسالته)[٤].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة:

هذا واضح من فعل النبي ﷺ وحرصه على ألا تفوته صلاة الصبح، قال ابن القيم: (إن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[٥] أي أقم الصلاة لأجل

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٢١٨/٢.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٥) سورة طه، آية: ١٤.

ذكري... وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾(١) فقيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو ذاكرٌ مَنْ ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم. وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾(٢) قال: هو قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾(٣) فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه، وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء. وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾(٤) ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق" الحديث(٥).

وكان ابن تيمية يقول: (الصحيح أن معنى الآية: إن الصلاة فيها مقصودان عظيمان: وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر)(٦).

وقال عائض القرني عن أهمية صلاة الفجر: (معيار صلاح الناس وقيامهم بالدين صلاة الفجر جماعة، لأنها في وقت راحة بعد سهر، وإذا أردت أن تعرف الناس في حيِّك فراقبهم في صلاة الفجر، ومما رأيناه وعشناه تخلف الكثير عن صلاة الفجر مع عدم المبالاة والندم على ما حصل، وما ذاك إلا لموت القلوب، وقضية دعوى التدين والتقوى

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٥) وتمامه قول النبي ﷺ: "ذكر الله تعالى" أخرجه الترمذي ٣٣٧٧، وابن ماجه ٣٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٥٧).

(٦) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ٢/٢٤٦-٢٤٧ بتصرف يسير جدًا.

سهلة، لكن العبرة بالعمل والتطبيق، فإذا رأيت الرجل مقيماً للصلوات الخمس جماعة ورعاً في منطقه، خائفاً من ربه، نادماً على خطئه، فهذا الذي يرجى له الخير ويبشر به، أما المقصر في الصلوات، المعجب بنفسه، الغافل عن تقصيره، فدعواه مردودة عليه، ومحبته داحضة وهو من المفلسين، وقد رأينا من يظهر التدين والصلاح، فإذا حانت صلاة الفجر خذله شيطانه وهواه، ونفسه الأمَّارة بالسوء عن حضورها جماعة، فغبن في صفقته وخسر ثقة إخوانه المؤمنين، ولا تمدح لنا أحداً ولا تزكي لنا عبداً بل أعماله تمدحه وأخلاقه تزكيه، لأننا مللنا من الثناء على أناس تطبيق الإسلام عندهم باللسان، ولكن إذا حصحص الحق في حضور صلاة، وصدق في قوله، ووفاء بوعد، وقيام بواجب، فإذا الخذلان والفشل والرسوب ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1])[2].

رابعاً- من آداب المدعو: عدم الإخلاد إلى الراحة لئلا تفوته الصلوات والطاعات:

وذلك اقتداءً بالنبي ﷺ عندما كان في سفر فإذا أراد النوم قبيل صلاة الفجر، نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه، ولم يضطجع على يمينه، وذلك لئلا تفوته صلاة الفجر، فترك النبي ﷺ راحته من أجل المحافظة على الصلاة، وهكذا ينبغي أن يكون شأن المدعو في حياته كلها، لأنه لو التزم ذلك لتحقق له الخير الكثير في دنياه وآخرته، يقول د. محمد أمين شحادة عن أهمية مغادرة مواطن الراحة من أجل تحقيق الأهداف: (أعني بمواطن الراحة ما ترتاح له النفس البشرية من حالات وأوضاع معينة، لا تحتاج الجهد الجسدي ولا العقلي الكبير، وكل إنسان لديه مواطن معينة يحب صرف وقته فيها، قد يكون موطن راحة الفرد أن يستلقي على ظهره وبيده جهاز التحكم بالتلفاز عن بعد، ويمضي الساعات في مشاهدة البرامج التلفزيونية متنقلاً بين محطة وأخرى، أما بالنسبة لآخر فقد يجد موطن راحته في الجلوس على الشرفة،

---

(١) سورة الصف، آية: ٣.

(٢) هكذا حدثنا الزمان ٨٩.

وقراءة المجلات السطحية، التي تتكلم عن الممثلين والممثلات، وتنقل أخباراً مثيرة عنهم، وقد يجد آخر مواطن راحته في لقاءاته مع الأصدقاء في أوقات وأماكن مختلفة، وقد يكون مواطن الراحة في كثرة النوم، ومواطن الراحة هذه منها ما هو نفسي ومنها ما هو جسدي أو كلاهما معاً.

قال هيرم سميث في كتابه "القوانين الطبيعية العشرة للفعالية في إدارة الوقت والحياة": "إن تمكنك من تحقيق أي هدف يستوجب منك مغادرة مواطن الراحة". وإن الصراع دائر بين هوى النفس الإنسانية الداعية للراحة والدعة التي تجذبه للركون للأرض، وبين الروح الإنسانية المحبة للعلياء، والنهوض بالأمانة، وبلوغ الأهداف المنشودة. والإنسان الذي كوّنه الله من مادة التراب مشدودٌ دوماً للأرض، كموطن الراحة والأمان، ومتاع الدنيا وزينتها، من المال والمعيشة المريحة في البيوت الفاخرة، والأطعمة الشهية، لكن الروح المؤمنة الربانية خلاف ذلك، إنها رامية للعلياء، تشده إلى غايات أسمى.

لكن الصعود بهذه النفس من الركون للأرض إلى العمل الجاد يحتاج الجهد الكبير، وقد يشبه ذلك وجود الإنسان في منتصف هوة عميقة تمثل موطن راحته، حيث لا يحتاج لجهد في بقائه فيها، لكن صعوده منها يحتاج لبذل الجهد والطاقة الكبيرة، وكلما بَعُد عن موطن راحته تطلب ذلك منه جهداً أكبر، وذلك كالكرة التي تتدحرج بقوة الجاذبية للأسفل، وتحتاج الجهد والدفع القوي لصعودها بالجهة المعاكسة.

وصرف جزء كبير من الوقت في مواطن الراحة ضياع له، بينما صرفه في العمل على الأهداف المهمة في حياته، يحتاج الخروج من تلك المواطن والعمل الجاد ولو كرهته النفس، أقول هذا لأن الأعمال المهمة معظمها ليست بالضرورة ممتعة للنفس البشرية، بل تحتاج لتطويع وترويض تلك النفس عليها. لاشك أن النوم في الثلث الأخير من الليل موطن راحة أي إنسان، لكن الذي يسمو إلى العلا قد يأبى نوم هذا الوقت، بل يفضّل إجبار نفسه وجسده على قيام ذلك الوقت تعبداً لله وتزكية لنفسه، وفي ذلك نيله لموطن يصبو إليه كل مسلم، وهو الجنة ونعيمها.

لا شك أن الجلوس والتراخي في البيت من مواطن الراحة، لكن قد يأبى الداعي النشيط إلا الخروج للناس ومخالطتهم ودعوتهم، وتحمل أذاهم أينما كانوا، مستصغراً في سبيل ذلك تعب جسده، ولا شك أن الاطمئنان على النفس والمال من أعظم مواطن الراحة الأساسية في حياة الإنسان حسب دراسات متخصصة في هذا المجال، لكن الكيِّس الطالب رضوان الله تعالى قد يتخطى ذلك الحاجز المادي الذي يشده للأرض، فيخاطر بنفسه وماله، بل قد يضحي بهما في سبيل أهداف يعيشها وغايات ينشدها.

ومواطن الراحة قد تتلاقى مع مواطن الكسل واللهو، وذلك إذا زادت أوقات الراحة عن حدها المعقول، فهذا لا يعني الاستغناء الكامل عن اللهو والراحة، بل لابد من ساعات يستريح بها الإنسان ويروّح عن نفسه، لكن أن تتمحور الحياة بأكملها حول الراحة واللهو والكسل عن العمل، فهو لعمري ضياع للعمر والحياة، وإن ملازمة مواطن الراحة صفة خسيس الهمة وسمة النفوس الفارغة، "إنها صورة النفوس الفارغة التي لا تعرف الجد، فتلهو في أخطر المواقف، وتهزل في مواطن الجد، وتستهتر في مواطن القداسة... والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال بالقداسة، تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال، فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف، وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة[1].

(١) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة ص ٤٠٦-٤٠٨ ومصادره ومراجعه.

الحديث رقم (٩٦٥)

٩٦٥- وعن أنس رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ، فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ)) رواه أَبُو داود[1] بإسناد حسن.

(الدُّلْجَةُ): السَّيْرُ فِي اللَّيْلِ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

البداية بأسلوب الأغراء يشوق النفس إلى الخبر بعده، والتعبير بالدلجة يوحي بمعان متعددة منها التبكير بأخذ الليل من أوله، ثم الاجتهاد الذي يطرد النوم، ويمنع الكسل ثم اختيار أنسب الأوقات التي تناسب العمل الذي يريد أن يؤديه، وقوله (فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ) جملة تعليلية للأمر السابق، وهي كناية عن سهولة السير، وقطع المسافات، وهو ما تؤكده كلمة (تطوى) وهو استعارة لسرعة السير، تصور الليل بعملاق يطوي بساطاً هو الأرض وصياغة الفعل في صورة المضارع تعطيه تتجدداً، واستمراراً، والتعبير بصيغة ما لم يسم فاعله تعطي الفعل أبعاداً إيحائية حيث يذهب العقل في تصور الفاعل كل مذهب، والتعبير بالأرض يوحي بعموم الطي لجميع الأرض، وليس لمسافة السير فقط، وهو مبالغة في سرعة السير ترغب فيه.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب السير في آخر الليل، لحديث أنس مرفوعًا "عليكم بالدلجة فإن الأرضى تطوى بالليل")[2].

---

(١) برقم ٢٥٧١، وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٥٥، وقال الحاكم ٤٤٥/١: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٦٨.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٤ .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على السفر ليلاً.

ثالثاً: من مهام الداعية: دلالة المدعوين على الخير.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل:

أما الأمر فقوله ﷺ "عليكم بالدُّلْجة": أي التزموا السفر بالليل، (فمن صيغ الأمر اسم فعل الأمر: وهو النائب عن الفعل، ومثاله قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1])[2].

وأما التعليل فقوله ﷺ لبيان علة الأمر "فإن الأرض تطوى ليلاً" واجتماع الأمر والتعليل يدفع المدعو إلى الانقياد فوق الانقياد، والامتثال، فوق الامتثال والإذعان فوق الإذعان.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على السفر ليلاً:

قال العظيم آبادي: (قوله "عليكم بالدُّلْجة": بضم فسكون اسم من أدلج القوم - بتخفيف الدال - إذا ساروا أول الليل، ومنهم من جعل الإدلاج سير الليل كله. وكأنّه المعنى به في الحديث، لأنه عقبه بقوله: "فإن الأرض تطوى بالليل" بصيغة المجهول، أي تقطع بالسير في الليل)[3].

وقال ابن عبدالبر: (وأما قوله "فإن الأرض تطوى بالليل" فمعناه، والله أعلم، أن الدابة بالليل أقوى على المشي إذا كانت قد نالت قوتها واستراحت نهارها، تضاعف مشيها، ولهذا ندب إلى سير الليل، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو لمن ودعه ((اللهُمَّ اطوِ لَه البُعْدَ، وازوِ لَه الأَرْض، وهوِّنْ عليه السفَر))[4])[5].

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٢) تعليم أصول الفقه، د. نور الدين مختار الخادمي ص ٣٦٢.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٩.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٤٤٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٤٠).

(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/٣٠٨ موسوعة شروح الموطأ.

ونقل الطيبي القول في معنى الحديث: (يعني لا تقنعوا بالسير نهاراً بل سيروا بالليل أيضاً، فإنه يسهل بحيث يظنّ الماشي أنه سار قليلاً وقد سار كثيراً)[1].

وقال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أرشد أمته أن يسيروا في الليل وأخبر أن الأرض تطوى للمسافر إذا سافر في الليل، يعني أنه يقطع في الدلجة - الليل-ما لا يقطعه في النهار، وذلك لأن الليل وقت براد فهو أنشط للرواحل وأسرع في سيرها، ولهذا عبر النبي ﷺ عن ذلك بأنه تطوى الأرض للمسافر إذامشى في الليل)[2].

ثالثاً- من مهام الداعية: دلالة المدعوين على الخير:

وهذا واضح من الحديث، فقد دلّ النبي ﷺ المدعوين أن يسافروا بالليل، لأنه أسرع في قطع السفر، فكان في ذلك خيرًا لهم، وقد قال النبي ﷺ: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ))[3].

قال الدكتور القرضاوي: (ومن مظاهر السلوك الحضاري ما طلبه الإسلام من المسلم أن يقوم به في كل يوم من فعل الخيرات، ومن خدمات يقدمها للمجتمع طائعاً مختاراً، تقوية للضعيف وتعليماً للجاهل وإرشاداً للحائر، وإعانة للعاجز وإغاثة للملهوف كما قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[4] الإسلام يجعل من المسلم نبعاً دفاقاً يفيض بالخير والنفع لكل من حوله وما حوله، لا يبخل بمال ولا يضن بجهد ولا وقت، مؤدياً لشكر نعمة الله تعالى عليه، قائماً بحق الأخوة التي تربطه بالمجتمع، والتي جعلها الله تعالى عنوان الإيمان حين قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾[5])[6].

ولذلك حضّ الإسلام على المسابقة إلى الخيرات، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٣٨/٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٢١٩/٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٤) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٦) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ٢٦٧-٢٦٨.

فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٢].

(لقد جاء الحض على المسابقة بالخيرات في كتاب الله، لكنَّ فاعلية تلك الأعمال تتباين بحسب ديمومتها من المنطلق الزمني ومدى نفعها، فكلما حققت الأعمال والأهداف نفعاً أدوم، وبلغت المنفعة قاعدة أوسع، كانت محل خيرية وفاعلية أكبر.

نرى في كتاب الله أن التركيز جليٌّ على فاعلية العمل المتمثل في نشاط الإنسان في حياته الدنيا، على أن يكون أثره الخيّر ممتداً إلى الآخرة، ذلك أن حياة الجسد تنحصر في الدنيا وتتوقف قدرته على العمل عند الموت، بينما يمتد العصر الزمني لفاعلية الأعمال المكتسبة في الحياة الدنيا إلى ما بعد الموت. فبينما نرى أن من يكرّس وقته لكسب المادة لمتعة نفسه تنتهي فاعلية وقته بالموت، أما من يكرّس وقته في الخيرات لعامة الناس، فتبقى له هذه الأعمال رصيداً تمتد بمدى تحقيقه للفائدة كماً وكيفاً وزماناً يطول إلى يوم القيامة.

وإنَّ ميادين العمل الفعَّال الخيِّر كثيرة، أهمها فرائض الأعيان التي يعم نفعها الدنيا والآخرة، ثم تُعطى الأولوية لكل عمل له أثر طويل المدى. من ذلك: الصدقة الجارية، بحيث يوظِّف الفرد وقته وجهده وحركته في الحياة لإفادة غيره من الناس خلال حياته وبعد مماته، وهي تشمل كل مشروع يخدم الناس في معاشهم وفي أمور دينهم. وكذلك العلم النافع، وهو الاستفادة من الوقت في طلب العلم وتعليمه وتوريثه، وخاصة العلم الشرعي الذي يعود على الناس بالنفع في دنياهم وأخراهم، والذي تمتد ديمومة الانتفاع به إلى ما بعد موت صاحبه. وكذلك تربية الولد الصالح، وفي ذلك إشارة إلى تكوين أسرة كريمة وتنشئة الأولاد على خلق ودين، فإذا مات الوالدان خلفهما جيلٌ يحمل منهج الله في قلبه ويقدم الخير للبشرية، كما أنه يدعو لهما طالما أنه على قيد الحياة. وهذه الأعمال الثلاثة وردت في الحديث الشريف: ((إذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))[٣].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٨.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٣١.

ومن فاعلية السبق بالخيرات الأعمال التي يستفيد منها عامة الناس، مؤمنين وغير مؤمنين، لتكون وسيلة لعونهم ولهدايتهم ولإنقاذهم من النار، تلك الأعمال لا تكون محدودة بسني العمر المعدودة، وإنما تبقى خالدة في نفعها إلى ما يشاء الله. وإلى هذا المعنى أشار رسول الله ﷺ في الحديث: ((مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))[1].

إذن، من حسن إدارة الوقت أن نلتفت بالدرجة الأولى إلى آثار أعمالنا على مستوى البعد الزمني حتى يبلغ أثره الآخرة، وعلى مستوى البعد المنفعي حتى يبلغ أثره عامة الناس. وهذا ما لا نجده عند الوضعيين ممن أبدعوا خططاً للاستفادة من أوقاتهم تنحصر في حدود الكسب المادي الكبير العاجل، دون النظر في مادة العمل.

وإن تحقيق الإصلاح هو الغاية من فعل الخيرات، كما أن الأعمال الموفقة لا تتحقق إلا بنية الإصلاح، قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[2].

والإصلاح لفظة عامة شاملة لكل مجالات الخيرات المتحققة في الحاضر أو في المستقبل، وذلك في إصلاح الحال، وإصلاح الأهل، وإصلاح الأقارب، وإصلاح المسلمين عامة.

ويشمل الإصلاح الجانبين: المادي والمعنوي، كما يشمل الحياتين: الدنيا والآخرة، ويشمل حال الفرد والأسرة، وحال الجماعة والدولة، مما يحقق النهوض والارتقاء إلى وضع أفضل)[3].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠١٧.

(٢) سورة هود، آية: ٨٨.

(٣) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحاذة، ٩٩-١٠١.

الحديث رقم (٩٦٦)

٩٦٦- وعن أَبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ ﵁، قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا[1] مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**إنَّ تَفَرُّقكُمْ فِي هذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إنَّمَا ذلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ!**)) فَلَمْ يَنْزِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إلاَّ انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. رواه أَبُو داود[2] بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

أبو ثعلبة الخُشَنِّي: صحابي مشهور، معروف بكنيته، اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً وكذلك في اسم أبيه، قيل اسمه جُرثُوم، وقيل جُرْهم بن ناشب، وقيل: ابن ناشم وقيل: ابن لاشر.

قدم على رسول الله ﷺ وهو يتجهَّزُ إلى خيبر، فأسلم، وضرب له بسَهْمِهِ، وكان ممَّن شهد بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة، وأرسله النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا.

وقد روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث.

وقد قال: أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، اكتب لي بأرض كذا وكذا -لأرضٍ بالشام لم يَظْهَرْ عليها النبي ﷺ حينئذٍ- فقال النبي ﷺ ((ألا تسمعون إلى ما يقول هذا؟)) فقال أبو ثَعْلبة: والذي نفسي بيده لتَظْهَرنَّ عليها. فكتب النبي ﷺ له بها[3].

وقد سكن الشام، وقيل حمص، وعاش بعد النبي ﷺ، ولم يقاتل بصفِّين مع أحد الفريقين.

قال فيه ناشرة بن سُمَيّ: ما رأينا أصدق حديثاً من أبي ثعلبة الخُشَنِّي، وقال: كان

---

(١) لفظ أبي داود: (إذا نزل رسول الله ﷺ منزلاً).

(٢) برقم ٢٦٢٨، وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٠، وقال الحاكم ١١٥/٢: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٧٣.

(٣) أخرجه أحمد ١٩٤/٤ رقم ١٧٧٣٧ من حديث مطول، وقال فيه محققو المسند: صحيح دون قصة الأرض، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين ٢٧٤/٢٩.

لا يأتي عليه ليلة إلا خرج ينظرُ إلى السماء، فينظر كيف هي، ثم يرجع فيسجد.

وكان يقول: إني لأرجو أن لا يخنقني الله كما أراكم تُخنقون عند الموت، فبينما هو يُصلي في جوفِ الليل، قبض وهو ساجد، فرأت ابنته في النوم أن أباها قد مات، فاستيقظت فزعة، فنادت أمها: أين أبي؟ قالت: في مصلاه، فنادته، فلم يُجبها، فأنبهته، فوجدته ميتاً.

نزل الشام ومات في أول إمرة معاوية، وقيل مات في إمرة يزيد وقيل إنه توفي في سنة خمس وسبعين في إمرة عبدالملك، والأول أكثر[1].

غريب الألفاظ:

الشعاب: جمع شعب وهو الطريق في الجبل أو ما انفرج بين الجبلين[2].

الأودية: جمع الوادي وهو المسيل مما بين الجبلين[3].

الشرح الأدبي

سبقت الإشارة إلى أن قول الراوي (كان كذا..) يشير إلى عادة في الفعل -غالباً-، ويؤكده استخدام أسلوب الشرط الذي يربط فعلاً بفعل يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه، وقوله (كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ) أسلوب شرط يربط النزول بالتفرق، وقوله (نزلوا منزلاً) فيه جناس يؤكد المعنى من حيث أن العقل يعتقد بادي الأمر أنه أعاد المعنى الأول نفسه فإذا به يؤسس معنى جديداً، فيكون له في

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤١٦/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ١٣٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٥٢٤/١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١٤٤١-١٤٤٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٢٦٨/٨-٢٧٠، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٠٠/٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٥٦٧/٢-٥٧١.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٢٥.

(٣) المرجع السابق، وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و دي).

نفسه فضل تمكن، وكلمة (تفرقوا) توحي بالتفرد، والانعزالية، والوحشة، وصيغة الجمع في (الشعاب - والأودية) تؤكد هذا التفرق، وتزيد البعد مما يسهل على العدو، أو قاطع الطريق، أو الوحش، أو غيرها النيل منهم، وهو موضع الخطأ بعكس المجتمعين، فإنهم يبقون قوة يحمي بعضهم بعضاً، ولذلك جاء تصحيح الرسول ﷺ لهذا الخطأ مؤكداً، ومنصباً على الخطأ مباشرة (إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ)، واستخدام الإشارة (هذه) للذم للتفرق، وأسلوب القصر بإنما يفيد قصر التفرق في الشعاب على كونه من الشيطان لا من غيره، والقصر بإنما خاصة يفيد أن كون التفرق من الشيطان أمر واضح لا يجب أن يُجهل، فكأنه تعريض بغفلتهم عن الأمر مع أهميته، والإشارة بـ (ذلكم) فيها تفخيم للأمر، وتهويل يوجب أخذه بعين الاعتبار، وقصر التفرق على الشيطان فيه تنفير من هذا الفعل، والتزام ضده، وهو الاتحاد، والتجمع، وهي خصلة يحرص عليها الإسلام بين أفراده.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب للرفقة أن ينزلوا مجتمعين ويكره تفرقهم لغير حاجة؛ لحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تصحيح ما يقع من المدعوين من أفعال.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الاجتماع عند النزول في الأودية وعدم التفرق.

ثالثاً: من آداب المدعو: الامتثال لما أرشد إليه النبي ﷺ.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

أولاً- من مهام الداعية: تصحيح ما يقع من المدعوين من أفعال:

هذا واضح من قول النبي ﷺ لما تفرق أصحابه في الأودية: "إن تفرقكم في هذه الشعب والأودية إنما ذلكم من الشيطان".

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٧ .

ومن هذا القبيل ما رواه أبو جحيفة ﷺ قال: ((آخى النبيُّ ﷺ بينَ سَلمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلمانُ أبا الدَّرْداء، فرأى أمَّ الدَّرداءِ متَبذِّلةً فقال لها: ماشأنُك؟ قالت: أخوكَ أبو الدَّرداءِ ليسَ لهُ حاجةٌ في الدُّنيا. فجاءَ أبو الدَّرداءِ فصنَعَ لهُ طَعاماً فقال له: كل، قال: فإني صائمٌ، قال: ماأنا بآكِلٍ حتى تأْكُلَ. قال: فأَكَلَ. فلمّا كان الليلُ ذَهبَ أبو الدرداءِ يقومُ، قال: نَمْ، فنام. ثم ذَهبَ يقومُ، فقال: نَمْ. فلمّا كانَ مِن آخرِ الليلِ قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فصلَّيا. فقال له سَلمانُ: إنَّ لِربِّك عليكَ حقاً، ولنفْسِكَ عليكَ حقاً ولأهلِكَ عليكَ حقاً فأعْطِ كلَّ ذي حَقّ حقَّه. فأتى النبي ﷺ فذَكرَ ذلكَ له، فقال له النبي ﷺ: صَدَقَ سَلمانُ))[1].

فأقرّ النبي ﷺ سلمان على ذلك، فكان ذلك من سنته ﷺ (فالسنة النبوية تشمل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته... أما إقراره ﷺ أو تقريره فهو سكوته تجاه أمر شاهده أو سمعه، فيدل ذلك السكوت على موافقته على ذلك الأمر وعدم إنكاره ورفضه)[2].

قال ابن حجر: (وفيه [أي في حديث أبي جحيفة]: النصح للمسلم وتنبيه من أغفل، وفيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل، وتفويت الحقوق المطلوبة أو المندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور)[3].

والداعية بهذا التصحيح يعالج ما يقع من أفعال من المدعوين يكون فيها خطأ أو خلاف الأولى، ومن ثم لا يسمح لهذه الأفعال بأن ترسخ وتتخذ موقعها في حياة المدعوين، بل هو يقضي عليها أولاً بأول، فلا تأخذ من وقته الكثير، وإنما يصرف جهوده إلى جوانب أخرى تحتاجها الدعوة أشد الاحتياج، كمحاولة الداعية الدائمة الدائبة في الارتقاء بالمدعوين، إلى المستوى الذي يمكنه من إقامة الأهداف الكبرى، وتحقيق الغايات العظيمة التي تحملها دعوته للناس أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٦٨.

(٢) تعليم أصول الفقه، د. نور الدين الخادمي، ١٥٠-١٥١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٤/٢١٢.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الاجتماع عند النزول في الأودية وعدم التفرق:

هذا واضح من الحديث: "إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان".

قال النووي في المجموع: (يستحب للرفقة في السفر أن ينزلوا مجتمعين، ويكره تفرقهم لغير حاجةٍ لحديث أبي ثعلبة الخشني)[١].

وقال العظيم آبادي: ("إنما ذلكم" أي تفرقكم "من الشيطان" أي ليخوف أولياء الله ويحرك أعداءه)[٢].

وقال ابن عثيمين: (ومن الآداب [أي آداب السفر] أيضاً أنه ينبغي للجماعة ألا يتفرقوا إذا نزلوا منزلاً فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الأودية والشعاب فقال النبي صلى الله عليه وسلم "إنما ذلكم من الشيطان" يعني تفرقهم. فما نزلوا بعد ذلك منزلاً إلا اجتمعوا جميعاً، لأن ذلك أقوى لهم وأحفظ، ولو تسلط عليهم عدو في هدأة الليل -وكانوا جميعاً- أمكنهم المدافعة، لكن إذا تفرقوا توزعوا وفشلوا)[٣].

وقال السندي: (قوله: "من الشيطان" فإنه الذي يرضى بالتفرق بين المسلمين، حتى يمكن العدو من أن ينال بعضهم بمكروه)[٤].

وقيد ابن مفلح الاجتماع بقيد (بحيث لا يضيّق بعضهم على بعض)[٥].

إن المدعوين في نزولهم الأودية والساحات في السفر، في نزولهم متفرقين يرضي الشيطان لأنه ينال منهم نيلاً، لأن في تفرقهم هذا انشغال كل فرد بنفسه وقيامه عليها دون أن يجمع إلى ذلك الانشغال بإخوانه المرافقين له، وتلبية ما قد يحتاجون إليه من عونٍ ومددٍ ومساعدة، تكون في بعض الأحيان من الأهمية بمكان، بحيث لو لم يُعَنْ

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٢٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٢١٩/٢.

(٤) حاشية السندي على مسند أحمد ٢٧٣/٢٩.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٤٥٤/١.

من طلب العون لربما أدى ذلك إلى وفاته، فإذا وقع هذا، فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين الصادقين، وليس أدل على ما ذكرنا، من شيوع العثور على أشخاص قد ماتوا بمفردهم ولم يستدل على موتهم إلا بانتشار الرائحة الكريهة الناتجة عن تحلل أجسادهم، كما أن انفراد المسافر عن بقية إخوانه المسافرين، فيه تعرض لأن يلحقه الضرر من عدوٍ أو لصٍ أو حيوان مفترس أو نحو ذلك، مع صعوبة إغاثة إخوانه له في الوقت المناسب، فكان في ذلك كله تعريض لجماعة المسلمين أن يلحقها الضرر والأذى، مما يجعل الشيطان يرضى بذلك ويسرّ به، فكان العلاج في الاجتماع وعدم التفرق.

ثالثاً- من آداب المدعو: الامتثال لما أرشد إليه النبي ﷺ:

هذا واضح من فعل الصحابة بعد أن أخبرهم النبي ﷺ أن تفرقهم من الشيطان "فلم ينزلوا بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض" وفي الحديث زيادة "حتى يقال لو بسط عليهم ثوب لعمّهم"[1]. وفي مسند أحمد: (حتى إنك لتقول لو بسطت عليهم كساء لعمهم أو نحو ذلك)[2].

ومثال ذلك ما فعله عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما عندما كان يأكل مع النبي ﷺ قال: ((كنتُ غلاماً في حجرِ رسولِ الله ﷺ، وكانت يَدي تطيشُ في الصَّحفةِ، فقال لي رسولُ الله ﷺ: ياغلامُ، سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يَلِيك. فما زالت تلكَ طِعمتي بعدُ))[3].

قال ابن حجر: (وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في حال الأكل، وفيه استحباب تعليم أدب الأكل والشرب، وفيه منقبة لعمر بن أبي سلمة لامتثاله الأمر ومواظبته على مقتضاه)[4].

---

(١) هذه الزيادة عند أبي داود في الحديث ٢٦٢٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٨٨).

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٩٣ رقم ١٧٧٣٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٩/٢٧٣.

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٩/٥٢٣.

ومن هذا القبيل ما رواه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضي الله عنهما: ((نِعمَ الرجُل عبدُاللَّهِ، لو كان يُصلِّي منَ الليل. قال سالمٌ: فكان عبدُ اللَّهِ لا يَنامُ منَ الليلِ إلاّ قَليلاً))[1].

ومن ثم كان على المدعو أن يبادر إلى الامتثال لما أرشد إليه النبي ﷺ، لأن في ذلك فوائد عدة ومنافع جمة تلحقه، من ذلك أن الله يحبه، لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، وإجلال الرسول من إجلال الله وتعظيمه، واتباع الرسول هو الطريق الموصلة إلى محبة الله، كما أن إيمان المدعو يزداد، ودخول الجنة والابتعاد عن النار لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح، وخلاصة الأمر، فإن المدعو بامتثاله أوامر النبي ﷺ ونواهيه يجمع بين خير الدنيا وخير الآخرة؛ لأن النبي ﷺ ما أمر إلا بمصلحة وما نهى إلا عن مفسدة، علم ذلك من علمه وجهل ذلك مَنْ جهله.

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

هذا واضح من استخدام النبي ﷺ "إن المؤكدة"، قال الطيبي: (قوله: "إنما ذلكم" وقع خبر "إن" كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2] فإن "إن" زيدت للتوكيد وطول الكلام و"ما" لتكفها عن العمل، وأصل التركيب: إن تفرقكم في هذه الشعاب ذلكم من الشيطان)[3]. فجاء التوكيد هنا ليدل أن هذا الفعل مما يجتنب ويترك، ويفعل عكسه وهو الاجتماع.

ومثال هذا التوكيد أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري ١١٢١، ومسلم ٢٤٧٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٥.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٤١/٧.

(٤) سورة النساء، آية: ١٠.

الحديث رقم (٩٦٧)

٩٦٧- وعن سهل بن عمرو – وقيل: سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري المعروف بابن الحنظليَّة، وَهُوَ من أهل بيعة الرِّضْوَانِ ﷺ، قَالَ: مَرَّ رسولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: ((اتَّقُوا الله في هذِهِ البَهَائِمِ المُعجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً)) رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

ابن الحنظلية: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٩٨).

غريب الألفاظ:

لحق ظهره ببطنه: أي: من الجوع والجهد[2].

المعجمة: التي لا تتكلم[3].

الشرح الأدبي

قول الراوي (مرَّ رسول الله ﷺ) يشير إلى أنه حدث عرضي مما يصادفه في المجتمع من أحداث طارئة تستلزم الإصلاح، وهي سنة، واجبة على كل الصالحين بعده ألا يتركوا خطأ دون تصحيح، لأن ميزة الأمة المسلمة الإصلاح، وتقويم الخطأ، وقد أسس الإسلام مبدأ عظيماً لذلك، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولكن العجيب في التصرف النبوي العالي أنه جاء رفقاً، ورحمة بالحيوان، وقد كان القوم قريباً في جاهليتهم لا يراعون حق الإنسان، وقول الرسول ﷺ (اتقوا) أمر أريد به التحذير، ونسبته إلى (واو) الجماعة يعطيه شمولاً يتعدى المخاطب الفرد إلى الجمع، وتعلق التحذير بالله يصعِّد الرهبة، ويوجب الخشية، والإشارة (هذه) تقرر المشار إليه أتم تقرير، ووصفها بـ (المعجمة) تتميم بلاغي أفاد نكتة بلاغية، وهي عدم قدرتها على

---

(١) برقم ٢٥٤٨، وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٤٥، وابن حبان، الإحسان ٥٤٥. أورده المنذري في ترغيبه ٢٣٥٦.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٧٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ج م).

الإفصاح حال وقوع الظلم عليها مما يستلزم من صاحبها استشعار حالتها، ورعاية طبيعتها، وقوله (فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً) أمر مؤكد للتحذير السابق المنبثق من الأمر بتقوى الله، وتكرار كلمة صالحة لأنها المعنى الذي يريد أن يقرره، وهو لب الحديث الذي يجعل الصلاح مبدأ التعامل، ومنتهاه حتى مع الحيوان.

فقه الحديث

١- لا يجوز تحميل الدابة فوق طاقتها:

قال النووي: (لا يجوز أن يحمّل الدابة فوق طاقتها، ولو استأجرها فحملها المؤجر ما لا تطيق لم يجز للمستأجر موافقته؛ لحديث شداد بن أوس ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء))[1] ولقوله ﷺ: ((لا ضرر ولا ضرار))[2] ولحديث سهل بن عمرو ﷺ قال: (مرّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: ((اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة واركبوها صالحة، وكلوها صالحة))[3])[4].

٢- استحباب الاستتار عند قضاء الحاجة: قال النووي عن حديث عبدالله بن جعفر ﷺ: "وفي هذا الحديث استحباب الاستتار عند قضاء الحاجة بحائط أو هدف أو وهدة أو نحو ذلك، بحيث يغيب جميع شخص الإنسان عن أعين الناظرين، وهذه سنة متأكدة، والله أعلم"[5].

٣- جواز الإرداف على الدابة إن كانت مطيقة:

قال النووي: (يجوز الإرداف على الدابة إذا كانت مطيقة، ولا يجوز إذا لم تكن مطيقة)[6].

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣١٣/١ رقم ٢٨٦٥، وابن ماجه ٢٣٤١ من حديث ابن عباس ﷺ. وقال النووي في الأربعين النووية: الحديث ٣٢: حديث حسن وله طرق يقوى بعضها ببعض، وانظر تخريجه بتوسع في: تخريج المسند ٥٥/٥ . جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٠٧/٢ .

(٣) أخرجه أبو داود ٢٥٤٨ وهو حديث الباب.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩١/٤-١٩٢ .

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣١/٤/٢ .

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٢/٥ .

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الشفقة والرحمة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالحيوان.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

أولاً- من صفات الداعية: الشفقة والرحمة:

هذا واضح من الحديث كله، والحديث وقع عند أحمد وابن حبان بلفظ ((وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ، فَمَرَّ بِبَعِيرٍ مُنَاخٍ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخِرَ النَّهَارِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَقَالَ: أَيْنَ صَاحِبُ هَذَا الْبَعِيرِ؟ فَابْتُغِيَ، فَلَمْ يُوجَدْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ، ارْكَبُوهَا صِحَاحاً، وَكُلُوهَا سِمَاناً، كَالْمُتَسَخِّطِ آنِفاً))[1]. وبوب ابن حبان على هذا الحديث في الموضع الأول فقال: (ذكر الزجر عن ترك تعاهد المرء ذوات الأربع بالإحسان إليها)[2].

ومن هذا القبيل ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها ركبت بعيراً فكانت فيه صعوبة فجعلت تُرَدِّدُه فقال لها رسول الله ﷺ ((عَلَيْكِ بِالرفْقِ إِنَّ الرفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))[3].

قال أبو العباس القرطبي: (إن الله تعالى يُعطي على الرفق في الدنيا من الثناء الجميل، وفي الآخرة من الثواب الجزيل، ما لا يُعطي على العنف الجائز. وبيانُ هذا بأن يكون أمرٌ ما من الأمور سوَّغ الشرعُ أن يتوصل إليه بالرفق وبالعنف، فسلوكُ طريق الرِّفق أولى لما يحصل عليه من الثناء على فاعله بحُسن الخلق، ولما يترتَّب عليه من حسن الأعمال، وكمال منفعتها، ولهذا أشار ﷺ بقوله: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه". وضدُّه الخُرق والاستعجال، وهو مفسد للأعمال وموجبٌ لسوء الأحدوثة، وهو المعبَّر عنه بقوله: "ولا نزع من شيء إلا شانه". أي: عابه، وكان له شيناً. وأما الخُرق والعنف:

---

(١) أخرجه أحمد ١٨١/٤ رقم ١٧٦٢٥، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٦٦/٢٩.

(٢) صحيح ابن حبان، الحديث ٥٤٥.

(٣) أخرجه مسلم ٧٩-٢٥٩٤.

فمفوِّتان مصالح الدنيا، وقد يفضيان إلى تفويت ثواب الآخرة؛ ولذلك قال ﷺ: ((مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ))[١]. أي: يفضي ذلك به إلى أن يحرم خير الدنيا والآخرة)[٢].

وقال د. القرضاوي: (ومن مكارم الأخلاق التي عنيت بها السنة التعامل مع الناس بالرفق لا بالعنف، وباللين لا بالخشونة، وبالسماحة لا بالفظاظة، ومجاهدة نوازع الغضب، وعدم الانتصار للنفس، وكظم الغيظ والعفو عند المقدرة، والحلم عند السَّورة، وتلك بعض مكارم الأخلاق التي يرشد إليها قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣])[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالحيوان:

هذا واضحٌ من الحديث قال ابن حبان: (في قوله ﷺ "اركبوها صحاحاً" كالدليل على أن الناقة العجفاء الضعيفة يجب أن يتنكَّب ركوبها[٥] إلى أن تصح، وفي قوله ﷺ "كلوها سماناً" دليل على أن الناقة المهزولة التي لا نِقْي[٦] لها يستحب ترك نحرها إلى أن تسمن)[٧].

وقال الطيبي (قوله: "البهائم المعجمة" قال البيضاوي: المعجمة التي لا تقدر على النطق، فإنها لا تطيق أن تفصح عن حالها وتتضرع إلى صاحبها من جوعها وعطشها، وفيه دليل على وجوب علف الدواب، وأن الحاكم يجبر المالك عليه، وقوله "فاركبوها صالحة" ترغيب إلى تعهدها بالعلف لتكون سمينة صالحة للأكل)[٨].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٢.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٧٨/٦.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ص ٢٥٩، وانظر فيه مزيد بيان.

(٥) أي تجنب ركوبها. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ك ب).

(٦) قال ابن عبد البر: النقي في كلام العرب الشحم والودك. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٠٨/٢٣، موسوعة شروح الموطأ.

(٧) صحيح ابن حبان ٣٠٤/٢ بعد الحديث ٥٤٥ ولفظه عنده: "اركبوها صحاحاً وكلوها سماناً".

(٨) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٨٧/٦.

وقال العظيم آبادي: (المعنى خافوا الله في هذه البهائم التي لا تتكلم، فتسأل ما بها من الجوع والعطش والتعب والمشقة "وكلوها صالحة" أي حال كونها صالحة للأكل أي سمنة، قاله العزيزي)[١].

وقال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أمر بالرفق بالبهائم وأنه يجب على الإنسان أن يعاملها معاملة حسنة، فلا يكلفها ما لا تطيق،ولا يقصر عليها في أكل أو شرب)[٢].

جاء في الموسوعة الفقهية: (حكم الرفق على وجه العموم الاستحباب، فهو مستحب في كل شيء... ومما ورد في الرفق بالحيوانات النهي عن صبرها وتعذيبها، وبيان فضل سَاقِيها والإنفاق عليها، سواء أكانت من الأنعام أم من غيرها. فمما ورد في النهي عن صبر البهائم ما أخرجه مسلم في صحيحه ((مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْراً وَهُمْ يَرْمُونَهُ. وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ. فَلَمَّا رَأَوُا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هذَا؟ لَعَنَ اللّهُ مَنْ فَعَلَ هذَا. إنَّ رَسُولَ اللّهِ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ، غَرَضاً))[٣]. وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((نَهَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْراً))[٤].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً))[٥].

ومعنى صبر البهائم كما قال العلماء أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه، وهو معنى لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً، أي لا تتخذوا الحيوان غرضاً ترمون إليه كالغرض "أي الهدف" من الجلود وغيرها، وهذا النهي للتحريم، ولهذا قال ﷺ في رواية ابن عمر رضي الله عنهما: "لعن الله من فعل هذا"، ولأنه تعذيب للحيوان، وتضييع لماليته،

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٥١٥، ومسلم ١٩٥٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٥٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٩٥٧.

وتفويت لذكاته إن كان مذكى، ولمنفعته إن لم يكن مذكى. حتى ما يذبح من الحيوان لأكله أمر النبي ﷺ بالرفق به، بإحداد الشفرة وإراحة الذبيحة. قال ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ. وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ. وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ. فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))[1].

ومما ورد في فضل من سقى حيواناً رفقاً به، ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطَشُ، فوجدَ بئراً فنزَلَ فيها فشرِب، ثمَّ خرجَ فإذا كلبٌ يَلهَثُ يأكلُ الثَّرى منَ العطَشِ، فقال الرجل: لقد بلغَ هذا الكلبَ منَ العطش مثلُ الذي كان بلغَ بي، فنزلَ البئرَ فملأَ خُفَّه ثم أمسَكَهُ بفيهِ فسقى الكلبَ، فشكرَ اللّهُ له فغفَر له: قالوا: يارسولَ الله، وإنَّ لنا في البَهائم أجراً؟ فقال: في كلِّ ذاتِ كبدٍ رَطبةٍ أجرٌ))[2].

وأما النفقة على الحيوان رفقاً ورحمة به، فقد اتفق الفقهاء على وجوب الإنفاق على المملوك منه ديانة، واختلفوا في الإجبار عليها والقضاء بها على من عنده بهيمة لا ينفق عليها، فذكر الحنفية في ظاهر الرواية أنه لا يجبر عليها، لأن الجبر على الحق يكون عند الطلب والخصومة من صاحب الحق، ولا خصم، فلا يجبر، ولكن تجب فيما بينه وبين الله تعالى، وروي عن أبي يوسف أنه يجبر عليها، لأن في تركه جائعاً تعذيب الحيوان بلا فائدة وتضييع المال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك كله، ولأنه سفه لخلوه عن العاقبة الحميدة، والسفه حرام عقلاً.

وذكر المالكية أن نفقة الدابة إن لم تكن ترعى، واجبة ويقضي بها، لأن تركه منكر، وإزالته يجب القضاء به، خلافاً لقول ابن رشد يؤمر من غير قضاء، ودخل في الدابة هرة عميت فتجب نفقتها على من انقطعت عنده حيث لم تقدر على الانصراف، فإن قدرت عليه لم تجب نفقتها، لأن له طردها.

ومذهب الشافعية في هذه المسألة قريب مما ذكره المالكية وأبو يوسف من

(١) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٦٦، ومسلم ٢٢٤٤.

الحنفية، فقد ذكر النووي في الروضة أن من ملك دابة لزمه علفها وسقيها، ويقوم مقام العلف والسقي تخليتها لترعى وترد الماء، إن كانت مما يرعى ويكتفى به لخصب الأرض ونحوه ولم يكن مانع ثلج وغيره، فإن أجدبت الأرض ولم يكفها الرعي لزمه أن يضيف إليه من العلف ما يكفيها، ويطرد هذا في كل حيوان محترم "يحرم التعرض له"، وإذا امتنع المالك من ذلك أجبره السلطان في المأكولة على بيعها، أو صيانتها عن الهلاك بالعلف أو التخلية للرعي أو ذبحها. وفي غير المأكولة على البيع أو الصيانة فإن لم يفعل ناب الحاكم عنه في ذلك على ما يراه ويقتضيه الحال، وعن ابن القطان أنه لا يخليها لخوف الذئب وغيره، فإن لم يكن له مال باع الحاكم الدابة أو جزءاً منها أو أكراها، فإن لم يرغب فيها لعمى أو زمانة "مرض مزمن" أنفق عليها بيت المال.

وقول الحنابلة في هذه المسألة كقول الشافعية، فقد جاء في الكافي أن من ملك بهيمة لزمه القيام بعلفها لما روى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ ربَطَتْها حتى ماتَت فدخَلَتْ فيها النارَ، لا هي أطعَمَتْها ولا سقَتْها إذ حبَسَتْها ولا هيَ ترَكتها تأكلُ من خَشاش الأرض))[1]. فإن امتنع من الإنفاق عليها أجبر على بيعها، فإن أبى أكريت وأنفق عليها، فإن أمكن وإلا بيعت، كما يفرق بينه وبين زوجته إذا أعسر بنفقتها.

وتذكر كتب الحنابلة أيضاً أنه يحرم على مالك الدابة أن يحملها ما لا تطيق حمله، لأن الشارع منع تكليف الإنسان والحيوان ما لا يطيق، ولأن فيه تعذيباً للحيوان الذي له حرمة في نفسه وإضراراً به. ويحرم أن يحلب من لبنها ما يضر بولدها، لأن كفايته واجبة على مالكه، ويسن للحالب أن يقص أظفاره لئلا يجرح الضرع، إلى غير ذلك مما ذكروه في هذا الباب)[2].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة..." وجاء هذا الأمر

---

(١) أخرجه البخاري ٢٣٦٥، ومسلم ٢٢٤٢.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢/٢٩١-٢٩٧ ومصادرها ومراجعها.

مناسباً لحالة إهمال البعير من قبل صاحبه، فقد لحق ظهره ببطنه من الجوع[1]، فأمر رسول الله ﷺ بالعناية بالبعير والاهتمام بأكله ورعايته، مذكراً في ذلك بالله عز وجل، ليكون امتثال الأمر واقعاً وحادثاً من قِبَل المدعوين بأسرع ما يكون.

(١) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

الحديث رقم (٩٦٨)

٩٦٨- وعن أَبي جعفر عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما ، قَالَ: أردفني رسولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، وَأسَرَّ إليَّ حَدِيثاً لا أُحَدِّثُ بِهِ أحَداً مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أحَبَّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رسولُ الله ﷺ لِحاجَتِهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ. يَعنِي[1]: حَائِطَ نَخْلٍ. رواه مسلم[2] هكَذَا مُختصراً.

وزادَ فِيهِ البَرْقانيُّ[3] بإسناد مسلم -بعد قَوْله: حَائِشُ نَخْلٍ- فَدَخَلَ حَائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ، فَإذا فِيهِ جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأى رَسولَ الله ﷺ جَرْجَرَ وذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأتَاهُ النَّبيُّ ﷺ فَمَسَحَ سَرَاتَهُ - أي[4]: سِنَامَهُ - وَذِفْرَاهُ فَسَكَنَ، فَقَالَ: **((مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟))** فَجَاءَ فَتَىً مِنَ الأنْصَارِ، فَقَالَ: هَذَا لِي يَا رسولَ الله. قَالَ: **((افَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هذِهِ البَهِيمَةِ الَّتي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاهَا؟ فَإنَّهُ يَشْكُو إلَيَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدْئِبُهُ))** رواه أَبُو داود[5] كرواية البرقاني.

قوله: "ذِفْرَاه" هو بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء، وهو لفظ مفرد مؤنث. قال أهل اللغة: الذِّفرَى: الموضع الذي يَعْرف البعير خلف الأذن، وقوله: "تُدْئِبُهُ" أي تتعبه.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن جعفر بن ابي طالب: علم من أعلام الصحابة، وفضلائهم، صحابي ابن صحابي، وهو: عبدالله بن جعفر بن أبي طالب القرشيُّ الهاشميُّ، كان يكنى بأبي

---

(١) قال مسلم: قال ابن أسماء في حديثه: يعني: حائط نخل.

(٢) برقم ٣٤٢/٧٩.

(٣) نقله المؤلف عن الجمع بين الصحيحين للحميدي ٣٣١/٣ رقم ٢٧٨٣ ونصه: وفي هذا الحديث زيادة حذفها مسلمٌ، واخرجها البرقاني في كتابه مع الحديث، من رواية عبد الله بن محمد بن أسماء، ورواها أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، عن شيبان بن أبي شيبة بالإسناد الذي أخرجه مسلم متّصلة بقوله: (وكان أحب ما استتر به لحاجته هدفٌ او حائش نخل) ثمّ ذكره.

(٤) لفظ الحميدي في جمعه: (إلى) بدل: (أي).

(٥) برقم ٢٥٤٩.

جعفر المدني، وقيل بأبي هاشم، وكان يلقب بالجواد ابن الجواد، وكان يسمى بحرُ الجود، ويقال له قطب السخاء، ويقال: إنه لم يكن في الإسلام أسخى منه.

ولد بأرض الحبشة، ولدته أمه أسماء بنت عميس، وهو أول مولود وُلِدَ في الإسلام بأرض الحبشة، وقدم مع أبيه المدينة وحفظ عن رسول الله ﷺ وروى عنه، ووجّه رسول الله ﷺ أباه إلى مؤتة فرزقه الله الشهادة ولقب بجعفر الطيار، ونشأ عبدالله بن جعفر وإخوته في حجر رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يعامله معاملة أبناء أهل بيته، ودعا له رسول الله ﷺ بالبركة، وذكر أنه يشبهه خَلْقاً وخُلقاً، فعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه قال ((بعث رسول الله ﷺ جيشاً استعمل عليهم زيد بن حارثة فإن قُتِل زيد أو استشهد فأميركم جعفر، فإن قُتِل أو استشهد فأميركم عبدالله بن رواحة... ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل أو استشهد.. قال: فأمهل ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم ادعوا إليّ ابنيْ أخي قال: فجيء بنا كأننا أفرُخٌ، فقال: ادعوا لي الحلاق فجيء بالحلاق فَحلَق رؤوسنا، ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبدالله فشبيه خَلْقِي وخُلُقي، ثم أخذ بيدي فأشالها[1]، فقال: اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبدالله في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرات، قال: فجاءت أمنا، فذكرت له يُتْمنا، وجعلت تُفْرِح له، فقال: العَيْلَة[2] تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟))[3]

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تُلُقّيَ بالصبيان من أهل بيته، قال: وإنه قدم مرة من سفر، قال: فسُبِق بي إليه، قال: فحملني بين يديه، قال: ثم جيء بأحد ابنيْ فاطمة، إما حَسَن، وإما حسين، فأردفه خلفه، قال: فدخلنا المدينة ثلاثةً على دابة[4].

---

(١) أشالها: أي رفعها.

(٢) العَيْلَة بمعنى الفقر والفاقة والحاجة.

(٣) أخرجه أحمد ٢٠٤/١ رقم ١٧٥٠ وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٢٧٩/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٤٢٨.

وعن عبدالله بن جعفر -أيضاً- أنه قال: ((أردفني رسول الله ﷺ ذات مرة خلفه، فأسرّ إليَّ حديثاً لا أُخبرُ به أحداً))[١].

وكان عبدالله بن جعفر جوّاداً، مُمَدَّحاً، كريماً، ظريفاً، خليقاً، عفيفاً، لا يأخذ أجراً على معروف، ما سابقه أحد إلى معروف إلا سبقه، أتى البصرة والكوفة، والشام.

مات النبي ﷺ وعمر عبدالله بن جعفر عشر سنوات، ومات عبدالله سنة (٨٠) وهو ابن (٨٠) سنة، حضر غسله وكفّنه وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان، وهو يومئذ أمير المدينة، وذلك العام يعرف بعام الجحاف لسيلٍ كان بمكة أجحف بالحاج، وذهب بالإبل وعليها الحمولة، وقال المدائني، مات سنة (٨٤) أو (٨٥) وقال أبو عبيد: توفي سن (٨٤)، وقيل مات سنة (٩٠) وهو ابن (٩٠) سنة[٢].

غريب الألفاظ:

لحاجته: البول والغائط[٣].

الهدف: هو ما ارتفع من الأرض[٤].

حائش نخل: وهو النخل الملتف المجتمع كأنه لالتفافه يحوش بعضه بعضاً[٥].

حائطاً: أي بستاناً[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٤٢٩

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٨٧، ٣٨٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٩٩/٣-٢٠١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٧٥٢، ٧٥٣، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٠١/٤، ١٠٢، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣١٣/٢، وسير أعلام النبوة ٤٥٦/٣-٤٦٢، والسندي ٢٧١/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٧٦/٤، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١١٧١/٢-١١٧٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (ح و ج).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ د ف).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (ح و ش).

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

جرجر: أي ردّد صوته في حنجرته عند الضجر. وعند أبي داود ٢٥٤٩: حنّ: أي رجع صوته وبكى[1].

ذرفت عيناه: أي سال من عيني الجمل الدمع حين رآه ﷺ[2].

ذفراه: هو بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء، وهو لفظ مفرد مؤنث. قال أهل اللغة: الذِّفرى: الموضع الذي يعرق من البعير خلف أذنه[3].

تدئبُهُ: أي: تتعبه[4].

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري خلى من المؤكدات؛ لأن الراوي يحكي حدثا خصا به مع رسول الله ﷺ وقوله (أردفني رسولُ الله ﷺ ذاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ) يدل على تواضع الرسول ﷺ وحسن خلقه، وحبه لأبي جعفر ﷺ والرديف الراكب خلف غيره، وقوله (خلفه) توكيد للفعل، وفيه خصوصية، وشرف الركوب خلف الرسول ﷺ، وقوله (وأسر إلى حديثاً) التعبير بالإسرار يوحي بالخصوصية، وتنكير كلمة (حديثاً) للتعظيم، وقوله (لا أحدث به أحدا من الناس) خبر قصد به تأكيد الخصوصية، والجملة صفة للحديث، وبين أحد ث، وأحد جناس يقرر المعنى ويؤكده، وقوله (وكان أحب ما يستتر) التعبير بكان يشير إلى العادة، وأفعل التفضيل (أحب) يشير إلى اختياره في العادة (حائش نخل) التعبير بالحائش، وهو الحائط من النخل يشير إلى الستر لارتفاعه، وبعده عن الناس، والرواية الثانية تشير إلى صورة من صور الرحمة النبوية بالحيوان، مع تجاوب حي فعال يدلل على رأفة من نوع خص به ﷺ وقول الراوي عن الجمل (فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ الله ﷺ) يدل على تجاوب الجمل مع الرسول ﷺ، ومعرفته له، وهي من معجزات النبي،

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ر ج ر)، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٧٧، وانظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

(٣) رياض الصالحين ٣٧٧.

(٤) المرجع السابق ٣٧٧.

وخصوصياته، وقوله (جَرْجَر) الجرجرة تردد صوت البعير في حلقه، وهو كناية عن الشكوى، (وذَرَفَتْ عَيْنَاه) كناية عن البكاء، وقول الرسول ﷺ (فَأتَاهُ النَّبيُّ ﷺ) يشير إلى القصد، والإرادة مما يعكس عظم الرحمة التي حركته تجاوباً مع حيوان أعجم، تؤكدها لمسة حنان، ومودة كما يفعل أحدنا مع طفله الصغير إذا بكى رحمة به في قوله (فَمَسَحَ سَرَاتَهُ -أيْ: سِنَامَهُ- وَذِفْرَاهُ) والفاء تشير إلى سرعة التجاوب في قوله (فَسَكَنَ)، والتعبير بالسكون الذي يوحي بالرضا، والطمأنينة، والأمان واستفهام الرسول بعد معرفة حال الجمل يدل على التجاوب الفعلي البناء الذي يغير الوضع الخطأ، وليس مجرد التعاطف القلبي الذي لا يتعدى التأثر الداخلي قال: (مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟) وهذا الاستفهام يحمل مع طلب الفهم تنبيهاً إلى الخطأ، ولوماً على هذه الحال، والسؤال بلفظ (رب) المضافة للإشارة تقرر أن التقصير في لوازم الربوبية من العناية، والحفظ، وقوله (أفَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هذِهِ البَهِيمَةِ الَّتي مَلَّكَكَ اللَّهُ إيَّاهَا؟) استفهام انكار، وتوبيخ صعَّده بالإشارة في قوله: (هذه البهيمة) وعلله بقوله (فَإنَّهُ يَشْكُو إلَيَّ أنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ) والتعبير بالجوع، والدأب إشارة إلى تضعيف العناء عليه، لأنه جمع مع الدأب جوعاً، والحديث يحكي أروع أمثلة الرحمة، والتجاوب بين الإنسان، والحيوان في عصر لم يعرف الرحمة حتى بالإنسان.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مكانة عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الإرداف على الدابة مع الرفق بها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: كتمان السر والمحافظة عليه وعدم إفشائه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الاستتار عند قضاء الحاجة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة شكوى الجمل للنبي ﷺ.

سادساً: من أساليب الدعوة: الاستفهام والتوكيد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مكانة عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما:

تتضح مكانة عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما من قوله: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه وأسرّ إليّ حديثاً". فدل ذلك على مكانته وعلو منزلته.

قال الذهبي: (عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم السيد العالم أبو جعفر القرشي الهاشمي الحبشي المولد المدني الدار الجواد بن الجواد ذي الجناحين. له صحبة ورواية، عداده في صغار الصحابة، استشهد أبوه يوم مؤتة فكفله النبي ﷺ ونشأ في حجره. وهو آخر من رأى النبي ﷺ وصحبه من بني هاشم، وكان كبير الشأن كريماً جواداً يصلُح للإمامة. هاجر جعفر إلى الحبشة فوَلَدت له أسماء عبدالله وعوناً ومحمداً.

عن عبدالله بن جعفر ((أَنَّ النبيَّ أتاهم بعدما أخبرهم بقَتْلِ جعفر بعد ثالثة، فقال: لا تَبكُوا أخي بعدَ اليوم ثم قال: ائتوني ببني أخي، فجيءَ بنا كأننا أفرخ، فقال: ادعوا لي الحلاق فأمره، فحلَقَ رؤوسنا، ثم قال: أمّا مُحمدُ فشبْهُ عمِّنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيهُ خَلْقِي وخُلُقي ثم أخذ بيدي، فأشالها[1]. ثم قال: اللهم اخلُفْ جعفراً في أهله، وبارِكْ لعبد الله في صفقته قال: فجاءتْ أُمُّنا، فذكرتْ يُتمنا. فقال: العيلةَ[2] تخافينَ عليهم وأنا وَلِيُّهُم في الدُّنيا والآخرة؟))[3].

قال الشعبي: كان ابن عمر إذا سلم على عبدالله بن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين[4]... ولعبد الله بن جعفر أخبار في الجود والبذل، وكان وافر الحشمة كثير التنعم. قال الواقدي ومصعب الزبيري: مات في سنة ثمانين ...)[5].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الإرداف على الدابة مع الرفق بها:

هذا واضح من الحديث: "أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه".

قال النووي: (لا يجوز أن يحمّل الدابة فوق طاقتها، ولو استأجرها فحملها المؤجر ما

---

(١) أي رفعها، القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي ١٠٢١.

(٢) العيلة: الفقر، انظر النهاية في غريب الحديث ٦٥٤، والقاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي في (ع ل ي).

(٣) أخرجه أحمد ٢٠٤/١، رقم١٧٥٠، وقال محققو المسند: إسناده صحيح اهـ، وقد صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٥٣٢).

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٠٩.

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢٣٦٠/٢-٢٣٦١، الدولية، وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٧٥٢-٧٥٣.

لا تطيق لم يجز للمستأجر موافقته، لحديث شداد بن أوس ﷺ قال: "إن النبي ﷺ قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[١] ولقوله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار"[٢] ولحديث سهل بن عمرو ﷺ قال: "مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: "اتقوا الله في البهائم المعجمة واركبوها صالحة وكلوها صالحة" رواه أبوداود[٣] بإسناد صحيح... ويجوز الإرداف على الدابة إذا كانت مطيقة ولا يجوز إذا لم تكن مطيقة. فأما دليل المنع إذا لم تطق فالأحاديث السابقة قريباً مع الإجماع. وأما جوازه إذا كانت مطيقة ففيه أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة. منها: حديث أسامة بن زيد ﷺ أن النبي ﷺ أردفه حين دفع من عرفات إلى المزدلفة ثم أردف الفضل بن عباس من مزدلفة إلى منى" رواه البخاري ومسلم[٤]... وفي صحيح مسلم[٥] عن عبدالله بن جعفر قال: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّىَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِى إِلَيْهِ فَحَمَلَنِى بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ جِىءَ بِأَحَدِ ابْنَىْ فَاطِمَةَ فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ قَالَ فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلاَثَةً عَلَى دَابَّةٍ)). وفي المسألة أحاديث كثيرة، وإذا أردف كان صاحب الدابة أحق بصدرها، ويكون الرديف وراءه، إلا أن يرضى صاحبها بتقديمه لجلالته أو غير ذلك)[٦].

وأما الرفق بالدابة فيستفاد من مسح النبي ﷺ سنام الجمل وذفراه حتى سكن، وسؤاله ﷺ عن صاحبه، ثم أمره ﷺ صاحبه بالإحسان إليه، والرفق، بعد أن شكا الجمل إليه، أنه يتعبه ويجيعه.

فكان هذا طلبًا من المدعوين إلى أن يرفقوا بالحيوان ويحسنوا إليه.

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٣٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٩٥، ١٨٩٦). وانظر جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/ ٢٠٧ وما بعدها.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٥٣٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٢١).

(٤) أخرجه البخاري ١٦٦٩، ومسلم ١٢٨٠.

(٥) أخرجه مسلم ٢٤٢٨.

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/ ١٩١-١٩٢، وانظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/ ١٢٢٠.

قال العز بن عبدالسلام: (الإحسان إلى الدواب المملوكة: وذلك بالقيام بعلفها، أو رعيها بقدر ما تحتاج إليه، وبالرفق في تحميلها ومسيرها، فلا يكلفها من ذلك ما لا تقدر عليه، وبأن لا يحلب من ألبانها إلا ما فضل عن أولادها، وأن يهنأ جرياها[١]، ويداوي مرضاها. وإن ذبحها: بأن يحد شفرته، ويسرع جرته، مع إضجاعها برفق، وأن لا يتعرض لها بعد ذبحها حتى تبرد، وإن كان بعضها يؤذي بعضاً بنطح أو غيره فليُفرِّق بينها وبين ما يؤذيها فـ"في كل كبدٍ رطبة أجر". و﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٢].

و((لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)).

وإن رأى من حمل الدابة أكثر مما تطيق فليأمره بالتخفيف عنها، فإن أبى فليطرحه بيده، فـ ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يقدر فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يقدر فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمانِ))[٣].

وقال ﷺ: ((إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ، فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ. وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ، فَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا))[٤]. ((وقد غفر لبغيٍّ بسقي كلب))[٥])[٦].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: كتمان السرّ والمحافظة عليه وعدم إفشائه:

هذا واضح من قول عبدالله بن جعفر "وأسر ﷺ إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس"[٧].

وكان هذا أدب الصحابة رضي الله عنهم، قال أنس بن مالك: ((أسرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ سراً فما أخبرتُ به أحداً بعدَه، ولقد سألتني أمُّ سُلَيم فما أخبرتها به))[٨].

---

(١) أي عالج جرب إبله بالقطران. يقال: هنأت البعير أهنؤه: إذا طليته بالهناء وهو القطران. النهاية في (هـ ن أ).

(٢) سورة الزلزلة، آية: ٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٩٢٦.

(٦) أخرجه البخاري ٣٣٢١، ومسلم ٢٢٤٥.

(٧) شجرة المعارف والأحوال ص ١٦١ - ١٦٢.

(٨) أخرجه البخاري ٦٢٨٩، ومسلم ١٤٦-٢٤٨٢.

وفي رواية عند مسلم عن ثابت البناني عن أنس قال: ((أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ. قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا. فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ. فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي. فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ. قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ. قَالَتْ: لاَ تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ أَحَداً. قَالَ أَنَسٌ: وَاللّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَداً لَحَدَّثْتُكَ، يَا ثَابِتُ))[1].

قال ابن حجر: (قال بعض العلماء: كأن هذا السر كان يختص بنساء النبي ﷺ وإلا فلو كان من العلم ما وسع أنساً كتمانه)[2].

وقد قال أبوبكر رضي الله عنه: ((فلم أكُنْ لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ))[3].

جاء في الموسوعة الفقهية: (ما استكتمك إياه الغير وائتمنك عليه فلا يجوز بثه وإفشاؤه للغير، حتى أخص أصدقاء وأصحاب صاحب السر، فلا يكشف شيئاً منه ولو بعد القطيعة بين من أسر ومن أُسر إليه، فإنه ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن)[4].

فمن الوفاء أن يحافظ المسلم على سرّ أخيه فيكتمه وإلا كان غادراً، ومن حق المسلم على المسلم أن يكتم عنه ما يكون قد وصل إليه من سرّه، خاصة إذا كان قد تعهد له بحفظ هذا السرّ وعدم إذاعته، ومن هنا كان كتمان السرِّ نوعاً من الوفاء بالعهد، وقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾[5][6].

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الاستتار عند قضاء الحاجة

وهذا واضح من الحديث، "وكان أحبَّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هَدَفٌ أو حائش نخل يعني حائط نخل".

---

(١) أخرجه مسلم ١٤٥-٢٤٨٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٨٢/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٢٢ مطولاً.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٥ ومصادرها ومراجعها.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٦) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٢٠٦/٦.

قال النووي: (أما الهدف فهو ما ارتفع من الأرض وأما حائش النخل فقد فسره في الكتاب بحائط النخل وهو البستان وهو تفسير صحيح... وفي هذا الحديث من الفقه استحباب الاستتار عند قضاء الحاجة بحائط أو هدف أو وهدة أو نحو ذلك بحيث يغيب جميع شخص الإنسان عن أعين الناظرين، وهذه سنة متأكدة)[١].

وقال ابن القيم عن هديه ﷺ في قضاء الحاجة: (وكان إذا ذهب في سفره للحاجة انطلق حتى يتوارى عن أصحابه، وربما كان يبعد نحو الميلين. وكان يستتر للحاجة بالهدف تارةً وبحائش النخل تارة وبشجر الوادي تارة)[٢].

وقال د. محمد رواس قلعه جي عن آداب قضاء الحاجة: (إذا خرج إلى الفضاء لقضاء الحاجة فيستحب له أن يبعد عن الناس بحيث لا يسمعون منه صوتاً ولا يشمون ريحاً ولا يميزون عورة لو انكشفت، إن لم يكن هناك ساتر)[٣].

خامساً- من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة: شكوى الجمل للنبي ﷺ:

هذا واضح من الحديث عند أبي داود، وقد ساق هذا الحديث البيهقي في دلائل النبوة[٤] وابن كثير في كتاب دلائل النبوة من السيرة النبوية من كتاب البداية والنهاية[٥] وقد اعتنى ابن كثير بإيراد طرق حديث البعير وقال (وقد اعتنى الحافظ أبو نعيم بحديث البعير في كتاب "دلائل النبوة" وطرقه من وجوهٍ كثيرة)[٦].

وقال ابن عثيمين: (وهذا من آيات النبي ﷺ أن البهائم العجم تشكو إليه إذا رأته ﷺ لأن هذا من آيات الله التي يؤيد الله بها رسوله ﷺ فإن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا أعطاه آيات تدل على نبوته لئلا يكذبه الناس، لأن الناس إذا جاء إليهم رجل وقال: أنا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٧/٤/٢، .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١٧١/١.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٥٣/١.

(٤) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ٢٦/٦.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٩/٩-١٠.

(٦) المرجع السابق ١٦/٩.

رسول الله ﷺ لكم بدون آية ما صدقوه. لكن الله تعالى يؤتي رسله آيات تدل على أنهم صادقون، وأعظم آيات أعطيها الأنبياء ما أعطيه النبي ﷺ وقد ذكر ابن كثير في "البداية والنهاية"[١] وغيره أيضاً أنه ما من آية لنبي من السابقين إلا كان لرسول الله ﷺ مثلها أو أعظم منها، إما له شخصياً وإما لأتباعه، وذكر على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة، لكن لم يعط أحد من الأنبياء مثل ما أعطى النبي ﷺ من هذا الوحي - القرآن- ولهذا قال: ((إِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٢]، لأن هذا الوحي باق إلى يومنا هذا، والناس كلما قرأوه ازدادوا إيماناً، لما فيه من الآيات العظيمة الدالة على أن رسول الله ﷺ رسول الله حقاً)[٣].

سادساً- من أساليب الدعوة: الاستفهام والتوكيد:

أما الاستفهام فظاهر في قوله ﷺ "من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟ "وجاء الاستفهام مناسباً هنا، حتى يعرف النبي ﷺ صاحب هذا الجمل لكي يوصيه بالجمل خيراً لأنه قد شكا الجمل إليه حاله، ولهذا لما عرف النبي ﷺ صاحبه استخدم معه أسلوب الاستفهام المنفي "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟" ليكون أبلغ في التقريع واللوم وبيان التقصير في رعاية الجمل، لأن النبي ﷺ يعلم حال الجمل بشكواه إليه، فلا ينتظر جواباً من صاحب الجمل بهذا الاستفهام، وإنما يريد معاتبته ولومه، ولهذا أتبع الاستفهام بالتوكيد بقوله: "فإنه يشكو إليّ أنك تجيعه وتدئبه". فكان هذا دعوة لصاحب الجمل ولغيره أن يرفق بالحيوان ولا يتعبه ولا يهمله.

---

(١) المرجع السابق ٨/٥٤٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٨١، ومسلم ١٥٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٠.

الحديث رقم (٩٦٩)

٩٦٩- وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا إِذَا نَزَلْنَا مَنْزِلاً، لاَ نُسَبِّحُ حَتَّى نَحُلَّ الرِّحَالَ. رواه أَبُو داود[١] بإسناد عَلَى شرط مسلم.

وقوله: "لا نُسَبِّحُ": أي لا نصلي النافلة، ومعناه: أنا -مع حرصنا على الصلاة- لا نقدمها على حط الرحال وإراحة الدواب.

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لا نُسبحُ: أي لا نصلي النافلة ومعناه: أنّا مع حرصنا على الصلاة لا نقدمها على حط الرحال وإراحة الدواب[٢].

الرحال: جمع رَحْل: وهو ما يُوضَعُ على ظهر البعير، وكل شيء يعدُّ للرحيل من وعاءٍ للمتاع وغيره[٣].

الشرح الأدبي

قول أنس رضي الله عنه كنا يشير إلى أنها عادة القوم في النزول ليلا يدل على ذلك استخدام أسلوب الشرط الذي يربط النزول بترك صلاة النافلة مع حرصهم عليها حتى يريحوا دوابَّهم، وهو من الأدب العالي الذي علمهم إياه النبي في الرفق بالحيوان، والتعبير بإذا في الشرط يشير إلى التحقق، وقوله نزلنا منزلا فيه جناس يؤكد المعنى، والتعبير عن صلاة النافلة بالسبح من المجاز بتسمية الكل بجزئه، إشارة إلى شرف هذا الجزء، وهو التسبيح المتضمن لتنزيه الله تعالى.

---

(١) برقم ٢٥٥١. قال الهيثمي في المجمع ١٠/١٣٢: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده جيد.

(٢) رياض الصالحين ٢٧٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ح ل).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الرفق بالحيوان.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: صلاة النافلة في السفر.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من قول أنس رضي الله عنه: "كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبّح حتى نَحُلَّ الرحال". فهذا إخبار عن حال صحابة رسول الله ﷺ -أيام عصر النبوة- في سفرهم، وذلك ليقتدي المدعوون بهم ويعملوا مثلما عملوا، ومن أسلوب الإخبار قول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: ((كنّا إذا صَعِدْنا كبَّرنا، وإذا نزَلنا سبَّحنا))[1].

ولا شكّ أن أسلوب الإخبار أنسب في نقل الأفعال اليومية أو المتكررة التي يراها المدعو من الداعية.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الرفق بالحيوان:

هذا واضح من الحديث، قال النووي في الرياض: (وقوله: ولا نسبح، أي لا نصلّي النافلة، ومعناه: أنا - مع حرصنا على الصلاة- لا نقدمها على حط الرحال وإراحة الدواب)[2].

(قال الخطابي: (يريد لا نصلّي سبحة الضحى حتى نحط الرحال ونجمّ المطي[3]، وكان بعض العلماء يستحب أن لا يطعم الراكب إذا نزل حتى يعلف الدابة. وأنشدني بعضهم فيما يشبه هذا المعنى:

حق المطية أن يبدأ بحاجتها ... لا أُطْعم الضيف حتى أعلف الفرسا)[4]

وقال النووي عن آداب السفر: (الثالثة والعشرون: يستحب أن يريح دابته بالنزول عنها

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٩٣، ٢٩٩٤.

(٢) رياض الصالحين ص ٣٧٧.

(٣) أي نريحها، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ١٣٤-١٣٥.

(٤) معالم السنن ٣/٢٨٨.

غدوة وعشية وعند عقبة ونحوها. ويتجنب النوم على ظهرها... وأما المكث على ظهر الدابة وهي واقفة فإن كان يسيراً فلا بأس، وإن كان كثيراً لحاجة فلا بأس، وإن كان لغير حاجة فهو مكروه، ودليل ما ذكرناه حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: ((إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ، فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَاتِكُمْ)) رواه أبو داود بإسناد جيد[1]. وعن أنس ﵁ أن النبي ﷺ قال: "اركبوا هذه الدواب سالمة وايتدعوها[2] سالمة ولا تتخذوها كراسي" رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي. قال الحاكم: هو صحيح[3].

وأما جوازه للحاجة ففيه الأحاديث الصحيحة المشهورة أن رسول الله ﷺ وقف بعرفات على ناقته وأنه خطب يوم النحر بمنى على ناقته[4]، وغير ذلك من الأحاديث)[5].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: صلاة النافلة في السفر:

هذا واضح من الحديث "لا نسبح حتى نحلّ الرحال"، قال النووي عن آداب السفر والمسافر: (ينبغي له المحافظة على الطهارة وعلى الصلاة في أوقاتها وقد يسر الله تعالى بما جوزه من التيمم والجمع والقصر)[6].

قال ابن القيم: (وكان من هديه ﷺ في سفره الاقتصار على الفرض ولم يحفظ عنه ﷺ سنة الصلاة قبلها ولا بعدها، إلا ما كان من الوتر وسنة الفجر. فإنه لم

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٥٦٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٣٨).

(٢) في المطبوع: ابتدعوها. وقال محققو المسند: وكله تصحيف: والصواب: ايتدعوها، قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٩٦٥: أي اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها وهو افتعل من ودُع بالضم. مسند أحمد ابن حنبل، ٣٩٩/٢٤ الحاشية ٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ رقم ١٥٦٣٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٤٠٠/٢٤.

(٤) انظر هذه الأحاديث في منتقى الأخبار لابن تيمية الجد: عبدالسلام، وشرحه نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني، كتاب المناسك: باب المسير من منى إلى عرفة والوقوف بها وأحكامه، وباب استحباب الخطبة يوم النحر ص ٩٢٠، ٩٢١ على التوالي.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٢/٤.

(٦) المرجع السابق ١٩٧/٤.

يكن ليدعهما حضراً ولا سفراً. وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقد سئل عن ذلك: فقال: صحبت النبي ﷺ فلم أره يسبح في السفر. وقال الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1])[2] ومراده بالتسبيح السنة الراتبة. وإلا فقد صحّ عنه ﷺ أنه كان يسبح على ظهر راحلته حيث كان وجهه، وفي الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ((كان النبيُّ ﷺ يُصلّي في السَّفرِ على راحلتهِ حيثُ تَوجهَتْ بهِ يُومِىءُ إيماءً صلاةَ الليلِ إلا الْفرائضَ، ويوترُ على راحلتهِ))[3].

قال الشافعي: وثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتنفل ليلاً وهو يقصر، وفي الصحيحين عن عامر بن ربيعة: أنه رأى النبي ﷺ يصلّي السبحة بالليل في السفر على ظهر راحلته[4] فهذا قيام الليل. وسئل الإمام أحمد، عن التطوع في السفر؟ فقال: أرجو ألا يكون بالتطوع في السفر بأس. وروى عن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها. وروى هذا عن عمر وعلي وابن مسعود وجابر وأنس وابن عباس وأبي ذر. وأما ابن عمر فكان لا يتطوع قبل الفريضة ولا بعدها إلا من جوف الليل مع الوتر. وهذا هو الظاهر من هدي النبي ﷺ أنه كان لا يصلّي قبل الفريضة المقصورة ولا بعدها شيئاً، ولكن لم يكن يمنع من التطوع قبلها ولا بعدها. فهو كالتطوع المطلق لا أنه سنة راتبة للصلاة كسنة صلاة الإقامة، ويؤيد هذا أن الرباعية قد خففت إلى ركعتين تخفيفاً على المسافر، فكيف يجعل له سنة راتبة يحافظ عليها وقد خفف الفرض إلى ركعتين. فلولا قصد التخفيف على المسافر وإلا كان الإتمام أولى به. ولهذا قال عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لو كنت مسبحاً لأتممت، وقد ثبت عنه ﷺ أنه صلى يوم الفتح ثماني ركعات ضحىً[5] وهو إذ ذاك مسافر[6].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ١١٠٢، ومسلم ٦٨٩.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٠٠، ومسلم ٧٠٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٠٩٣، ومسلم ٧٠١.

(٥) أخرجه مسلم ٧١-٣٣٦.

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١/٤٧٣-٤٧٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس الرحمة في النفوس:

إن للرحمة أثرًا عظيمًا في النفوس، حيث تشرح الصدور وتفتح القلوب، ولذا تحث التربية على غرس الرحمة في نفوس الأجيال من خلال التوجيهات الرشيدة والمواقف العملية عبر وسائل التربية والتعليم والتوجيه، لأن التنشئة والتربية إذا قامت على أسس قيمة، كالرحمة ونحوها، فإنها ستجعل الفرد مرتبطاً بدينه وتاريخه، وبالتالي يحافظ على ما يرثه من وجود التراب والعمران والناتج النافع ليسلمها بدوره إلى من يأتي بعده وفي تلك الحركة الشمولية رحمة لاشك فيها[1].

وقد وردت الإشارة إلى التعامل بخلق الرحمة في أحاديث الباب سواء أكان مع النفس أم كان مع الغير.

أما بالنسبة للرحمة مع النفس فيترائى لنا ذلك جلياً في إرشاده وتوجيهه ﷺ للمسافر بتجنب النوم في مأوى الدواب والهوام، وكذا الأماكن التي يغلب عليها الظن بوجود إيذاء ونحوه، فقال: ﷺ: «وَإِذَا عَرَّسْتُمْ بِاللَّيْلِ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ، فَإِنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِ وَمَأْوَىٰ الْهَوَامِ بِاللَّيْلِ»

أما بالنسبة للرحمة بالغير فإن الرسول ﷺ أرشد إليها داعياً إلى عموم هذا الخلق الكريم حتى شمل الرفق والرحمة بالحيوان، كما نرى ذلك في وصيته ﷺ بإعطاء الدواب حظها من الغذاء والشراب، كما في قوله ﷺ: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخَصْبِ فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الأرضِ، وإِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْجَدْبِ فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وبادرُوا بها نِقْيَهَا»، وحظها من الراحة، كما رأينا ذلك في عتابه ﷺ لذلك الرجل الذي يجيع جمله ويدأبه في العمل، فقال ﷺ: «أفَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هذهِ البَهِيمَةِ التي

---

(١) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك وآخرون، ٢٦/٧٧-٨٥.

مَلَّكَكَ الله إيَّاهَا فإنَّهُ يشكو إلَيَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وَتُدئِبُهُ».

إن تَخَلُّق الإنسان بالرحمة من صفات الكمال البشري ولها أطيب الأثر وأحسنه، فخلق الرحمة يجعل المرء يرقى لآلام الخلق ويسعى لإزالتها ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهداية، ومن ثَمَّ فإن الرحمة هي كمال في الطبيعة، لأن تبلد الحس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان، ويسلبه أفضل ما فيه، والرحمة هي العاطفة النابضة بالحب والرأفة، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه، ومن ثَمَّ كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز[1].

ثانياً- تصحيح الأوضاع الخاطئة:

إن من مهام المربي تصحيح الأوضاع الخاطئة وتقويم السلوكيات المعوجة وإرشاد المتعلمين والمتربين إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

ونرى هذا الأسلوب بادياً في أحاديث الباب التي عالجت السفر وآدابه وتعديل ما يشوبه من أخطاء سلوكية وعادات خاطئة، ومن تلك الأخطاء ما كانوا يفعلونه من تفرق إذا نزلوا حال سفرهم في مكان للاستراحة والاستجمام فأرشدهم النبي ﷺ إلى أهمية الاجتماع وعدم التفرق، فعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: «كانَ النَّاسُ إذا نَزلوا منزِلاً تفرَّقوا في الشِّعابِ والأوديَةِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ تفرُّقَكم في هذه الشعابِ والأوْديةِ إنَّما ذلكم منَ الشيطانِ». فلم ينزلوا بعدَ ذلكَ منزلاً إلاَّ انضَمَّ بعضُهم إلى بعضٍ». وذلك لما في "تجمعهم من حسن التنظيم وتكتيل القوة والاستعداد للطوارئ، ثم إن هذا التفرق ليس إلا وسوسة شيطانية لإيذاء المسلمين، هكذا وصى النبي ﷺ أصحابه، وسرعان ما استجابوا لإشارته وانتفعوا بتوجيهاته[2]".

إن على المسلم سواء كان متعلماً أم كان معلماً أو مُربياً أن يأخذ على عاتقه تغيير السلوكيات الخاطئة بأسلوب تربوي مناسب، فلا يتعامل في سُوقه معاملة جاهلية مبتعدة عن شريعة الله، ولا يسمح في بيته أو في حلقة درسه ومواطن تدريسه وتعليمه بأي

---

(١) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٢٠٣-٢١٢.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٢٦.

لون من ألوان الجاهلية من التبرج وإظهار المفاتن، أو تضييق الثياب أو الحفلات الحديثة النابية عن أخلاق وتقاليد الإسلام فضلاً عن الاختلاط المحرم[١]، وما شاكل ذلك.

إنَّ مهمة المربي السامية فضلاً عن التلقين العلمي والتثقيفي تغيير الأوضاع السيئة وتصحيح الأفكار الخاطئة والسلوكيات المنحرفة بأسلوب تربوي مناسب.

ثالثاً- اغتنام الساعات المناسبة:

إن لكل عمل ساعاته المناسبة له التي تزداد فيه نسبة النشاط وسهولة العمل وكثرة الإنتاج، فمثلاً أنسب الأوقات للأسفار الطويلة ساعات الليل وأول النهار إذ أن السير في الليل أسرع في الغالب منه في النهار نظراً لقلة الزحام وقلة اشتغال النظر بما حوله نتيجة إسدال الليل ستوره من الظلام إضافة إلى ما في هذه الساعات من تيسير الله تعالى للسائرين فيها لأنها أوقات لنزول الرحمات خاصة وما يصاحب هذه الساعات من طيب في الجو ولطف في المناخ، ولذا جاءت وصية رسول الله ﷺ في أحاديث الباب في توخي هذه الساعات واستثمارها، ومن ذلك ما جاء في صريح حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُم بالدُّلْجَةِ، فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى باللَّيْلِ».

ويستفاد من ذلك في مجال التربية لا بقصد ساعات الليل في التحصيل والمذاكرة، فما من شك أن ساعات البكور أصفى ذهناً وأكثر تحصيلاً منها في الليل، ولكن المستفاد هو اغتنام الساعات المناسبة لكل عمل فالعمل الذهني غير العملي العضلي فلكل وقته ولكل احتياجاته، وملابساته.

فعن العمل الذهني وتحصيل العلوم والفنون "فقد أثبتت التجارب العلمية أن الإنسان يمتلك أعلى درجات طاقته وصفاء ذهنه عند الصباح الباكر شريطة أن تكون هذه الساعات خاصة بالشخص وحده وبعيدة عن كل المقاطعات وخارجة عن نطاق الأعمال اليومية الروتينية[٢]".

إن اغتنام الأوقات الفاضلة المناسبة للأعمال على اختلاف تنوعها يعني للمتربي شيئاً

---

(١) انظر: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، ٢/٤٠٦-٤٠٩.

(٢) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة ص ٤٠٨-٤١١.

آخر هو إنزاله عمله دائماً من الوقت الملائم له، فأجزاء الليل والنهار متفاوتة قيمة من حيث عطاء المرء، نوعه وقدره، فالحريص من ينزل كل عمل فيما يناسبه من وقت[1].

رابعاً- التربية بتنمية الشعور الإنساني:

إن من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية، أنها تُنمي في الإنسان الشعور الإنساني والرفق حتى بالحيوانات، وبكل ما من شأنه أن يعين الإنسان في حياته -بعد الله تعالى- ومن ثمَّ فقد جاءت التوجيهات النبوية التربوية التي تحث على الرفق بالإبل -التي كانت من أبرز وأهم وسائل النقل آنذاك- لأن ذلك أدعى لإنجاز المهمات ولاستمرار نشاط تلك الرواحل في الأسفار بدلاً من إجهادها وإنهاك قواها، مما يؤدي إلى تعطل المصالح.

لذا أمر رسول الله ﷺ الصحابة في أسفارهم بالمحافظة على سلامة دوابهم، وشاهد ذلك من أحاديث الباب ما ورد عن سهل بن عمرو رضي الله عنه قال: « مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فقالَ اتَّقُوا اللهَ فِي هذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً». وذلك بغية المحافظة عليها وعلى قوتها حتى تتمكن من المواصلة والمسير، ويقاس على الدواب والرواحل وسائل النقل المختلفة باستخدامها الاستخدام المعقول، وصيانتها وإصلاح ما تلف وعطب منها، وعدم المغامرة بالسير بها وهي غير صالحة للسير مما يعرض حياة الإنسان للخطر.

ومما نستفيده من أحاديث الباب من الناحية التربوية والتعليمية تعويد الطلبة والتلاميذ على المحافظة على الثروات والمرافق التعليمية التي يتلقون فيها التعليم من مدارس ومؤسسات تعليمية وما يلحق بها من مكتبات وما تحتويه من أدوات، فإن المحافظة على تلك المرافق والمؤسسات لا تقل أهمية عن تأسيسها وتجديدها، ولو غرس في الطلاب حب هذه المؤسسات والمحافظة عليها، حتى تستمر عملية الانتفاع بها من قِبَل الآخرين، وهذه تربية إيمانية عالية أن المسلم يشعر وهو يتعامل مع المرافق العامة

---

(١) انظر: سوانح وتأملات في قيمة الزمن، خلدون الأحدب ص ٧٠.

وكأنها ملك خاص به فيحافظ عليها، ويعمل على صيانتها ويعمق هذا الشعور في الآخرين مما يخفف العبء عن الدولة في هذا البند وبالتالي يكون المسلم مسهماً في تنمية مجتمعه محافظاً على مؤسساته وممتلكاته، إنه ينبغي للقائمين على التربية والتعليم تعزيز انتماء المؤمن لوطنه ومنجزاته الحضارية ومدنه الصناعية ومشاريعه التنموية من خلال التنشئة على حب الوطن والمحافظة على مؤسساته والوقوف في وجه الإرهاب والتخريب وكل محاولة من شأنها النيل من المنجزات الوطنية.

إن التربية الإسلامية تربية شمولية تعمل على تعميق الحب والانتماء داخل الإنسان وتعمل على تعزيز العلاقة الوثيقة بين الإنسان والكون بكل ما فيه من مخلوقات وإنجازات.

خامسًا- التربية الوقائية:

كما في حديث أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: "إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في الجدب فأسرعوا عليها السير، وبادروا بها نقْبها، وإذا عرّستم فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل، فلقد تضمن هذا الحديث بعض الأمور التي تندرج تحت نطاق التربية الوقائية، وذلك على التالي:

أ- المحافظة على وسيلة السفر من الدواب وهي في الأغلب الأعمّ من الإبل. وذلك بإعطائها حقها من الطعام وتركها ترعى وتأكل الأعشاب والنباتات في وقت الخصب، أما إذا كان الوقت وقت جفاف وندرة الطعام فإنه ينبغي الإسراع بها وعليها حتى لا تصاب بالضعف والهزال من قلة الطعام.

ب- اجتناب الطريق عند النزول بالليل لنوم أو راحة أو نحو ذلك، لأن ذلك يقي الإنسان من الخطر والأذى ويقيه الضرر والعَطَب، لكون هذه الطرق مسلوكة بالدواب والحيوانات، كما أنها مأوى الهوام التي قد تؤذي الإنسان.

❁ ❁ ❁

١٦٩- باب إعانة الرفيق

في الباب أحاديث كثيرة تقدمت كحديث:

((وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أخِيهِ)) [١].

وحديث: ((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ)) [٢] وأشْبَاهِهِما.

الحديث رقم (٩٧٠)

٩٧٠- وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ [٣] إذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَميناً وَشِمَالاً، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: **((مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ [٤] زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ))**، فَذَكَرَ مِنْ أصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَهُ، حَتَّى رَأيْنَا، أنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ. رواه مسلم [٥].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

فضل: زيادة [٦].

الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتُركب [٧].

فيلعُدْ: فيُفضِل [٨]، وقيل: عاد بمعروفه: أحسن ثم زاد [٩].

---

(١) تقدم برقم ٢٤٥.

(٢) تقدم برقم ١٣٤.

(٣) عند مسلم زيادة: (مع النبي ﷺ).

(٤) عند مسلم زيادة: (من).

(٥) برقم ١٧٢٨/١٨، وتقدم برقم ٥٦٦.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ض ل).

(٧) المرجع السابق في (ظ هـ ر).

(٨) تاج العروس في (ع و د).

(٩) مقاييس اللغة في (ع و د).

الشرح الأدبي

قوله (فجعل يصرف بصره يميناً، وشمالاً) كناية عن البحث والحيرة التي تدل على الحاجة، مما استلزم الدعوة للتكافل وقد بنى الرسول ﷺ حديثه في الدعوة للتكافل على أسلوب الشرط، وأسلوب الشرط يعلق الجزاء على الفعل، ويتميز بشدة الاتصال مع التشويق الذي يثيره فعل الشرط لمعرفة جوابه واستخدام (مَنْ) كأداة للشرط وهي لعموم من يعقل، وكأنها تنادي من له أدنى عقل بالاستجابة، وقوله: (فضل ظهر) المقصود به الدابة، وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأنه عبر بالجزء وهو الظهر، وأراد الكل وهو الدابة، وفضل المجاز على الحقيقة أن لفظ (الظهر) يعين نوع الفائدة المرادة من الجنس ليوازي ما عطف على هذه الجملة من الزاد، وغيره، والظهر أيضاً أدل على شدة الحاجة إليه للركوب، أو الحمل، وتعبيره ﷺ بلفظ المعية (معه)، لأنه أعم من حروف الملكية والاختصاص، وأصدق وأولى في التآزر منها، وأشمل في بذل المنفعة، وأنفى للاستئثار، والشعور بالتملك في مواطن الإيثار، وتنكيره ﷺ لكلمة (ظهر) للتقليل إشارة إلى أن الشيء مهما قل ففيه المشاركة والتعاون، وتحقيق التكافل الذي أمر به الإسلام، وحتى لا يحقر إنسان فضل ما عنده، فيكون تنكيره أعود بالنفع على المؤمنين، فالتكافل شعور، وإحساس بحال الآخرين قبل أن يكون فعل، حتى يعم مبدأ التكافل بين الأغنياء، والفقراء، وبين الفقراء فيما بينهم كل بما يستطيع، وهو ذكاء شديد من النبي ﷺ وأسلوب عالٍ في تحقيق تماسك المجتمع بتعاون الجميع، وهذا ما حققه بأسلوبه حيث وضع كلمة (ظهر) و (زاد) وهما مركز الحديث، منكرتين لإفادة التقليل الذي يستوعب ما قل من فضل الظهر والزاد، حتى يشارك كل فرد في التكافل، ولا يَحْتَجَّ أحد بقلة ذات اليد، والأمر في قوله ﷺ: (فليعد به) في الجملتين بالعودة يشعر بانصراف الطبع عما ينبغي من حب النفس، وإيثارها بالمال إلى ما يليق بالرجوع إلى ما هو الأفضل في تماسك الفرد بالجماعة، وقد جعل الإسلام الضعيف أمير الركب حتى يحس بالعزة والكرامة فتقوى نفسه، ويزداد إيمانه بعدالة الإسلام ورحمة

المجتمع فيرتفع عن الحقد، ويسمو عن الحسد، ولا يعرف الشماتة[١][٢].

فقه الحديث

١- مساعدة الرفقة: قال النووي: (يسن مساعدة الرفيق وإعانته؛ لقوله ﷺ: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[٣] ولقوله ﷺ: ((كل معروف صدقة))[٤] وعن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن في سفر ... الحديث، وحديث جابر عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو ... الحديث)[٥].

٢- جواز الاعتقاب: قال النووي: (يجوز الاعتقاب على الدابة، وهو أن يركب واحد وقتًا ثم ينزل ويركب الآخر وقتًا)[٦].

المضامين الدعوية[٧]

(١) ينظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية صـ ٣٠٤.

(٢) ينظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ٥٩

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٢١، ومسلم ١٠٠٥.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٢ .

(٦) المرجع السابق ٤/١٩٢-١٩٣ .

(٧) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٦٦).

الحديث رقم (٩٧١)

٩٧١- وعن جابر رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنَّهُ أرَادَ أنْ يَغْزُوَ، فَقَالَ: ((يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، إن مِنْ إخْوَانِكُمْ قَوْماً لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ، وَلاَ عَشِيرة، فَلْيَضُمَّ أحَدكُمْ إلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَو الثَّلاثَةَ، فَمَا لأحَدِنَا مِنْ ظَهْرٍ يَحْمِلُهُ إلاَّ عُقْبة كَعُقْبَةِ)) يَعْني: أحَدهِمْ، قَالَ: فَضَمَمْتُ إلَيَّ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً، مَا لِي إلاَّ عُقْبَةٌ كَعقبة أحَدِهِمْ مِنْ جَمَلِي. رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الظَهْر: الإبل التي يُحمل عليها وتُركب[2].

العُقْبة: النَّوبة، أو المرة الواحدة من الركوب[3].

الشرح الأدبي

قوله (يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ) نداء عام للفئة المذكورة بعد، والمعشر الجماعة التي تجمعها صفات مشتركة معينة، وتخصيص المهاجرين، والأنصار لأنهم عامة المسلمين يومئذ، وتوكيد الجملة بعدها ينبه على أهمية الأمر، وعناية المتكلم به، والتعبير بلفظ الأخوة، وإضافته إليهم تعميق لهذا الإحساس، ولفت إلى العمل بموجبه، ، والأمر في قوله (فَلْيَضُمَّ أحَدكُمْ إلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَو الثَّلاثَةَ) أمر إرشاد، وتوجيه إلى ما يحقق التكافل، ويتغلب على المشكلة، ويقوي روح الاتحاد، وقوله: (أحدكم) شمول للجميع بالحكم، وقوله (فَمَا لأحَدِنَا مِنْ ظَهْرٍ يَحْمِلُهُ إلاَّ عُقْبةٌ كَعُقْبَةِ) أسلوب قصر لأن يكون لأحدهم من ظهر يحمله سوى العقبة، وهي النوبة على البعير، ومعناه أنهم

---

(١) برقم ٢٥٣٤. وقال الحاكم ٢/ ٩٠: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ظ هـ ر).

(٣) المرجع السابق في (ع ق ب).

يتناوبون على البعير الواحد كل واحد يمشي مسافة، ويركب مسافة بالتبادل مع إخوانه، وقول الراوي (فَضَمَمْتُ إِلَيَّ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً) تطبيق عملي لتوجيه النبي ﷺ يدل سرعتهم في امتثاله دلت على ذلك الفاء، والماضي الدال على التحقق، وأسلوب القصر (مَا لِي إِلاَّ عُقْبَةٌ كَعقبة أحَدِهِمْ مِنْ جَمَلِي) الدال على مساواته لهم في التناوب على جمله دون زيادة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد والأمر والتعليل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: إعانة الرفيق في السفر.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: إشاعة روح التعاون والتكافل بين المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد والأمر والتعليل:

أما النداء فقوله ﷺ: "يا معشر المهاجرين والأنصار"، والنداء لتنبيه المنادى لما يكون بعد النداء، وهو هنا الإخبار المؤكد "إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرة" وبعد هذا الإخبار جاء الأمر "فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة". وهذا جاء تعليلاً للحاجة والشدة التي فيها الصحابة وقتئذ، "فما لأحدنا من ظهر يحمله إلا عقبة كعقبة يعني أحدهم".

فكان النداء والتوكيد والتعليل مقدمات لأمره ﷺ وكل هذا يدعو إلى المسارعة إلى الامتثال، وهذا ما أخبر به جابر رضي الله عنه راوي الحديث: فضممت إليّ اثنين أو ثلاثة ما لي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: إعانة الرفيق في السفر:

هذا واضح من أمر النبي ﷺ أصحابه، بأن يضم كل واحد معه ظهر من الدواب، اثنين أو ثلاثة ممن لا يملكون ظهراً، كما أنه واضح كذلك من امتثال الصحابة لما أمر به النبي ﷺ. وقال النووي في المجموع عن آداب السفر: (يسن مساعدة الرفيق وإعانته لقوله ﷺ ((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) وهو

حديث صحيح مشهور في صحيح مسلم[١] وغيره وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ: ((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ))[٢])[٣].

ومن باب إعانة الرفيق الاعتقاب، قال النووي في المجموع أيضاً عن آداب السفر ومسائله: (الخامسة والعشرون: يجوز الاعتقاب على الدابة، وهو أن يركب واحد وقتاً ثم ينزل ويركب الآخر وقتاً. وجاءت فيه أحاديث كثيرة، منها حديث عائشة رضي الله عنها في قصة هجرة النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه من مكة إلى المدينة قالت: ((فلمَّا خَرَجَا خَرَجَ مَعَهُ عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ يَعْتَقِبَانِ حتَّى أَتَى المدينةَ)) رواه البخاري[٤]. وعن ابن مسعود قال: ((كنَّا يومَ بدرٍ اثنينِ على بعيرٍ، وثلاثةً على بعيرٍ، وكان زَمِيلَيْ رسولِ الله ﷺ عَلِيٌّ وأبو لُبَابَةَ الأنصاريُّ رضي الله عنهما، وكانتْ إذا حانَتْ عُقْبَتُهُمَا، قالاَ: يا رسولَ اللّه ارْكَبْ نَمْشِي عَنْكَ، قالَ: إنَّكُمَا لَسْتُمَا بأَقْوَى عَلَى المَشْيِ مِنِّي، ولا أَرْغَبَ عن الأجرِ مِنْكُمَا)) رواه النسائي والبيهقي[٥] بإسناد جيد)[٦]. وقد بوّب ابن حبان على حديث ابن مسعود رضي الله عنه: ذكر إباحة تعاقب الجماعة البعير الواحد في الغزو عند عدم القدرة على غيره[٧].

وقال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أمر أن يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد حتى يكون الناس كلهم سواء)[٨].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٢١، ومسلم ١٠٠٥.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٤.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن ٢٥٨/٥ ثم قال: رواه البخاري في الصحيح. لكن لم نعثر عليه إلى الآن في صحيح البخاري فلينظر.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى ٣٩٠١ والبيهقي في السنن ٢٥٨/٥ كما أخرجه أحمد ٤١١/١ رقم ٣٩٠١، وقال محققو المسند: إسناده حسن. وقد توسعوا في تخريجه فلينظر ١٧/٧.

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٢/٤-١٩٣.

(٧) صحيح ابن حبان ٣٥/١١ الحديث ٤٧٣٣.

(٨) شرح رياض الصالحين ١٢٢١/٢.

ثالثاً- من أهداف الدعوة: إشاعة روح التعاون والتكافل بين المدعوين:

هذا واضح من الحديث ومن فعل الصحابة ﷺ، قال العظيم آبادي عن قول جابر: ("فضممت إليّ اثنين أو ثلاثة ما لي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي". قال: والمعنى لم يكن لي فضل في الركوب على الذين ضممتهم إليّ، بل كان لي عُقْبة من جملي مثل عقبة أحدهم)[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٢].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((إنّ الأشْعَريينَ إذا أرمَلوا في الغَزو أو قلّ طعامُ عِيالهم بالمدينةِ جَمعوا ما كان عندَهم في ثوبٍ واحد، ثمّ اقتَسَموهُ بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسّوِيّةِ، فهم مِنّي وأنا منهم))[٣].

ومعنى أرملوا في الغزو (نفد زادهم وأصله من الرمل، كأنهم لصقوا بالرمل، كما قيل للفقير: الترب)[٤].

قال النووي: (في هذا الحديث فضيلة الأشعريين، وفضيلة الإيثار والمواساة، وفضيلة خلط الأزواد في السفر، وفضيلة جمعها في شيء عند قلتها في الحضر ثم يقسم)[٥].

وقال النووي كذلك: (قوله ﷺ "فهم مني وأنا منهم" معناه: المبالغة في اتحاد طريقتهما واتفاقهما في طاعة الله تعالى)[٦].

ومن هذا القبيل ما رواه عبدالله بن واقد الليثي رضي الله عنه قال نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الضحايا [الأضاحي] بعد ثلاث ثم قال: ((إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ الَّتِي دَفَّتْ. فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا))[٧].

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٠٩٩.
(٢) سورة المائدة، آية: ٢.
(٣) أخرجه البخاري ٢٤٨٦، ومسلم ٢٥٠٠.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر م ل).
(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٠/١٦/٨، .
(٦) السابق ٢٦/١٦/٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣٠/٥.
(٧) أخرجه مسلم ١٩٧١.

قال النووي: (قال أهل اللغة: الدافة -بتشديد الفاء- قوم يسيرون جميعاً سيراً خفيفاً ودافة الأعراب من يرد منهم المصر. والمراد هنا: من ورد من ضعفاء الأعراب للمواساة)[١].

ونقل النووي عن بعض العلماء أنه (لو وقع مثل تلك العلة اليوم فدفت دافة واساهم الناس)[٢].

وقال ابن القيم: (المواساة للمؤمنين أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم. وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له. ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم، فأحببت أن أواسيهم في بردهم)[٣].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (من المواساة جبر خاطر المسلم وإدخال السرور على قلبه: لما كانت المواساة تقتصر على مشاركة المسلم لأخيه في المال والجاه أو الخدمة والنصيحة. أو غير ذلك، فإن من المواساة مشاركة المسلم في مشاعره خاصة في أوقات حزنه، وعند تعرضه لما يعكر صفوه، وهنا فإن إدخال السرور عليه وتطييب خاطره بالكلمة الطيبة، أو المساعدة الممكنة بالمال أو الجاه، أو المشاركة الوجدانية، هو من أعظم المواساة وأجل أنواعها، وقد كان ﷺ يواسي بالقليل والكثير، وقد علمنا أن من أقال مسلماً من عثرته أقال الله عثرته، وأن الله عز وجل لا يزال في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه.

إن حاجة المسلم تتنوع وتختلف من موقف إلى آخر، فهناك من تكون حاجته إلى المال، وهناك من تكون حاجته إلى عملٍ أو وظيفة، وهناك من تكون حاجته إلى كلمة

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١/١٣/٧، .

(٢) السابق ١٤٠/١٣/٧.

(٣) الفوائد ٢٤٦-٢٤٧.

طيبة وهناك من تكون حاجته إلى دفع الظلم عنه، وهناك من تكون حاجته إلى مشاركة الناس له في أتراحه أو أفراحه، وهناك من تكون حاجته في وضع الدين عنه أو إرجائه، إلى غير ذلك من الحاجات، وكل ذلك يدخل في إطار القاعدة العامة للمواساة، وهي أن يكون المسلم في حاجة أخيه، وعلى المسلم أن يعرف أن فائدة هذه المواساة لا ترجع إلى صاحب الحاجة "المواسى" فقط، وإنما تشمل أيضاً المواسي، لأن الله عز وجل يكون في حاجته، هذا في الدنيا، ويجازيه عليها أفضل جزاء يوم القيامة.

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن من لقي أخاه بما يحب ليسره بذلك سره الله عز وجل يوم القيامة، لقد حفلت سير أعلام النبلاء بنماذج مشرقة من المواساة، ومن تأمل هذه الصفحات المشرقة التي حفلت بها سير هؤلاء، يتبين أن مجالسة المساكين والتحدث معهم، فيه جبر خاطرهم وإدخال السرور عليهم، وإذا كان الإنسان واجداً فإنه يتكفل بنفقة هؤلاء وإعالتهم، مع المحافظة على كرامتهم، وتقديم المعونة لهم سراً)[1].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٤٦٠/٨. وانظر فيها: نصوص الأحاديث المذكورة في النص وتخريجها.

الحديث رقم (٩٧٢)

٩٧٢- وعنه، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي المَسير، فَيُزْجِي الضَّعِيف، وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُ[1]. رواه أبُو داود[2] بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

فيزجي: يسوق[3].

يُرْدِفُ: يركب خلفه[4].

الشرح الأدبي

في الحديث مثال ماثل على الدهر يعلم القادة في كل زمان، ومكان رعاية أمتهم، وتفقد الضعفاء، والمرضى، وبذل الطاقة في سبيل راحة الجميع، وقول الصحابي (كان رسول الله ﷺ يتخلف) يشير إلى أنه اعتاد على فعل ذلك في كل خروجه، والفعل المضارع يصور رسول الله، القائد الأعظم يترك مركز القيادة في المقدمة ليعود إلى ضعيف فيسوق بعيره حتى يتقدم، ولا يتركه فيتأخر عن الركب، ويتعرض للأخطار، وهذا بذل لجهده كما أنه يبذل ماله يدل على ذلك الفعل (ويردف) أي يحمله خلفه على بعيره، بل إنه يبذل مهجته، وتضرعه إلى ربه دعاءً لهم، وهو ما صوره الفعل المضارع (ويدعو له)، وحذف مفعول الفعل (يردف) للتعميم فيردف الضعيف، وربما يردف غيره، وهذا الصنيع يجعل القائد، وجنده على قلب رجل واحد، وهو عامل نفسي، ومادي من أكبر عوامل النفس.

---

(١) لفظ أبي داود: (لهم).

(٢) برقم ٢٦٣٩. وقال الحاكم ١١٥/٢: صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ز ج ى).

(٤) اللسان والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر د ف).

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب لكبير الركب أن يسير في آخره، وإلا فليتعهد آخره فيحمل المنقطع أو يعينه، ولئلا يطمع فيهم ويتعرض اللصوص ونحوهم لحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته))[١] وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو له. وروينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يفعله)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تعهد الراعي رعيته.

ثالثاً: من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من الحديث، فقد صُدِّر بلفظ "كان رسول الله ﷺ..." وهذا الإخبار يكون لنقل أفعاله ﷺ للمدعوين ليقتدوا به، ولهذا بوّب البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ[٣] وساق تحته حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ((اتخذَ النبيُّ ﷺ خاتماً من ذَهبٍ فاتخذَ الناس خَوَاتيم من ذهب، فقال النبيُّ ﷺ: إني اتخذتُ خاتماً من ذهبٍ فنَبَذَه وقال: إني لن ألبَسَهُ أبداً، فنَبذَ الناسُ خواتيمهم))[٤].

قال ابن حجر: (قوله "باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ" الأصل فيه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٥])[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٨٨، ومسلم ١٨٢٩.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٤ .

(٣) الباب برقم ٤ من كتاب الاعتصام رقمه ٩٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٩٨، ومسلم ٢٠٩١.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٧٤.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تعهد الراعي رعيته:

وهذا واضح من فعل النبي ﷺ في السفر مع أصحابه، وقال النووي في المجموع: (يستحب لكبير الركب أن يسير في آخره وإلا فليتعهد آخره، فيحمل المنقطع أو يعينه ولئلا يطمع فيهم ويتعرض اللصوص ونحوهم لحديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين: ((كلُّكم راعٍ، وَكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ))[1] وعن جابر قال: ((كَانَ رَسُولُ اللّٰه ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي المَسِيرِ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ)) رواه أبوداود[2] بإسناد حسن، وروينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يفعله)[3].

قال الخطابي: (وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في رجل سافر وحده: أرأيتم إن مات من أسأل عنه؟)[4].

وقال د. مصطفى السباعي عن يقظة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إدارة الدولة وتفقده لرعيته وعماله: (كان عمر شديد المراقبة لعماله، دقيق الاختيار لولاة الأمصار، وكانت الكفاءة عنده هي أساس تولية العمل، من غير نظر إلى شيء آخر من عبادة أو زهد، كان يقول: أريد رجلاً، إذا كان في القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم، كان كأنه رجل منهم، كان يستعمل رجالاً مثل عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير، لأن أولئك كانوا أقدر على العمل، وأحسن قياماً به، وأكثر هيئة له من هؤلاء. وكان إذا استعمل رجلاً على عمل، كتب عليه كتاباً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار. وإذا بعث عماله إلى الأمصار قال لهم: إني لم أبعثكم جبابرة، ولكن بعثتكم أئمة، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم "أي لا تطيلوا أمد إقامتهم في الحرب بعيدين عن أهلهم ونسائهم" ولا تمنعوهم فتظلموهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٩٨٣، ومسلم ١٨٢٩.

(٢) أخرجه أبوداود ٢٦٣٩ وهو حديث الباب.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٤/٤.

(٤) معالم السنن ٤١٣/٣.

ومن قوله رضي الله عنه : إني لأتحرج أن أستعمل الرجل، وأنا أجد أقوى منه. وكان يعقد في كل سنة مؤتمراً لعماله في موسم الحج ليسألهم عن أحوال البلاد وشؤونها، وسير الإدارة فيها.

وكان علمه بمن بَعُدَ عنه من عماله ورعيته، كعلمه بمن قرب منهم، حتى إن عماله وأمراءه وقضاته، كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن عين عمر لا تفارقهم، وأنه يعلم من أخبارهم صغيرها وكبيرها.

وكان له مفتشون ينزلون الأمصار على غير علم من ولاتها، فيستقصون سيرة الولاة وأحوالها من أفواه الشعب ويرونه بأعينهم. وبذلك استقام الأمر في الدولة الإسلامية في عهد عمر، على خير ما يرجو عمر، من عدل ونصفةٍ وسعادة للناس أجمعين)[1].

ثالثاً- من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين:

هذا واضح من فعل النبي ﷺ مع أصحابه في السفر كما في الحديث، وقال النووي كذلك عن أدب المسافر في السفر: (ينبغي له أن يستعمل الرفق وحسن الخلق مع الغلام والحمال والرقيق والسائل وغيرهم، ويتجنب المخاصمة والمخاشنة ومزاحمة الناس في الطرق ومواردة الماء إذا أمكنه ذلك، وأن يصون لسانه من الشتم والغيبة ولعنة الدواب وجميع الألفاظ القبيحة، ويرفق بالسائل والضعيف، ولا ينهر أحداً منهم ولا يوبخه على خروجه بلا زاد وراحلة، بل يواسيه بما تيسر، فإن لم يفعل رد رداً جميلاً، ودلائل هذه المسائل مشهورة في القرآن والأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين)[2].

وقد ذكر جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مثالاً تطبيقياً لرفق الرسول ﷺ بأمته، قال جابر: ((غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، فَتَلَاحَقَ بِي، وَتَحْتِي نَاضِحٌ[3] لِي قَدْ أَعْيَا وَلاَ يَكَادُ يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي «مَا لِبَعِيرِكَ؟» قَالَ قُلْتُ: عَلِيلٌ، قَالَ: فَتَخَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ فَزَجَرَهُ وَدَعَا لَهُ، فَمَا زَالَ بَيْنَ يَدَيِ الإِبِلِ قُدَّامَهَا يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي: كَيْفَ تَرَى بَعِيرَكَ؟ قَالَ قُلْتُ:

---

(١) عظماؤنا في التاريخ ١٣٩-١٤٠.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٤/٤.

(٣) الناضح: البعير يستقى عليه الماء، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ض ح).

بخَيْرٍ، قَدْ أَصَابَتْهُ بَرَكَتُك، قَالَ: أَفَتَبِيعُنِيهِ؟ فَاسْتَحْيَيْتُ، وَلَمْ يَكُنْ لَنَا نَاضِحٌ غَيْرُهُ، قَالَ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَبِعْتُهُ إِيَّاهُ، عَلَى أَنَّ لِي فَقَارَ ظَهْرِهِ[١] حَتَّى أَبْلُغَ الْمَدِينَةَ، قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَرُوسٌ فَاسْتَأْذَنْتُهُ، فَأَذِنَ لِي، فَتَقَدَّمْتُ النَّاسَ إِلَى الْمَدِينَةِ، حَتَّى انْتَهَيْتُ، فَلَقِيَنِي خَالِي فَسَأَلَنِي عَنِ الْبَعِيرِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فِيهِ، فَلاَمَنِي فِيهِ، قَالَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ لِي حِينَ اسْتَأْذَنْتُهُ: مَا تَزَوَّجْتَ؟ أَبِكْراً أَمْ ثَيِّباً؟ فَقُلْتُ لَهُ: تَزَوَّجْتُ ثَيِّباً، قَالَ: أَفَلاَ تَزَوَّجْتَ بِكْراً تُلاَعِبُكَ وَتُلاَعِبُهَا؟ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُوُفِّيَ وَالِدِي -أَوِ اسْتُشْهِدَ- وَلِي أَخَوَاتٌ صِغَارٌ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ إِلَيْهِنَّ مِثْلَهُنَّ، فَلاَ تُؤَدِّبُهُنَّ وَلاَ تَقُومُ عَلَيْهِنَّ، فَتَزَوَّجْتُ ثَيِّباً لِتَقُومَ عَلَيْهِنَّ وَتُؤَدِّبَهُنَّ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَدِينَةَ، غَدَوْتُ إِلَيْهِ بِالْبَعِيرِ، فَأَعْطَانِي ثَمَنَهُ، وَرَدَّهُ عَلَيَّ))[٢].

قال ابن حجر: (قال الإسماعيلي: الغرض الذي سيق الحديث لأجله بيان كرمه ﷺ وتواضعه وحنوه على أصحابه، وبركة دعائه وغير ذلك). ثم قال ابن حجر: (وفي الحديث تفقد الإمام والكبير لأصحابه، وسؤاله عما ينزل بهم، وإعانتهم بما تيسر من حال أو مال أو دعاء، وتواضعه ﷺ)[٣].

وقال ابن عثيمين: (والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يكون مع رفقائه في السفر محسناً إليهم، قاضياً لحاجتهم، معيناً لهم، فإن هذا من الآداب النبوية التي جاءت بها سنة النبي ﷺ)[٤].

---

(١) أي ركوبه، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧١٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٦٧، ومسلم ١٠-٧١٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥/٣٢١.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- ترسيخ قيم التعاون وأخلاقها:

إن من أهداف التربية الإسلامية الأصيلة ترسيخ قيم التعاون والاندماج مع الجماعة، واستشعار هموم وحاجات الآخرين من أفراد المجتمع الإسلامي، لأن الإسلام يربي المسلم على التعاون والبذل، ويرسخ في نفسه أنه لم يخلق ليعيش لنفسه وأهله وذويه بل هو مطالب بالبذل والعطاء من خلال تلمس احتياجات إخوانه ومشاركته الإيجابية لهم ومعاونة الضعيف وحمل الكَلِّ، وهذه الأخلاق ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم حسب موقعه وإمكاناته التي منحه الله تعالى إياها، وقد أكد رسول الله ﷺ هذه المعاني العظيمة في توجيهاته وأفعاله، كما جاء في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ زَادَ لَهُ».

لذا كان من الأهمية بمكان في المجال التربوي تعميق روح التعاون في نفس المتربي والانخراط في الجماعة والقيام بالمهام والواجبات المترتبة على ذلك من البذل والعطاء واستشعار هموم وحاجات الآخرين والسعي في إعانتهم والأخذ بأيديهم وانتشالهم مما ينزل بهم من مِحَن، فالتربية على التعاون والانخراط في الجماعة والقيام بالواجبات تلعب دوراً بالغ الأهمية في إكساب الناشئ قِيَماً وخبرات معينة قد لا يمكن اكتسابها داخل الأسرة إضافة إلى أن الجماعة أداة من أدوات توفير الأمن والاطمئنان الجسمي والنفسي.

لهذه الأهمية فقد حظيت الجماعة باهتمام خاص من توجيهات الإسلام ومفكريه ورجالات التربية الإسلامية، ففي صلاحها صلاح الفرد، وصلاح الفرد صلاح لها، ونجد توجيهات إسلامية واضحة تدعو الآباء والأمهات والمربين إلى العناية بتوجيه أبنائهم إلى اختيار رفقائهم من الأخيار الصالحين ديناً وخلقاً وسلوكاً حتى يقتدوا بهم ويكتسبوا منهم الصفات الحميدة والخلال الفاضلة وأن يجنبوهم مخالطة الأشرار حتى لا يقلدوهم

ويسلكوا طريقهم المعوج[١].

ثانياً- التربية بالقدوة:

ويعني بالقدوة أن يكون المربي أو الداعي والقائد مثالاً يُحتذى به في أفعاله وتصرفاته ونموذجاً حياً لما ينادي به ويوجه غيره إليه، وقد أشاد القرآن بهذه الوسيلة فقال عز مِنْ قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣]. وقد كان المصطفى ﷺ -ولا يزال- قدوة للمسلمين جميعاً والقدوة الحسنة التي يحققها الداعي وكذا المربي والقائد المسلم بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام[٤] وتعاليمه الغراء وآدابه الفاضلة.

ولما كان للقدوة من أثر إيجابي فعال لا ينكر في عملية التربية وخاصة في مجال الاتجاهات والقيم، كان الرسول ﷺ قدوة للمسلمين، وقد استطاع من خلال القدوة أن يحمل معاصريه على فهم وتطبيق قيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه، وذلك من خلال السلوك العملي الواقعي الحي، وقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على تتبع صفاته وحركاته ورصدها والعمل بها حرصاً منهم على تمثل أفعاله ﷺ[٥].

ومن ذلك ما نراه واضحاً في القدوة في الأعمال القيادية والقيام بمهامها في أحاديث الباب ومن ذلك:

أ- إرشاده ﷺ كقائد، لمن معه في سفر أو غزوة، الواجدين والقادرين، بإعانة غير القادرين، وتيسير سبل الحمل، والانتقال، ومهام السفر، كما في قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ

---

(١) انظر: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، عبدالحميد السيد الزنتاني ص ٧٧٦.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) انظر: مبادئ ونماذج في القدوة، د. صالح بن حميد، بدون ذكر للطبعة وتاريخها ص ٨.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١٤٣/١.

لاَ زَادَ لَهُ». حتى وإن أدى الأمر، أن يُشْرِك القادرُ، العاجزَ في دابته يتعاقبان ويتناوبان الركوب عليها كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزوا فقال: «يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ إنَّ مِنْ إخْوَانكُمْ قَوْماً لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ وَلا عَشِيرَةٌ، فَلْيَضُمَّ أَحَدُكُمْ إلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَوَ الثلاثة، فما لأحَدنا مِنْ ظَهْرِ جَمَلِهِ إلا عَقَبَةٌ كَعَقَبَةِ أَحَدِهِمْ» قال: فضممت اثنين أو ثلاثة إلي وما لي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي.

ب- مباشرته بنفسه لأحوال مَنْ تحت يده خاصة العجزة والضعفاء كما في الحديث الثالث من الباب « كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي المَسِيرِ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ». فأنعم بالرسول ﷺ مِنْ قائد كان لا ينسى الضعفاء والعاجزين ومن لا يملكون وسائل السفر أثناء سفره معهم فيتأخر ليلحقوه ويسوق الضعاف ويحمل المحتاجين[1].

ومن هنا كان غرس روح القيادة في نفس المتربي وحثه على القيام بمهامها من مهام المربي، لاسيما أن أي مجتمع في حاجة ملحة لشخصيات قيادية تسهم في قيادة الأعمال على تنوعها واختلاف مشاربها لاسيما الأعمال الدعوية والتربوية، فبات من المهم الاعتناء بالتربية على القيادة وغرس مهاراتها وتنميتها لدى المتربين خاصة الناشئة منهم والشباب[2].

ثالثاً- من صفات المربي والمعلم: الفطنة وسرعة البديهة:

إن من جميل الصفات التي ينبغي تحلي المربين والمعلمين بها، الفطنة وسرعة البديهة، وشاهد ذلك من أحاديث الباب ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ، إذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَىٰ رَاحِلَةٍ لَهُ ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَميناً وَشِمَالاً. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ زَادَ لَهُ». إن هذا الرجل الذي جاء على راحلة جعل ينظر يميناً وشمالاً ينظر من يتوسم فيه أن يعينه فلم يلجئه الرسول ﷺ إلى الكلام أو

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٢٨.

(٢) انظر: تربية الشباب، الأهداف والوسائل، محمد بن عبدالله الدويش ص ١٣٤.

تعريضه للإحراج، وإنما أرشد الصحابة عامة بمعاونة المحتاج دون تخصيص أو حتى مجرد التعريض بهذا المحتاج، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ زَادَ لَهُ».

لذا يجدر بالمربي والمعلم أن يتصف بالفطنة وسرعة البديهة مما يعمل على إثراء العملية التعليمية، بل ليس ذلك فحسب وإنما يحرص المربي والمعلم على تفعيل تلك الصفات التي لا تخفى آثارها العملية على مستوى الفرد والمجتمع مما يعمل على إكساب المتربي الفطانة وسرعة البديهة وإعمال العقل وتدريب وتنشيط قواه العقلية في الفهم والتحصيل.

وما يسمى في المصطلحات التربوية بالقراءة الذكية: فإذا كان على المربي أن ينمي في الطالب الرغبة في القراءة، فليس هذا وحده بكافٍ بل لابد من تنمية مهارة القراءة الذكية لدى الطالب حتى تكون قراءته أكثر ثمرة وأبلغ أثراً في بناء شخصية المتعلم.

ومما تشمله مهارات القراءة الذكية:

أ- القدرة على الاختيار المناسب لما يقرؤه.

ب- تعلم مهارات القراءة السريعة.

ج- تنمية القدرة على فهم المقروء وبالأخص استيعاب الفكرة العامة التي يريد المؤلف إيصالها والتفريق بين الفكرة العامة وبين الشواهد والأمثلة والتفريعات.

د- تنمية القراءة الناقدة التي تجعل الطالب يفكر ويُقوِّم ما يقرؤه دون التلقي المجرد، وينبغي أن يلحظ هذا التدرج، ومراعاة قدرات الشاب وثقافته وأنه يحتاج إلى مرحلة يعتاد فيها القراءة ومرحلة يفهم فيها وتبني ملكاته العلمية، ومرحلة ينتقل فيها إلى القراءة الناقدة، ومن المناسب أن يوجه في بداية المرحلة إلى كتابات مناسبة وكتّاب مناسبين.

هذه المهارات يمكن أن تُعلَّمَ للطالب من خلال برامج منظمة للقراءة، أما مجرد إلقاء دروس وتوجيهات حول القراءة وأساليبها فهذا محدود الجدوى قليل الفائدة[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ٨٦، ٨٧.

١٧٠- باب ما يقول إذا ركب دَابَّة للسفر

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ وَالأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[الزخرف: ١٢-١٣].

الحديث رقم (٩٧٣)

٩٧٣- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجاً إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلاثاً، ثُمَّ قَالَ: ((**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللّهُمَّ إنا نسألكَ في سفرنا هذا البرّ والتَّقوى، ومنَ العملِ ما ترضى، اللّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأهْلِ. اللّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ**[1])) وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: ((**آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**)) رواه مسلم[2].

معنى " مُقْرِنِينَ" : مطيقين. "والوَعْثَاء" بفتح الواو وإسكان العين المهملة وبالثاء المثلثة وبالمد، وهي: الشدة. "والكَآبَة" بالمد، وهي تغير النفس من حزن ونحوه، "والمُنْقَلَب": المرجع.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

استوى: استقر[3].

---

(١) (والولد) لا توجد عند مسلم، وهي عند ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٦ وإسناده صحيحٌ.

(٢) برقم ١٣٤٢/٤٢٥.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ي).

مقرنين: مطيقين[١].

البر: الطاعة والعبادة[٢].

واطو: قربه لنا وسهله[٣].

الوعثاء: الشدة[٤].

الكآبة: تغير النفس من حزن ونحوه[٥].

المنقلب: المرجع[٦].

آيبون: راجعون[٧].

الشرح الأدبي

السفر قطعة من العذاب يفارق الإنسان أهله، وماله، وولده، ووطنه الذي درج فيه مما يحدث في الوجدان حالة من الضيق، والحزن، والهم الناشيء عما هو قادم عليه فاحتاج فيه إلى سكن نفسي، ومدد روحي، ولا يتحقق ذلك إلا خلال الدعاء النبوي الذي خصه النبي ﷺ بهذه المناسبة، وقد تكون من عناصر تعالج في النفس هذه الأحاسيس منها: تنزيه الله تعالى المتضمن للاعتراف بحوله، وقدرته في تيسير السبل، والوسائل، (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا) وقوله: (وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) استشعار للأمان باليقين بأن الرجوع إليه يريح النفس من القلق من الأخطار المحدقة بالمسافر، العنصر الثاني، التوجه بالدعاء، والخضوع لله للنجاة من أخطار السفر، وتخفيف تبعاته (اللَّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ)، العنصر الثالث:

---

(١) رياض الصالحين ٣٧٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ر).

(٣) المرجع السابق، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط و ي).

(٤) رياض الصالحين ٣٧٩.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

(٧) لسان العرب، ابن منظور في (أ و ب).

يتضمن تأمين الغرض المقصود من السفر وتأمين الأخطار على الأهل، والولد (اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ) والتعبير بالوعثاء يوحي بالشدة، والمشقة، والعناء، وبإضافتها للسفر تتخذ أبعاداً إيحائية جديدة تنبع من طبيعة السفر، والتعبير بالكآبة يوحي بمختلف أشكال المخاوف التي تعتري النفس، وتسيطر عليها، ومن الملاحظ في هذا الدعاء تكرار صيغة النداء الخاصة (اللهم) تهالكاً في الخضوع، وبياناً لكمال الاستسلام، كما تضمن الدعاء بصيغة الجمع في كل مراحله ليجاب للشخص بدعاء غيره من الصالحين، كما ثبر الدعاء غور النفس البشرية في كل ما يعتريها بسبب السفر.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة إذا خرج من بيته وأراد ركوب دابته أن يقول: بسم الله فإذا استوى عليها قال: الحمد لله ثم يأتي بالتسبيح والذكر والدعاء الذي ثبت في الأحاديث)[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: شكر الله وتمجيده عند استعمال نعمه سبحانه وتعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: التضرع إلى الله ودعاؤه وقت السفر.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم ومن التعرض لأسبابه.

خامساً: من آداب المدعو: الحرص أن يكون حاله في استقامة وزيادة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من قول ابن عمر رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر...".

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٠/٤ .

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٧٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٧٤).

وكذلك قول عبدالله بن سَرْجِس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوذ من وعثاء السفر....

والإخبار هنا ينقل فعلاً من أفعال النبي ﷺ المتكررة، وذلك ليعرفه المدعوون ومن ثم يقع منهم الاقتداء به ﷺ والامتثال لفعله ﷺ. ولا أدل على ذلك من كثرة المطبوعات التي تحمل دعاء السفر، وذلك في وسائل المواصلات المختلفة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: شكر الله وتمجيده عند استعمال نعمه سبحانه وتعالى:

هذا واضح من قول النبي ﷺ عندما يستوي على البعير خارجاً إلى سفر، فإنه ﷺ قال: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون".

وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1].

قال الطاهر بن عاشور: (إن ذكر النعمة في حال التلبس بمنافعها، أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها، وأجدر بعدم الذهول عنها، أي جعل لكم ذلك نعمة لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا هو التذكر بالفكر لا الذكر باللسان، وهذا تعريض بالمشركين إذ تقلّبوا في نعم الله وشكروا غيره، إذ اتخذوا له شركاء في الإلهية وهم لم يشاركوه في الإنعام، وذكر النعمة كناية عن شكرها، لأن شكر المنعم لازم للإنعام عرفاً، فلا يصرف عنه إلا نسيانه، فإذا ذكره الشكر النعمة. وعطف على "تذكروا نعمة ربكم" قوله: "وتقولوا سبحان الله الذي سخر لنا هذا" أي لتشكروا الله في نفوسكم وتعلنوا الشكر بألسنتكم، فلقنهم صيغة شكر، عناية به كما لقنهم صيغة الحمد في سورة الفاتحة، وصيغة الدعاء في آخر سورة البقرة، وافتتح الشكر اللساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء، إذ التسبيح تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص بالصريح، ويدل ضمناً على إثبات الكمالات لله في المقام

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٢-١٤.

الخطابي، واستحضار الجلالة بطريق الموصولية، لما يؤذن به الموصول من علة التسبيح، حتى يصير الحمد الذي أفاده التسبيح شكراً لتعليله بأنه في مقابلة التسخير لنا...

والتسخير: التذليل والتطويع، وتسخير الله الدواب هو خلقه إياها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحاً لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف[1]، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية. ولهذا عقب بقوله "وما كنا له مقرنين" أي مطيقين أي بمجرد القوة الجسدية، أي لولا التسخير المذكور... أي سخرها لنا في حال ضعفنا بأن كان تسخيره قائماً مقام القوة... وختم هذا الشكر والثناء بالاعتراف بأن مرجعنا إلى الله، أي بعد الموت بالبعث للحساب والجزاء. وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث. وفيه تعريض بسؤال إرجاع المسافر إلى أهله، فإن الذي يقدر على إرجاع الأموات إلى الحياة بعد الموت، يرجى لإرجاع المسافر سالماً إلى أهله)[2].

وقال ابن هبيرة: (إنما تكبيره ثلاثاً، فإنه ﷺ لما كبر ثلاثاً شرع التكبير لكل مسافر عند توجهه إليه، ليصرم بقوله: "الله أكبر" ما يتهجسه في سره من هذه المشقة، وحوادث السفر، وأخطاره والبعد عن الوطن وإنهاره[3]، فاستعان على ذلك كله بتكرير التكبير، فإنه إذا قال: "الله أكبر" عندما يتهجسه من مخاوف السفر، صغر كل ذلك وكل كثير عند قول المؤمن: "الله أكبر"، ولذلك إذاذكر ما وراءه من الأهل والوطن، ورأى أن سفره لله في سبيله، فقال: "الله أكبر مما نزلت وأرى، والله أكبر مما أخاف من بين يدي" فقد تدرع بدرع حصينة في ذلك، فأما تكريره التكبير ثلاثاً: فواحدة لما بين يديه، وواحدة لما وراءه، وواحدة لحاله في نفسه.

---

(١) هكذا بالذال وهو صحيح في اللغة ويقال كذلك مجداف بالدال، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي في (ج ذ ف).

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ١٠/٢٥/١٧٤-١٧٥.

(٣) هكذا في المطبوع.

وقوله: "سبحان الذي سخر لنا هذا" أي ذلل لنا هذا الركوب، وذلك أن أول نعم الأسفار أن ذلل الله تعالى حيواناً ذا أبد[1] يحمل نقل الآدميين ولا يتجاوز أبده إلى الحد الذي يقهر راكبه، فجعل الله عز وجل ما سخر من الدواب بقوة تنفع راكبها، ولا تبلغ إلى الحد الذي يقهره عن إذلاله.

وقوله: "مقرنين" مطيقين، "وإنا إلى ربنا لمنقلبون" أي راجعون في الآخرة، ومعناه إنه لما توجه إلى السفر، كان من أعظم الأشياء خطورة في قلبه، ذكر انقلابه إلى أهله في الغالب، فأنزل الله عز وجل ما أنزل في هذه الآية من ذكره.

"وإنا إلى ربنا لمنقلبون" يعني أن المؤمنين إذا ذكروا منقلبهم إلى ربهم، كان ذلك متلاشياً معه ذكر ميلهم إلى أهلهم وأوطانهم في هذه الدنيا، ولذلك فلم يقل الله: فإنا إلى مواطننا في الآخرة لمنقلبون؛ لأن تلك المواطن مخلوقة أيضاً فأنزل الله سبحانه، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، أي حالتنا، إذ لامساواة بين الخالق والمخلوق عند المؤمن في حال)[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: التضرع إلى الله ودعاؤه وقت السفر:

هذا واضح من الحديثين، فوقت السفر وقت شدة وكرب وهمٍّ، ولذلك تضرع النبي ﷺ إلى الله ودعاه. قال ابن القيم عن فوائد الذكر، وقد جعلها أكثر من مائة فائدة قال: (التاسعة والخمسون: أن ذكر الله عز وجل يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق، فما ذُكِر اللهُ عز وجل على صَعْب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم والهم، يوضحه (الستون): [أي الفائدة الستون]: أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى

---

(١) يقال: أبد أبوداً: توحش وانقطع عن الناس. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ب د).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٨٢/٤-٢٨٣.

حسنٌ قد جرّب هذا وهذا)[١].

(وقد دعا النبي ﷺ بهذا الدعاء في سفره[٢]: فقال: "اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى" (البر فعل الطاعات، والتقوى ترك المعاصي والذنوب، هذا عند اجتماعهما في الذكر، كما في هذا النص، وأما إذا ذكر كل واحد منهما منفرداً فإنه يتناول معنى آخر، وقوله "اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده" أي يسره لنا وقصر لنا مسافته. وقوله "اللهم أنت الصاحب في السفر" المراد بالصحبة المعية الخاصة التي تقتضي الحفظ والعون والتأييد، ومن كان الله معه فممّن يخاف؟

وقوله "الخليفة في الأهل" الخليفة من يخلف من استخلفه فيما استخلف فيه، والمعنى: أني أعتمد عليك وحدك يا الله في حفظ أهلي[٣].

وقوله "اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر" أي من مشقته وتعبه. وقوله "وكآبة المنظر" أي سوء الحال والانكسار بسبب الحزن والألم[٤]. وقوله "وسوء المنقلب" أي الانقلاب والقفول من السفر بما يحزن ويسوء، سواء في نفسه أو في ماله وأهله)[٥].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم ومن التعرض لأسبابه:

وهذا واضح من تعوذ النبي ﷺ من دعوة المظلوم كما في حديث عبدالله بن

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ٢/٢٤٩-٢٥٠ مجموعة الحديث.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٤٥٢-٤٥٥.

(٣) قال ابن العربي: (والصاحب يرجع إلى العالم والحافظ بمعنىً، وإلى اللطيف بآخر، وبالجملة فإن من كان الله معه لم يعدم فائدة ولا تطرقت إليه آفة، والصاحب اسم شريف وخطة رفيعة، سمى الله تعالى بها نفسه على لسان نبيه. وسمى بها رسوله ﷺ فقال عز من قائل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾النجم: ٢، والخليفة يرجع معناه إلى معنى الوكيل ويرجع إلى الآخر، وإلى الباقي من أقسام الآخر، لأن الخلافة هي عمل بعد ذهاب المستخلف، والباري سبحانه وتعالى آخر بعد كل أحد بدوام الوجود، كما هو أول قبل كل أوّل بعد ابتداء الوجود. القبس شرح الموطأ ٢٣/٢٧٥-٢٧٦، موسوعة شروح الموطأ.

(٤) قال ابن الأثير في تفسير "كآبة المنظر": تغيير النفس بالانكسار من شدة الهم والحزن، المعنى أن يرجع من سفره بأمر يحزنه إما أصابه في سفره وإما قدم عليه، مثل أن يعود غير مقضي الحاجة، أو أصابت ماله آفة أو يقدم على أهله فيجدهم مرضى أو قد فقد بعضهم. النهاية في غريب الحديث ٧٨٧.

(٥) فقه الأدعية والأذكار، عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، ط/١، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، القسمان الثالث والرابع ص ٢٧٢.

سَرْجِس رضي الله عنه. قال النووي: (أي أعوذ بك من الظلم، فإنه يترتب عليه دعاء المظلوم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ففيه التحذير من الظلم ومن التعرض لأسبابه)[1].

وقد حذّر النبي ﷺ أمته من الظلم، فقال ﷺ: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))[2].

قال عبدالله البسام: (الحديث فيه التحذير من الظلم، والأمر باجتنابه والبعد عنه، فإنه خطر العاقبة، ذلك أنه ظلمات يوم القيامة، فالمؤمنون مستضيئون بنور إيمانهم، ويقولون ربنا أتمم لنا نورنا، وأما الظالمون لربهم بالشرك أو لأنفسهم بالمعاصي أو لغيره في الدماء والأموال أو العرض، فهؤلاء يمشون في دياجير الظلم فلا يهتدون سبيلاً. ويدل الحديث على التحذير من الشح والبخل، فإنه صار سبب هلاك الأمم السابقة، حملهم الحرص على المال على الاعتداء على أموال غيرهم، فصارت الحروب والفتن التي صارت سبب هلاكهم، واستحلال محارمهم، وهذا هلاك في الدنيا.

كما أنه سبب للهلاك الأخروي، فإن الاعتداء على مال الغير، والاعتداء على محارمه وسفك دمه من أكبر الظلم وأشد الإثم، وهذه المعاصي هي سبب الهلاك في الآخرة وعذاب النار)[3].

وقال رسول الله ﷺ: ((الظُّلمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ))[4].

قال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، لأنه لو استنار

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩/٩/٥، .

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٠٥/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٩.

بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً)[١].

خامساً- من آداب المدعو: الحرص أن يكون حاله في استقامة وزيادة:

هذا يستفاد من تعوذ الرسول ﷺ من الحور بعد الكور، ورواية الترمذي[٢]: "ومن الحور بعد الكور" وقال الترمذي: (ويروى: الحور بعد الكون" أيضاً، ومعنى قوله "الحور بعد الكون" أو "الكور" وكلاهما له وجه، إنما هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر أو من الطاعة إلى المعصية، إنما يعني من رجوع شيء إلى شيء من الشر)[٣].

وقال النووي: (وكذا قال غيره [أي غير الترمذي] من العلماء معناه؛ بالراء والنون جميعاً: الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص، قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة، وهو لفها وجمعها، ورواية النون مأخوذة من الكون مصدر كان يكون كوناً، إذا وجد واستقر.

قال المازري[٤] في رواية الراء: قيل أيضاً: إن معناه: أعوذ بك من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا فيها، يقال: كار عمامته إذا لفها، وحارها إذا نقضها. وقيل: نعوذ بك من أن تفسد أمورنا بعد صلاحها، كفساد العمامة بعد استقامتها على الرأس.

وعلى رواية النون. قال أبو عبيد: سئل عاصم، عن معناه فقال: ألم تسمع قولهم: حار بعد ما كان؟ أي أنه كان على حالة جميلة فرجع عنها)[٥]. أي أن المقصود من هذا الدعاء، هو التعوذ من أن يعقب الشرُّ الخير، والنقصُ الزيادةَ، ولاشك أن هذا يدل على أن المدعو يحرص أشد الحرص على أن يستغل ساعاته وأوقاته وأنفاسه في إصلاح حاله والعمل على زيادة ذلك، وفي ذلك يقول ابن القيم: (لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهيٌ، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة. فإن قام لله في ذلك

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠٠/٥، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٦/١٦/٨ .

(٢) سنن الترمذي ٣٤٣٩.

(٣) سنن الترمذي ص ٧٨٦.

(٤) المعلم بفوائد مسلم ٣٧١/١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨/٩/٥-١١٩ .

العضو بأمره، واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به. وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته.

وله عليه في كل وقتٍ من أوقاته عبوديةٌ، تقدمه إليه وتقربه منه؛ فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر. فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق ألبتة. قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[1])[2].

---

(١) سورة المدثر، آية: ٣٧.

(٢) الفوائد ٢٧٤.

الحديث رقم (٩٧٤)

٩٧٤- وعن عبد الله بن سَرجِسَ ﷺ ، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ إذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الكَوْنِ، وَدَعْوَةِ المَظْلُومِ، وَسُوءِ المَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالمَالِ. رواه مسلم[1].

هكذا هُوَ فِي صحيح مسلم: (الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْنِ) بالنون، وكذا رواه الترمذي والنسائيُّ[2]، قَالَ الترمذي: وَيُرْوَى (الكَوْرُ) بالراء، وَكِلاهما لَهُ وجه.

قال العلماء: ومعناه بالنون والراء جميعاً: الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص. قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة، وهو لفها وجمعها، ورواية النون، من الكَون، مصدر "كان يكون كَونًا" إذا وُجد واستقر.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن سرجس: وهو عبدالله بن سَرْجِس المُزَنيّ، وقيل المخزومي، حليفٌ لبني مخزوم، وعداده في البصريين، ذكره الإمام ابن سعد في كتابه الطبقات في طبقة من نزل بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ.

له صحبة، وقال عاصم الأحول: عبدالله بن سرجس رأى النبيَّ ﷺ ولم يكن له صحبة، وقال أبو عمرو: لا يختلفون في ذكره في الصحابة، ويقولون له صحبة على مذهبهم في اللقاء والرؤية والسماع، وأما عاصم الأحول فأحسبه أراد الصحبة التي يذهب إليها العلماء، وأولئك قليل.

روى عن النبي ﷺ وعن عمر بن الخطاب وأبي هريرة ﷺ ، وروى له الجماعة سوى البخاريُّ.

صحَّ أنه رأى النبي ﷺ وأكل معه خبزاً ولحماً، واستغفر له رسول الله ﷺ، فروى مسلم بسنده عن عاصم عن عبدالله بن سرجس قال: رأيت النبي ﷺ وأكلت

---

(١) برقم ١٣٤٣/٤٢٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٣٩، والنسائي في المجتبى ٥٤٩٨.

معه خبزاً ولحماً، أو قال: ثريداً، قال: فقلت له: أَستَغْفَرَ لك النبي؟ قال: نعم ولك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1] قال: ثم دُرْتُ خلفه، فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه عند ناغض كتفه اليسرى جُمْعاً عليه خِيْلان كأمثال الثآليل[2].

نزل البصرة وعاش بها إلى أن توفي فيها سنة نيّف وثمانين، في دولة عبدالملك بن مروان[3].

غريب الألفاظ:

يتعوَّذ: يستجير ويلوذ بالله[4].

وعثاء السفر: شدته ومشقته[5].

كآبة المنقلب: الكآبة: تغيُّر النفس بالانكسار من شدة الحزن والهمّ، والمنقلب: المرجع[6].

الحَوْرُ: أصلُه نقض العمامة بعد لفها، ومعناه: النقصان، وقيل: فساد الأمور، وقيل: الرجوع عن الجماعة[7].

---

(١) سورة محمد، آية: ١٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٤٦. وقوله: ناغض كتفه يعني أعلى كتفه، وهي العظم الرقيق الذي على طرفه، وقيل: ما يظهر منه عند التحرك، وأما قوله جُمْعاً: أي كجُمْع الكف وهو صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها، وأما الخِيلان بكسر الخاء وإسكان الياء مع خال وهو الشامة في الجسد، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ٨٠، ٨١.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥٨/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٣٨، ٤٣٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٥٧/٣، ٢٥٨، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٧٧٩، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٤٢٦/٣، ٢٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٤٥/٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٤٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع و ذ).

(٥) المرجع السابق في (و ع ث).

(٦) المرجع السابق في (ك أ ب).

(٧) المرجع السابق في (ح و ر) ورياض الصالحين ٣٨٠.

الكور: أصله تكوير العمامة أي لفها، ومعناه هنا: الاستقامة، أو الزيادة، أو صلاح الأمور[١].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتضمن دعاء السفر السابق مع بعض الاختلاف، وقد بدأه الراوي بما يدل على أن ذلك صار عادة في سفره حيث بدأ بكان، وتبعها بأسلوب الشرط الذي يربط السفر بهذا الدعاء، وقد زاد عن الدعاء السابق قوله (وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ) وهوكناية عن المخاوف التي يخشى أن تعتريه في منقلبه، وقوله (وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ) كناية عن الرجوع عن الاستقامة، أو تبدل الحال إلى الأسواء، وقوله (دعوة المظلوم) هو استعاذة من الظلم ابتداءً، وقد جاء على سبيل المجاز الإرسالي بإطلاق المسبب، وإرادة السبب وهو الظلم، وتتجلى بلاغة هذا المجاز بأنه يذكر بالعاقبة التي يؤدي إليها الظلم، وهي دعوة المظلوم التي ليس بينها، وبين الله حجاب، واستعاذة الرسول منها تحذير من خطرها، وتعليم لأمته كيفية الدعاء، وإلا فهو أبعد الخلق عن الظلم.

المضامين الدعوية[٢]

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك و ر)، ورياض الصالحين ٣٨٠.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٧٥)

٩٧٥- وعن علي بن ربيعة، قال: شهدت عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أُتِيَ بدابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ في الرِّكَابِ، قَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا، قَالَ: الحَمْدُ للهِ [1]... الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، ثُمَّ قَالَ: الحمْدُ للهِ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أكبَرُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنْتَ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقيلَ: يَا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ، مِنْ أيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأيتُ النبيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فقُلْتُ: يَا رسول اللهِ، مِنْ أيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: ((**إنَّ رَبَّكَ تَعَالَى يَعْجَبُ مِنْ عَبدِهِ إذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**)) رواه أبُو داود والترمذي [2]، وقال: (حديث حسن)، وفي بعض النسخ: (حسن صحيح). وهذا لفظ أبي داود.

ترجمة الراوي:

عليّ بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٦٨).

غريب الألفاظ:

الركاب: حلقة أو نحوها تُعلّق بالسرج يجعل الراكب فيها رجله، وهما ركابان [3].

استوى: استقر [4].

مقرنين: مطيقين [5].

لمنقلبون: لراجعون [6].

---

(١) عند أبي داود والترمذي زيادة: (ثمَّ قال: سبحان).

(٢) أخرجه أبو داود واللفظ له ٢٦٠٢، والترمذي ٣٤٤٦ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وصحّحه أيضًا ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٨، وقال الحاكم ٩٩/٢: هذا حديث صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٠٢، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ك ب).

(٤) لسان العرب، ابن منظور في (س و ى).

(٥) رياض الصالحين ٣٧٩.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ل ب).

الشرح الأدبي

هذا الحديث تطبيق عملي لأدعية السفر التي علمها الرسول ﷺ لأصحابه، وقد دارت الأحداث حول الإمام علي كرم الله وجهه، وقوله (اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا) كناية عن استقراره فوقها، وقوله (بسم الله) فيه إيجاز بالحذف أي أبدأ بسم الله وتكرار (الحمد لله، والله أكبر) تقريراً لمعناها في النفس، وتلذذاً بذكر الله، وتعظيماً للثواب، وقبل كل ذلك توجيه نبوي لأن العدد في الذكر توقيفي، وقوله (سُبْحَانَكَ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) تنزيه لله يتلوه هضم للنفس بالاعتراف بالذنب، ثُم أسلوب القصر الذي يقصر المغفرة على الله، وينفيها عن من سواها، وقوله (إنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنْتَ)، وتأمل دقة المتابعة حتى في الأفعال التي تبدو عفوية مثل الضحك اقتدى فيها الإمام بالرسول ﷺ (ثُمَّ ضَحِكَ، فَقيلَ: يَا أميرَ المُؤمِنِينَ، مِنْ أيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟) والاستفهام للتعجب لرؤيتهم لضحكه دون معرفة سببه فعلله بقوله (قَالَ: رَأيتُ النبيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ) فشبه فعله بفعله، وضحكه بضحكه، وضحك الرسول كناية عن الرضا، ودليل على خير عظيم أطلعه الله عليه، وقد رأى الإمام ضحك الرسول ﷺ بعد هذا الحدث فسئل السؤال نفسه له (مِنْ أيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟) استفهام تعجب وقوله (إنَّ رَبَّكَ تَعَالَى يَعْجَبُ مِنْ عَبدِهِ إذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبي، يَعْلَمُ أنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي) يشير إلى عظمة الاستغفار من حيث أن المستغفر معترف ذليل مستغرق في المذلة معترف بالله، وقدرته على أخذه بذنبه، وشاهد بنعمته عليه بستره فنشأت من هذه الحالة عبودية عظيمة كان لها هذا الأثر.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: ذكر الله وشكره عند استعمال النعمة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عظم فضل الله على عباده.

أولاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

هذا واضح من فعل علي بن أي طالب رضي الله عنه، وهو تعليمٌ بالفعل، فقد أُتى بدابة

ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله. فلما استوى على ظهرها، قال: الحمد لله. ثم قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾[1] ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر ثلاث مرات... ثم ضحك فقال له بعض من كان معه: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟

فلا يستبعد أن يكون من أهداف علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فعله هذا تعليم من كان معه، بدليل أن أحدهم سأله عن سبب ضحكه بعد أن قال ما قال فأجابه بقوله: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ثم ضحك. ولاشك أن هذه الوسيلة الدعوية التعليمية لها تأثير كبير في نقل المضمون الدعوي إلى المدعوين.

ولقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يحرصون على تعليم غيرهم بالأفعال، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد رأى حمران مولى عثمان ((عُثمانَ بنَ عفّانَ دَعا بإناءٍ فأفْرَغَ على كفَّيهِ ثَلاثَ مِرارٍ فغَسلَهُما ثمَّ أدْخَلَ يَمينَهُ في الإناءِ فَمَضْمضَ واسْتَنْشَقَ، ثمَّ غَسل وَجْهَهُ ثَلاثاً، ويَدَيه إلى المِرْفَقَينِ ثلاثَ مِرارٍ، "ثمَّ" مَسحَ رأْسهِ ثمَّ غَسلَ رِجلَيهِ ثَلاثَ مِرارٍ إلى الكَعْبينِ، ثمَّ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منْ تَوضَّأَ نَحوَ وُضوئي هذا، ثمَّ صَلَّى رَكعَتَين لا يُحدِّثُ فيهما نَفْسَهُ، غُفِرَ لهُ ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))[2].

قال ابن حجر: (وفي الحديث التعليم بالفعل لكونه أبلغ، وأضبط للمتعلم)[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: ذكر الله وشكره عند استعمال النعمة:

هذا واضح من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه إخباراً عن النبي صلى الله عليه وسلم: بسم الله، لما وضع رجله في الركاب، والحمد لله و"سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات والله أكبر ثلاث مرات...

فواضح أن ذلك ذكر لله عند ركوب الدابة، وهي نعمة من الله عظيمة، وهذا الذكر شكر للمنعم سبحانه، قال ابن القيم: (إن الذكر رأس الشكر، فما شكر

---

(١) سورة الزخرف، آية: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٥٩، ومسلم ٢٢٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣١٣/١ .

الله تعالى من لم يذكره. وذكر البيهقي عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: رب قد أنعمت علي كثيراً، فدلني على أن أشكرك كثيراً، قال: اذكرني كثيراً، فإذا ذكرتني كثيراً فقد شكرتني كثيراً، وإذا نسيتني فقد كفرتني. وقد ذكر البيهقي أيضاً في شعب الإيمان عن عبدالله بن سلام قال موسى عليه السلام: "يا رب، ما الشكر الذي ينبغي لك؟ فأوحى الله تعالى إليه أن لا يزال لسانك رطبًا من ذكري، قال: يا رب، إني أكون على حال أُجِلُّك أن أذكرك فيها. قال: وما هي؟ أكون جنباً أو على الغائط أو إذا بلت. فقال: وإن كان، قال: يا رب فما أقول؟ قال: تقول سبحانك وبحمدك وجنبني الأذى وسبحانك وبحمدك فقني الأذى".

قلت [أي ابن القيم]: قالت عائشة رضي الله عنها: ((إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله في كل أحيانه))(١) ولم تستثن حالة من حاله، وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى في حال طهارته وجنابته. وأما في حال التخلي فلم يكن يشاهده أحد يحكي عنه، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلي وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذكر، وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها. وكذلك شرع للأمة من الذكر عند الجماع أن يقول أحدهم: ((بسمِ اللَّهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشيطانَ وَجَنِّبِ الشيطانَ ما رَزَقْتَنا))(٢).

وأما عند نفس قضاء الحاجة وجماع الأهل فلا ريب أنه لا يكره بالقلب، لأنه لابد لقلبه من ذكر، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب شيء إليه...، ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هذه الحالة، وهي من أجل الذكر، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها، واللائق بهذه الحال التقنع بثوب الحياء من الله تعالى، وإجلاله وذكر نعمته عليه، وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له، الذي لو بقي فيه لقتله، فالنعمة في تيسير خروجه كالنعمة في التغذي به. وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه وقال: يا لها من نعمة، لو يعلم الناس قدرها، وكان بعض السلف يقول: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى في منفعته،

---

(١) أخرجه مسلم ٣٧٢.

(٢) أخرجه البخاري ١٤١، ومسلم ١٤٣٤.

وأذهب عني مضرته، وكذلك ذكره حال الجماع، ذكر هذه النعمة التي منَّ بها عليه وهي من أجل نعم الدنيا، فإذا ذكر نعمة الله تعالى عليه بها، هاج من قلبه هائج الشكر. فالذكر رأس الشكر. وقال النبي ﷺ لمعاذ: ((وَاللّه يامُعَاذُ إِنِّي لأُحِبُّكَ، فلا تدعن في دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))[١].

فجمع بين الذكر والشكر، كما جمع سبحانه وتعالى بينهما في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٢] فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح)[٣].

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عظم فضل الله على عباده

هذا واضح من سؤال علي بن أبي طالب رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن سبب ضحكه فقال له النبي ﷺ: "إن ربك يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري" فهذا من فضل الله ومنّه أنه يغفر ذنوب عباده ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤].

قال ابن عثيمين: (وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيان سعة مغفرة الله ورحمته، وأنه عز وجل يفرح من عبده إذا استغفر وتاب إليه... فعليك - أخي المسلم-أن تتوب إلى الله وترجع وتستغفر، وتعلم أنك متى استغفرت الله تعالى بصدق وإخلاص، فإن الله تعالى يغفر لك ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٥])[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود ١٥٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٤٧).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ٢/٢٣٧-٢٣٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٦) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٥.

وما يدل كذلك على عظم فضل الله على عباده هذا الحديث القدسي: قال رسول الله ﷺ ((قالَ اللّه تَبَارَكَ وتعَالى: يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ منكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))[1].

وقد جعل النووي هذا الحديث من الأحاديث الكلية، فجعله في كتابه الأربعين النووية[2].

قال ابن رجب الحنبلي: (وأفضل أنواع الاستغفار، أن يبدأ العبدُ بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل المغفرة كما في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ سَيِّدَ الاِسْتِغْفَار أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي وَأَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ)) أخرجه البخاري[3]... قال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار. قال بعضهم: إنما معول المذنبين البكاء والاستغفار، فمن أهمته ذنوبه أكثر لها من الاستغفار)[4].

وقال ابن القيم عن فضل الله في مغفرة الذنوب: (العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده، ولا الجرأة على محارمه، ولكن غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة، هذا من جانب العبد. وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم، وإظهار عزِّ الربوبية وذلِّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى: كالعفوِّ، والغفور، والتوّاب، والحليم - لمن جاء تائباً نادماً؛ والمنتقم،

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨٠٥).

(٢) وهو برقم ٤٢، انظر جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٠٠-٤١٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٠٦.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤١٢-٤١٥.

والعدل، وذي البطش الشديد- لمن أصرَّ ولزم المجرَّة. فهو سبحانه، يريد أن يري عبده تفرُّده بالكمال ونقص العبد، وحاجته إليه. ويشهده كمال قدرته وعزّته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال برِّه وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة. فلله كم في تقدير الذنب من حكمة، وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة)[1].

وقال د. عائض القرني عن سماحة الشريعة الإسلامية وكثرة الأسباب المؤدية إلى مغفرة الذنوب: (مما يفرح العبد المسلم، ما في الشريعة من الثواب الجزيل والعطاء الضخم، يتجلّى ذلك في المكفرات العشر، كالتوحيد وما يكفره من الذنوب. والحسنات الماحية، كالصلاة، والجمعة إلى الجمعة، والعمرة إلى العمرة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة. وما هناك من مضاعفة الأعمال الصالحة، كالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومنها التوبة تجُبُّ ما قبلها من الذنوب والخطايا. ومنها المصائب المكفّرة، فلا يصيب المؤمن من أذى إلا كفّر الله به من خطاياه. ومنها دعوات المسلمين له بظهر الغيب. ومنها ما يصيبه من الكرب وقت الموت. ومنها شفاعة المسلمين له وقت الصلاة عليه. ومنها شفاعة سيد الخلق ﷺ ورحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[2]، ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[3])[4].

---

(١) الفوائد ١٠٢.

(٢) سورة النحل، آية: ١٨.

(٣) سورة لقمان، آية: ٢٠.

(٤) لا تحزن ٢٨٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- الدعاء:

إن الدعاء باب عظيم، فإذا فُتح للعبد تتابعت عليه الخيرات وانهالت عليه البركات، فمن رجي الخير وطمع في الفضل فليلجأ إلى ربه وليرفع إليه أكف الضراعة[1]، وإذا نظرنا إلى أحاديث الباب نجدها مفعمة بالدعوات المباركات التي سن الرسول ﷺ الدعاء بها من قِبَلِ المسافرين والضاربين في الأرض فهي تجمع كل رغبات المسافر من سؤال الخير، وبعد عن الشر والعون على صالح العمل، وعدم التعب، والاستعانة بالله في متطلبات السفر وحاجات الأهل، وسؤال الحفظ من الله في المال والأهل والولد، ومن هذه الأدعية التي كان يدعو بها رسول الله ﷺ في سفره: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَٰذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ. وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَٰذَا. وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ....» وهكذا ينبغي على المسلم بصفة عامة سواء أكان مربياً أم متربياً أن يستعين بالله تعالى في كافة أحواله في حله وترحاله.

إن الدعاء من الأركان الرئيسة التي يجب أن يحرص عليها كل مسلم ومسلمة خاصة الوالدين لأن دعاء الوالدين مستجاب عند الله تعالى، فبالدعاء تزداد شحنة العاطفة وقوداً، وتتمكن الرحمة والرأفة من قلب الوالدين، فيتضرعان إلى الله تعالى ويبتهلان إليه في إصلاح الذرية، وهذه سنة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام[2].

إن اللجوء إلى الله تعالى والابتهال إليه ودعائه في السراء والضراء يُشعر المسلم بالعزة ويربيه على القوة والاعتزاز بربه ودينه "فالدعاء هو سبيل القوة الحقة فلا يقضي على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع وفقدان السند المعين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق، وهو سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة من كثرة حوادث الانتحار وضحايا القلق والصرع والجنون رغم ما تنعم به من متعة وراحة مادية في الحياة.

---

(١) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٥٠٩، ٥١٠.

(٢) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٨٥، ٨٦.

إن في إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته وأنه يستمع إليه إذا شكا ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعينه إذا احتاج، إنه إحساس يملأ النفس سكينة وراحة ويخلق فيها القوة الحقة والعزم والثقة المطلقة والرضا"[1].

ثانياً- من مصادر التربية: القرآن الكريم:

إن المصدر الأول والرئيس للتربية الإسلامية هو القرآن الكريم، وتأتي السنة النبوية المطهرة في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، حيث يشكلان معاً النبع الصافي للتربية الإسلامية، فالقرآن الكريم حافل بالقصص والأمثلة والدروس والعبر والوسائل والأساليب التربوية التي تعد زاداً عظيماً للقائمين على أمور التربية في شتى مجالات الحياة.

إنه المنهج السديد والطريقة المستقيمة الموصلة إلى الغاية المنشودة والهدف المأمول، إن الرسول ﷺ حرص دائماً على ربط المسلمين بالقرآن الكريم في حِلِّهم وترْحالهم وفي جميع أحوال حياتهم، ومن دلائل ذلك ما جاء في أحاديث الباب من ابتدائه ﷺ أدعية السفر بآيتين من كتاب الله عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[2].

إن للقرآن أسلوبه التربوي الفريد ومنهجه التربوي المتكامل، وحسبنا هنا أن نبين أن أول ما نزل من القرآن الكريم كان حافلاً بالدروس التربوية والحِكم البالغة التي تُعد زاداً تربوياً عظيماً، مما يؤكد عناية القرآن الكريم بتربية الإنسان بأسلوب علمي متميز عن طريق الاطلاع والقراءة والتعليم والملاحظة العلمية لخلق الإنسان منذ كان علقة في رحم الأم فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]. وأن الله تعالى

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢-٢٢٥.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٣) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

أقسم أحد عشر قسماً ليقرر أن النفس الإنسانية قابلة للتربية والتزكية والتسامي، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1][2].

وخلاصة القول أن القرآن الكريم هو "المصدر الأساسي الأول للتربية الإسلامية والذي تستمد منه أهدافها ومادتها وطرقها ووسائلها، فهو كلام الحق تبارك وتعالى ومنهجه الشامل للحياة بكاملها، فللقرآن الكريم تطبيقاته وآثاره التربوية العظيمة التي تتسع باتساع مجالات الحياة ومن هذه المجالات والآثار ما يلي:

أ- آثاره في تربية (الفرد) تربية شاملة ومتكاملة: جسمياً، وعقلياً، واعتقادياً، وروحياً، وخلقياً، واجتماعياً، ونفسياً، وإرادياً، وجنسياً، وجمالياً.

ب- آثاره في تربية (الجماعة) وتنظيم الحياة في داخلها، أياً كانت هذه الجماعة: جماعة الأسرة، أو جماعة السكن والجوار، أو جماعة الرفاق والصحبة، أو جماعة الشركاء في تجارة أو عمل، أو غير ذلك من جماعات. وله آثاره في تربية كل من هذه الجماعات وتنظيم حركة الحياة فيها، ومن جميع جوانبها: الاجتماعية، والإنسانية، والخلقية، وغير ذلك من جوانب.

ج- آثاره في تنمية وبناء (المجتمع) و(الأمة)، مع إمكانية اتساع الأمة لتشمل البشرية بكاملها، ومن جميع جوانب شخصية المجتمع والأمة: دينياً، وسياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وأخلاقياً، وعسكرياً، وحضارياً[3].

ثالثاً- كمال الامتثال والاقتداء بالنبي ﷺ:

إن المربي القدوة ينبغي أن يتمثل أخلاق الرسول الكريم ﷺ ابتداءً ويترجمها إلى

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١-١٠.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣- ٢٥.

(٣)انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٦٥- ٦٧.

سلوك عملي أصيل بحيث يكون نابعاً من ذاته، ولا مكان للتكلف فيه لأن الناشئ أو الشخص المستهدف بالتربية يدرك مدى صدق المربي وقناعته بسلوكه[١].

وقد ضرب لنا الصحابة رضي الله عنهم أرفع المثل الحية في كمال الاقتداء والتأسي بسنة رسول الله ﷺ، ومن تلك النماذج ما ورد في أحاديث الباب من حديث علي بن ربيعة رضي الله عنه الذي نقل لنا فيه ما صنعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نقل سنة رسول الله ﷺ في السفر لدرجة أنه نقل تلك الضحكة التي ضحكها رسول الله ﷺ فعن علي ابن ربيعة رضي الله عنه قال: «شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. ثم قال: الحمد لله، ثلاث مرات. ثم قال: الله أكبر، ثلاث مرات. ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك فقلت: ...».

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المعلم والمربي القدوة من كمال الامتثال لأمر الله عز وجل والاقتداء بالرسول ﷺ، وذلك هو أول شرط وأعظمه لكي يحقق المعلم وظيفته التي كلف الله بها الرسل وأتباعهم، فإذ امتثل وانقاد انقياداً تاماً لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قال الله: "ولكن كونوا ربانيين" أي تنتسبون إلى الرب عز وجل بطاعتكم إياه وعبوديتكم له واتباعكم لشريعته ومعرفتكم لصفاته، كما يجب عليه أن يكون صادقاً فيما يدعو إليه، ويعلم غيره، وعلامة الصدق أن يطبق على نفسه، فإذا طابق عَمَلُه عِلْمَه اتبعه الطلاب وقلدوه في كل من أقواله وأفعاله، أما إذا خالف عمله لما يعلم ويدعو إليه فإن طلابه يشعرون بعدم عزمه على تحقيق ما يقول أو بعدم إيمانه بما يقول أو بعدم جدية أقواله[٢].

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص ١٨٠.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٤١، ١٤٠.

رابعاً- الرحلات العلمية:

من الموارد والوسائط التربوية المفيدة الرحلات العلمية، ومن دلائل ذلك ما جاء في الحث على الأسفار سواء أكانت لأغراض دينية كالجهاد والحج أم كان لأغراض الكسب ورفع المستوى المعيشي، وكذلك السفر لطلب العلوم واكتساب الفنون، ويمكن لنا أن نستنبط ذلك ضمنياً من أحاديث الباب، حيث وردت في الحديث عن مقام الأسفار وما ينبغي لها من آداب تُراعى.

إن للرحلات العلمية أكبر الأثر في تقويم شخصية الإنسان وسلوكياته فضلاً عن اكتسابه المهارات والعلوم واتساع أفقه وتجدد نشاطه العلمي والحياتي.

إن من آمن بالعلم وأثره في تثقيف العقول ونمائها وتهذيب النفوس وصقلها طلبه في مظانه مهما بعدت الشقة وقل الزاد وتعذرت الراحلة.

ولقد سجلت لنا كتب الرحلات وكتب الأدب أخبار أعداد ضخمة ممن قطعوا المسافات الطويلة وتحملوا قسوة الحياة في سبيل تحصيل زادٍ علمي أو تحقيق مسألةٍ طال فيها الجدل أو لقاءَ عالمٍ مشهور ذاع صيته.

إن الرحلة في طلب العلم حقيقة واقعة، وإن ما بذل لها وأنفق فيها قد حدث فعلاً، وإن الذين وضعوا المعالم على الطريق كانوا رجال الحديث، ومما شجع على رحلات العلم، حبه، والرغبة في الاغتراف من منابعه من جهة، وما أوقفه الخيرون ورصده الأوفياء لطلاب العلم حثاً عليه وتشجيعاً لضبط مسائله من جهة أخرى.

لقد انتشرت في العالم الإسلامي منذ الرعيل الأول الرحلات العلمية وإنفاق المال والجهد في سبيل علم نافع، وقد دعا إلى هذه الرحلات العلمية:

أ- حب الناس للعلم وإقبالهم عليه واحتفاؤهم به ورغبتهم في التزود منه والتفوق في أفانينه وفنونه بعد أن استشعروا اللذة في تحصيله ورغبوا في أن ييسروا سبيله للطالبين حسبة لوجه الله تعالى.

ب- الأمانة العلمية فرضت على العلماء الرحلات العلمية رغبة في توثيق الحديث والتأكد من صدقه وسلامته، والدين يدعو للوفاء بالأمانة والوازع الديني من أقوى الدوافع.

ج- في الرحلة متعة، يرى المرتحل أماكن جديدة، ويزداد رصيده من الخبرة، ومن الصحبة، ومن المعرفة، وإن تحمل في سبيل ذلك الأهوال.

د- كان التنافس بين المشرق والمغرب في سبيل السبق العلمي لما يحفز الهمة.

هـ- المجد الأدبي، في أكثر الحالات، والمكسب المادي في بعض الحالات.

و- كان الناس يُقوِّمون العالم، بمقياس ما قام به من رحلة، وما تيسر له من قراءة، وما حصله من معرفة، ومَنْ جلس إليهم من علماء.

ز- دراسة الحديث، وتوثيقه، حتى يكون قوي السند، صادق الرواية.

ح- ما كان يقدم للمرتحلين من أسباب العون العلمي، والمادي.

وقد اتجهت الرحلات:

أ- إلى البادية، ليستمعوا إلى اللغة في أنقى أساليبها، وإلى الأدب في أرقى صوره، وإلى التاريخ في أصح رواياته.

ب- حيث يقيم الصحابة في البلاد المفتوحة، ليفقهوا المسلمين في أمور دينهم.

ج- إلى الأماكن المقدسة للحج، والتزود من حلقات العلم، وقد يطول المقام بها.

د- إلى مواطن الثقافة - أنَّى كانت- في بلاد المشرق، مصر، وبغداد، ودمشق، وفي بلاد المغرب قرطبة، وطليطلة، وقد تمتد الرحلة إلى ما وراء النهر، والهند.

هـ- إلى المدارس المختلفة، بعد أن ظهرت إلى الوجود، وبعد أن اتسعت مناهجها، واختير العلماء المبرزون للتدريس فيها، وامتلأت المكتبات بكتبها، ثم تكفلت لطلاب العلم بما يغنيهم، ويحفز هممهم.

و- وهناك رحلة الباحثين عن إشباع ميولهم في الدراسات الدينية، أو الأدبية، أو اللغوية، أو العلمية، أو الفلسفية، أو الاجتماعية[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح ص ٢٩٤-٢٩٧.

١٧١- باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا وشبهها

وتسبيحه إذا هبط الأودية ونحوها

والنهي عن المبالغة برفع الصوت بالتكبير ونحوه

الحديث رقم (٩٧٦)

٩٧٦- عن جابر رضي الله عنه ، قَالَ: كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا ، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

من يتفقد حياة الرسول ﷺ يجد أن له عند كل حركة ذكراً ، وعند كل سكنة ، وقد صارت هذه الأذكار سنة من بعده لأمته في كل مكان ، وزمان تربطهم بربهم ، وتحميهم من شياطينهم ، وتغسل قلوبهم من الحزن على الماضي ، ومن الغم بالحاضر ، و من الهم بالمستقبل ، وهذا الحديث يعرض شكلا من أشكال التقلب مع ذكر الله يرويه جابر رضي الله عنه بقوله (كنا) الذي يدل على اعتيادهم ذلك ، وناء الفاعلين تقرر أنه فعل جماعة لا فعل فرد مما يؤكد الفعل ، وقد قابل بين صعدنا ، ونزلنا ليستوعب حركة المسير انخفاضاً ، وارتفاعاً مع ذكر الله بين التكبير ، والتسبيح.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب للمسافر أن يكبِّر إذا صعد الثنايا وشبهها ، ويسبح إذا هبط الأودية ونحوها ، ويكره رفع الصوت بذلك لأحاديث الباب)[2].

---

(١) برقم ٢٩٩٣.

(٢) المجموع شرح المهذب ، الإمام النووي ١٩٤/٤ ، بتصرف.

وقال النووي: (السنة أن يقول إذا رجع من سفره ما ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قَفَل من الحج أو العمرة... الحديث)[١].

وقد بوّب النووي على الحديث (٩٧٩) في كتاب الأذكار: باب استحباب طلبه [أي المسافر] الوصية من أهل الخير[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التكبير والتسبيح في السفر.

ثالثاً: من آداب المدعو: الانشغال بذكر الله تعالى.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد أسلوب الإخبار بما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم في السفر من التكبير والتسبيح، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في الحديث "كنا إذا صعدنا كبرنا...".

وكذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: "كان النبي صلى الله عليه وسلم وجيوشه إذا علَوا الثنايا كبروا...".

قال د. محمد ساداتي الشنقيطي: (شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هي الشخصية الأولى في حياة المسلمين، وهي المثل والقدوة، والكشف عن حقائقها مما يحقق الاستجابة لدعوة الحق... ولئن كانت الاستجابة للدعوة تتأثر إلى حد كبير بعناصر شخصية الداعية، فإن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم قد جمعت الفضائل الخلقية والمكارم الإنسانية الرفيعة. وهي قبل ذلك شخصية متعبدة خاشعة متصلة بالله آناء الليل وأطراف النهار، وقد كشف الإخبار عنها في أبعادها النبوية والبشرية... وهو أيضاً يحقق الإقبال على سيرته العطرة)[٤]. وكذلك الإخبار عن أفعال الصحابة رضي الله عنهم في اقتدائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم يزيد

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٩ .

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٧٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٧٧).

(٤) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام ٢٧٣-٢٧٥.

من فاعلية الدعوة إلى الاقتداء بالنبي ﷺ، فإن الصحابة ﷺ ما حققوا فلاحاً أو صلاحاً أو فوزاً إلا وكان طريقهم في ذلك الاقتداء به ﷺ.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التكبير والتسبيح في السفر:

وهذا واضح من الحديثين[١]، فالتكبير عند صعود الثنايا وما يشبهها، وقول سبحان الله عند الهبوط.

قال ابن حجر: (قال المهلب: تكبيره ﷺ عند الارتفاع، استشعار لكبرياء الله عز وجل، وعند ما يقع عليه العين من عظيم خلقه أنه أكبر من كل شيء، وتسبيحه في بطون الأودية مستنبط من قصة يونس، فإن بتسبيحه في بطن الحوت نجاه الله من الظلمات، فسبّح النبي ﷺ في بطون الأودية لينجيه الله منها. وقيل مناسبة التسبيح في الأماكن المنخفضة، من جهة أن التسبيح هو التنزيه، فناسب تنزيه الله عن صفات الانخفاض كما ناسب تكبيره عند الأماكن المرتفعة)[٢].

وقال ابن عثيمين: (من آداب السفر أنه إذا صعد الإنسان شيئاً مرتفعاً، كالجبل وكذلك الطائرة إذا صعدت فإنه يكبّر يقول: "الله أكبر" إما مرة أو مرتين أو ثلاثاً. وإذا نزل سبح قال سبحان الله مرة أو مرتين أو ثلاثاً، ووجه ذلك أن الإنسان إذا علا فإنه يرى نفسه في مكان عال، فقد يستعظم نفسه، فيقول: الله أكبر، يعني: لو علوتِ أيتها النفس فإن فوقك من هو أعلى منك، وهو الله عز وجل. أما إذا نزل فالنزول سفول ودنو وذل. فيقول: سبحان الله يعني أُنزِّه الله سبحانه وتعالى عن السفول والنزول، لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وإن كان -جل وعلا- ثبت عن رسول الله ﷺ أنه ينزل إلى السماء الدنيا[٣] هذا نزول يليق بجلاله وعظمته ولا يلزم منه السفول، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء)[٤].

---

(١) حديث رقم (٩٧٥)، (٩٧٦).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣٦/٦.

(٣) أخرجه البخاري ١١٤٥، ومسلم ٧٥٨ من حديث أبي هريرة مرفوعاً: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر..." الحديث.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٢٢٥/٢.

ثالثاً- من آداب المدعو: الاشتغال بذكر الله تعالى:

هذا واضح من الحديثين، فالرسول ﷺ وصحابته الأكرمون لم يشغلهم السفر - وفيه ما فيه من المشقة والجهد- لم يشغلهم عن ذكر الله تعالى. وهكذا ينبغي أن يكون حال المدعو مع ربه. قال ابن عثيمين: (من الآداب المستحبة التي من هدي الرسول ﷺ وأصحابه أنك إذا صعدت تقول: الله أكبر، وإذا نزلت وادياً تقول: سبحان الله كذلك الطائرة عند ارتفاعها تكبر، وعند نزولها المطار تسبح، لأنه لا فرق بين الصعود في الهواء والنزول منه أو على الأرض)[1]. قال ابن هبيرة: (إن رسول الله ﷺ لم يكن ليغفل عن ربه في حال سفره، ولا في حال قدومه، ولا مقامه ولا ظعنه؛ ولا ليله ولا نهاره، وكان في كل حال من حاله له ذكر يخصه، وهكذا ينبغي لكل مسلم؛ فإن الله تعالى هو الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، والسلامة في السفر منه سبحانه)[2].

قال النووي في الأذكار (قال العظيم العزيز الحكيم: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4] فعلم بهذا أن من أفضل، أو أفضل حال العبد حال ذكره رب العالمين، واشتغاله بالأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ سيد المرسلين)[5].

وقال كذلك: (اعلم أنه ينبغي لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال، أن يعمل به ولو مرة واحدة ليكون من أهله، ولا ينبغي أن يتركه مطلقاً بل يأتي بما تيسر منه، لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: ((فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))[6].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٥-١٢٢٦.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤/٢٨٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٥) مقدمة الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٧.

(٦) أخرجه البخاري ٧٢٨٨، ومسلم ١٣٣٧.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(١)](٢).

قال القاسمي ("الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم" أي فلا يخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله، المفيد صفاء الظاهر، المؤثر في تصفية الباطن، فالمراد تعميم الذكر للأوقات وعدم الغفلة عنه تعالى، وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر، ليس لتخصيص الذكر بها، بل لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالباً)(٣).

قال ابن القيم في مدارج السالكين: (ومن منازل "إياك نعبد وإياك نستعين" منزلة الذكر، وهي منزلة القوم، والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال.

والذكر جلاء القلوب وصقالها، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته، وهو روح الأعمال، فإذا خمل العبد عن الذكر، كان كالجسد الذي لا روح فيه.

والذكر ثلاثة أنواع:

ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده وهو بالدرجة الثانية، وذكر باللسان المجرد وهو بالدرجة الثالثة.

وأنواع الذكر ثلاثة: ثناء ودعاء ورعاية، والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة، فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء، ومتضمنة لكمال الرعاية ومصلحة القلب، وفيها تعليم القلب مناجاة الرب تعلقاً وتضرعاً واستعطافاً، وغير ذلك من أنواع المناجاة)(٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

(٢) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢١.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣٢٢/٤.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٥٨/٣-٢٨٣ ملخصاً وقد استفدنا هذا التلخيص من عبدالله البسام في كتابه توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٩٧/٦.

(وذكر العبد لربه يكون بالإخبار المجرد عن ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه أو بتلاوة كتابه، أو بمسألته ودعائه، او بإفشاء الثناء عليه بتقديسه وتمجيده، وتوحيده وحمده، وشكره وتعظيمه)[1].

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/ ٢٢٠ وانظر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ص ٩٩٢-٩٩٤، الدولية، الرياض.

الحديث رقم (٩٧٧)

٩٧٧- وعن ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ وجيُوشُهُ إذَا عَلَوا الثَّنَايَا: كَبَّرُوا، وَإذَا هَبَطُوا: سَبَّحُوا. رواه أبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الثنايا: جمع ثنية: الطريق في الجبل[2].

الشرح الأدبي

يروي الحديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا دون مؤكدات لأنه ينقل خبراً مجمعاً عليه فهو فعل للنبي وجيوشه فلم يحتج إلى توكيد، وقوله: (كَانَ النَّبيُّ ﷺ وجيُوشُه) يشير إلى ذلك وجمع الجيوش زيادة في التوكيد، وإشارة إلى عموم الخبر، وأسلوب الشرط يعطيه صفة العموم، والتكرار علواً مع التكبير، وهبوطاً مع التسبيح، وقد جاءت الصلاة على هيئة فعلهم تكبير في ارتفاع وتسبيح في الركوع، والسجود.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم ٢٥٩٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ث ن ي).

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٧٨)

٩٧٨- وعنه، قَالَ: كَانَ النَّبي ﷺ إِذَا قَفَلَ مِنَ الحَجِّ أَوْ العُمْرَةِ، كُلَّمَا أوْفَى عَلَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدْفَدٍ كَبَّرَ ثَلاثاً، ثُمَّ قَالَ: ((لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. آيبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

وفي رواية لمسلم[٢]: إِذَا قَفَلَ مِنَ الجيُوشِ أَو السَّرَايَا أَو الحَجِّ أَو العُمْرَةِ.

قوله: "أَوْفَى" أي: ارتفع، وقوله: "فَدْفَدٍ" هو بفتح الفاءين بينهما دال مهملة ساكنة، وآخره دال أخرى وهو: الغليظ المرتفع من الأرض.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

قفل: رجع[٣].

أوفى: ارتفع[٤].

الثنية: الطريق في الجبل[٥].

الفَدْفَدِ: الغليظ المرتفع من الأرض[٦].

آيبون: جمع آيب أي راجع، وزنه ومعناه[٧].

الأحزاب: هم قريش ومن معها من القبائل الذين تجمعوا لقتال النبي ﷺ في شوال

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٨٥، ومسلم بعد حديث ١٣٤٤/٤٢٨ بدون رقم ولم يسق لفظه، كلاهما عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر.

(٢) برقم (١٣٤٤/٤٢٨) من حديث عبيد الله بن عمر، عن نافع.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩٣/١١، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٤٢.

(٤) رياض الصالحين ٣٨١.

(٥) القاموس والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ث ن ي).

(٦) رياض الصالحين ٣٨١.

(٧) فتح الباري، ابن حجر ١٩٣/١١، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٤٢.

٥هـ، وحاصروا المدينة قريباً من شهر، وردهم الله خائبين وتسمى غزوة الأحزاب بغزوة الخندق كذلك، لأن المسلمين حفروا خندقاً شمالي المدينة منع الأحزاب من اقتحامها[١]. وقال ابن حجر: والأصل في الأحزاب أنه جمع حزب، وهو القطعة المجتمعة من الناس، فاللام إما جنسية والمراد كل من تحزب من الكفار، وإما عهدية والمراد من تقدم وهو الأقرب[٢].

السرايا: جمع سرية أي قطعة من قطع الجيش، أقلها تسعة أشخاص، وأقصاها أربعمائة شخص، وعددها اليوم مائة وخمسة أشخاص[٣].

الشرح الأدبي

قوله: (إِذَا قَفَلَ مِنَ الحَجِّ أَوْ العُمْرَةِ) أسلوب شرط جوابه جملة شرط أخرى (كُلَّمَا أَوْفَى عَلَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدْفَدٍ كَبَّرَ ثَلاثاً) يربط القفول من الحج أو العمرة بالتكبير عند كل ثنية، وأسلوب الشرط يعطي الخبر صفة العادة بالنسبة إلى الرسول ﷺ، وصفة السنة لأمته، وقوله (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ) بني على التوكيد، والتخصيص فهو أسلوب قصر حقيقي تحقيقي لصفة الألوهية على الله، ونفيها عن كل من سواه، ولفظ، وحده توكيد يستغرق أعماق النفس بمعنى التوحيد، وقوله (لا شريك له) أسلوب نفي يؤكد مضمون كلمة التوحيد، وقد فصلت عنها لكمال الاتصال بين الجملتين؛ لأن الثانية مؤكدة لمضمون الأولى، وقوله (، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ) أسلوبي قصر لصفة الملك، وصفة الحمد على الله، ونفيهما عن كل من سواه، وقوله: (آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ) بين الكلمتين الأوليين جناس بديع يجذب السمع، وتطرب له النفس، وكذلك بين الكلمات الثلاثة الأخيرة كما أنه يجمعها جميعاً جرساً عذباً مصدره السجع في آخرها، وقوله: (صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ) فيه سجع بديع يجعل العبارة كنشيد عودة الصالحين من رحلة الطهر يسهل على الجميع حفظه، ويتلذذون بترديده.

---

(١) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٦٤، أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٩٤.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٢٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الدعاء عند الرجوع من السفر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تمجيد الله والثناء عليه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الدعاء عند الرجوع من السفر:

هذا واضح من الإخبار عن النبي ﷺ: "كان إذا قفل من الحج أو العمرة" وفي رواية لمسلم: "إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة". وفي رواية عند البخاري[1]: "كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة" وبوب عليه البخاري في كتاب الدعوات: باب الدعاء إذا أراد سفراً أو رجع[2].

قال ابن حجر: (قوله "من غزو أوحج أو عمرة" ظاهره اختصاص ذلك بهذه الأمور الثلاثة، وليس الحكم كذلك عند الجمهور، بل يشرع قول ذلك في كل سفر إذا كان سفر طاعة، كصلة الرحم وطلب العلم، لما يشمل الجميع من اسم الطاعة، وقيل يتعدّى أيضاً إلى المباح، لأن المسافر فيه لا ثواب له فلا يمتنع عليه فعل ما يحصل له الثواب. وقيل يشرع في سفر المعصية أيضاً، لأن مرتكبها أحوج إلى تحصيل الثواب من غيره. وهذا التعليل متعقب، لأن الذي يخصه بسفر الطاعة، لا يمنع من سافر في مباحٍ ولا في معصية من الإكثار من ذكر الله، وإنما النزاع خصوص هذا الذكر في هذا الوقت المخصوص، فذهب قوم إلى الاختصاص، لكونها عبادات مخصوصة شرع لها ذكر مخصوص. فتختص به كالذكر المأثور عقب الأذان وعقب الصلاة، وإنما اقتصر الصحابي على الثلاث، لانحصار سفر النبي ﷺ فيها ولهذا ترجم بالسفر)[3].

فكان الدعاء عند الرجوع من السفر إعلاناً من العبد أنه عبدٌ ذليل خاضع لله عز وجل، فهو عبده في جميع الأوقات والأحوال والأزمان، فهو في حالة السلامة عبدٌ، كما كان في حالة الخوف، وهو في حالة ملاقاة الأهل والأوطان والرجوع إليها عبده، كما

---

(١) صحيح البخاري ١٧٩٧، ٢٩٩٥، ٤١١٦، ٦٣٨٥.

(٢) الحديث رقم ٦٣٨٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٨٩.

كان في حالة مفارقتها، وهو عبده بالليل، كما هو عبده بالنهار، وهو عبده بالنهار، كما هو في الليل، وهو عبده وهو يصعد الجبال والمرتفعات، كما هو عبده وهو ينزل السفوح والأودية. وهكذا العبد يعلن في كل لحظة أنه فقير إلى الله عز وجل، يطلب مدده وعونه وحفظه وعنايته. قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل من الفقه أن رسول الله ﷺ كان إذا آب من سفر، لم يُلْهِه فرح الأوبة، ولا دهشة الداخل، ولا سرور القادم على الأهل بعد طول الغيبة، عن شكر الله وحمده والثناء عليه، فكان يعلن بذلك على كل شُرُف، وهو المكان العالي)(١).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تمجيد الله والثناء عليه:

هذا واضح من كون الرسول ﷺ كبر الله ثلاثاً ثم يقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده".

قال أبو العباس القرطبي: (وتكبيره ﷺ في هذه المواضع المرتفعة إشعار بأن أكبرية كل كبير إنما هي منه، وأنها محتقرة بالنسبة إلى أكبريته تعالى وعظمته)(٢).

قال ابن حجر: (قوله "ثم يقول: لا إله إلا الله... إلخ" يحتمل أنه كان يأتي بهذا الذكر عقب التكبير وهو على المكان المرتفع، ويحتمل أن التكبير يختص بالمكان المرتفع، وما بعده إن كان متسعاً أكمل الذكر المذكور فيه، وإلا فإذا هبط سبّح كما دل عليه حديث جابر(٣)، ويحتمل أن يكمل الذكر مطلقاً عقب التكبير، ثم يأتي بالتسبيح إذا هبط. قال القرطبي(٤): وفي تعقيب التكبير بالتهليل، إشارة إلى أنه المتفرد بإيجاد جميع الموجودات، وأنه المعبود في جميع الأماكن.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٣٥/٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٥٦/٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٩٣.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٥٦/٣.

قوله "آيبون" جمع آيب أي راجع وهو خبر مبتدأ محذوف والتقدير: نحن آيبون، وليس المراد الإخبار بمحض الرجوع فإنه تحصيل الحاصل، بل الرجوع في حالة مخصوصة، وهي تلبسهم بالعبادة المخصوصة، والاتصاف بالأوصاف المذكورة. وقوله "تائبون" فيه إشارة إلى التقصير في العبادة، وقاله ﷺ على سبيل التواضع أو تعليماً لأمته، أو المراد أمته. وقد تستعمل التوبة لإرادة الاستمرار على الطاعة، فيكون المراد أن لا يقع منهم ذنب. قوله "صدق الله وعده" أي فيما وعد به من إظهار دينه في قوله ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[1]. وقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] وهذا في سفر الغزو، ومناسبته لسفر الحج والعمرة قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[3]. قوله "ونصر عبده" يريد نفسه، قوله "وهزم الأحزاب وحده" أي من غير فعل أحد من الآدميين)[4].

وقال النووي: (والمراد بالأحزاب الذين اجتمعوا يوم الخندق وتحزبوا على رسول الله ﷺ، فأرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وبهذا يرتبط قوله ﷺ "صدق الله" تكذيباً لقول المنافقين، والذين في قلوبهم مرض ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[5]. هذا هو المشهور أن المراد أحزاب يوم الخندق. قال القاضي[6]: وقيل: يحتمل أن المراد أحزاب الكفر في جميع الأيام والمواطن)[7].

وقال القرطبي: (ويحتمل أن يكون هذا الخبر بمعنى الدعاء، كأنه قال: اللهم افعل ذلك وحدك)[8].

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٠.
(٢) سورة النور، آية: ٥٥.
(٣) سورة الفتح، آية: ٢٧.
(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٨٩-١٩٠.
(٥) سورة الأحزاب، آية: ١٢.
(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤/٤٥٤.
(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥/٩/١١٩-١٢٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/١٩٠، .
(٨) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٤٥٧.

وقال ابن هبيرة: (وقوله: "تائبون" بعد قوله: "آيبون"؛ فإن التوبة تتضمن معنى الأوبة، إلا أنها فيها زيادة تخليص لمعنى الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، فكان قوله ﷺ: "تائبون" عند قفوله من عبادة كالغزو والحج بعد قوله: "آيبون" على أثر ذلك نافياً للعجب من كل عبادة، ليدحض العجب بالكلية.

وقوله: "ساجدون" الإشارة بذلك إلى الصلاة. وقوله: "لربنا حامدون" كان الوقوف على ربنا: إنا ساجدون لربنا، ثم عاد فابتدأ حامدون، ويكون هذا خبر أيضاً والمبتدأ محذوف؛ أي: ونحن حامدون.

وقوله: "صدق الله وعده" أي الذي وعد به، وهذا وإن كان في حج ولم يجر فيه حرب يقتضي ذكر النصر، فإنه يُذكر ﷺ بالنعمة المتأخرة النعمة المتقدمة، وهذا يتعين على كل منعم عليه، أن تذكره النعمة المتقدمة ولا يكون سبباً في نسيانها؛ فإنه ﷺ إنما دخل المسجد الحرام آمناً لا يخاف شيئاً من نصر الله له وإعلاء كلمته، فلم تنسه هذه المتأخرة النعمة المتقدمة، بل كانت مذكرة بها)[1].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤/١٣٥ -١٣٦.

الحديث رقم (٩٧٩)

٩٧٩- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قَالَ: يَا رسول الله، إنّي أُريدُ أنْ أُسَافِرَ فَأوْصِنِي، قَالَ: ((عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كلِّ شَرَفٍ)) فَلَمَّا[1] وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ: ((اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ البُعْدَ[2]، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ)) رواه الترمذيُّ[3]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شرف: مكان عال[4].

وًلى: أدبر وذهب[5].

اطوِ لَهُ: قربه له وسهل له[6].

الشرح الأدبي

قول الرجل (أوصني) أمر استرشاد، ونصح، يخفي وراءه رغبة في مباركة الرسول ﷺ لهذا السفر، ودعائه له، وهو ما أسفر عنه الحديث حيث حقق له ما طلب صراحة بقوله (عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كلِّ شَرَفٍ) وهو أمر بمعنى الزم، وتقوى الله اسم جامع لمعاني الخشية، والخوف، والمراقبة، والحياء، وصفات كثيرة، وكذلك حقق له الرسول ﷺ ما يتمنى مما لم يطلبه فدعا له (اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ البُعْدَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ)

---

(١) عند الترمذي زيادة: (أن).

(٢) لفظ الترمذي: (الأرض) والمثبت لفظ مشكاة المصابيح ٢٤٣٨، وعند أحمد في المسند ٨٣٨٥ بلفظ: (البعيد).

(٣) برقم ٢٧٧١. وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٦١، وابن حبان، الإحسان ٢٦٩٢، وقال الحاكم ٩٨/٢: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٤) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ر ف).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (و ل ى).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط و ي).

وصيغة اللهم نداء بغرض الدعاء فيه مزيد تذلل، وخضوع يؤذن بالإجابة، والأمر (اطو) مقصود به الدعاء بتيسير السير، والتعبير بالطي على سبيل الاستعارة شبه الأرض بما يطوي من الثياب، وغيرها لقطع المسافات، وهذه الاستعارة توحي بسرعة قطع الأرض مع الخفة، والسهولة، وتقديم الجار، والمجرور (له) يفيد الاختصاص به.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حِرْص الصحابة رضي الله عنهم على طلب الوصية من الرسول ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: وصية النبي ﷺ للمسافر بتقوى الله والتكبير على كل شرف.

ثالثاً: من آداب الداعية: الدعاء للمسافر بتيسير السفر وتسهيله عليه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حِرْص الصحابة رضي الله عنهم على طلب الوصية من الرسول ﷺ:

هذا واضح من قول الرجل: "يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني: قال: عليك بتقوى الله والتكبير على كلِّ شرف". فهذا يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم الشديد على طلب الوصية من رسول الله ﷺ قبل سفرهم، ليرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، لأنه رسول رب العالمين الذي لا ينطق عن الهوى.

ومن هذا القبيل ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ الله فقالَ يا رسولَ الله إنِّي أُرِيدُ سَفَراً فَزَوِّدْنِي، قالَ: زَوَّدَكَ الله التَّقْوَى. قالَ زِدْنِي. قالَ وَغَفَرَ ذَنْبَكَ. قالَ زِدْنِي بِأبي أنْتَ وأمِّي. قالَ ويَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُما كُنْتَ))[1].

قال المباركفوري: (قوله "فزودني" أمر من التزويد وهو إعطاء الزاد، والزاد طعام يتخذ للسفر يعني: ادع لي دعاءً يكون بركته معي في سفري كالزاد. "زودك الله بالتقوى" أي الاستغناء عن المخلوق، أي امتثال الأوامر واجتناب النواهي. "قال زدني" أي من الزاد أو من الدعاء "ويسر لك الخير" أي سهل لك خير الدارين حيثما كنت" أي في أي مكان حللت، ومن لازمه في أي زمان نزلت.

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٤٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٣٩).

قال الطيبي[1]: يحتمل أن الرجل طلب الزاد المتعارف، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه على طريقة أسلوب الحكيم: أي زادك أن تتقي محارمه وتجتنب معاصيه. ومن ثم لما طلب الزيادة قال: "وغفر ذنبك"، فإن الزيادة من جنس المزيد عليه، وربما زعم الرجل أنه يتقي الله، وفي الحقيقة لا يكون تقوى لا تترتب عليها المغفرة، فأشار بقوله "وغفر ذنبك" أن يكون ذلك الاتقاء بحيث يترتب عليه المغفرة. ثم ترقى إلى قوله "ويسر لك الخير" فإن التعريف في "الخير" للجنس، فيتناول خير الدنيا والآخرة)[2].

إذن فما أجدر أن يقتدي المدعوون بالصحابة رضي الله عنهم في طلبهم الوصية من النبي ﷺ وعملهم بما وصّاهم به النبي ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، فإن سنته بيننا تنادي علينا صباح مساء، أن اقتدوا بصاحبي خير الخلق محمد ﷺ كما اقتدى صحابته وهم خير القرون، فتفوزوا كما فازوا، وتفلحوا كما أفلحوا، وتنشروا الخير بينكم وفي أرجاء العالم كما نشروا، وتحملوا إليهم العدل والإصلاح كما حملوا. فكانوا خير أمة أخرجت للناس، فإن فعلتم هذا كنتم متصفين بهذه الخيرية.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: وصية النبي ﷺ للمسافر بتقوى الله والتكبير على كل شرف:

هذا واضحٌ من قول النبي ﷺ للمسافر: "عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف".

قال المباركفوري: (قوله "عليك بتقوى الله" أي بمخافته والحذر من عصيانه "والتكبير" أي قول الله أكبر، ومناسبة التكبير عند الصعود إلى المكان المرتفع، أن الاستعلاء والارتفاع محبوب للنفوس، لما فيه استشعار الكبرياء، فشرع لمن تلبس به أن يذكر كبرياء الله تعالى، وأنه أكبر من كل شيء، فيكبره ليشكر له ذلك، فيزيده من فضله. قاله الحافظ)[3].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٧٤/٥.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٤٥٥-٢٤٥٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٤٥٦.

وقد قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

قال القاسمي: (ويقال في معنى الآية: وتزودوا من التقوى للمعاد، فإن الإنسان لابد له من سفر في الدنيا، ولابد فيه من زاد، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا إلى الآخرة، لابد فيه من زاد أيضاً، وهو تقوى الله والعمل بطاعته واتقاء المحظورات. وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول، فإن زادالدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة. وثمة وجه آخر: وهو أن قوله تعالى "وتزودوا" أمر باتخاذ الزاد هو طعام السفر، وقوله "فإن خير الزاد التقوى" إرشاد إلى زاد الآخرة وهواستصحاب التقوى إليها، بعد الأمر بالزاد للسفر في الدنيا. كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾[2] لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة، وذكر أنه خير من هذا وأنفع)[3].

وربما قد يظهر تساؤل: ما الحكمة من جمع النبي ﷺ في وصيته بين تقوى الله والتكبير على كل شرف؟

والإجابة على هذا السؤال قد تكمن في معرفة العلاقة بين تقوى الله والتكبير، فتقوى الله تعني إتيان أوامره واجتناب نواهيه، وهذا من إجلال الله وتعظيمه، كما أن التكبير من إجلال الله وتعظيمه، فكان التكبير إظهاراً لما التزم به المسافر من تقوى الله وخشيته، فكان في تكبيره هذا أربع رسائل:

الرسالة الأولى يتوجه بها إلى الله ويتضرع إليه، ويقرّ أمامه أنه عبدٌ ذليل لرب عظيم.

والرسالة الثانية يوجهها إلى نفسه أنه مهما علا وارتفع في هذه الدنيا، فإنه لن يعدو مقداره، ولن يتخطى قدره، وهو أنه عبدٌ لله، وأنه لن يحيا ولن يموت إلا في مقام العبودية والتذلل لرب العالمين.

والرسالة الثالثة يوجهها إلى العالم المحيط حوله أنه عبدٌ لله، معظّم له، حافظ

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣/١٥٤-١٥٥.

لحرماته، لا يتعداها ولا ينتهكها، ومن ثم فإنه لن يظلم ولن يجور، بل سيكون العالم منه في أمان وسلام.

والرسالة الرابعة يوجهها إلى المعتدين والمتكبرين الذين قد يلحقون به الأذى، إنه يبعث إليهم: أن الله معه بحفظه وعنايته، وأنّ من كان في حفظ الله وعنايته، فلن يضره شيء ويدافع الله عنه.

ثالثاً- من آداب الداعية: الدعاء للمسافر بتيسير السفر وتسهيله عليه:

هذا واضح من قول النبي ﷺ عند تولي الرجل "اللهم اطو له البعد، وهون عليه السفر".

قال المباركفوري: (قوله "اللهم اطو له البعد" أمر من الطي أي قربه له وسهل له، والمعنى: ارفع عنه مشقة السفر بتقريب المسافة البعيدة له حساً أو معنى "وهون عليه السفر": أي أموره ومتاعبه وهو تعميم بعد تخصيص)[1].

وقد قال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: ((كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ))[2].

وقد وقع لجابر نفسه حظ من دعاء النبي ﷺ وهو في السفر فقال: ((غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ، فَتَلاَحَقَ بِي، وَتَحْتِي نَاضِحٌ لِي قَدْ أَعْيَا وَلاَ يَكَادُ يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي مَا لِبَعِيرِكَ؟ قَالَ قُلْتُ: عَلِيلٌ، قَالَ: فَتَخَلَّفَ رَسُولُ اللّهِ فَزَجَرَهُ وَدَعَا لَهُ، فَمَا زَالَ بَيْنَ يَدَيِ الإِبِلِ قُدَّامَهَا يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي: كَيْفَ تَرَىٰ بَعِيرَكَ؟ قَالَ قُلْتُ: بِخَيْرٍ، قَدْ أَصَابَتْهُ بَرَكَتُكَ)). الحديث[3].

فكان دعاؤه ﷺ للصحابة دليلاً على شفقته ورأفته بأمته وعنايته بها أفراداً وجماعات، كما أنه ﷺ لم يدعُ للصحابة فحسب، بل دعا أيضاً لأمته من بعده، كما أنه ﷺ صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، فهذا كله يوضح كمال عناية

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٤٥٦.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٦٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٩٨).

(٣) أخرجه البخاري ٢٧١٨، ومسلم ١١٠-٧١٥.

النبي ﷺ بأمته في الدنيا والآخرة.

وما أجمل أن يقتدي الداعية به ﷺ، فيحرص أن يدعو للمدعوين بكل خير ونفع لهم في الدنيا والآخرة، ففي فعل الداعية ذلك تقريب له من نفوس المدعوين، فيسهل قبولهم لدعوته والإقبال عليها. كما أنه في دعائه لهم، دعوة لأن يزدادوا إذعاناً وخضوعاً لله رب العالمين، فهو هو ذا الداعية أمامهم يرفع أكف الضراعة ويتوجه لله سبحانه، وهو أعلمهم وأقربهم له عز وجل، فكان في ذلك توجيه رسالة دعوية لهم، أنه كلما ازداد المرء علماً وقرباً، ازداد تضرعاً وتذللاً لله رب العالمين.

الحديث رقم (٩٨٠)

٩٨٠- وعن أَبي موسى الأشعريِّ ﷺ، قَالَ: كنّا مَعَ النبيِّ ﷺ (في سَفَرٍ) [١]، فَكُنَّا إذَا أشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا وَارتَفَعَتْ أصْوَاتُنَا، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: ((يَا أيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ، فَإنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أصَمَّ وَلاَ غَائِباً، إنَّهُ مَعَكُمْ، إنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

"ارْبَعُوا" بفتح الباء الموحدة أي: ارفقوا بأنفسكم.

ترجمة الراوي:

ابو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

أشرفنا على وادٍ: اطَّلعْنا عليه من فوق، أي: أقبلنا عليه[٣].

هللنا: قلنا: لا إله إلا الله[٤].

اربعوا: ارفقوا بأنفسكم[٥].

الشرح الأدبي

((ارْبَعُوا)) بفتحِ الباءِ الموحدةِ أيْ: ارْفُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ.

الفعل الماضي (كان) عودة إلى سراديب الماضي للتذكير بحدث من العصر المعلم لكل العصور، وإضافته لناء الفاعلين يشير إلى كثرة العدد، وأنه كان بمشهد فهو مؤكد، وقول الرسول ﷺ (يَا أيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) قوله (أربعوا) أمر نصح، وإرشاد سبقه نداء عام، وغالباً ما يتصدر الأمور العظام، وهو خطاب للصحابة،

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم ٦٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٩٢، ومسلم ٢٧٠٤/٤٤.

(٣) الصحاح في (ش ر ف).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ ل ل).

(٥) رياض الصالحين ٣٨١.

ومن بعدهم يطرد باطراد الزمان لهذه الأمة قال الطيبي (والخطاب العام: وهو ما يخاطب به غير معين للإيذان بأن الأمر لعظمه، وفخامته، حقيق بالا يختص بأحد دون أحد، وقوله (فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أصَمَّ وَلاَ غَائِباً) جملة تعليلية لتحقيق الامتثال للأمر السابق، والجملة بعده مؤكدة له، وبين قوله: (أصم، وسميع) طباق يؤكد المعنى، ويوضحه، وكذلك بين قوله (غائب، وقريب) لأن الغائب كالبعيد فقابل به القريب ليؤكد معنى قربه، وسمعه لمن جهر، ومن أسر على السواء.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تنبيه المدعوين إلى الرفق بأنفسهم في العبادة في موضع الرفق.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: خفض الصوت عند ذكر الله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: إثبات صفة القرب والسمع والبصر لله عز وجل.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النداء والأمر والتعليل.

أولاً- من مهام الداعية: تنبيه المدعوين إلى الرفق بأنفسهم في العبادة في موضع الرفق:

هذا واضح من قوله ﷺ: "يا أيها الناس اربَعوا على أنفسكم" حينما جهروا بالتكبير. قال النووي: (معناه: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطة)[1].

فلما امتثل الصحابة ﷺ لذلك دلهم على كَنْز من كنوز الجنة. قال أبو موسى راوي الحديث ((ثُمَّ أتى عليَّ وأنا أقولُ في نفسي: لا حولَ ولا قوة إلا بالله، فقال: ياعبدَالله بن قيْس، قل لاحولَ ولا قوةَ إلا بالله، فإنها كَنزٌ مِنْ كنوز الجنة. أو قال: ألا أدلك على كلمةٍ هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله))[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٧/١٧/٩، .

(٢) أخرجه البخاري ٦٣٨٤، ٧٣٨٦، ومسلم ٢٧٠٤. وانظر كلاماً ماتعاً في بيان فضل قول لا حول ولا قوة إلا بالله ولماذا وصفها النبي ﷺ بأنه كنز من كنوز الجنة. انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٨/١٧/٩-٢٩ وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٧٧/٥-٧٨.

ومن قبيل تنبيه المدعوين إلى الرفق بأنفسهم ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: ((قال لي رسولُ الله ﷺ: ياعبدَ الله، ألم أُخْبَرْ أنَّكَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ؟ فقلتُ: بلى يا رسولَ الله. قال: فلا تَفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَم، فإنَّ لجسدِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لعَينِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوجِكِ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَورِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ بحَسْبِكَ أن تصُومَ كلَّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ. فإنَّ لكَ بكلِّ حسنةٍ عَشرَ أمثالِها، فإذن ذلكَ صِيامُ الدَّهرِ كلِّه)) الحديث[1].

قال النووي: (وحاصل الحديث بيان رفق رسول الله ﷺ بأمته، وشفقته عليهم وإرشادهم إلى مصالحهم، وحثه على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق والإكثار من العبادات، التي يخاف عليهم الملل بسببها، أو تركها أو ترك بعضها)[2].

وقال ابن عثيمين: (والحاصل أنه لا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه في العبادة، متى تسهّلت فليحمد الله، إن بعض الناس في أيام الشتاء يكون عنده الماء الساخن والبارد، يتوضأ بالبارد ويترك الساخن، يعذب نفسه، والله عز وجل يقول ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[3] نعم إذا لم يكن عندك إلا الماء البارد واستعملته وشق عليك فلك أجر، أما أن تعدل عن السهل إلى الصعب طلباً للأجر فهذا ليس بصواب، متى تسهل الأمر فافعله، كذلك بعض الناس مثلاً يقول: أمشي على رجلي للحج لأنه أصعب من المشي بالسيارة. قلت: هذا خطأ، إذا سهل الله لك العبادة فافعل، أو أنك تقرأ على نور ضعيف، ولا تقرأ على نور قوي، لأن القراءة على النور الضعيف أصعب، هذا أيضاً خطأ، كلما تسهلت العبادة فافعل ما تيسّر ولكن لا تقصر، أما إذا لم يكن إلا مع تعب فهذا الأمر إلى الله، ومتى تعبت في العبادة فلك أجر)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١١٥٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٣/٨/٤، .

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٢٢٧/٢.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: خفض الصوت عند ذكر الله:

هذا واضح من قوله ﷺ: "يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنه معكم، إنه سمع قريب".

قال النووي: (فيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت الحاجة إلى الرفع رفع، كما جاءت به أحاديث)[١].

وقال ابن حجر: (قال الطبري: فيه كراهية رفع الصوت بالدعاء والذكر، وبه قال عامة السلف من الصحابة والتابعين)[٢].

وقال ابن تيمية: (إن الدعاء هو ذكر للمدعو -سبحانه وتعالى- متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه. فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاءً لتضمنه للطلب... والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه)[٣].

وقال كذلك: (في إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدهما: أنه أعظم إيماناً لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفيَّ.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم[٤]، لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مَقَتُوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفيَّ، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

وثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٧/١٧/٩ ومن الأحاديث التي وردت في رفع الصوت بالذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ، أخرجه البخاري ٨٤١، ومسلم ٥٨٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣٥/٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٨.

(٤) بوّب القرطبي على هذا الحديث: باب يذكر الله بوقار وتعظيم وفضل لا حول ولا قوة إلا بالله. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٢٥/٧.

وخشع صوتُه، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق، وقلبه يسأل طالباً مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكنٌ وهذه الحالة لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص ... إلى آخر هذه الفوائد وقد أوصلها عشرة)(١).

وجاء في الموسوعة الفقهية: (ينبغي أن يراعى مقدار رفع الصوت المأذون به في الذكر، فالأصل أن الذاكر يناجي ربه، والله تعالى قد وسع سمعه الأصوات، فينبغي أن لا يجهر بالذكر فوق ما يسمع نفسه، لأن ذلك أقرب للخشوع وأبعد من الرياء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾(٢) وقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٣) قال بعض المفسرين: أي المعتدين برفع أصواتهم في الدعاء.

وقال النبي ﷺ: ((ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ))(٤).

قال في نزل الأبرار: الطريقة المثلى في هذا الباب، أن يجهر في الموضع الذي ورد فيه الجهر، ويسر في الموضع الذي ورد فيه الإسرار، وهذه المواضع مبينة في علم الحديث، والموضع الذي لم يرد فيه الدليل على الجهر أو السر، فالذاكر فيه بالخيار، ولكن لابد للذاكر فيه من ملاحظة قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾(٥) لئلا يتجاوز الحدود المضروبة له، ولذلك صرح الحنفية بكراهة رفع الصوت بالذكر مع الجنازة.

وقد اضطرب كلام الحنفية في هذا الأصل، فنقل عن القاضي أن الجهر بالذكر

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٣/٨-١٩.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٠٥.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٩٢، ومسلم ٢٧٠٤.

(٥) سورة الإسراء، آية: ١١٠.

في غير المواضع التي ورد فيها حرام، لما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أخرج جماعة من المسجد يهللون ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم جهراً، وقال لهم: ما أراكم إلا مبتدعين. وقال في الفتاوى الخيرية: إن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فالإسرار أفضل حيث خيف الرياء أو تأذي المصلين أو النيام، والجهر أفضل حيث خلا مما ذكر.

ويستثنى من هذا الأصل مواضع ينبغي فيها الجهر بالذكر ورفع الصوت به، لما في ذلك من المصالح التي قدرها الشرع في ذلك، فمنها:

١- ما قصد به الإسماع والتبليغ، كالأذان والإقامة، وتكبيرات الإمام وقراءته في الجهرية، وتكبيرات المبلغ، وإلقاء السلام وجوابه. ونحو ذلك، فيجهر في ذلك بالقدر الذي يحصل به المقصود.

٢- بعض أنواع أذكار الصلاة وردت السنة فيها بالجهر كالبسملة، والتأمين، والقنوت، والتكبير، والتسبيح، والتحميد بعد الصلاة، وتكبيرات العيد، والتلبية في الحج، وفي بعض ذلك خلاف يرجع إليه في مواضعه.

٣- بعض الأذكار التي يراد بها التنبيه أو التعليم، أو فائدة أخرى، كأن يرفع صوته بالتسمية على الطعام حتى ينبه غيره، أو بالقراءة في صلاة الليل ليسمع أهله. قال المالكية: ورفع صوت مرابط وحارس بحر بالتكبير في حرسهم، لأنه شعارهم ليلاً ونهاراً)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: إثبات صفة القرب والسمع والبصر لله عز وجل:

ساق البخاري هذا الحديث في كتاب التوحيد من صحيحه بلفظ ((فإِنكم لا تَدْعون أصمَّ ولا غائباً تدْعون سميعاً بصيراً قَرِيباً))[٢].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في هذا الحديث نفي الآفة المانعة من السمع، والآفة المانعة من النظر، وإثبات كونه سميعاً بصيراً قريباً، يستلزم أن لا تصح أضداد هذه الصفات عليه)[٣].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/٢٥٠-٢٥١ ومصادرها ومراجعها.

(٢) أخرجه البخاري ٧٣٨٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٣٧٥.

وقال ابن حجر: (قوله "باب وكان الله سميعاً بصيراً": قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال إن معنى سميع بصير: عليم قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتاً ولا يسمعها، ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر. فصح كونه سميعاً بصيراً يفيد قدراً زائداً على كونه عليماً، وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليماً أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً وبين كونه ذا سمع وبصر، قال: وهذا قول أهل السنة قاطبة)[1].

قال ابن القيم عن صفة القرب المثبتة في هذا الحديث: (فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه؛ بل يجامعه ويلازمه؛ فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا؛ ولكنه نوع آخر، والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جليسه. كما قيل:

ألا رُبّ من يدنو ويزعم أنه   يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه، من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام، يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتي القرب منها، فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء، وهو مستوٍ على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله، خلي من محبته ومعرفته)[2].

وقال د. عمر سليمان الأشقر: (فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويعلم سره

---

(١) المرجع السابق ١٣/ ٣٧٣.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/ ٦١٣.

ونجواه، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته، ويعلم ما توسوس به النفوس، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو يعلم السر وأخفى ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزلُ من السماء وما يعرج فيها، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته، لا تخفى عليه منهم خافية، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو سبحانه القريب في علوِّه، العلي في دنوه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن)[١].

(وقد وصف سبحانه نفسه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[٢] وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣] ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٤] وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ﴾[٥]. ونحن لا نشك أن ما في القرآن حق فلله جل وعلا سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله، كما أنَّ للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيين مناسبين لحاله من فقره وفنائه وعجزه. وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة، كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق)[٦].

وجاء في كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: (وينتظم المنهج الحق في باب الأسماء والصفات في ثلاثة أصول، من حققها سلم من الانحراف في هذا الباب: وهي:

الأصل الأول: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين.

---

(١) العقيدة في الله ١٧١.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١.

(٣) سورة الشورى، آية: ١١.

(٤) سورة الإنسان، آية: ٢.

(٥) سورة مريم، آية: ٣٨.

(٦) العقيدة في الله ٢٠٣.

الأصل الثاني: الإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه وبما سماه ووصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته.

الأصل الثالث: قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله تعالى، لأن إدراك المخلوق لذلك مستحيل.

فمن حقق هذه الأصول الثلاثة، فقد حقق الإيمان الواجب في باب الأسماء والصفات على ما قرره الأئمة المحققون في هذا الباب)[1].

رابعاً- من أساليب الدعوة: النداء والأمر والتعليل:

أما النداء فقوله ﷺ: "يا أيها الناس" وقد جاء هذا النداء ليلفت انتباه المدعوين ويوضح لهم الحكم فيما فعلوا من رفع أصواتهم بالتكبير والتهليل. ولذا جاء الأمر بخفض أصواتهم فقال ﷺ: "اربعوا على أنفسكم" ثم أتبعه ﷺ بالتعليل "فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنه معكم إنه سميع قريب" ومن الملاحظ أن التعليل جاء مسبوقاً بـ"أن" المؤكدة، ليثبت الأمر ويرسخه في أذهان المدعوين ويزيده تقريراً على تقرير. وفي رواية عند البخاري "فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبًا تدعون سميعاً بصيراً قريباً" قال الطيبي: (فما فائدة الزيادة في قوله: "بصيرا"؟ قلت: السميع والبصير أشد إدراكاً وأكمل إحساساً من الضرير والأعمى)[2].

---

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٧٨.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٥/٧٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على ذكر الله تعالى:

لقد حرص الإسلام علي ربط قلوب أتباعه بالله عز وجل فشرع لهم العبادات من صوم وصلاة وحج وزكاة، منها ما يتكرر في اليوم مراراً ومنها ما يتكرر كل عام ومنها ما تجزئ منه مرة في العمر.

ولكن الذكر لله يتصل في كل أحيان الإنسان وأحواله ويطيقه الكبير والصغير والصحيح والمريض، وهو يكفل دوام الصلة القلبية بالله عز وجل ويمنع قساوة القلب ويزيل ما يعتريه من الغفلة ويغسل عنه الران، ويملؤه بحب الله ورسوله وحب الإيمان، ويرغبه في التقرب إلى الله تعالى بشتى الطاعات.

لذا اهتمت التربية الإسلامية بحث المتربين على المداومة على ذكر الله تعالى في جمع الأوقات والأحايين، وعلى جميع الظروف والأحوال، خاصة وأن الذكر لا يكلف الإنسان جهداً ولا تعباً فيمكن للإنسان أن يأتي به حتى ولو كان متلبساً بعمل شاق كالسفر ونحوه، كما نرى ذلك في حث الرسول ﷺ وتعليمه الأمة أذكار السفر والحِلّ والترحال ومن ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا». وعنه أيضاً: قال: «وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَجُيُوشُهُ إذَا عَلَوْا الثَّنَايَا كَبَّرُوا. وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا».

ويبدو الأثر التربوي للأدعية والأذكار مع مراعاة الأدعية والأذكار حسب المناسبات والأحوال، في أنها تولد الترابط بين المؤمن وما حوله من أشياء وأحداث فتكون سبباً في تذكيره بعظمة الخالق وقدرته وحوله وقوته، وقد وصفت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها دوام ذكر رسول الله ﷺ لله تبارك وتعالى فقالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»[1]، أي في حال قيامه ومشيه وقعوده واضطجاعه[2].

---

(١) اخرجه مسلم ٣٧٣.

(٢) انظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري ص ٨٨، ٨٩.

لقد كان الرسول ﷺ يربي المؤمن على دوام اليقظة حتى لا يغفل عن نفسه ولا عن مقاومة هواه فيوصي بمداومة الوضوء وكثرة الذكر لله تبارك وتعالى، وليس المقصود بالتربية على الذكر مجرد ترديد ألفاظ دونما فهم أو إدراك، إنما الذكر هو يقظة النفس الدائمة وتطلعها المستمر إلى الله والتفكير في نعمه وآلائه والاستعانة به على كل أمر من أمور الدنيا والآخرة[١].

ثانياً- تربية المسلم على عقيدة التوحيد والإيمان بالله:

تنتظم عقيدة التوحيد حياة الإنسان في كافة مجالاتها حيث تعمل على استقامة تفكيره وأهدافه وتجعل كل عواطفه وسلوكه وعاداته قوى متضافرة متعاونة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله وحده والشعور بألوهيته وحاكميته ورحمته وعلمه لما في النفوس وقدرته وسائر صفاته[٢].

لذا كان من الأهداف الأولى والرئيسة للتربية الإسلامية غرس الإيمان والاعتراف بوحدانية الله وقدرته في قلوب ونفوس الناشئة وتثبيت العقيدة وبيان التكامل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب والإنتاج المثمر وإنكار الذات ونحو ذلك[٣].

وقد جاءت أحاديث الباب حافلة بالأذكار والأدعية التي تُقَال في الأسفار وتعمل على ترسيخ توحيد الله في قلب المسلم واستسلامه لله تعالى وتفويض أمره لله تعالى.

ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب ما ورد في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قفل من الحج أو العمرة كلما أوفى على ثنية أو فدفد كبر ثلاثاً ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٤٦-٢٥٠.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٧٠.

(٣) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ١٨٦، ١٨٧.

لذا كان من المهم غرس عقيدة التوحيد والإيمان بالله تعالى في نفوس الناشئة وعدم إغفالها بأي حال من الأحوال، لما للتربية على عقيدة التوحيد والإيمان بالله من آثار تربوية لا تتكر منها:

أ- أن عقيدة التوحيد والإيمان بالله تربى عقل الإنسان على سعة النظر وحب الاطلاع على أسرار الكون والطموح إلى معرفة ما وراء الحس فكل ما في الكون مما نرى وما لا نرى من السماوات والكرسي والعرش والملائكة، كل ذلك من ملك الله تعالى، وكل كائن صغير أو كبير يسبح بحمد الله ويشهد بعظمته. وقد أمرنا القرآن أن نتأمل ذلك كله، نتأمل خلق السماوات والأرض، والبحار والأنهار، والإبل والدواب، والنحل، ويبين لنا أنه ما من شيء إلا يعلمه الله، من أصغر ذرة إلى أكبر جرم، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1].

ب- كما أن عقيدة التوحيد والإيمان بالله تربى عند الإنسان التواضع وعدم التطرف أو الغرور بأي صفة من صفاته الإنسانية، فإذا اغتر بقوته وأراد البطش أو الظلم ذكر قدرة الله عليه، وأنه هو الذي يحيي ويميت، وإذا اغتر بماله وأسرف واستهتر وبطر وتكبر ذكر أن الله هو الغني وهو الذي وهبه المال، فعاد إلى السخاء والبذل والتضحية والتودد إلى عباد الله.

وإذا اغتر بعلمه فظن أنه بلغ الكمال، نظر إلى الكون الكبير الذي هو جزء صغير من علم الله، فانقلب بصره خاسئاً وهو حسير، وعاد إلى نفسه صاغراً متواضعاً يطلب المزيد من المعرفة، بروية وصبر وأناة، وتدبّر وتفكّر ودأب واستمرار، وقس على هذا كل ما وهب اللهُ الإنسانَ من مواهب ونِعَم.

ج- كذلك فإن التربية على التوحيد والإيمان بالله تُبعد الإنسان عن التعلل بالآمال الكاذبة، فلا تنفع عند الله شفاعة الشافعين، إلا لمن يأذن الله ويرضى، وما من أحد يفيده قربه من الله، إلا عن طريق العمل الصالح، فليس لله قرابة رحم، ولا صلة أبوة،

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

ولا صحبة سابقة لأحد من العالمين، الكل عباد الله، والكل محاسبون، مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

د- ويتسلح الإنسان، إذا آمن بالله حق الإيمان، بالطمأنينة، والرجاء مع السعي وعدم التواكل.

فهو مطمئن بعد أن عرف أن الله قريب، يجيب دعوة الداعين، ويتوب على التائبين، وينصف المظلومين، وقد وسعت رحمته كل شيء.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2].

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3].

وفي هذا توازن بين إبعاد الغرور عن النفس، والتسلح بالأمل والرجاء، فالمؤمن يخاف عذاب الله إن قصر ويرجو رحمته إن أخطأ.

وبهذا يصبح الإنسان أبعد ما يكون عن اليأس أو الانتحار، أو الهروب من الحياة، والانحراف بتعاطي المخدرات والمسكرات.

فقد صرح القرآن أن اليأس من صفات غير المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4].

فإذا زلّ جدد عزمه بالتوبة والاستغفار واللجوء إلى رحمة الله تعالى، قال جل جلاله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٤) سورة يوسف، آية: ٨٧.

(٥) سورة الزمر، آية: ٥٣.

هـ- كما أن التربية على توحيد الله والإيمان به توحيد المتربي والانتماء إلى الله والاعتزاز به، وموالاته والانضواء تحت لوائه، فالمؤمنون هم حزب الله وهو وليهم، والكافرون لا مولى لهم، وأي شيء أعظم من الانتماء والانتساب إلى خالق الكون ومذل الجبابرة، ومالك الموت والحياة، والبعث والنشور والجزاء. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(١).

وقال في وصف حزب الشيطان: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾(٣).

وهذا الولاء يربي النفس دائماً على أن تكون في حرب مع الشر والشيطان وأتباع الشيطان، أولئك الذين يزينون للناس معصية الله تعالى، ونسيانه واتباع الشهوات كما يربي الانتماء إلى الأمة الإسلامية والاعتزاز بها وتفقد شؤونها والتراحم والتعاون بين شعوبها، أي تربي وحدة كلمة الإنسانية على أساس الخير والإيمان، من غير تعصب عنصري، أو تحيّز مصلحي مادي استعماري، غايته استغلال الشعوب وامتصاص خيراتها(٤).

ثالثاً- التربية بالوصية:

إن الوصية بالحق والتذكير به والإرشاد إليه من أهم الأساليب التربوية التي حث عليها القرآن الكريم، والتي يتحقق بها الهدف من التربية، لأنها تذكر وتحث المؤمن على تقوى الله تعالى وتجعله حريصاً على مرضاة الله تعالى، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رَجُلاً قالَ يا رسولَ الله إنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فأَوْصِنِي، قَالَ عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله، ...».

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٦.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١٩.

(٣) سورة محمد، آية: ١١.

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٧٢، ٧٣.

إن التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق من أهم ما يعني به القائمون على التوجيه والتربية لتنمية القيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية في نفس المسلم[1]، ولأهمية الوصية بالحق والخير والتواصي بهما جعل الله تبارك وتعالى التواصي بالحق من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[2].

إن الوصية من الأساليب التربوية التي لا غناء عنها في مجال التربية الإسلامية لما لها من وقع في النفس وتأثير في القلب، إذ أن الوصية أشبه ما تكون بالعهد الذي يؤخذ على الأفراد والجماعات وهي قليلة التكرار مما يجعلها بعيدة النسيان، لاسيما إذا صدرت من مُحِب له في القلب مكانة وفي النفس قبول، كما أنها كثيرًا ما تقع بطلب المُوصِي وأنها ترتكز على أمور جوهرية لها علاقة بطبيعة المُوصِي ومحتملة الوقوع في المستقبل، كما أن الوصية تمتاز بكونها مختصرة ومتعددة الجوانب وتميل إلى الطابع الخاص أكثر من العام[3].

رابعاً- الدعاء:

جاءت الإشارة إلى استخدام الدعاء كوسيلة تربوية تعليمية في أحاديث الباب خاصة ما جاء في دعاء رسول الله ﷺ لذلك الرجل الذي استوصاه قبل أن يسافر قائلاً: «اللهمَّ اطوِ لَه البُعْدَ، وهوِّنْ عليه السفَر».

وفي ذلك إشارة إلى استخدام الآباء والمربين الدعاء لأولادهم وطلابهم كوسيلة من الوسائل التربوية، فالدعاء من الأركان الرئيسة التي يخاطب بها الوالدان والمربون للالتزام به، وتحين لحظات الإجابة التي بينها رسول الله ﷺ إذ أن دعاء الوالدين مستجاب عند الله تعالى، فبالدعاء تزداد شحنة العاطفة وقوداً وتتمكن الرحمة والرأفة

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١٤١/١.

(٢) سورة العصر، الآيات: ١-٣.

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٧٣-٢٧٧.

من قلبيْ الوالدين فيتضرعان إلى الله تعالى ويبتهلان إليه في إصلاح الطفل ومستقبله، وهذه سنة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

لقد كان النبي ﷺ حريصاً على الدعاء لمن تربوا على يده سواء أكانوا من أطفاله وأهل بيته أم كانوا من عامة المؤمنين وسواء الأمة، وفي ذلك عبرة وعظة لأهمية هذا الأسلوب النبوي الذي تفتقده الأساليب غير الإسلامية[1].

إن دعاء الوالد لولده والمربي لمربيه يشعر الولد والمتربي بمدى قوة العلاقة بينه وبين والده ومعلمه ويستشعر بما يكنه والده وأستاذه له من محبة وصدق في سَوْق النفع والصلاح إلى الولد وكذلك الطالب، كما أن في دعاء المربي والمعلم لتلميذه تربية عملية للمتعلم للدعاء وحمله على المداومة عليه وغرس روح الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه، وتكمن أهمية الدعاء في التربية في حياة المسلم بأنه ثمرة المعرفة والإيمان بالله وشعور المسلم العميق بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله تعالى، كما أن في الدعاء واللجوء إلى الله ضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء، ففي غفلة النفس عن حقيقة عبوديتها لله وحاجتها إليه سبيل طغيانها واعتدائها، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2].

إن في الدعاء تذكيراً للنفس بحقيقة فقرها إلى الله وصلتها به، ومن ثَمَّ كانت حياة الرسول ﷺ دعاءً دائماً يدعو مع كل عمل وكل حركة بالليل أو النهار وله في ذلك دعوات مأثورة كان يدعو بها ويعلمها لأصحابه[3]، ومنها ما جاءت في أحاديث الباب في أذكار وأدعية السفر ومنها «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَـٰذَا. وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ...».

بل وكان يدعو بهذه الأدعية لغيره إذا أراد سفراً، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في دعائه ﷺ لذلك الرجل الذي استوصاه قبل سفره بقوله: «اللهُمَّ اطوِ لَه البُعْدَ، وهوِّنْ عليه السفَر».

۞ ۞ ۞

---

(١) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٨٥-٨٨.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

(٣) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢، ٢٢٣.

١٧٢- باب استحباب الدعاء في السفر

الحديث رقم (٩٨١)

٩٨١- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((ثلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَات لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن). وليس في رواية أَبي داود: ((عَلَى وَلَدِهِ)).

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

في الحديث براعة استهلال نبعت من البداية بالعدد المفسر بما بعده، وهو ما يحقق التشويق؛ لأن فيه نوعا من الإبهام يتلوه توضيح، وقوله (ثلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَات) جملة تشويقية تحقق ترقب المخاطب، وانتباهه لما يسفر عنه العدد، وتجد ذلك في نفسك إذا سمعت هذه الجملة أسرك شوق لا ينفك حتى تعرف ما هي، وقول الرسول ﷺ (لا شك فيهن) يصعِّد هذا الشوق لشغف النفس بكل ما يحقق لها النفع، فإذا جاءت توضيحها كان لها في النفس فضل تمكن، وقوله (دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ) فيه إيجاز بالحذف، أي هي: دعوة كذا، وتكرار المسند (دعوة) يشير إلى استقلال كل، واحدة منهن بالحكم، وفيه عناية بها، واهتمام.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب للمسافر أن يدعو في سفره في كثير من الأوقات؛ لأن دعوته مجابة)[2].

---

(١) أخرجه ابو داود ١٥٣٦، والترمذي واللفظ له ١٩٠٥، وفي ٣٤٤٨ وقال: حديث حسنٌ. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٩. أورده المنذري في ترغيبه ٢٤٦٢.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٥/٤، وانظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٥٢ .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: من الدعوات المستجابة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من الحديث: "ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده".

وهذا الإخبار ينقل رسالة دعوية إلى المدعوين، فهو في الحقيقة إخبار بمعنى الترهيب والترغيب، الترهيب من الظلم، والترهيب من عقوق الوالدين، والترغيب في الدعاء في السفر، لأن المدعوين علموا أن هذه الدعوات مستجابة، ومن ثم يحصل عندهم الخوف من الظلم وعقوق الوالدين، كما تحصل لهم الرغبة في الدعاء في السفر.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من الدعوات المستجابة:

هذا واضح من الحديث: فقد أخبر النبي ﷺ أن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده مستجابة.

أما دعوة المظلوم، فقد قال النبي ﷺ: ((ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّه فَوْقَ الغَمَام وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، ويَقُولُ الرَّبُّ وعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّك وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ))[1].

قال الطيبي: (قوله: "ودعوة المظلوم" قطع هذا القسم عن أخويه لشدة الاعتناء بشأنه قال البيضاوي: استأنف بهذه الجملة الكلام لفخامة شأن دعاء المظلوم واختصاصه بمزيد قبول، ورفعها فوق الغمام، وفتح أبواب السماء لها، مجاز عن إثارة الآثار العلوية وجمع الأسباب السماوية على انتصاره، بالانتقام من الظالم وإنزال البأس عليه، قوله

(١) أخرجه أحمد ٣٠٥/٢ رقم ٨٠٤٣، وقال محققو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده ٤١٠/١٣.

"ولو بعد حين" يدل على أنه سبحانه وتعالى يمهل الظالم ولا يهمله، قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[1])[2].

قال ابن الجوزي: (الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل بسبب التقوى، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً)[3].

وأما دعوة المسافر فقال الطيبي: (قوله: "ثلاث دعوات مستجابات" وإنما قال في الحديث السابق "ثلاثة" وفي هذا "ثلاث دعوات" لأن الكلام على الأول في شأن الداعي وتحريه في طريق الاستجابة، وما هي منوط به من الصوم والعدل بخلاف الوالد والمسافر، إذ ليس عليهما الاجتهاد في العمل. وقال هناك: "لا ترد دعوتهم" وهنا "مستجابات" وقيدها بقوله: "لاشك فيهن" ليتفقا في التقرير، لأن "لا ترد" كناية عن الاستجابة، وقدتقرر عند علماء البيان، أن الكناية أبلغ من التصريح، فجبر التصريح بقوله "لاشك فيهن"[4].

ولعل سبب استجابة دعوة المسافر، هو حالة الانشغال والاضطرار التي هو عليها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[5].

قال أبو حامد الغزالي عن حال المسافر: (إن المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله،

---

(١) سورة الكهف، آية: ٥٨.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٣١٥/٤.

(٣) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر ١٠٠/٥.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣١٦/٤.

(٥) سورة النمل، آية: ٦٢.

فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في إقامته، وإن لم يكن معه مال يخاف عليه، فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع، ثم الشغل بالحط، والترحال، مشوس لجميع الأحوال)[١].

وقد بوب ابن حبان في صحيحه على حديث الباب: ذكر البيان بأن دعوة المسافر لا ترد مادام في سفره[٢].

وأما دعوة الوالد على ولده، فقال الطيبي: (قوله "دعوة الوالد" مطلق يحتمل للولد وعليه، ليسعى في مراضيه حتى يدعو له، ويجتنب عما يسخطه لئلا يدعو عليه، وإنما لم يذكر الوالدة، على أن حقوقها أكثر، فيكون دعاؤها أقرب إلى الإجابة، لما علم ذلك بطريق الأولوية، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[٣]، حيث أوقع "حملته أمه" إلى قوله "في عامين"، اعتراضاً بين المُفَسِّر أعني "أن اشكر لي" والمُفَسَّر أي "وصينا"، وفائدة الاعتراض التوكيد في التوصية في حقهما، خصوصاً في حق الوالدة، لما تكابد من مشاق الحمل والرضاع)[٤].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

هذا واضح من قوله ﷺ "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن"، فهذا إجمال فَصَّله بقوله ﷺ: "دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده".

ولا شك أن استخدام الإجمال أولاً يجعل المدعوين متشوقين إلى تفصيل هذا الإجمال ومن ثم يقع منهم الانتباه واليقظة إلى ما يقوله الداعية.

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٠٩٤/٢.

(٢) صحيح ابن حبان، الحديث ٢٦٩٩، وانظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٢٢٧/٢-١٢٢٨.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣١٦/٤.

ومن أمثلة التفصيل بعد الإجمال قوله ﷺ: ((كَلِمَتَانِ حَبِيْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمن خَفِيْفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيْلَتَانِ فِي المِيْزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ))[1].

(١) أخرجه البخاري ٧٥٦٣، ومسلم ٢٦٩٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الحرص على الدعاء:

إن الدعاء من أهم الأسس التربوية التي ينبغي أن تبني عليها شخصية المتربي بل والمجتمع بصفة عامة، وذلك لما في الدعاء من تربية المسلم على الارتباط بالخالق سبحانه وتعالى، ودوام الرجوع والالتجاء إليه، كما أن "الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب شريطة أن يكون الدعاء في إطار القالب الشرعي الذي حدده لنا الله تعالى، كأن يكون دعاء مباحاً لا اعتداء فيه، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[١]، بأن يبتعد عن موانع إجابة الدعاء كأكل الحرام والظلم والغفلة والسهو واللهو وغير ذلك"[٢].

قال ﷺ: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَك فِيهنَّ دَعْوَةُ المَظْلُومِ، ودَعْوَةُ المُسافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ على وَلَدِهِ».

إن للدعاء آثاره التربوية التي لا تُنكر:

- فهو من أبرز الطرق التي تزكي النفوس وتهذب السلوك، فالدعاء كجهاز الشحن الذي يشحن القلب دائماً بالقوة والرقة، وهو جزء من الذكر الذي يذكر الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى، واللجوء إليه وبضعفه البشري وبأعدائه الذين بين جوانحه ومن بينهم هذه النفس الأمارة بالسوء[٣].

- كذلك فإن الدعاء هو ثمرة المعرفة والإيمان بمنهج القرآن وفكرته عن الكون وشعور عميق بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله وضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٥٥.

(٢) انظر: التوبة، ابن القيم، تحقيق صابر البطاوي، ط/١، مكتبة السنة، القاهرة: ١٤١٠هـ ص ٢٢.

(٣) انظر: منهج التابعين في تربية النفوس، عبدالحميد البلالي ص ٨١.

- الدعاء هو سبيل القوة الحقة، فإن في إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته وأنه يستمع إليه إذا شكا ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعينه إذا احتاج إحساس يملأ النفس سكينة وراحة ويخلق فيها القوة الحقة والعزم والثقة والرضا(١).

ثانياً- التحذير:

إن التحذير من أساليب التربية الإسلامية الرئيسة، وقد ورد أسلوب التحذير في القرآن الكريم كأسلوب تربوي في آيات كثيرة، ومنها قوله الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾(٢). وقوله: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

- كذلك ورد التحذير على لسان الرسول ﷺ كأسلوب تربوي وتوجيهي، منه ما يتعلق بالتحذير من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه، ومنه ما ورد في التحذير مما يسبب في إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع(٤) والأفراد على حد سواء.

ويستنبط التحذير من حديث الباب حيث أكد النبي ﷺ استجابة دعوات ثلاث، فقال ﷺ: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَك فِيهنَّ دَعْوَةُ المَظْلُومِ، ودَعْوَةُ المُسافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ على وَلَدِهِ».

ففي هذا تحذير من الوقوع في الظلم أو الجَوْر على أحد، وفي الحديث تحذير من عقوق الوالدين، ومن دعوة الوالد على ولده إذا فرط في حقه أو أساء إليه، إنها دعوات مستجابة.

لذا ينبغي على الأولاد أن يحذروا عقوق الآباء والأمهات، كما أن على الآباء الحذر

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢-٢٢٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٧١.

(٣) سورة النور، آية: ٦٣.

(٤) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٤٩-٢٥٠.

من الدعوة على أولادهم، فإن دعوة الوالدين على أولادهم من الخطورة بمكان، فهذا عمل خطير جداً يُشْقى الإنسان في الدنيا والآخرة.

- وقد نهى رسول الله ﷺ الآباء والأمهات عن الدعاء على أولادهم لأن هذا منافٍ للخلق الإسلامي ويخالف التربية النبوية ويبتعد عن منهج النبوة.

لهذا نجد النهي النبوي للآباء في الدعاء على الأبناء، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّه سَاعَةَ يسأل عطاء فيتسجيب لكم»[١].

فبدلاً من أن يكون الوالد سبباً في هلاك أولاده وفشلهم بصفة عامة بالدعاء عليهم، فليكن سبباً في صلاحهم واستقامة أمورهم بالدعاء لهم، كما فعل رسول الله ﷺ فدعا للأطفال فبارك الله في مستقبلهم بالعمل والمال والولد، فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضَمني رسول الله ﷺ إلى صدرهِ وقال: اللَّهمَّ علِّمْهُ الحكمةَ». وفي رواية: «علِّمه الكتاب» وفي رواية: «اللَّهمَّ فَقهْهُ في الدِّينِ»(٢)، وبفضل دعوة رسول الله ﷺ أصبح ابن عباس في كبره حَبْر الأمة وترجمان القرآن[٣].

ثالثاً- التربية على اغتنام الأوقات والأحوال الفاضلة:

من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن خصص بعض الأوقات والأماكن والأحوال فضاعف فيها الأجر والثواب على الأعمال، ومن ذلك ما جاء في الحديث من بيان استجابة الله تعالى المؤكدة إذا دعا المسلم ربه وهو على حال سفر مباح، فإن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده يجبر ضعفهم ويستر عجزهم ويستجيب دعاءهم، فجاء في حديث الباب «ثلاث دعوات لاشك فيهن ... ودعوة المسافر»، فليغتنم المسافر هذا الحظ[٤] وليكثر من الدعاء وهو موقن باستجابة دعوته إن كانت دعوة صالحة لا

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٠٩، ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري، ٣٧٥٦.

(٣) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٨٥-٨٨.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٣٢.

اعتداء فيها ولا تجاوز.

ومن ثَمَّ فإن على المربين توجيه أنظار المتربين ولفت انتباههم إلى اغتنام الأوقات الفاضلة المباركة وعدم إهدارها وعدم تضييع فضل الله تعالى، وما ينعم به على عباده في أوقات معلومة وأحوال مخصوصة يستجاب فيها الدعاء ويضاعف فيها الأجر والثواب "كتفضيل صوم رمضان على صوم سائر الشهور، وكذلك يوم عاشوراء وعشر ذي الحجة ويومي الاثنين والخميس، وبعض الأوقات كالثلث الأخير من الليل، فإن الله سبحانه وتعالى يعطي فيه من إجابة الدعوات والمغفرة وإعطاء السائل مالا يعطيه في الثلثين الأولين من الليل"[1]، ومن الأحوال الفاضلة إذا تلبس المسلم بسفر مباح فدعوته مستجابة لاشك فيها كما نلحظ ذلك صريحاً جلياً في حديث الباب.



(١) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام، تحقيق: طه عبدالرءوف سعد ١/٣٦، ٣٧.

١٧٣- باب مَا يدعو بِهِ إِذَا خاف ناساً أَوْ غيرهم

الحديث رقم (٩٨٢)

٩٨٢- عن أَبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْماً، قَالَ: ((اللَّهُمَّ إنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ)) رواه أَبُو داود والنسائيُّ[1] بإسنادٍ صحيحٍ.

ترجمة الراوي:

ابو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

نحورهم: النحر: أعلى الصدر. ويقال: جعلت فلاناً في نحر العدو أي قبالته وحذاءه ليقاتل عنك، ويحول بينك وبينه. والمعنى: نسألك أن تصد صدورهم وتدفع شرورهم[2].

الشرح الأدبي

الخوف شعور بشري يعتري الإنسان عندما يتوقع أذى لا يستطيع دفعه، والرسول ﷺ يعلمنا كيف نعالج في أنفسنا هذا الشعور حتى لا يصدنا عما يجب علينا، وقول الرسول ﷺ (اللهم) صيغة نداء تحقق الطمأنينة، وتجعل العبد في حوار مع الرب يشعر بنوع من الأمان في مثل هذه المواقف، وقوله (إنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ) في العبارة سجع يجذب السمع، وييسر الحفظ ويقرر المعنى، وخص النحر بالذكر؛ لأن العدو يستقبل بنحره عند القتال، وللتفاؤل بنحرهم إلى قتلهم، و (ونعوذ بك من شرورهم)، والمعنى نسألك أن تصدر صدورهم، وتدفع شرورهم، وتكفي

---

(١) اخرجه أبو داود ١٥٣٧، والنسائي في الكبرى ٨٥٧٧، و١٠٣٦٢. وصححه ابن حبان، الإحسان ٤٧٦٥، وقال الحاكم ١٤٢/٢: هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين، وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه. وسيكرره المؤلف برقم ١٣٢٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ح ر).

أمورهم، وتحول بيننا وبينهم وقيل المعنى نسألك أن تتولاني في الجهة التي يريدون أن يأتوا منها؛ فإنه لا حول، ولا قوة لنا وحاصله نستعين بك في دفعهم.

فقه الحديث

قال النووي: (إذا خاف ناسًا أو غيرهم فالسنة أن يقول ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: "اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم" ويسنّ أيضًا أن يدعو بدعاء الكرب وهو ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: ((لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم))[١] عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا كربه أمر قال: ((يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث))[٢])[٣].

وقال النووي في كتاب الأذكار تحت باب، ما يقول إذا رأى هزيمة في المسلمين والعياذ بالله الكريم، قال: (يستحبّ إذا رأى ذلك أن يفزع إلى ذكر الله تعالى واستغفاره ودعائه، واستنجاز ما وعد المؤمنين من نصرهم وإظهار دينه، وأن يدعو بدعاء الكرب، ويستحب أن يدعو بغيره من الدعوات المتقدمة، والتي ستأتي في مواطن الخوف والهلكة...)[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به والاستنصار به.

ثالثاً: من آداب الداعية والمدعو: ذكر الله عند الخوف والكرب.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٤٥، ومسلم ٢٧٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٥٢٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٩٦).

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٥ .

(٤) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٤٣ .

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضحٌ من الحديث، فقد أخبر أبو موسى الأشعري ﵁ عن النبي ﷺ: (أنه إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم)، وهذا الإخبار رسالة للمدعوين أن يفعلوا مثل فعله ﷺ في هذه الحالة، ويقتدوا بهديه، فهو ﷺ قدوتهم وأسوتهم، ولقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]. فإذا خافوا من أحد أو من قوم، لجأوا إلى الله كما لجأ، وتضرعوا إليه كما تضرع، وابتهلوا إليه بهذا الدعاء كما ابتهل، حتى يبدل الله أمنهم خوفاً، وفزعهم ثباتاً، واضطرابهم سكينة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به والاستنصار به:

هذا واضحٌ من دعاء النبي ﷺ: (اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم)، قال العظيم آبادي: "يقال جعلت فلاناً في نحر العدو، أي قبالته وحذاءه ليقاتل ويحول بينك وبينه، وخصّ النحر بالذكر، لأن العدو به يستقبل عند المناهضة للقتال. والمعنى: نسألك أن تصدّ صدورهم، وتدفع شرورهم، وتكفينا أمورهم، وتحول بيننا وبينهم"[2].

ولقد بوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر ما يستعين المرء به ربه جلّ وعلا على قتال أعداء الله الكفرة عند التقاء الصفين[3].

ثم ساق حديثاً تحت باب: ذكر ما يستحب للإمام أن يستنصر بالله عز وجل عند قتال أعداء الله وإن كان في المسلمين قلة[4].

والحديث هو: عن عِياضٍ الأَشْعريِّ قَالَ: ((شَهِدْتُ اليرموكَ وعليها خمسةُ أمراءَ: أبو

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٦٩٢.

(٣) صحيح ابن حبان ١١/٨٢، رقم ٤٧٦٥.

(٤) المرجع السابق ١١/٨٣، رقم ٤٧٦٦.

عُبَيدةَ بنُ الجَرَّاح، ويزيدُ بنُ أبي سفيان، وشُرَحْبيلُ بن حَسَنَةَ، وخالدُ بنُ الوَليدِ، وعياضٌ ـ وليسَ عِياضٌ صاحبَ الحَديثِ الَّذي يُحَدِّثُ سِماكٌ عنهُ ـ قالَ عمرُ: إذا كانَ قِتالٌ، فَعَلَيْكُمْ أبو عبيدةَ، قالَ: فكتبنا إليه أنْ قد جَاشَ[١] إلينا المَوْتُ واستمددناهُ[٢]، فكتبَ إلينا أنهُ قَدْ جاءَني كتابُكُمْ تستمدُّوني، وإني أَدُلُّكُمْ على ما هُوَ أَعزُّ نَصْراً وأَحْصَنُ جُنْداً، اللهُ، فاستنصِرُوهُ، فإنَّ محمداً قد نُصِرَ بأقلَّ من عددِكُمْ، فإذا أتاكُمْ كتابي، فقاتلوهم، ولا تُراجعوني، قالَ: فقاتلناهم فهَزَمْنَاهُمْ، وقتلناهُمْ أربعَ فَراسخَ، وأَصَبْنَا أموالا))[٣].

وفي لجوء العبد إلى الله عند الخوف من قوم، إظهار لافتقاره إليه، وبيان لإقراره بأنه القاهر فوق عباده، وأنه القادر على كل شيء، وأنه المعين وأنه الناصر وأنه كافي عبده ومدافع عنه، كما أن بيده كل شيء، كما أن فيه طلباً ورجاءً إلى الله من العبد أن يكفيه شر هؤلاء، حتى يتفرغ لعبادته سبحانه ولا يُشغل بشيء آخر.

ثالثاً- من آداب الداعية والمدعو: ذكر الله عند الخوف والكرب:

هذا واضحٌ من قول النبي ﷺ: (اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شررهم)، قال ابن تيمية: "إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه. فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب كما قال النبي ﷺ: ((أفضل الدعاء الحمد لله))[٤]، فسمى الحمد لله دعاء وهو ثناء محض لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع

---

(١) أي: تدفق وفاض وامتد، كما في تحقيق صحيح ابن حبان ١١/٨٤.

(٢) أي: طلبنا من عمر أن يمدنا بمدد من الجنود.

(٣) أخرجه أحمد ١/٤٨ رقم ٣٤٤، وابن أبي شيبة ١٢/٣٤ - ٣٥، وابن حبان ٤٧٦٦، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١/٤٢٢.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٠، وحسنه الألباني. (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٥).

الطلب الذي هو دونه، والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[1])[2].

وقال النووي في المجموع: (إذا خاف ناساً أو غيرهم فالسنة أن يقول ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم، ويسن أيضاً أن يدعو بدعاء الكرب، وهو ما رواه ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: ((لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ. لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ))[3]، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا كربه أمر قال: ((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))[4]"[5].

وقال ابن القيم: "إن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا"[6].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٨ ١٩/١٥ ط/ ابن قاسم.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٤٥، ومسلم ٢٧٣٠.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٥٢٤، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٧٩٦).

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٤.

(٦) الوابل الصيب من الكلم الطيب ٢٤٩/٢ - ٢٥٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الالتجاء إلى الله تعالى:

إن من المهام التربوية الملقاة على عاتق الآباء والمربين تربية الأولاد والبنات على مراقبة الله تبارك وتعالى والالتجاء إليه والاستعاذة والاستجارة به من شرور النفس والغير، فيجدر بالمربي الحاذق أن يحرص على ترسيخ قيمة المراقبة والمحاسبة في النفوس، وكذلك الالتجاء إلى خالق الأرض والسماوات ومناجاته[1] في جميع الأحايين وعلى جميع الأوضاع، ومن الشواهد على ذلك ما جاء في حديث الباب من التجاء العبد لربه إذا خاف شيئاً أو ألمَّ به مكروه، كما رأينا ذلك سلوكاً عملياً من رسول الله ﷺ في حديث الباب، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ».

وهكذا ينبغي أن يكون المربي والمعلم بلسان حاله ومقاله موصلاً للقلوب بالله ومرغباً لهم في رحمة الله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين فهو الخالق المعبود بحقٍ المتصفُ بصفات الكمال المنزه عن كل نقص، بيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله فهو رب العالمين القائم على شؤون خلقه المتكفل بما يصلحهم، وهو كاشف الضر عنهم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[2]. وهو مجيب المضطر وكاشف السوء ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[3].

إن غرس العقيدة في قلوب الناشئة وطبعهم على الالتجاء إلى الله تعالى والركون إليه تربي منهم رجالاً أقوياء في عقيدتهم أسوياء في سلوكياتهم مع أنفسهم ومع الآخرين وفي مواجهة الشدائد والمحن والعقبات في هذه الحياة، وتزرع في نفوسهم الإقدام وعدم الخوف إلا من الله تعالى.

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/١٦٠.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٧.

(٣) سورة النمل، آية: ٦٢.

ثانياً- التربية بالمواقف والأحداث:

إن التربية بالمواقف والأحداث تؤثر تأثيراً مباشراً وسريعاً وقوياً في النفوس، لأنه توجد شرائح اجتماعية غير قليلة تتأثر تأثراً بطيئاً بل وأحياناً يضعف التأثر من خلال الأقوال، إلا أن المواقف تهزها هزاً قوياً وعنيفاً من الداخل، خاصة إذا كان هناك تقصير لدى الإنسان، وكم من أناس تابوا وأنابوا إلى الله تعالى بسبب بعض المواقف أو موقف معين دون أي تعليق أو توجيه، فما بالنا إذا تم استثمار المواقف والأحداث في التربية، إنها ستكون عظيمة الأثر بعيدة المدى.

وقد ورد استخدام هذا الأسلوب في حديث الباب حيث بين النبي ﷺ ماذا ينبغي على الإنسان إذا خاف شيئاً أو فزعه أمر؟ لاشيء إلا اللجوء إلى الله تعالى والدعاء والابتهال إليه - مع مراعاة التماس الأسباب ورعاية السنن، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ».

إن التربية الإسلامية لا تقتصر على مجرد التلقين ونقل الثقافة والخبرات فحسب وإنما هي مع ذلك تربية عملية تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء، أو إلى خلق فاضل، أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام[1].

لقد كان ﷺ يغتنم فرصة التصرفات العملية التي تقتضي توجيهاً تربوياً أو عملياً ليأخذ منه المسلمون درساً إيجابياً فكان يدعو إلى قيمة أو يصحح سلوكاً أو ينفي هذا السلوك الخاطئ وهي طريقة فعالة لأنها ترتبط بالوقائع المشاهدة، وتتصل بما يعيشه الناس، ولذا ترسخ في الذهن وتثبت في القلوب، وبهذا ترتبط القيم بواقع الحياة، وهذا يعني أن غرس القيم لا يقتصر على مجرد التعلم والحفظ والتسميع وإنما يعتمد على واقع الحياة والخبرة المعيشية، وبالتالي يكون تأثيرها قوياً[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٨٠.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١/١٥١.

١٧٤- باب مَا يقول إِذَا نزل منْزلاً

الحديث رقم (٩٨٣)

٩٨٣- عن خولة بنتِ حَكِيمٍ ﵂، قالت: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

خولة بنت حكيم: وهي خولة بنت حكيم بن أمية، تكنى أمّ شريك.

وكانت امرأة عثمان بن مظعون، فمات عنها، وكانت من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فأرجأها فيمن أرجأ من نسائه، وكانت امرأة صالحة فاضلة، روى عنها سعد بن أبي وقاص ﵁، عن النبي ﷺ في التعوذ بكلمات الله عند النزول في السفر[2].

وهي التي قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن فتح الله عليك الطائف فأعطني حُليَّ بادية ابنة غَيْلان بن سلمة أو حُليَّ الفارعة ابنة عقيل، وكانتا من أحلى نساء ثقيف فقال لها رسول الله ﷺ: ((وإن كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خولة؟ فذكرت ذلك لعمر، فأقبل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أما أُذن لك في ثقيف؟ قال لا))[3].

وهي التي سألت رسول الله ﷺ، عن المرأة ترى في المنام ما يرى الرجل: فقال لها رسول الله ﷺ ((ليس عليها غسلُ حتى ينزل الماء، كما أن الرجل ليس عليه غسلُ حتى ينزل))[4].

وقد دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ وكانت عند عثمان بن مظعون -فرأى

---

(١) برقم ٥٤/٢٧٠٨. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٨.

(٣) ذكره ابن إسحاق في السيرة بغير إسناد.

(٤) أخرجه أحمد ٤٠٩/٦ رقم ٢٧٣١٢، وقال محققو المسند: حديث حسن ٢٩١/٤٥.

رسول الله ﷺ بذاذة هيئتها، فقال ما أبذُّ هيئة خويلة؟ فقالت: يا رسول الله امرأةُ لا زوج لها، يصوم النهار ويقوم الليل فهي كمن لا زوج لها فتركت نفسها وأضاعتها، فبعث النبي ﷺ إلى عثمان بن مظعون فجاءه، فقال رسول الله ﷺ ((يا عثمان، أرغبة عن سنتي؟)) فقال لا والله، ولكن سنتك أطلب، فقال رسول الله ((إني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقاً))[1][2].

غريب الألفاظ:

التامات: معناه: الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب، وقيل: النافعة الشافية، وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن[3].

الشرح الأدبي

قوله (نزل منزلا) فيه جناس يؤكد المعنى، ويحقق الفعل، ومن اسم موصول متضمن معنى الشرط، وهو يعرض الجزاء مرتبطاً بالفعل، ويترك المؤمن ليختار مصيره، وداعي الله في قلبه يدعوه إليه، فيكون حرَّ الاختيار بعد ظهور العاقبة، وقوله (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) خبر أريد به الدعاء أي: أعذني، وجمع الكلمات للتوكيد المفضي إلى ترسيخ الشعور بتحقق العوذ، ووصفها بالتامات إشارة إلى صلاحها لتحقيق العوذ مع كمالها بعكس ما كانوا يستعيذون به في الجاهلية من

---

(١) أخرجه أحمد ٢٦٨/٦ رقم ٢٦٣٠٨، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٣٥/٤٣.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١٥٨/٨، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١٦٧٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٩٤/٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٥٢٠/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٧١/٤-٦٧٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١٦٤٠/٢، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٧٢١/١-٧٢٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٩٥.

الجن، والشياطين، وقوله (لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) جواب الشرط يقرر تحقق الأمن من الشرور، وتنكير (شيء) يفيد العموم فيشمل القليل، والكثير ويبين مدى الحفظ الذي تشمله هذه الاستعاذة، وقوله: (حتى يرتحل) بيان للغاية التي تستوعبها الاستعاذة من الزمان، وبذلك تتحقق له هذه الاستعاذة الأمان في المكان الذي ينزل فيه مهما كان فيه من الأخطار، وفي الزمان حتى يرتحل - طال إقامته أم قصرت -.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة أن يقول إذا نزل منزلاً ما روته خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نزل منزلاً قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسلم إذا نزل منزلاً.

ثانياً: من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى فعل ما ينفعه.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسلم إذا نزل منزلاً:

هذا واضحٌ من الحديث، قال النووي: "قوله ﷺ: (أعوذ بكلمات الله التامات)، قيل: معناه الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب. وقيل: النافعة الشافية. وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن"[2].

وقال ابن تيمية: "وأما لفظ الكلمات، فقال في الكلمات الكونية، ﴿وَصَدَّقَتْ

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤ .

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٢/١٧/٩، ، وهو موجود بنصه في إكمال المعلم، للقاضي عياض ٢٠٦/٨.

بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾[١]، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَنْ نزلَ منزِلاً فقال: أعوذُ بكلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ منْ شرِّ ما خلَقَ، لمْ يضرُّه شيءٌ حتى يرتحلَ منْ منزلِه ذلكَ))[٢]، وكان ﷺ يقول: ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ مِنْ شَرِ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرِ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمِنْ شَرِ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمِنْ شَرِ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ شَرِ كُلِ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمنُ))[٣].

و(كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)، هي التي كوّن بها الكائنات، فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته، وأما كلماته الدينية فكتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه، فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار، وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية، وإذنه الديني وإرادته الدينية. وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها بر ولا فاجر، فإنه يدخل تحتها جميع الخلق حتى إبليس وجنوده، وجميع الكفار وسائر من يدخل النار، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم، فقد افترقوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب. وأولياء الله المتقون، هم الذين فعلوا المأمور، وتركوا المحظور، وصبروا على المقدور فأحبهم وأحبوه، ورضي عنهم ورضوا عنه. وأعداؤه أولياء الشياطين وإن كانوا تحت قدرته، فهو يبغضهم، ويغضب عليهم، ويلعنهم ويعاديهم"[٤].

وقال ابن عثيمين: "قوله (نزل منزلاً)، يشمل من نزل منزلاً في السفر إذا كان مسافراً ثم نزل ليستريح لغداء أو عشاء أو نوم أو غير ذلك. فإنه إذا نزل يقول: (أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق)، وأعوذ، أي: أعتصم بكلمات الله التامات. وكلمات الله التامات تشمل كلماته الكونية والشرعية، فأما الكونية فهي التي

---

(١) سورة التحريم، آية: ١٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ٤١٩/٣ رقم ١٥٤٦٠، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٢٠٠/٢٤.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥٠/٦، ٢٧٠/١١ - ٢٧١.

ذكرها الله في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، فيحميك الله تعالى بكلماته الكونية، يدفع عنك ما يضرك إذا قلت هذا الكلام. كذلك الكلمات الشرعية وهي الوحي، فيها وقاية من كل سوء وشر. وقاية من الشر قبل نزوله وبعد نزوله"[2].

ثانياً- من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى فعل ما ينفعه من أساليب الدعوة:

هذا واضحٌ من الحديث، فقد أرشد ﷺ المدعوين إلى ما يقولونه إذا نزلوا منزلاً حتى لا يلحق بهم سوء أو أذى، ولا شك أن احتمال وقوع الأذى في السفر أكثر منه في الحضر.

قال ابن العربي: "وعلّم أيضاً ما يقوله إذا نزل: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، وضمن عدم الضرر بها، فوالله لقد جربتها أحد عشر عاماً فوجدتها"[3].

وقال أبو العباس القرطبي: "قوله: (إذا نزل أحدكم منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، قيل معناه: الكاملات اللاتي لا يلحقها نقص، ولا عيب، كما يلحقُ كلام البشر. وقيل معناه: الشافية الكافية. وقيل: الكلمات - هنا - هي: القرآن؛ فإن الله تعالى قد أخبر عنه بأنه هُدى وشفاء، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يُدفع به الأذى، ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى، والتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه، المرغّب فيه. وعلى هذا فحقُّ المتعوِّذ بالله تعالى، وبأسمائه وصفاته أن يَصْدُق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويُحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه.

وقوله: (فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه)، هذا خبرٌ صحيح، وقولٌ صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه، فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ

(١) سورة يس، آية: ٨٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٩.

(٣) القبس شرح الموطأ ٢٨٣/٢٣ موسوعة شروح الموطأ.

بتلك الكلمات، فقلت لنفسي - ذاماً وموبخاً - ما قال ﷺ للرجل الملدوغ: ((أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرُّكَ)) [(١)"(٢)].

وإرشاد المدعو إلى ما ينفعه هو شأن الأنبياء جميعاً عليهم السلام، وهم قدوة الدعاة، فقد كانوا يرشدون المدعوين إلى ما فيه نفعهم، فضلاً عن تحذيرهم مما يضرهم، مصداق ذلك قول النبي ﷺ: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ))[(٣)].

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من قال لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شَريك له، لهُ الملك، وله الحمدُ، وهو على كل شيء قَدير في يومٍ مائةَ مرَّة كانت له عَدْلَ عَشرِ رِقاب، وكُتِبَت له مائةُ حسَنة، ومُحِيَت عنه مائة سيِّئة، وكانت له حِرزاً منَ الشيطان يومَهُ ذلك حتى يُمسيَ، ولم يَأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء، إلا رجلٌ عملَ أكثر منه))[(٤)].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

هذا واضحٌ من ذكر ما يلحق بمن يقول هذا القول عندما ينزل منزلاً، فإنه لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك، ولا شك أن هذا ترغيب يدفع المدعو أن يعمل بهذا الحديث حتى يتحصل على هذه الحماية وتلك الوقاية، وخاصة أن المسافر يكون في حالة أشد ما يكون إلى الإعانة والمساعدة وطلب العون، نظراً للانشغال الذي يحدث بسبب السفر وكثرة أعبائه.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٦/٧ - ٣٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٠٣، ومسلم ٢٦٩١.

الحديث رقم (٩٨٤)

٩٨٤- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ إذا سَافَرَ فَأقْبَلَ اللَّيْلُ، قَالَ: ((يَا أرْضُ، رَبِّي وَرَبُّكِ اللهُ، أعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّكِ وَشَرِّ مَا فِيكِ، وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكِ، وَشَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ، أعُوذُ بالله مِنْ شَرِّ[1] أسَدٍ وَأسْوَدٍ، وَمِنَ الحَيَّةِ وَالعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ البَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)) رواه أَبُو داود[2].

"والأسْوَد": الشخص، قال الخطابي: "وسَاكن البلد": هم الجن الذين هم سكان الأرض. قال: والبلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان، وإن لم يكن في بناء ومنازل. قال: ويحتمل أن المراد "بالولد": إبليس "وما ولد": الشياطين.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

يدب عليك: يمشي ويتحرك من الحيوانات والحشرات مما فيه ضرر[3].

الأَسْوَد: الحيَّة[4]، وقال النووي: الشخص[5].

ساكن البلد: قال الخطابي: هم الجن الذين هم سكان الأرض. والبلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ومنازل[6].

والد وما ولد: قال الخطابي: ويحتمل أن المراد بالوالد: إبليس. وما ولد: الشياطين[7].

---

(١) (شر) لا توجد عند أبي داود.

(٢) برقم ٢٦٠٣، وصحَّحه ابن خزيمة ٢٥٧٢، وقال الحاكم ١/١٠٠: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١١٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س و د).

(٥) رياض الصالحين ٩٨٣.

(٦) رياض الصالحين ٩٨٣.

(٧) رياض الصالحين ٩٨٣.

الشرح الأدبي

يقول الراوي: (كَانَ رسول الله ﷺ إذَا سَافَرَ فَأقْبَلَ اللَّيْلُ) دلالة إلى أنها إحدى عادات الرسول ﷺ في سفره، وإذا كانت كذلك فقد صارت سنة لأمته من بعده، وقول الرسول ﷺ (يَا أرْضُ، رَبِّي وَرَبُّكِ اللهُ) نداء الكائنات أمر يتكرر في القرآن، والسنة فقد نادي الله تعالى الأرض، والسماء أو الجبال، وهو نداء على حقيقته لطلاقة قدرة الله، أما نداء الرسول ﷺ فهو نوع من التجاوب مع الكون المسبح الذي يتجاوب معه بحول الله، وقدرته فتسمع، وتجيب حتى في أرق المشاعر الإنسانية، حيث أخبر عن جبل أحد (أحد جبل يحبنا ونحبه)[1]، وقوله (ربي، وربك الله) تفويض للأمر لصاحبه المصرف أمره بحوله، وقوته، وتكرار كلمة الشر ست مرات؛ لأنها أصل المعنى الذي يدور عليه الحديث، وهو مدار خشية النازل ليلا، وهي كلمة جامعة لكل مخاوف الإنسان، فتكرارها يستوعب كل أنواع الشرور، وكل مصادرها، وقد تدرج في الاستعاذة من العام إلى الخاص فالأخص، فذكر الاستعاذة من الشر عامة (أعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّكِ) ثم خصص ما تشتمل عليه في داخلها (وَشَرِّ مَا فِيكِ) ثم خصص مما فيها المخلوق (وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكِ) وخص من المخلوق فيها ما تحرك على ظهرها؛ لأنه أقرب لبلوغه مما سكن (وَشَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ) وخص مما يدب عليها ما ظهر خطره، وعرف أثره عندهم (وَأعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ أسَدٍ وَأسْوَدٍ، وَمِنَ الحَيَّةِ وَالعَقْرَبِ)، وبين أسد، وأسود جناس يؤكد الاختلاف بين النوعين المؤذيين، وبين هذه الأربعة المذكورة تناسب في المعاني، والألفاظ، ومراعاة نظير، وهي الجمع بين الشيء، وما يناسبه، والمناسبة في الجمع بين هذه الأنواع أنها تعيش في مكان واحد، وتشترك في صفة الإيذاء، وقوله (وَمِنْ سَاكِنِ البَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) فيه سجع بديع في قمة الوفاء بالمعنى حيث استوعب كل ما يمكن أن يتولد منه شر من مما ظهر كالحيوان، والهوام، وغيرها، وما خفي كالجن، والشياطين.

---

(١) البخاري: (٤٤٢٢).

فقه الحديث

قال النووي: (السنة أن يقول إذا جن عليه الليل ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله ... الحديث)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسافر إذا أقبل الليل.

ثالثاً: من آداب الداعية والمدعو: الاستعاذة بالله عز وجل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضحٌ من قول ابن عمر رضي الله عنهما: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر أقبل الليل قال: يا أرض...)، وهذا إخبار عن فعل من أفعال النبي صلى الله عليه وسلم وهو مُشْعِرٌ بأنه صلى الله عليه وسلم كان يفعله كثيراً، كما أنه لنقل هدي النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدعوين، ليقتدوا به ويتأسوا بعمله. قال الدكتور القرضاوي: "ومن حسن حظ المسلمين أن الله جعل لهم قدوة يقتدون بها تتجسد في مكارم الأخلاق التامة، التي أخذت من ميراث جميع الرسل وزادت عليه، وذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3]"[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسافر إذا أقبل الليل:

هذا واضحٌ من قول النبي صلى الله عليه وسلم. قال الطيبي: "قوله: (يا أرض)، قال القاضي البيضاوي: خاطب الأرض وناداها على الاتساع وإرادة الاختصاص، وشرّ الأرض الخسف والسقوط عن الطريق والتحير في المهامة والفيافي، وما فيها من أحناش الأرض

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٧.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب آية: ٢١.

(٤) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ٢٥٧.

وحشراتها، وما يعيش في النقب وأجوافها. قوله: (من شرك)، أي: من شر حصل من ذاتك، (ومن شرّ ما فيك)، أي: ما استقرّ فيك من الأوصاف والأحوال الخاصة بطباعك، (وشر ما خلق فيك)، من الحيوانات وغيرها. (وشر ما يدب عليك)، من الحيوانات. وهذا الأسلوب من عطف الكلام بعضها على بعض إلى قوله: (من أسد وأسود)، من باب الترقي في البيان.

قوله: (من أسد وأسود)، قال التوربشتي: الأسود الحية العظيمة التي فيها سواد وهي أخبث الحيات. وذكر أن من شأنها أن يعارض الركب ويتبع الصوت. فلذا خصّها بالذكر، وجعلها جنساً آخر برأسها. ثم عطف عليها (الحية)... وفي الغريبين قال ابن الأعرابي في تفسيره: يعني جماعات وهي جمع سواد أي جماعة. قال القاضي البيضاوي: هم الإنس سمّاهم بذلك، لأنهم يسكنون البلاد غالباً، أو لأنهم بنوا البلدان واستوطنوها. وقيل: الجن، والمراد بـ (البلد) الأرض. يقال: هذه بلدتنا أي: أرضنا[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾[2]، قوله: (ووالد وما ولد)، قال الخطابي[3]: (والد) إبليس (وما ولد): نسله وذريته[4].

قال النووي في المجموع: "السنة أن يقول إذا جن عليه الليل ما رواه ابن عمر....، فذكر الحديث"[5].

ثالثاً- من آداب الداعية والمدعو: الاستعاذة بالله عز وجل:

وهذا واضحٌ من الحديث، جاء في الموسوعة الفقهية: "الاستعاذة لغة: الالتجاء، وقد عاذ به يعوذ: لاذ به ولجأ إليه واعتصم به، وعُذت بفلان واستعذت به، أي: لجأت إليه.

---

(١) قال الخطابي: "قوله: (ساكن البلد) يريد به الجن الذين هم سكان الأرض، والبلد من الأرض: ما كان مأوى للحيوان، وإن لم يكن فيه بناء ومنازل. معالم السنن ٣/٤١٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٨.

(٣) عبارة الخطابي: ويحتمل أن يكون أراد بالوالد: إبليس. وما ولد: الشياطين. معالم اسنن ٣/٤١٠.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٥/١٧٤ - ١٧٥.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٧.

ولا يختلف معناها اصطلاحاً عن المعنى اللغوي. فقد عرفها البيجوري من الشافعية بأنها: الاستجارة إلى ذي منعة على جهة الاعتصام به من المكروه. وقول القائل: أعوذ بالله.. خبر لفظاً دعاء معنى.. والدعاء أعم من الاستعاذة فهو لجلب الخير أو دفع الشر، والاستعاذة دعاء لدفع الشر. وحكمة تشريعها: طلب الله سبحانه من عباده أن يستعيذوا به من كل ما فيه من شرّ. وشرعها سبحانه عند القيام ببعض الأعمال كقراءة القرآن في الصلاة وخارجها وغير ذلك.

واستعاذ الرسول ﷺ من الشرّ كله فقال: ((اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّر كُلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ))[1]، بل إنه استعاذ مما عوفي منه وعصم، إظهاراً للعبودية وتعليماً لأمته"[2].

والحديث عند ابن ماجه وابن حبان وغيرهما بلفظ: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ علمها هذا الدعاء: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ، قَضَيْتَهُ لِي، خَيْراً)).

قال عبدالله البسام عما يؤخذ من الحديث:

(١) النبي ﷺ علّم عائشة رضي الله عنها هذا الدعاء الجامع، فكان ينبغي للمسلم أن يعلمه أهله وأولاده وأهل بيته، ومن يتصل به، يعلمهم الخير بما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم.

(٢) ففي الحديث سؤال الله تعالى الخير الذي يشمل منافع الدنيا والآخرة، مما لا يعد ولا يحصى، العاجل منها والآجل، والمتأخر المعلوم منها للداعي المجهول له، مما لا يعلمه إلا الله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٨٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣١٠٢).

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٥/٤.

(٣) كما يستعيذه ويلتجئ من شرور الدنيا والآخرة العاجل الحاضر منها والآجل المتأخر، مما علم به الداعي وما جهل.

(٤) ثم عمم السؤال من نوع آخر، وهو أن الداعي يسأل الله تعالى من خير ما سأله رسول الله ﷺ.

ويستعيذ مما استعاذ منه رسول الله ﷺ الذي علم مما عند الله من الخير والشر أكثر مما نعلم، فسأل أفضل سؤال، واستعاذ بربه من أسوأ معاذ، فنحن به مقتدون في الرغبة بالخير والبعد من الشر.

(٥) ثم سأل العبد من ربه الجنة وهي غاية المطلوب، وسأل الوسيلة إليها من الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة.

(٦) ثم سأل الله تعالى العبد أن يجعل كل قضاء قضاه أن يكون خيراً ولو ظاهره ومظهره الشر، إلا أنه في حقيقة الأمر هو خير، فإن تدابير الله تعالى كلها وفق الحكمة والمصلحة، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

فهذه الأدعية الشريفة علمها النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها ليكون علمها لأمته التي نصحها وبرها وأحسن إليها، وهي من أنفع الأدعية وأجمعها لخيري الدنيا والآخرة)[2].

وقد بوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر الأمر للمرء أن يسأل ربه جل وعلا جوامع الخير ويتعوذ به من جوامع الشر[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٤٥١ - ٤٥٢.

(٣) صحيح ابن حبان ٣/١٥٠ رقم ٨٦٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية العقدية:

من أبرز الأهداف للتربية الإسلامية التربية العقدية، حيث إن المهمة الرئيسة والأولى للتربية الإسلامية وصل القلوب بالله وتعريف الناس على ربهم وإحياء خشيته في قلوبهم فهو الخالق المعبود بحقٍ المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص.

لهذا ينبغي على المعلم والمربي التركيز على إحياء العقيدة في النفوس ليسمو الإنسان روحًا وفكرًا وخطوًا ويكون أداة نافعة في محيطه وفي مجتمعه[1].

وإذا ما استقرأنا أحاديث النبي ﷺ نجد أنها لا تغفل مقامًا ولا حالاً إلا ودعت إلى تثبيت العقيدة وتجديدها والتركيز عليها ومن دلائل ذلك ما جاء في أحاديث الباب من تركيز على العقيدة من خلال الأدعية والاستعاذة التي وردت في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله..."

"إن الإيمان بربوبية الله وألوهيته ووحدانيته هو أساس كل ما عداه، إن عقيدة التوحيد والإيمان بالله لها عظيم الأثر التربوي في حياة المسلم وتتضح هذه الآثار فيما يلي:

- تحرير الإنسان من الذل والمهانة لمغريات الحياة فلا يستعبده جاه ولا مال ولا يذل للطواغيت.
- تحرير الإنسان من العبودية إلا لله فلا يخضع ولا يستسلم بالعبادة لأي من بني البشر أو كائن آخر أو جماد.
- تربية عقل الإنسان على سعة الأفق والتأمل والرغبة في الاطلاع على أسرار الكون وذلك للاستدلال على قدرة الله في خلقه.
- أنها تسلح الإنسان بالطمأنينة والرجاء بقرب الله التواب والمجيب، قال تعالى:

---

(١) انظر: الدعوة إلى الله "الرسالة - الوسيلة - الهدف"، د. توفيق الواعي ص ١١٨ - ١٢٢.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1].

- توفير الاستقرار النفسي والراحة النفسية للإنسان المسلم فيما يتعلق بتساؤل الإنسان دائمًا عن القوة التي هي أكبر منه تسيطر عليه وعلى الحياة من حوله فهو يفزع إليها عند الحاجة ويطمئن بوجودها.
- تربي الإنسان على التواضع وعدم التطرف أو الغرور، فلا يغتر بقوته ولا يظلم ولا يبطش لأنه يتذكر قدرة الله عليه وإذا اغتر بماله أو أسرف وتكبر تذكر أن الله هو الغني وهو الذي وهبه المال.. فيعود إلى الاعتدال... إلخ.
- عقيدة التوحيد توحد بين أفكار الأفراد ومشاعرهم ومناهجهم وتضبط تصرفاتهم وأوضاعهم وسلوكهم فيصبح المجتمع صالحًا يتميز بالثبات والاستقرار.
- تربي عقيدة التوحيد المؤمن على النفس الموحدة لله، وقد شبه الله النفس الموحدة لربها بالعبد الذي يملكه رجل واحد، فكل تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده وبهذا تهدأ نفسه وتستقيم حياته وتكون تصرفاته بنسق واحد خاليًا من الصراعات والاعتراضات، أما العبد الذي يملكه أكثر من فرد فإن تصرفاته تكون حائرة بينهم بسبب اختلافاتهم وتناقضاتهم، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2][3].

ثانياً- التربية على الاستعاذة بالله واللجوء إليه:

إن من دعائم وأسس التربية الإسلامية للنشء تربيتهم على اللجوء إلى الله تعالى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة الزمر، آية: ٢٩.

(٣) التربية الإسلامية "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد محمد عطية ص ٦٥ - ٦٧.

والاعتصام به والتضرع إليه وتفويض الأمور له سبحانه وطلب النصر والعون منه، لأنه القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة والنصرة والحماية وهو الذي أمد الإنسان بالطاقات وزوده بالاستعدادات وهو وحده يملك الموت والحياة[1].

"إن اللجوء إلى الله تعالى أسلوب من أساليب الأخذ بالأسباب التي اعتمدها رسول الله ﷺ في مسيرته الدعوية الطويلة لأن بالأخذ به استشعار بمعية الله تعالى، وهو الحصن الحصين الذي يعتصم به، والقوة القاهرة التي تقف وراء المسلم فتبث بداخله الطمأنينة والثقة بنصر الله وعونه وتمده بالشجاعة والإقدام وتظهر أمامه قوى الأعداء مهما بلغت هزيلة ضعيفة ذليلة متداعية" [2].

ومن مظاهر اللجوء إلى الله تعالى الاستعاذة به من جميع الشرور ما ورد في حديث الباب من الإرشاد استعاذة المسلم بالله إذا نزل منزلاً كما جاء في قوله ﷺ: (من نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)، وفي فعله وتطبيقه ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك.

فما أحرى بالمعلمين والمربين تحصين المتربين لا سيما الناشئة منهم بالأذكار الشرعية وذلك بإلقائها إليهم إن كانوا صغارًا وتحفيظهم إياها إن كانوا مميزين وبيان فضلها وتعويدهم الاستمرار عليها.

فإذا تدرب الولد على اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به وغير ذلك من الآداب والأخلاق والأمور المتحسنة منذ الصغر ألفها وأصبحت سجية له، فما دام أنه في الصبا فإنه يقبل التعليم والتوجيه[3].

---

(١) انظر: الرسالة الخالدة، عبدالرحمن عزام ص ٢٢.

(٢) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) انظر: وسائل التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٣٦-١٣٧.

ثالثاً- من وسائل التربية الاستماع:

تنقسم الوسائل تبعًا للحاسة التي تعتمد عليها في الاستخدام إلى وسائل سمعية ووسائل بصرية ووسائل حاسية مختلفة.

وقد وردت الإشارة إلى استخدام وسيلة السمع في أحاديث الباب في قول خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول...

وإن كانت خولة رضي الله عنها اعتمدت على حاسة السمع المجردة فإن المنهج الإسلامي يستوعب كل وسيلة كريمة من الوسائل المعينة على التعليم والتعلم قديمة أو حديثة طالما أنها تسهل عملية التعلم، وتساعد على تنفيذ المنهج، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(١).

ومنها: الوسائل السمعية وهي تلك التي تعتمد على الاستماع من حاسة السمع أكثر من اعتمادها على الحواس الأخرى، وذلك مثل "الراديو" وبرامج الإذاعة المدرسية والتسجيلات الصوتية كالشرائط والاسطوانات ومختبرات اللغات... إلى آخره.

لكن ينبغي أن تراعى في العملية التعليمية والتربوية الوسيلة المناسبة، ومن خصائص الوسيلة المناسبة ما يلي:

(أ) الوسيلة المناسبة هي تلك التي ينظر إليها بوصفها أداة مساعدة لبلوغ الهدف وليست هدفًا في حد ذاته.

(ب) أن تكوّن جزءًا من المنهج المراد تدريسه وأن يتم اختيارها عند التخطيط له بحيث تساعد في تحقيق أهدافه.

(ج) أن تكون مرنة بحيث يمكن استخدامها في أكثر من صف دراسي وأكثر من مرحلة.

(د) أن تكون مناسبة للمادة اللغوية ومتكاملة معها ومع طريقة التدريس المتبعة.

(هـ) أن لا تكون بديلاً للمدرس، بل تكتسب وظيفتها العملية حين يستخدمها

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٨.

المدرس من أجل تحقيق هدف ما.

(و) أن تكون الوسيلة اقتصادية بحيث تحقق أهدافًا وتبرر الجهد والوقت والمال الذي أنفق عليها.

(ز) أن تكون مناسبة للاستخدام في الزمان والمكان الذي يجب أن تستخدم فيهما.

(ح) أن تكون الوسيلة بسيطة وغير معقدة وألا يتغلب شكلها على مضمونها.

(ط) أن تبعث في التلاميذ الرغبة في المعرفة والشوق إلى الإطلاع والملاحظة والاكتشاف والاستقصاء "[1].

رابعاً - من خصائص التربية الإسلامية: الشمول:

من خصائص التربية الإسلامية ومميزاتها أنها تربية شاملة، تشمل جميع جوانب الحياة، الأولى والآخرة، "فإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله في كل أطواره، ورسالة الحياة كلها بكل جوانبها ومجالاتها، فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شؤون الحياة والإنسان، نجد هذا الشمول يتجلى في العقيدة والتصور ويتجلى في العبادة والتقرب ويتجلى في الأخلاق والفضائل ويتجلى في التشريع والتنظيم" "[2].

ومن مظاهر الشمول في أحاديث الباب ما جاء فيها من أدعية تشمل جميع الجوانب والميادين ومن أظهرها ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، وأعوذ بالله من شر أَسَدٍ وأَسْوَدٍ ومن الحية، والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد)).

فنجد في هذا الدعاء استعاذة شاملة لكل ما يتوقع منه أو فيه من أذى، ففيه

(١) انظر: المعينات البصرية في تعليم اللغة، محمود إسماعيل وعمر الصديق عبدالله، عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ٤، ٥، ومنهج التربية في التصور الإسلامي، د. على أحمد مدكور ص ٤٧٨ - ٤٨١.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١١٣.

استعاذة من شر الأرض وما فيها من المؤذيات، وشر ما خلق فيها من زلازل وبراكين وغيرها، وشر ما يدب عليها من إنسان أو آلة، وشر أسد أو حيوان مفترس وأسود الشكل أو الأثر والهوام والسُميَّات والجن وغيرهم من المؤذيات[1]، حيث شمل الدعاء الاستعاذة بالله من كل ما في الأرض وما عليها من مؤذيات سواء أكانت من إنس أو جان أو حيوان أو جماد.

وفي ذلك دلالة على ما تمتاز به التربية الإسلامية من شمول، "فالتربية الإسلامية تعنى بالجانب الدنيوي والجانب الأخروي على حد سواء، بحيث تعطي كل جانب حقه على أتم وجه، كما أن التربية الإسلامية تعنى بتربية الفرد وتربية الجماعة في آن واحد فتُولِي كل واحد منهما العناية الكفيلة بتحقيق الكمال المنشود ضمن إطار الأهداف العليا للتربية الإسلامية، وتشمل التربية الإسلامية النواحي الثلاث الرئيسة الجسدية والعقلية والوجدانية، وتسعى إلى إعداد الفرد والجماعة إعدادًا متوزانًا في كافة مجالات الحياة الإسلامية المختلفة، بحيث لا يطغى عنصر من العناصر على الآخر ولا تهمل جانبًا من الجوانب المتقدمة على حساب جانب آخر، قال سبحانه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3][4].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٣٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبولاوي ص ٣٧.

١٧٥- باب استحباب تعجيل المسافر في الرجوع إلَى أهله إذَا قضى حاجته

الحديث رقم (٩٨٥)

٩٨٥- عن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ أحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإذَا قَضَى أحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ (مِنْ سَفَرِهِ)[١]، فَلْيُعَجِّلْ إلَى أهْلِهِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

نهمته: مقصوده[٣].

الشرح الأدبي

قول النبي ﷺ (السفر قطعة من العذاب) تشبيه بليغ لما يشتمل عليه السفر من المشاق من الحزن على فراق الأحباب، والهم بما يمكن أن يعتريه من الأخطار بالإضافة إلى عناء السير، ومشقة الطريق بقطعة العذاب، وهذا التشبيه ينفر من إطالة السفر عن الضروري، وقد عرض لصورة من صور المعاناة في السفر (يَمْنَعُ أحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرابَهُ وَنَوْمَهُ) والجمع بين الطعام، والشراب يشير إلى الحرمان من جملة ملذات الإنسان لأنه يفهم ضمناً أنه يمنعه من شهوته، وأسلوب الشرط يضع الحل للخلاص من هذه الإشكالية بالاقتصار على الضروري من السفر، وسرعة العودة (فَإذَا قَضَى أحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ، فَلْيُعَجِّلْ إلَى أهْلِهِ) والتعبير بالنهمة يوحي بشدة الحاجة بمعنى أنه قضى الحاجة الضرورية لسفره بادر

(١) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري، وعند مسلم زيادة: (من وجهه)، والمثبت لفظ ابن ماجه برقم ٢٨٨٢.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ٣٠٠١، ومسلم ١٩٢٧/١٧٩.

(٣) رياض الصالحين ٩٨٣.

بالعودة، يؤكد على ذلك فعل الأمر الواقع في جواب الشرط المقتضي بدلالته العجلة، والمتصل بالفاء التي تستصحب السرعة مع ربطها الجواب بالجزاء، وذكر الأهل، وإضافتهم إليه تذكير بما لهم عليه من حقوق يجب أن يؤديها حتى إذا رضي لنفسه البقاء في هذا العذاب رده عنه حقوق الناس التي يجب أن تؤدى.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة للمسافر إذا قضى حاجته الرجوع إلى أهله)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: استحباب تعجيل المسافر والرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: المحافظة على الأهل.

أولاً- من مهام الداعية: بيان الحقائق:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ: (السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه)، قال النووي: "معناه: يمنعه كمالها ولذيذها لما فيه من المشقة والتعب ومقاساة الحرّ والبرد، والسُّرَى[٢]، والخوف ومفارقة الأهل والأصحاب وخشونة العيش"[٣].

وقال أبو العباس القرطبي: "لما في من المشقات والأنكاد، ومكابدة الأضداد، والامتناع من الراحات واللذات"[٤].

وقال ابن حجر: "قوله: (السفر قطعة من العذاب)، أي جزء منه، والمراد بالعذاب:

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤، وانظر: التاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد ابن يوسف المواق ١٥٢/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٥٦/١، وشرح الزرقاني على الموطأ، الزرقاني ٥٠٧/٤.

(٢) السُّرَى: السير في الليل. انظر المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مادة سرى.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٦/١٣/٧ .

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦٦/٣.

الألم الناشئ عن المشقة، لما يحصل في الركوب والمشي من ترك المألوف، قوله: (ويمنع أحدكم)، كأنه فصله عما قبله بياناً لذلك بطريق الاستئناف كالجواب لمن قال: [لم] كان كذلك؟ فقال: (يمنع أحدكم نومه.. إلخ) أي وجه التشبيه الاشتمال على المشقة. وقد ورد التعليل في رواية سعيد المقبري ولفظه: ((السفر قطعة من العذاب، لأن الرجل يشتغل فيه عن صيامه وصلاته وعبادته، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل الرجوع إلى أهله))[1]. والمراد بالمنع في الأشياء المذكورة، منع كمالها لا أصلها. وقد وقع عند الطبراني بلفظ: (لا يهنأ أحدكم بنومه ولا طعامه ولا شرابه)، وفي حديث ابن عمر عند ابن عدي: (إنه ليس له داء إلى سرعة السير)"[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: استحباب تعجيل المسافر والرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته:

هذا واضحٌ من قول الرسول ﷺ: (فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله)، قال أبو العباس القرطبي: "أي يسرع بالرجوع إلى أهله ليزول عذابه، ويطيب له طعامه وشرابه وتزول مشقته"[3]، قال الخطابي: "فيه الترغيب في الإقامة لئلا تفوته الجمعات والجماعات والحقوق الواجبة للأهل والقرابات. وهذا في الأسفار غير الواجبة، ألا تراه يقول ﷺ: ((فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ))، أشار إلى السفر الذي له نهمة وأرب من تجارة أو تقلب، دون السفر الواجب كالحج والغزو"[4].

وقال النووي: "المقصود في هذا الحديث استحباب تعجيل الرجوع إلى الأهل بعد قضاء شغله، ولا يتأخر بما ليس له بمهم"[5].

وقال ابن حجر: "وفي الحديث كراهة التغرب عن الأهل لغير حاجة، واستحباب

---

(١) أخرجه أحمد ٤٩٦/٢ وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٧٥/١٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٣٣/٣، وانظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٢٣٠/٢.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦٦/٣.

(٤) نقله الطيبي عنه في شرحه على المشكاة ٢٣٥/٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٦/١٣/٧، .

الرجوع، ولا سيما من يخشى عليهم الضيعة بالغيبة. ولما في الإقامة في الأهل من الراحة المعينة على صلاح الدين والدنيا، ولما في الإقامة من تحصيل الجماعات والقوة على العبادة"[١].

وقال الغزالي: "إن السفر نوع من مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين"[٢].

وقال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه أن المسافر على قلت[٣] وبعرضة[٤]؛ ولأنه يسبب همه في نفسه، وتكثر مؤنته، ويحتاج إلى حمل زاده، ومائه، وقل أن يمكنه إقامة فرائضه كاملة من جميع أقسامها، وأن يصلي الصلوات في جماعة، وأن يشتغل بالعلم والتعليم، كما كان في الحضر، فلا ينبغي له أن يتعرض له إلا لحاجة، فإذا قضاها، فأولى أفعاله أن يسرع الكرة[٥] إلى أهله؛ ليكون مغتنماً إنفاق عمره في الأربح فالأربح، من أحوال أوقاته"[٦].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: المحافظة على الأهل:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ: (فليعجل إلى أهله)، قال ابن عبدالبر: "في هذا الحديث دليلٌ على أن طول التغرُّب عن الأهل لغير حاجة وكيدة من دين أو دنيا، لا يصلحُ ولا يجوزُ، وأن من انقضت حاجته، لزمه الاستعجال إلى أهله الذين يمونهم ويقوتهم؛ مخافة ما يُحدثه الله بعده فيهم، قال رسول الله ﷺ: ((كَفَى بِالمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))[٧]"[٨].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٣/٢.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٠٢/٢.

(٣) القلت: الهلاك. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي ١٥٨.

(٤) هكذا في المطبوع، فإن كانت صحيحة فالمقصود التعرض للهلاك، فقد جاء في القاموس المحيط: أقلته: أهلكه أو عرضه للهلاك. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي ١٥٨.

(٥) الكرة: الرجعة وزناً ومعنىً. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ٦٤١.

(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤٠٨/٦.

(٧) أخرجه أبو داود ١٦٩٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٨٤).

(٨) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٣١٥/٢٣ موسوعة شروح الموطأ.

قال ابن عثيمين: "إن المسافر إذا سافر فإنه يترك أهله، وربما يحتاجون إليه في تعليمهم ورعايتهم وغير ذلك، وربما يحدث لهم أشياء توجب أن تكون عندهم، ولهذا أمر النبي ﷺ - كما في الحديث- أن الإنسان إذا قضى نهمته من سفره فليرجع إلى أهله، قال ﷺ في هذا الحديث: (إن السفر قطعة من العذاب)، ويعني ذلك عذاب الضمير وعذاب الجسم، ولا سيما الذي كان في الزمن السابق، حيث يسافرون على الإبل، ويكون فيها مشقات كبيرة، حر في الصيف وبرد في الشتاء. ولهذا قال ﷺ: (إنه قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه)، لأنه - أي المسافر - مشغول البال ولا يأكل ويشرب كطعامه وشربه الهادئ في أيامه العادية، وكذلك في النوم، فإذا كان كذلك فليرجع الإنسان إلى الراحة إلى أهله وبلده، ليقوم على أهله بالرعاية والتأديب وغير ذلك، وفي هذا دليل على إقامة الإنسان في أهله أفضل من سفره إلا أن يكون هناك حاجة، ووجهه أن أهله يحتاجون إليه، ولهذا لما قدم مالك بن الحويرث ومعه عشرون رجلاً من قومه إلى النبي ﷺ وأقاموا عنده عشرين ليلة، فرأى أنهم قد اشتاقوا إلى أهلهم، قال: ((ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ. فَأَقِيمُوا فِيهِمْ. وأدبوهم وَعَلِّمُوهُمْ))[1]، فدل ذلك على أن الإنسان لا ينبغي أن يغيب عن أهله إلا بقدر الحاجة، هذا هو الأفضل"[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣١، ومسلم ٦٧٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٣٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية بالتوجيه:

إن التربية الإسلامية تهدف بالدرجة الأولى إلى إحداث تغييرات إيجابية في سلوك الفرد وسلوك الجماعة، وإن ذلك لا يتأتى بمجرد الإطلاع على نظرياتها ومبادئها وأهدافها، وإنما لا بدَّ أن يتجسد ذلك في دعوة الناس وتوجيههم إلى كل خير يعود عليهم بالنفع في دنياهم وأخراهم[1].

إن التوجيه وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي من طلابه القيام بعمل معين، وهناك أمثلة عديدة لتوجيهاته ﷺ التي من خلالها يحاول تصحيح الأخطاء والحث على صالح العمل وتحويل طاقات الإنسان نحو فضائل الأعمال واستثمار قدراته بجوانب الخير وجعل ذلك عادة مستديمة له[2].

ومن ذلك ما جاء في حديث الباب من توجيه الرسول ﷺ للمسافر بأن يعجل بالرجوع إلى أهله إذا لم يكن هناك داعٍ لإطالة مدة السفر، فقال ﷺ (السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله".

لذا ينبغي على المربين ألا يغفلوا أو يقصروا في مهمة التوجيه، إذ أن التوجيه من الأساليب المؤثرة في سلوك الصغار والكبار معًا، ولقد أكد القرآن الكريم على أهمية الموعظة والتوجيه في أكثر من موطن حيث قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، ولكي يحدث التوجيه أثره في نفوس المتعلمين فإنه ينبغي أن يقترن بالشعور بالمحبة والعطف، فالنصح والتوجيه والوعظ والبر من والدٍ محب أو أمٍ حانية أو

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل علي ص ٤٣.

(٢) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٨٢ - ٢٨٨.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٥.

أخ كبير وصديق مخلص أو معلم عطوف أو شيخ وقور قد يغير مجرى حياة الإنسان.

ومن الآثار التربوية التي تترتب على التربية بأسلوب التوجيه: تزكية النفس وتطهيرُها، وهو هدف من أسمى الأهداف التربوية التي تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها، وبه يسمو المجتمع ويبتعد عن المنكرات، ويسلك الجميع منهج الله وشرعته، ويتوقف تأثير التوجيه والموعظة الحسنة على عدة عوامل ينبغي على الآباء والمعلمين مراعاتها في توجيه النشء وأهمها:

(أ) استخدام الأسلوب غير المباشر في النصح والتوجيه.

(ب) تخير وقت التوجيه حيث تكون النفس هادئة ومستجيبة.

(ج) اتباع التدرج في النصح والإرشاد والتوجيه.

(د) إشعار الأفراد محلِّ التوجيه بالعطف والاهتمام.

ويرى المربون أن في أسلوب التوجيه والموعظة مجالاً كبيرًا للمعلمين في تنشئة طلابهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم وتوجيههم إلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم، ومن المفيد أن يبتعد المعلمون في نصحهم وعظاتهم عن أسلوب الأوامر والنواهي، وعليهم استخدام الذكاء واللباقة في النصح والإرشاد حتى لا ينفروا المتعلمين [١].

ثانياً - من خصائص التربية الإسلامية الواقعية:

إن التربية الإسلامية تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو لحمًا ودمًا وفكرًا وشعورًا وانفعالاً ونزوعًا وروحًا وتحليقًا، فجاء الإسلام بشريعة واقعية لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت، ولم تهمل هذا الواقع في كل ما وضعت من أنظمة وقوانين للفرد وللأسرة وللمجتمع وللدولة وللإنسانية [٢].

ويترائي لنا في حديث الباب ما اتصفت به التربية الإسلامية من واقعية حيث راعى النبي ﷺ ما يعانيه المسافر ويتحمل من مشاق، وتعرض للأخطار، وتنغيص للراحة والاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، كما أشير إلى ذلك في قوله ﷺ (السفر قطعة من

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١٦٨ - ١٧٠.

العذاب يمنع أحدَكُم طعامه وشرابه ونومه) فضلاً عما يكابده أهل المسافر من مشاق ومعاناة، لذا كانت وصية رسول الله ﷺ للمسافر بتعجيل رجوعه إلى أهله إذا قضى حاجته وأتم أمره، فقال ﷺ (فإذا قضى أحدكم نهمته من سفر فليعجل إلى أهله).

وذلك من الدلائل الواضحة على واقعية التربية الإسلامية ورعايتها لما يعيشه الإنسان من واقع في حياته وأحواله وعواطفه وما إلى ذلك، "فلم تقل التربية الإسلامية بجملة من المبادئ التربوية الخيالية التي يصعب أو يستحيل تطبيقها وتنفيذها على الواقع، وإنما قالت بما يكفل البناء الحقيقي للشخصية وعلى الواقع، فانظر لاهتمامها بالجانب الجسمي لترى حرصها على ضرورة التغذي بالطيبات، وعدم تناول الخبائث والأغذية الفاسدة التي تجلب الضرر والأمراض وتُلقي بالصحة للتهلكة، وما قالته من ضرورة الوقاية والعلاج من الأمراض... وانظر لاهتمامها بالجانب العقلي لنرى حرصها على ضرورة تغذية العقل بالغذاء المادي والمعنوي الطيبين، وما قالته من ضرورة إعمال العقل وتدريبه على التفكير السليم، وبعيدًا عن الخرافة والسذاجة، وما قالته من ضرورة تجنيب العقل من كل مسكر ومحذور، ومن كل ما يشوش نظامه أو يتلفه... وانظر لاهتمامها بمختلف جوانب شخصية الفرد لترى ما قالته بشأن تنمية تلك لجوانب تنمية واقعية"[1].



(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٢١٥ - ٢١٧.

١٧٦- باب استحباب القدوم عَلَى أهله نهاراً

وكراهته في الليل لغير حاجة

الحديث رقم (٩٨٦)

٩٨٦- عن جابر رضي الله عنه : أنَّ رسولَ الله ﷺ ، قَالَ: ((إِذَا أطال أحَدُكُمُ الغَيْبَةَ فَلاَ يَطْرُقَنَّ[1] أهْلَهُ لَيْلاً)) [2].

وفي روايةٍ: أنَّ رسول الله ﷺ نَهَى أنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أهْلَهُ لَيْلاً. متفقٌ عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يَطْرُقَنَّ: الطروق: المجيء في الليل[4].

الشرح الأدبي

معنى الحديث ينم عن ذوق عال في جانب الحياة الاجتماعية، ومراعاة الحالة النفسية للأهل من حيث الاستعداد، وحسن اللقاء، والمعنى يدور حول عدم طروق الأهل ليلاً، وقد جاء في ثوب الشرط ليعطي الحكم شمولاً، واستمرارية تنظم علاقات دقيقة بين المسلمين مهما تقلب بهم الزمان، والمكان، كما يدل على ذلك لفظ (أحد) المتصل بكاف الخطاب، وميم الجمع، والنهي (فَلاَ يَطْرُقَنَّ أهْلَهُ لَيْلاً) إرشاد إلى السلوك القويم يحفظ للمسلم صورته التي يحب أن يلقى عليها أهله بعكس المفاجأة التي قد تصادف

---

(١) لفظ البخاري: (فلا يطرق) والمثبت لفظ أحمد في المسند ١٥٢٦٥.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ٥٢٤٤، ومسلم ٧١٥/١٨٣، كتاب الإمارة، باب ٥٦ من حديث عاصم الأحول، عن الشعبي.

(٣) أخرجه البخاري ١٨٠١، ومسلم واللفظ له ٧١٥/١٨٤.

(٤) رياض الصالحين ٢٨٤.

حالة لا ترضيه أو لا ترضيهم، وتوكيد الفعل المنهي عنه بالنون يصعِّد الإحساس بهذا النهي، ويبعث على امتثاله.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب إذا قرب من وطنه أن يبعث إلى أهله من يخبرهم، لئلا يقوم بغتة، فإذا كان في قافلة كبيرة واشتهر عند أهل البلد وصولهم ووقت دخولهم، كفاه ذلك عن إرساله معينًا. ويكره أن يطرق أهله طروقًا لغير عذر، وهو أن يقدم عليهم في الليل، بل السنة أن يقدم أول النهار، وإلا ففي آخره، لحديثي الباب)[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب قدوم المسافر على أهله نهاراً وكراهته في الليل لغير حاجة.

ثانياً: من أهداف الدعوة: نشر التواد والتحاب بين الزوجين.

ثالثاً: من آداب المدعو: عدم التعرض لما يوجب سوء الظنّ بالمسلم.

رابعاً: من آداب الداعية: موافقة فعله لقوله.

خامساً: من أساليب الدعوة: الشرط والنهي والإخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب قدوم المسافر على أهله نهاراً وكراهته في الليل لغير حاجة:

هذا واضح من النهي عن طروق الرجل أهله ليلاً، قال النووي: "ومعنى هذه الروايات كلها أنه يكره لمن طال سفره، أن يقدم على امرأته ليلاً بغتة، فأما من كان سفره قريباً تتوقع امرأته إتيانه ليلاً فلا بأس، كما قال في إحدى هذه الروايات: (إذا أطال الرجل الغيبة))، وإذا كان في قفل عظيم أو عسكر ونحوهم، واشتهر قدومهم ووصولهم، وعلمت امرأته وأهله أنه قادم معهم وأنهم الآن داخلون. فلا بأس بقدومه متى

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٨/٤ .

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٨٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٨٧).

شاء لزوال المعنى الذي نهى بسببه، فإن المراد أن يتأهبوا وقد حصل ذلك ولم يقدم بغتة، ويؤيد ما ذكرناه ما جاء في الحديث الآخر: ((أَمْهِلُوا حَتَّى نَدْخُلَ لَيْلاً - أَيْ عِشَاءً - كَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ))(١)، فهذا صريح فيما قلناه. وهو مفروض في أنهم أرادوا الدخول في أوائل النهار بغتة، فأمرهم بالصبر إلى آخر النهار، ليبلغ قدومهم إلى المدينة وتتأهب النساء وغيرهن"(٢).

قال ابن حجر: "التقييد فيه بطول الغيبة يشير إلى أن علة النهي إنما توجد حينئذ، فالحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، فلما كان الذي يخرج لحاجته مثلاً نهاراً ويرجع ليلاً، لا يتأتى له ما يحذر من الذي يطيل الغيبة، كان طول الغيبة مظنة الأمن من الهجوم، فيقع للذي يهجم بعد طول الغيبة غالباً ما يكره... فعلى هذا من أعلم أهله بوصوله أنه يقدم في وقت كذا مثلاً لا يتناوله هذا النهي"(٣).

ثانياً- من أهداف الدعوة: نشر التواد والتحاب بين الزوجين:

هذا واضحٌ من نهي النبي ﷺ عن طروق الرجل امرأته ليلاً، وأن النبي ﷺ كان لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية.

قال ابن حجر: "وفي الحديث الحث على التواد والتحاب خصوصاً بين الزوجين، لأن الشارع راعى ذلك بين الزوجين مع اطلاع كل منهما على ما جرت العادة بستره، حتى إن كل واحد منهما لا يخفى عنه من عيوب الآخر شيء في الغالب، ومع ذلك فنهى عن الطروق لئلا يطلع على ما تنفر نفسه عنه، فيكون مراعاة ذلك في غير الزوجين بطريق الأولى"(٤).

وقال ابن هبيرة: "إن المرأة إذا كان زوجها مسافراً، قد لا تهتم بنفسها كما يكون حاضراً، من الطيب وغسل الثوب وغير ذلك؛ فلو قد أتى الإنسان أهله وهي على ذلك

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢٤٦، ومسلم ١٨٢ - ٧١٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٧٧ - ٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٩/٣٤٠.

(٤) المرجع السابق ٩/٣٤١.

الشعث والتفل، لم يكن بعيداً من أن يبقى في نفسه مرارة ذلك الاجتماع دهراً، فإذا شعرن بقدوم بعولتهن افتقدن أنفسهن، وغسلن أثوابهن، وتطيبن، وكان اجتماع بعولتهن بهن أدعى للألفة وأعمر لمواطن المحبة"[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، قال الطاهر بن عاشور: "وهي آية تنطوي على عدة آيات منها: أن جعل للإنسان ناموس التناسل وأن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعله من صنف آخر؛ لأن التآنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنساً بين الزوجين ولم يجعله تزاوجاً عنيفاً أو مهلكاً كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين، فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة، ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل ويتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدة في قوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)... والسكون هنا مستعار للتآنس وفرح النفس، لأن في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد، والسكون الذي هو زوال اضطراب الجسم كما قالوا: اطمأن إلى كذا وانقطع إلى كذا.. والمودة: المحبة. والرحمة: صفة تبعث على حسن المعاملة"[٣].

ثالثاً- من آداب المدعو: عدم التعرض لما يوجب سوء الظنّ بالمسلم:

هذا واضحٌ من الحديثين، وفي رواية عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنهما: ((نَهَى رَسُولُ اللّهِ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلاً. يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ))[٤].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٩٤/٥ - ٩٥.

(٢) سورة الروم، آية: ٢١.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٧١/٢١/٨ - ٧٢، وانظر: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٧٢/١٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٤ - ٧١٥.

قال النووي: "ومعنى يتخونهم: يظن خيانتهم، ويكشف أستارهم، ويكشف هل خانوا أم لا"(١).

وقال النبي ﷺ: ((لاَ تَلِجُوا عَلَى الْمغيبَاتِ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ))(٢).

قال ابن حجر: "وفي الحديث التحريض على ترك التعرض لما يوجب سوء الظن بالمسلم"(٣).

وقال ابن حجر أيضاً: "يقع للذي يهجم بعد طول الغيبة غالباً ما يكره: إما أن يجد أهله على غير أهبة من التنظف والتزين المطلوب من المرأة، فيكون ذلك سبب النفرة بينهما، وقد أشار إلى ذلك بقوله في حديث الباب: (كي تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة)، ويؤخذ منه كراهة مباشرة المرأة في الحالة التي تكون فيها غير متنظفة لئلا يطلع منها على ما يكون سبباً لنفرته منها. وإما أن يجدها على حالة غير مرضية والشرع محرض على الستر، وقد أشار إلى ذلك بقوله: (أن يتخونهم ويتطلب عثراتهم)"(٤).

قال أبوالعباس القرطبي: "إن المرأة في حال غيبة زوجها متبذلة، لا تمتشط، ولا تدّهن، ولا تتنظف، فلو بغتها زوجها من سفره، وهي على تلك الحال استقذرها، ونفرت نفسه منها، وربما يكون ذلك سبب فراقها، فإذا قدم نهاراً سمعت بخبر قدومه؛ فأصلحت من شأنها، وتهيأت له، فحسنت الحال، وأمنت النفرة المذكورة.

وفيه من الفقه: أن المرأة ينبغي لها أن تتحسن، وتتزين، وتتطيب وتتصنع للزوج بما أمكنها، وتجتهد في ألا يرى منها زوجها ما تنفر نفسه منها بسببه؛ من الشعث والوسخ، وغير ذلك. وأما نهيه ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه عن الطروق: فلمعنى آخر، وهو: أن يظنّ بهن خيانة في أنفسهن، أو فيما في أيديهن مما أمنهن عليه. وهو ظن لا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٧٧ .

(٢) أخرجه الترمذي ١١٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٩٣٥).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٩/٣٤١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٩/٣٤٠.

يحلُّ، وتخمينٌ منهي عنه، فصار النهي عن طروق الرجل أهله معللاً بعلتين، بالأولى وبالثانية"[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٢].

قال القاسمي: "أي: كونوا على جانب منه، وذلك بأن [لا][٣] تظنوا بالناس سوءاً، فإن الظن غير محقق، وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لا داعية تدعو المؤمن للمشي وراءه أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن. قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٤]، نعم من أظهر فسقه وهتك ستره فقد أباح عرضه للناس، ومنه ما روى: ((مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحياءِ، فلا غيبَةَ لهُ))[٥]، ولذا قال الزمخشري[٦]: "والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر، كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث"[٧].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦٧/٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) غير موجودة في المطبوع وأضفناها ليستقيم المعنى، والله أعلم.

(٤) سورة النور، آية: ١٢.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب ٩٦٦٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق ٤١٧، والخطيب في تاريخ بغداد ١٧١/٤، ٤٣٨/٨، وابن عساكر كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٩٠/١٣. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٥٨٥.

(٦) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٤٠.

(٧) تفسير القاسمي ١٣٠/١٥، وانظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٥١/٢٦/١٠ - ٢٥٣.

وقال سعيد بن المسيب: (كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وعليك بإخوان الصدق، فكن ساعيًا في اكتسابهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعدة عند عظيم البلاء، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون، ولا تضع حديثك إلا عند من يشتهيه، وعليك بالصدق وإن قتلك الصدق، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب)[1].

رابعاً- من آداب الداعية: موافقة فعله لقوله:

لقد نهى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم عن طروق زوجاتهم ليلاً، فكان هذا قوله ﷺ، أما فعله فقد نقله لنا خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: (كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية)، فقد كان ﷺ يوافق فعله قوله، وكان ﷺ أبعد ما يكون أن يخالف قوله فعله.

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث أن الكامل في أحواله يحترز من النقائص؛ ليكون ذلك مما يقتدى به فيه، فإن رسول الله ﷺ على طهارة أهله ونفسه[2] بأمانة أزواجه، كان لا يطرقهن ليلاً، حتى يقتدي به غيره، فلا يطرق أهله ليلاً على فجأة، من أجل أنه ربما يكون من ذلك ما يكره"[3].

ولا شك أن من أكبر المعوقات عن تحقيق الدعوة الإسلامية لأهدافها العُلى وقيمها السامية، أن فئة من الدعاة لا تتوافق أفعالهم مع أقوالهم، فهم يدعون الناس إلى فضائل

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٨٣٤٥، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣/٥٦٦ - ٥٦٧.

(٢) هكذا في المطبوع وأظنه تحريفاً والصواب: ثقته، والله أعلم.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥/٩٤.

الأعمال ومكارم الأخلاق، فإذا اختبروا في موقف من المواقف التي تتطلب التمسك بهذه الفضائل وتلك المكارم، سقطوا سقوطاً ذريعاً، ونسوا ما ذكروا به الناس وقتاً طويلاً، وإذا ذُكروا اشتد بعضهم في غيه. فإذا دعوا الناس إلى التحلي بالحلم وعدم الغضب وتعرضوا لموقف يتطلب ذلك، كانوا أسرع إلى الاستجابة لدواعي الغضب والانتقام.

إن من أبرز وأهم صفات الداعية الناجح أن تتوافق أفعاله مع أقواله، لأن المدعوين يشعرون أنه مؤمن بدعوته صادق في الالتزام بها، فينتقل إليهم صدقُه وإيمانه فيتخذونه قدوة ومثلاً لهم، ومن مشهور القصص ذات الدلالة على ذلك أن رجلاً طلب إلى الحسن البصري أن يتحدث في العتق ويبين فضله، فلبث فترة لم يتحدث عن هذا الموضوع، ثم تحدث عن العتق وفضله وثوابه عند الله. فلما سئل عن سبب تأخيره عن الحديث في هذا الموضوع، قال: لأنني لم أكن أملك ما أشتري به رقبة حتى أقوم بإعتاقها، ثم أحدث الناس، فانتظرت حتى يسّر الله لي ذلك فحدثتكم، فكان لذلك أثره المحمود في اقتداء الناس به فقاموا بإعتاق عبيدهم.

فعلى الداعية أن يحذر من أن يخالف عمله قوله، لأن هذا أول أسباب فشل دعوته، فيكون أول الجانين عليها، بدل أن يكون أول المدافعين عنها الحامين عن حياضها.

خامساً- من أساليب الدعوة: الشرط والنهي والإخبار:

الشرط في قوله ﷺ: (إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقنّ أهله ليلاً)، وأما النهي فقول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: (نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً). وأما الإخبار فقول أنس رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ لا يطرّق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية).

والشرط بمعنى النهي، وجاء الإخبار ليدل على هديه ﷺ، وأن فعله ﷺ كان يوافق قوله.

وفي هذا دعوة للمسلمين دعاة ومدعوين أن يقتدوا به ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[1].

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢ - ٣.

الحديث رقم (٩٨٧)

٩٨٧- وعن أنسٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ رسولُ الله ﷺ لا يَطْرُقُ أهْلَهُ لَيْلاً، وَكَانَ يَأتِيهمْ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

(الطُّرُوق): المَجيءُ فِي اللَّيْلِ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

غدوة: أي: أول النهار[2].

عشية: من صلاة المغرب إلى العتمة. وقيل: هي من حين الزوال. قال ابن حجر: المراد هنا الأول[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث في معنى سابقه مع اختلاف بسيط في الصياغة، ومن حيث أن الموقف هنا موقف محكي عن الرسول ﷺ وعرض التوجيه عن طريق نقله عن الرسول ﷺ يتميز بالقبول، ويدخل على النفس دخول المأنوس فعل المحب تقليداً لحبيبه، والتعبير بكان يدل على أنه من عادته ﷺ، وأسلوب النفي يقرر عدم الطروق ليلا، وقد أكده بالفعل الصائب المسنون لهم عن نبيهم (وَكَانَ يَأتِيهمْ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً)، والفعل المضارع يصور قدوم النبي ﷺ في ضوء النهار مع طلوع الشمس نور على نور، أو عشية في نور أعظم يخلف نور الشمس.

المضامين الدعوية[4]

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٠٠، ومسلم واللفظ له ١٨٠/١٩٢٨.

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (غ د و).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٧٢٥/٣، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٧٤، والصحاح في (ع ش ي).

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- مراعاة الجوانب النفسية:

إن مما تغرسه التربية الإسلامية وتدعو إلى التمثل به مراعاة الجوانب النفسية والشعورية عند الآخرين، فلا يكون الإنسان سبباً لتكدير صفو حياتهم وراحتهم وطمأنينتهم، فلا يأتي بتصرف قد يدخل عليهم الذعر ويتسرب من خلاله الخوف إلى نفوسهم حتى ولو كانوا أهله وذويه.

لذا جاءت التعاليم في حديثي الباب بعدم طرق الإنسان أهله ومفاجئتهم إذا كان قادماً من سفر طال به الغياب عنهم، فقال ﷺ "إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقن أهله ليلاً".

وذلك لا يقتصر على معاملة الإنسان لأهل بيته وإنما تمتد لتشمل -جميع معاملاته للناس في مختلف ميادين الحياة خاصة في مجال التربية وميدان التعليم.

(إن مراعاة المربي للجوانب الشخصية والنفسية من الأهمية بمكان، لما لهذا الأسلوب من تأثير في النفوس وتطييب لها وانشراح للصدور وتفتح للعقول وسرعة استجابة للحق)[1].

وكذا مراعاة صفات كل إنسان ومؤهلاته، إذ كل إنسان يمتاز بصفات ومؤهلات تختلف عن صفات غيره من الناس ومؤهلاته، وهذه الصفات أو المؤهلات هي قوام شخصية كل إنسان، فهناك أناس امتازوا بالتفوق في بعض الجوانب أكثر من غيرها، فمنهم من امتازت شخصيته بالشجاعة، ومنهم من امتازت بالكرم، ومنهم امتازت بالحسب والشرف والرياسة، ومنهم من امتاز ببعض العلوم، ومنهم من امتاز بالذكاء وحسن التدبر، ومنهم من امتاز برجاحة العقل وهكذا إلى آخر المقومات.

فالمربي الناجح والمعلم الأريب من يحسن التعامل مع كل واحد بما يناسب مقوماته ويلائم جوانب شخصيته[2].

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٧.

(٢) انظر: الأساس في السنة وفقهها، سعيد حوي ٢/٨٠١، ٨٠٢.

ثانيًا- مطابقة السلوك للعلم:

إن من أهداف التربية الإسلامية الرئيسة إبراز المبادئ والتعاليم التربوية إلى ميدان التطبيق، وإخراجها إلى حيز التنفيذ، فإن الله سبحانه وتعالى لما شرع الإسلام للناس وأنزل لهم القرآن الكريم لم يكن مراده من ذلك أن يحفظه الناس كنظرية من النظريات، وإنما كان من مراده أن يطبق في حياتهم وأن يتخلق الناس به، وأن يتأسوا برسول الله ﷺ في ذلك، لذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ ليكون القدوة والمثل الأعلى للناس، فكان بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية حية، لتعاليم القرآن الكريم وآدابه وتشريعاته.

لذا كان على المسلمين جميعاً -خاصة من يتصدر منهم للاضطلاع بالعملية التربوية والتعليمية والقيام بمهامها- أن يقتدوا برسول الله ﷺ في تربيته فلا يتوقف عند مجرد الإرشاد والتوجيه بل يمتد إلى التطبيق والتنفيذ، والسنة النبوية ملأى بالأمثلة على ذلك، ومن دلائل ذلك ما جاء في حديثي الباب، فلم يكتف الرسول ﷺ بالإرشاد إلى مراعاة الرجل لشعور أهله وذويه في قوله ﷺ "إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقن أهله ليلاً" وإنما يطبق ذلك في حياته كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً وكان يأتيهم غدوة أو عشية".

ومن هنا كان تركيز التربية الإسلامية على تنفيذ التوجيهات وتطبيق الإرشادات، فإن غاية العلم والتربية الإسلامية التطبيق.

(يجب علينا أن نفرق بين العلم والتعليم، فالعلم وسيلة والتعلم غاية، فالعلم هو إدراك نسبة واقعية مجزوم بها وعليها دليلها، والتعلم هو تغير في السلوك نتيجة للعلم، ومن هنا فليس للعلم قيمة إلا إذا خرج إلى حيز التطبيق، وبالتالي فإن عملك بالفضيلة لا يعني فعلها، وإذا لم تفعلها تكون شهادة ضدك أكثر مما لو جهلتها.

فالعلم لابد أن يسير إلى تطبيق عملي، والتطبيق العملي هذا لا بد وأن يُكوّن في المربّي الأسوة، بحيث لا يفهم المتربي أن هناك علماً تُحشى به الرؤوس وهناك سلوك آخر ينفصل عن مبدأ ذلك العلم، وإذ انفصل العلم عن أنماط السلوك المتصلة به انهارت

قيمة العلم وانهدمت قيمة المعرفة وحينئذ يكون الفساد المُطبق الذي يصعب بل يستحيل علاجه.

ومن ثَمَّ فإن من غايات العلم ترسيخَ القيمِ الإنسانية والأخلاقِ الإنسانية القائمة عليها.

إن التربية الإسلامية تربية عملية وسيلتها الخبرة والقدوة والعلم، وغايتها الوصول بالإنسان إلى أن يكون فاضلاً، فغاية التربية الإسلامية ليست خلق المواطن الصالح بل خلق الإنسان الصالح أيًا كان موطنه وبناء المجتمع الإسلامي عن طريق تطبيق منهج الله في كل شؤون الإنسان والمجتمع[1].

ومن هنا كانت القدوة هي الركيزة الكبرى في العملية التربوية وأساس قوامها، وإن من يستقرئ حياة الرسول ﷺ يجد مطابقة تامة بين الرأي والعمل، بين الفكر والتطبيق، وبهذا يبين لنا الرسول ﷺ منهجاً تربوياً وهو أن يتمثل المعلم دائماً ما يقول ويعلم وإلا فلا أثر لذلك[2].

لقد اتخذ الإسلام القدوة وسيلة من وسائله لبناء الشخصية الإسلامية وترقيتها في سلم الكمال السلوكي، فالقدوة الصالحة هي من أنجح الوسائل لبناء الشخصية الإسلامية، خصوصاً في مرحلة الاكتساب وهي فترة الطفولة وهذه القدوة إما أن تكون مشاهدة ملموسة أمامه فيقتدي بها أو تكون مثالاً في ذهنه من الأخبار والسير الصالحة التي يسمعها.

إن الإنسان بصفة عامة يحتاج إلى قدوة صالحة، لأن المحاكاة غريزة كامنة في النفس الإنسانية[3]، فعندما يلتزم المربي في كل أحواله بأن تكون أعماله مصدقة لأقواله كان هذا أنفع للمتربي سواء كان هذا فيما يتعلق بأمور الدنيا أم بأمور الآخرة، فعندما يرى الطفل مربيه وهو يعطف على المسكين ويساعد الضعيف، فإن ذلك –

---

(١) انظر: منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ٣١٤.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل علي ص ٨٢.

(٣) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي ص ١٧٧، ١٧٨.

ولاشك- سوف يدفعه إلى تقليده والاقتداء به، وهو أجدى من الحديث عن فضل الصدقة وأهميتها في الوقت الذي لا يظهر فيه القيام بها، بل على المربي أن يدفع الطفل إلى ذلك دفعاً كأن يخرج من جيبه ما يريد دفعه للفقير، ثم يقول للطفل اذهب وأعطه هذا الفقير، فهو في هذا يحقق أكثر من هدف تربوي، فقوله: (الفقير) يبين للطفل السبب في الدفع لذلك الإنسان، وهو مساعدة المسكين والفقير، ويعوده على سخاء النفس ببذل مالها للغير المحتاج، كما يعلمه هذا السلوك الشجاعة والتعامل مع الآخرين، وقد يحدث أن الطفل نفسه بعدما رأى من صنيع والده ما رأى، أن يأتي إليه فيطلب منه ما يعطيه للفقير، ولا ينبغي للمربي في هذه الحالة أن يمنع ذلك، حتى لو كان المربي لا يرى أحقية ذلك الفقير؛ لأننا - الآن - في مرحلة بناء هذا الخلق عند الطفل، وليس الحكم على هذا السائل أنه يستحق أو لا يستحق، فمن الأمور المهمة في تربية الطفل أن يتعامل مع القيم التي نريد له أن يتخلق بها، على أنها سلوك عملي وليست مجرد أفكار نظرية، والقدوة تؤكد ذلك المعنى وترسخه[1].



(١) انظر: نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ، محمد بن شاكر الشريف ص ٥٣، ٥٤.

١٧٧- باب مَا يقول إِذَا رجع وإذا رأى بلدته

فِيهِ حَدِيثُ ابنِ عمرَ[1] السَّابِقُ في باب تكبيرِ المسافِرِ إِذَا صَعِدَ الثَّنَايَا.

الحديث رقم (٩٨٨)

٩٨٨- وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: أقْبَلْنَا مَعَ النَّبيِّ ﷺ[2].... حَتَّى إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: ((آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ))، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ. رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

بظهر المدينة: بمحلّ تظهر فيه[4].

آيبون: راجعون[5].

الشرح الأدبي

قول الراوي (إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ) كناية عن بلوغها والتعبير بالظهر يوحي بظهور معالمها، وقوله (آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ) خبر قصد به الدعاء تضرعاً، وحمداً لله، وفيها سجع بديع يعطيها حلاوة في اللسان، وخفة في الآذان مع وضوح في الجنان، وبين آيبون، وتائبون جناس يزيد المعنى وضوحاً، ونسبة الفعل لضمير الجماعة لتعميم الدعاء وشمول الجميع، كما هو مستحب في الدعاء.

---

(١) تقدم برقم ٩٧٨.

(٢) عند مسلم زيادة: (أنا وأبو طلحة، وصفية رديفته على ناقته).

(٣) برقم ١٣٤٥/٤٢٩ وقد أخرجه البخاري ٣٠٨٥، ٣٠٨٦، ٥٩٦٨، ٦١٨٥.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٩٣.

(٥) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ي ب).

فقه الحديث

قال النووي: (السنة أن يقول في رجوعه من السفر ما ثبت في حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ: "كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده"[1] وعن أنس قال: أقبلنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بظهر المدينة قال: "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة"[2])[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الذكر عند الرجوع من السفر ورؤية المسافر بلده.

ثالثاً: من آداب المدعو: المداومة على ذكر الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضحٌ من قول أنس بن مالك رضي الله عنه: (أقبلنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بظهر المدينة قال: آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون. فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة).

فدلّ هذا الإخبار على هديه ﷺ إذا رجع من سفره، ومن ثم كان دعوةً للمدعوين أن يفعلوا مثلما فعل ﷺ، لأنه قدوتهم، وهو الذي يدلهم على ما فيه خيرهم ونفعهم، ويحذرهم مما فيه ضرّهم وإلحاق الأذى بهم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٨٥، ومسلم ١٣٤٤/٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٨٥، ومسلم ١٣٤٥.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٨/٤ .

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣١.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الذكر عند الرجوع من السفر ورؤية المسافر بلده:

لقد قال النبي ﷺ عندما قرب من المدينة ورآها: (آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون، فلم يزل يقول ذلك حتى قدم المدينة).

وقال البراء بن عازب رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر قال: ((آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ))[١].

قال ابن حجر: "قوله: (آيبون): جمع آيب أي راجع[٢]، وزنه ومعناه وهو خبر مبتدأ محذوف والتقدير: نحن آيبون... وقوله: (تائبون) فيه إشارة إلى التقصير في العبادة، وقاله ﷺ على سبيل التواضع أو تعليماً لأمته، أو المراد أمته كما تقدم تقريره، وقد تستعمل التوبة لإرادة الاستمرار على الطاعة، فيكون المرادُ أن لا يقع منهم ذنب"[٣].

أما قوله: (عابدون)[٤]، فإن العبادة هي التي خلق من أجلها الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٥]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[٦].

وأما قوله: (لربنا حامدون)[٧]، فقد قال رسول الله ﷺ: ((أَفْضَلُ الذِّكْرِ، لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهِ. وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ))[٨].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٤٤٠، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي ٢٧٣٦.

(٢) قال القرطبي: وهو الراجع بالخير هنا، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٤٥٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٨٩.

(٤) قال القرطبي: خاضعون متذللون، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٤٥٤.

(٥) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٦) سورة البينة، آية: ٥.

(٧) قال القرطبي: حامدون: مثنون عليه بصفات كماله، وجلاله وشاكرون عوارف أفضاله، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٤٥٤ - ٤٥٥.

(٨) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٥).

قال ابن القيم: "عند قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين)، نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلاً ووصفاً واسماً، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسما، فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه، منزه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه. فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تخرج عن ذلك. وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت جلال. وأسماؤه كلها حسنى، وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة، والسماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، فالكون كله ناطق بحمده والخلق والأمر صادر عن حمده وقائم بحمده ووجد بحمده، فحمده هو سبب وجود كل موجود، وهو غاية كل موجود، وكل موجود شاهد بحمده"[1].

وفي تشريع النبي ﷺ الذكر عند الرجوع من السفر ورؤية المسافر بلده، في ذلك حكمة وهي شكر الله عز وجل على نعمة السلامة، وأن أرجعه سالماً غانماً إلى أهله بعد أن كان على حالة السفر، وهي حالة فيها من المشقة والتعب ما فيها، ومن التعرض لمظان الهلاك والإضرار ما فيه، فكان المناسب أن يعلن المسافر خضوعه وتذلله لله رب العالمين والثناء عليه سبحانه، ويستمر على هذا حتى يدخل بلده، فهو وقد دعا عند بداية السفر بأن يسلمه الله وقد استجاب الله له، فلا أقل من شكره سبحانه وإقرار المسافر بعبوديته وافتقاره لله رب العالمين. فأين هذا المسلك الرشيد مما يحدث الآن عند رؤية المسافرين بلدانهم وقد رجعوا إليها بعد سفرهم، فإن بعضهم يصفق ويأتي من الأفعال ما يخل بالمروءة والوقار؟

ثالثاً- من آداب المدعو: المداومة على ذكر الله:

هذا اقتداء بالنبي ﷺ الذي أخبر عنه أنس رضي الله عنه (فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة).

قال ابن القيم: "إن في دوام الذكر في الطريق والبيت والحضر والسفر والبقاع تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة، فإن البقعة والدار والجبل والأرض تشهد للذاكر يوم

(١) بدائع التفسير ١١٢/١.

القيامة، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[1].

فروى الترمذي في جامعه من حديث سعيد المقبري عن أبي هريرة ﷺ قال: ((قَرَأَ رَسُولُ الله هَـذِهِ الآيـةَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قـالَ: أَتَـدْرُونَ مـا أَخْبَارُهـا؟ قـالُوا الله وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قـالَ فـإِنَّ أَخْبَارَهـا أن تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أو أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا تَقُولُ عَمِلَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وكَذَا فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا))[2]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[3].

والذاكر لله عز وجل في سائر البقاع مكثر شهوده، ولعلهم أو أكثرهم أن يشهدوا له يوم القيامة، يوم قيام الأشهاد وأداء الشهادات، فيفرح ويغتبط بشهادتهم[4].

وقال ابن القيم كذلك: "إن عمال الآخرة كلهم في مضمار السباق. والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القترة والغبار يمنع من رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق. قال الوليد بن مسلم قال محمد بن عجلان سمعت عمر مولى غفرة يقول: إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم لم يروا عملاً أفضل ثواباً من الذكر، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر"[5].

---

(١) سورة الزلزلة، الآيات: ١ - ٥.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٢٩، ٣٣٥٣ وضعفه الألباني، (ضعيف سنن الترمذي ٤٢٨، ٦٦٤).

(٣) قال الترمذي في الموضع الأول: هذا حديث حسن غريب على حين قال في الموضع الآخر: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) الوابل الصيب، ابن القيم ٢/٣٥٦.

(٥) الوابل الصيب ٢/٣٥١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- ربط الولد بذكر الله تعالى:

إن مما ينبغي غرسه في المتربين لاسيما الناشئة منهم المداومة على ذكر الله تعالى في جميع الأوقات وعلى مختلف الأحوال، والذكر معناه استحضار عظمة الله تعالى في جميع الأحوال التي يكون عليها المؤمن، سواء أكان هذا الاستحضار ذهنياً أو قلبيًا أو نفسياً أو لسانياً أو فعليًا، أو كان في حال القيام أو القعود أو الاضطجاع أو السعي في مناكب الأرض أو تدبر آيات القرآن أو سماع الموعظة أو الاحتكام إلى شريعة الله أو ابتغاء أي عمل يقصد به المؤمن وجه الله.

وقد جاء في حديث الباب بيان بعض الأذكار الخاصة بالرجوع من السفر والإكثار منها كما هو ظاهر في صريح الحديث، فعن أنس رضي الله عنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ أنا وأبو طلحة وصفية رديفته على ناقته، حتى إذا كنا بظهر المدينة قال: "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون" فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة.

لذا ينبغي على الآباء والمربين والمعلمين ربط الأولاد بذكر الله تعالى، وتلقينهم الأذكار والأدعية والمأثورات التي صحت عن النبي ﷺ، سواء ما يتعلق بأدعية الصباح والمساء أو أدعية الطعام والشبع أو أدعية السفر والإقامة أو أدعية الدخول والخروج أو أدعية النوم واليقظة أو أدعية التهجد والظواهر الكونية. كذلك الاستغاثات الإلهية والاستغفارات الربانية التي ذكرها القرآن وأُثِرَتْ عن نبينا ﷺ[1].

إن ربط الأولاد بالأذكار والأدعية هو السلاح الأمضى والعامل الأقوى، وله فعله في النفوس يثبتها ويقومها، فقد أمرنا الله تعالى بذكره حتى في مواطن الجهاد وقتال الأعداء قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] فجعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد وقتال الأعداء[3].

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٨٢٦، ٨٢٧.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٥.

(٣) انظر: الثبات ووسائله في ضوء القرآن الكريم، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل ص ٨٥-٦٠.

إن المنهج الإسلامي يحث الإنسان على ذكر الله بالتسبيح والتكبير والدعاء والمواظبة على كل ذلك لأنها تؤدي إلى تزكية نفسه وصفائها وتجعله يشعر بالطمأنينة القلبية والأمن النفسي، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [(١)] وقال ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [(٢)])[(٣)].

فعلى المربي أن يسعى جهده على ربط الولد بذكر الله تعالى، وتربيته على ما في ذكر الله تعالى من معانٍ، كاستحضار عظمة الله في نفسه ليخشاه في السر والجهر والمتقلب والمثوى، والحل والترحال، والسفر والحضر، والسلم والحرب، والبيت والسوق، والنوم واليقظة، وفي كل مكان، ليكون من عداد أولئك الذين عناهم الله بقوله حين قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [(٤)].

ولاشك أن الولد إذا تأصلت نفسه على ذكر الله وترسخ قلبه على مراقبته ونشأ الولد مُخبتًا عابدًا ذاكرًا صالحًا مستقيمًا متزنًا خلوقًا، فلا يقع في معصيته ولا يرتكب فاحشة ولا يعمل ذنبًا، وهذا - والله - غاية الصلاح والتقوى في الولد.

ألا ما أعظم منهج الإسلام في التربية حين يسير على هداه المربون ويلتزم قواعده الآباء والمعلمون[(٥)].

ثانيًا- التربية بالممارسة العملية:

إن التربية بالممارسة العملية والتطبيق تكشف مدى نجاح المعلم والمربي في عمله، كما

---

(١) سورة طه، آية: ١٣٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٣) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر التركي ص ٥٦٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٨٢٨/٢، ٨٢٩.

أنها تهدف إلى تثبيت المعلومات في نفوس الطلبة بشكل جيد ويعمق مدى فهمهم لما يلقى على أذهانهم، كما أن ذلك المنهج يبين مدى فائدة المعلومات في الحياة وذلك بتطبيقها في مواقف طبيعية وهذا ما يثبتها في عقل الطلبة ويزيد من أهميتها في نظرهم"[١].

وإن من ينظر إلى منهج النبي ﷺ يجده أنه لا يقتصر على التوجيه والإرشاد فحسب، وإنما كان يشفع ذلك بالقدوة والممارسة العملية، ومن دلائل ذلك ما جاء في حديث الباب الذي نقل لنا ما كان يقوله ﷺ من أذكار في الرجوع من السفر حيث كان يقول "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون".

إن أسلوب الممارسة العملية من أهم أساليب التربية الإسلامية، والذي له العديد من الآثار والفوائد التربوية، وذلك لأن الدين الإسلامي دين عمل شريطة أن يكون العمل قرينًا للعلم، وقائمًا على أساسه، وهو دين يجعل العمل أساسًا للنجاح أو الخسران في الدنيا والآخرة فإن كان خيرًا فخير وصلاح وفوز ونجاح وإن كان شرًا فشر وخسران"[٢].

إن أهمية الممارسة العملية تترائى لنا في كونها من أكبر السبل لغرس الأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، وتصحيح الأوضاع الخاطئة، (فكثيراً ما يطلب من الطفل القيام بأعمال لم يسبق له عملها أو شاهد مَنْ عملها لذلك يبقى في جهل فإذا طلب منه العمل وقع في أخطاء تحتاج إلى تصحيح فإذا عوقب على خطئه هذا كان ظلمًا وحيفًا.

أما إذا لقن الطفل المعلومات الصحيحة ووجه كذلك بالطريقة العملية كان ذلك أدعى للعلم الصحيح والعمل البناء الموجه.

إن تدريب حواس الطفل يكسبه معرفة وعلمًا فعندما يبدأ بالنمو ويبتدئ بتشغيل يديه في عمل من الأعمال فإن ذلك يثير في عقله اليقظة فيشاهد أمامه كيف يدرب حواسه ويعيد هو بنفسه ذلك العمل وهكذا يتقن العمل ويتطلع إلى إجادة العمل خطوة خطوة"[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي جان ص ٢٣، ٢٣٨.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٧٧، ١٧٨.

(٣) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ١٠٤، ١٦٧.

١٧٨- باب استحباب ابتداء القادم بالمسجد الذي في جواره وصلاته فيه ركعتين

الحديث رقم (٩٨٩)

٩٨٩- عن كعب بن مالِك ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. متفقٌ عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

الشرح الأدبي

حكاية عادة النبي ﷺ أو عبادته غرضه لازم الفائدة من الخبر، وهو الإعلام بأنها سنة عنها، وإذا لم يكن الفعل معلوماً فالغرض هو إفادة مضمون الخبر، وليس لازم هذه الإفادة، ومثل نوعية هذا الحديث الذي يبدأه الرواي بقوله: (كان رسول الله ﷺ) تشير إلى أنها عادة معروفة لاسيما إذا تبعها أسلوب الشرط، وقوله: (كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ) أسلوب شرط يربط القدوم بصلاة الركعتين في المسجد، وهو لون من ألوان شكر النعمة، واغتنام السلامة، ورد الفضل إلى أهله، وقوله (بدأ بالمسجد) البداية بالمسجد من براعة استهلال القدوم، وأنه أولى البيوت بالبداية اعترافاً بفضل ربه، وقوله (فركع ركعتين) جناس يؤكد أداء الركعتين، والتعبير عن الصلاة بالركوع من تسمية الشيء بجزئه تنبيهاً على فضل هذا الجزء الدال على الخضوع.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة إذا وصل منزله أن يبدأ قبل دخوله بالمسجد القريب إلى منزله،

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩/٥٣ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٤٣١٠ الحديث الطويل بتمامه.

فيصلي فيه ركعتين بنية صلاة القدوم، لحديث كعب بن مالك ... فإن كان القادم مشهورًا بقصده الناس، استحب أن يقعد في المسجد أو في مكان بارز ليكون أسهل عليه وعلى قاصديه، وإن كان غير مشهور ولا يُقصد، ذهب إلى بيته بعد صلاته الركعتين في المسجد)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب ابتداء القادم من السفر بالمسجد وصلاته فيه ركعتين.

ثانياً: من آداب الداعية والمدعو: شكر الله على العودة من السفر سالماً.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب ابتداء القادم من السفر بالمسجد وصلاته فيه ركعتين:

هذا واضحٌ من قول كعب بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ فِي غَزَاةٍ. فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وَأَعْيَى. ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ قَبْلِي. وَقَدِمْتُ بِالْغَدَاةِ. فَجِئْتُ الْمَسْجِدَ فَوَجَدْتُهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ. قَالَ: ((الآنَ حِينَ قَدِمْتَ؟)) قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: ((فَدَعْ جَمَلَكَ. وَادْخُلْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ)) قَالَ: فَدَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ. ثُمَّ رَجَعْتُ[٢].

وقال النووي: "في هذه الأحاديث استحباب ركعتين للقادم من سفره في المسجد أول قدومه، وهذه الصلاة مقصودة للقدوم من السفر، لا أنها تحية المسجد. والأحاديث المذكورة صريحة فيما ذكرته"[٣]، وقال ابن حجر: "لكن تحصل التحية بها"[٤].

وقال ابن عثيمين: "إذا قدم الإنسان من السفر فليبدأ قبل كل شيء بالمسجد قبل

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٩/٤ .

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٣، ومسلم واللفظ له ٧٣ - ٧١٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٣٢/٥/٣، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٩/٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٦٤٠/١ .

أن يدخل على أهله، يبدأ بالمسجد ويصلي فيه ركعتين، لأن النبي ﷺ سنّ ذلك لأمته في قوله وفعله، وهذه السنة قد غفل عنها كثير من الناس، إما جهلاً بذلك وإما تهاوناً، ولكن ينبغي للإنسان أن يُحيي هذه السنة، وإذا وصل إلى البلد فليكن أول ما يبدأ به أن يدخل إلى المسجد ويصلي ركعتين، ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله"[1].

ثانياً: من آداب الداعية والمدعو: شكر الله على العودة من السفر سالماً:

لقد كان النبي ﷺ يصلي ركعتين في المسجد إذا رجع المدينة، كما أمر ﷺ جابراً بأن يصلي ركعتين في المسجد عند عودته من السفر كما هو مبين في الفقرة السابقة، ويظهر لي - والله أعلم- أن النبي ﷺ إنما فعل ذلك شكرًا لله على أن أرجعه ﷺ سالماً غانماً إلى أهله وبلده. ولهذا كان من دعائه ﷺ عند عودته إلى المدينة من سفره: ((آيبون، تائبون، عابدون لربِّنا حامدون))، فلم يَزَل يقولها حتى دخلَ المدينة[2].

قال العز بن عبدالسلام: "شكر الله على كل حال، قال الله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾[3]، وقال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[4]، وقال: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾[5]، يكون الشكر بالقلب واللسان وبجميع الطاعات ولذلك قال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[6]، ولما قام عليه السلام حتى تورمت قدماه قيل له: أتكلّف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك؟ فقال: ((أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟))[7]. جعل الاجتهاد والنصب في قيام الليل من جملة الشكر.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/٢٢٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٨٥، ومسلم ١٣٤٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٤) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٥) سورة الزمر، آية: ٧.

(٦) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٧) أخرجه البخاري ١١٠، ومسلم ٢٨١٩.

والشكر على الأكل: قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[١].

وقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٢].

الشكر على الشرب: قال الله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[٣].

الشكر على النصر: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤].

والشكر على تسخير الفلك: قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥].

والشكر على النعم على الآباء: قال الله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾[٦]، وأما قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[٧]، فشكر الوالدين في فضول الإحسان إليهما.

والشكر على الإدراك: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٨]"[٩].

وجاء في الموسوعة الفقهية: "الشكر: هو ظهور أثر النعمة على اللسان والقلب والجوارح بأن يكون اللسان مقراً بالمعروف مثنياً به، ويكون القلب معترفاً بالنعمة،

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٣) سورة الواقعة، آية: ٧٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٥) سورة الجاثية، آية: ١٢.

(٦) سورة النمل، آية: ١٩.

(٧) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٨) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٩) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ٣٠٩ - ٣١١.

وتكون الجوارح مستعملة فيما يرضاه المشكور. على حد قول الشاعر:

أفــادتكم النعمــاء مــني ثلاثــة ... يــدي ولــساني والــضمير المحجبــا

والشكر لله في الاصطلاح: صرف العبد النعم التي أنعم الله بها عليه في طاعته، أو فيما خلقت له، وشكر الله تعالى على نعمه واجب شرعاً من حيث الجملة"[1].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/١٧٣ - ١٧٤، ومصادرها ومراجعها.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- تربية الناشئة على الارتباط بالمسجد والتعلق به:

إذا كان النبي ﷺ يبدأ بالمسجد عند وصوله إلى المدينة، فيصلي فيه ركعتين، فهذا يستدل به على أنه ينبغي للمربين أن يربوا الناشئة على الارتباط بالمسجد والمداومة على الذهاب إليه، واستمرار الرواح إليه والمجيء منه، حتى يتعلق القلب به على مدار اليوم في جميع الأوقات، إقامة وسفراً فراغاً وانشغالاً، صغيراً أو كبيراً طفلاً أو شيخاً. وما ذلك إلا لأن المسجد هو أحب الأماكن إلى الله تعالى في الأرض[1]، لأنه فيه يعبد الله ويتربى المسلم على التربية السليمة الصحيحة، من الناحية العقدية والعبادية والأخلاقية والاجتماعية، ولذا كان المسجد منطلق كل داعية ناجح ومربٍ فاضل، منه يخرج الصالحون والمجاهدون والمتقون والمخلصون.

ومن نافلة القول أنه "قد يتبادر إلى الذهن أن الغرض من بناء المسجد إنما هو أداء الصلاة والعبادة، وهذا في الحقيقة غرض واحد من بين عدة أغراض مختلفة. وليس التعليم أقلّها، بل إنما كان التعليم من أكثر الوظائف بروزاً في الدور الذي كان يؤديه المسجد، حيث اعتبر المسجد المكان الطبيعي لتلقي العلم، ومعرفة تعاليم الشريعة أولًا بأول، فقد كان الرسول ﷺ يعقد حلقات العلم في المسجد ليغشاها كل راغب في العلم[2].

ولا نعدم من التاريخ ما يدل على دور المسجد الحيوي في التربية والتنشئة، فأعلام الفكر التربوي الإسلامي قد تربوا في المسجد وتعلموا فيه مثل: ابن الجوزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، رحمهم الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم، ٦٧١ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها".

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ط/١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، دون بيانات أخرى ص ١٢١.

ثانياً- تربية الناشئة على خلق الشكر:

إن المتبادر إلى الذهن أن النبي ﷺ صلّى ركعتين في المسجد عند قدومه من السفر- والمتبادر إلى الذهن من ذلك هو شكر الله تعالى على الرجوع من السفر سالماً غانماً إلى أهله ووطنه، بعد أن كان على معاناة ومقاساة من فراق الأهل والأحباب والأوطان، وانشغال البال والفكر وكثرة طروق الهموم والأحزان إليه في سفره، فلما تحقّق الأمن والسلامة كان من الأنسب والأوفق شكر الله تعالى على هذه النعم، وإن تربية الناشئة على الشكر يحقق لهم ولمجتمعهم المنافع الجمة والمصالح العديدة، من ذلك شيوع روح التقدير والثناء بالحق بين أفراد المجتمع مما يكون له أبلغ الأثر على ازدياد فعل المعروف والإحسان والبذل، كما أن الفرد في المجتمع يُنَشّأ على القيام بواجباته وعدم التهاون فيها كما هو حاله في المطالبة بحقوقه والعمل على تحصيلها.

والخلاصة: أن مجتمعاً يتربى أفراده على صفة الشكر، لمجتمع فاضل، خيّر، يتمتع أفراده بالإيجابية والمبادرة والمسارعة إلى الخيرات والمسابقة إلى الفضائل

ثالثاً- تربية الناشئة على تقديم طاعة الله على حظوظ النفس:

إن بدء النبي ﷺ بالمسجد عند القدوم من سفره يدل على أهمية تربية الناشئة على تقديم طاعة الله على حظ النفس ورغباتها، ولو كانت هذه الحظوظ وتلك الرغبات مباحة لا ضير فيها، فإن القادم من السفر عنده من الرغبات ما لو استجاب لها لشغلته وملأت عليه وقته وفكره: من لقاء الأهل والأولاد والجلوس إلى الأصدقاء والأحباب، فضلاً عن طلب الراحة والهدوء بعد رحلة سفر عانى فيها التعب والكدّ.

لكن الناشئة المسلمة يُربون على أن رغبتهم الأولى وحظهم الأعلى هو طاعة الله، وبعد ذلك تأتي الرغبات والحظوظ الأخرى ويلتزمون هذا في جميع أحوالهم ومختلف شؤونهم.

وإذا تربى الناشئة على هذا خرجوا نافعين لأنفسهم ولأهلهم ولأوطانهم ومجتمعهم، تزداد بهم الحياة خيراً وتقلّ شراً، وينتشر النور على حين ينكمش الظلام.

إن معظم الخلل الحادث عند الناشئة، يكون سببه تقديم حظوظ النفس على ما

عداها؛ فينشأ الانحراف، وسوء الأخلاق، وكذلك الأوبئة الاجتماعية التي تهدد أسس المجتمع ومرتكزاته.

رابعًا- من أساليب التربية: الممارسة العلمية:

وهذا واضح جلي من الحديث؛ فالنبي ﷺ علّم أصحابه أنهم إذا قدموا من سفر بدءوا بالمسجد فصلُّوا فيه ركعتين، علمهم ذلك عن طريق الفعل والعمل، لقد رأوه ﷺ يفعل ذلك فتعلّموا منه كما نتعلم نحن - الآن- منه ﷺ ، ومما لا شك فيه أن التربية بالممارسة العملية تتميز بطول بقاء أثر التعلم في نفوس المتعلمين.



١٧٩- باب تحريم سفر المرأة وحدها

الحديث رقم (٩٩٠)

٩٩٠- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ عَلَيْهَا**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مع ذي مَحْرَم: مع من يحرم نكاحه حرمة مؤبدة[2].

الشرح الأدبي

الحديث بدأ بأسلوب النفي العام الذي الذي يجعل جميع النساء تحت مظلة النهي (لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ عَلَيْهَ) وقد أخذ هذا العموم من تسليط النفي على الفعل المضارع، والنكرة (امرأة) التي تفيد العموم، وبذلك فجميع النساء معنيات بهذا النهي، وقوله (تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ تُسَافِرُ) تكميل بلاغي يضيف معنى الإيمان الذي يرهن الإيمان باجتناب الخروج هذه المسافة إلا مع ذي محرم، وذكر اليوم الآخر يشير إلى الحساب، ويلوح بالعقاب لمن يخالفن قوله: (مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ) فيه لإيجاز بالحذف أي مقدار مسيرة، وبين اليوم، والليل طباق يؤكد المعنى، ويحدد المسافة، والأسلوب الذي شمل المعنى أسلوب القصر الذي يقصر صفة حل سفر المرأة على وجود المحرم.

فقه الحديث

١- الخلوة بالأجنبية:

الأجنبية: هي من ليست زوجة ولا محرمًا، والمحرم من يحرم نكاحها على التأبيد

---

(١) أخرجه البخاري ١٠٨٨، ومسلم واللفظ له ١٣٣٩/٤٢١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٥٤.

(٢) رقم ٩٩٠، ٩٩١.

إما بالقرابة أو الرضاعة أو المصاهرة[1]. ويحرم على الرجل الخلوة بها، والأصل في ذلك قول النبي ﷺ: "لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم" وقد اتفق الفقهاء على أن الخلوة بالأجنبية محرمة[2].

وقال النووي: (وأما إذا خلا الأجنبي بالأجنبية من غير ثالث معهما فهو حرام باتفاق العلماء، وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه لصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك، فإن وجوده كالعدم، وكذا لو اجتمع رجال بامرأة أجنبية فهو حرام بخلاف ما لو اجتمع رجل بنسوة أجانب فإن الصحيح جوازه، والمختار أن الخلوة بالأمرد الأجنبي الحسن كالمرأة، فتحرم الخلوة به، حيث حرمت بالمرأة، إلا إذا كان في جمع من الرجال المصونين. قال أصحابنا: ولا فرق في تحريم الخلوة - حيث حرمنا - بين الخلوة في صلاة أو غيرها. ويستثنى من هذا كله مواضع الضرورة، بأن يجد امرأة أجنبية منقطعة في الطريق أو نحو ذلك، فيباح له استصحابها، بل يلزمه ذلك إذا خاف عليها لو تركها، وهذا لا اختلاف فيه)[3].

٢- اشتراط سفر المرأة للحج مع محرم أمين:

جاء في الموسوعة الفقهية: (يشترط أن يصحب المرأة في سفر الحج زوجها أو محرم منها؛ إذا كانت المسافة بينها وبين مكة ثلاثة أيام وهي مسيرة القصر في السفر وإلى هذا ذهب الحنفية والحنابلة[4] واستدلوا بحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((لا تسافر

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢/١٢٤.

(٢) الأشباه والنظائر، ابن نجيم ٢٨٨، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢/٤٠٩، ٤١٠، والمجموع ٤/١٥٥، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٥/١٨، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٣/٧ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٩/٢٦٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥/٩/٩٢ .

(٤) الهداية وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ٢/١٢٨، والكافي ١/٥١٩، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/٢٣٦- ٢٣٧.

المرأة ثلاثًا إلا ومعها ذو محرم))[1]".

وتوسع الشافعية والمالكية، فسوغوا الاستبدال بالمحرم: ذهب الشافعية إلى أنها إن وجدت نسوة ثقات: اثنتين فأكثر تأمن معهن على نفسها، كفى ذلك بدلاً عن المحرم أو الزوج بالنسبة لوجوب حجة الإسلام على المرأة، وعندهم الأصح أنه لا يشترط وجود محرم لإحداهن، لأن الأطماع تنقطع بجماعتهن، فإن وجدت امرأة واحدة ثقة فلا يجب عليها الحج، لكن يجوز لها أن تحج معها حجة الفريضة أو النذر، بل يجوز لها أن تخرج وحدها لأداء الفرض أو النذر إذا أمنت.

وزاد المالكية توسعًا فقالوا: المرأة إذا لم تجد المحرم أو الزوج ولو بأجرة تسافر لحج الفرض أو النذر مع الرفقة المأمونة، بشرط أن تكون المرأة بنفسها هي مأمونة أيضًا.

والرفقة المأمونة جماعة مأمونة من النساء أو الرجال الصالحين، قال الدسوقي: "وأكثر ما نقله أصحابنا اشتراط النساء".

أما حج النفل فلا يجوز للمرأة السفر له إلا مع الزوج أو المحرم فقط اتفاقًا، ولا يجوز لها السفر بغيرهما بل تأثم به)[2]".

٣- نوع الاشتراط للمحرم:

اختلف الفقهاء في الزوج أو المحرم هل هو شرط وجوب أو شرط للزوم الأداء بالنفس: ذهب المالكية والشافعية والحنابلة في الراجح عندهم وهو رواية عن أبي حنيفة إلى أن المحرم شرط لوجوب الحج، ويحل محلّه عند فقده الرفقة المأمونة عند الشافعية والمالكية على الوجه الذي ذكرناه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٠٨٦، ومسلم ١٣٣٨.

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢/٩-١٠، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ١/٤٥٥، والمنهاج للنووي وشرحه ٢/٨٩، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١/٤٦٧، وحاشية القليوبي على شرح المنهاج ٢/٨٩ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/٣٥-٣٦.

والراجح عند الحنفية أن الزوج أو المحرم شرط للزوم الأداء بالنفس[١].

وثمرة الخلاف في ذلك أن من جعله شرطًا لوجوب الحج، لا يوجب عليها في تركتها شيئًا إذا ماتت قبل تمكنها من الحج مع المحرم، ومن جعله شرطًا لوجوب الأداء أوجب عليها في تركتها مالاً يحج به عنها، حيث تعلق وجوب الحج في ذمتها[٢].

٤- سفر الزوج مع امرأته:

قال ابن حجر: (قوله: "اخرج معها" أخذ بظاهره بعض أهل العلم، فأوجب على الزوج السفر مع امرأته إذا لم يكن لها غيره، وبه قال أحمد وهو وجه للشافعية. والمشهور أنه لا يلزمه كالولي في الحج عن المريض، فلو امتنع إلا بأجرة لزمها، لأنه من سبيلها، فصار في حقها كالمؤنة)[٣].

٥- منع الزوج امرأته من حج الفريضة:

قال ابن حجر: (واستدل به على أنه ليس للزوج منع امرأته من حج الفرض. وبه قال أحمد وهو وجه للشافعية، والأصح عندهم أنه له منعها لكون الحج على التراخي)[٤].

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تحريم سفر المرأة وحدها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية.

رابعاً: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

خامساً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

---

(١) الشرح الكبير وحاشيته ٩/٢، وشرح الرسالة، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي وسائر المراجع السابقة والهداية وشرحها ١٣٠/٢، ولباب المناسك وشرحه ٢٧، والفروع، ابن مفلح ٢٣٤/٣-٢٣٦ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٦/١٧.

(٢) نظر: فقه السنة الميسر ٤٢٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٧٧/٤، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٧/١٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٧٧/٤، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٧/١٧-٣٨.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٩٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٩١).

سادساً: من أهداف الدعوة: صيانة المجتمع ونشر العفاف والمحافظة على الأعراض.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي في قوله ﷺ: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها)، وقوله ﷺ: (لا يخلوَن رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر إلا مع ذي محرم)، فقد نهى النبي ﷺ عن سفر المرأة بدون محرم أو الخلوة بها بدون محرم.

وقد ورد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: ((نَهَى أَنْ تُسَافِرَ الْمَرْأَةُ مَسِيرَةَ يَوْمَيْنِ إِلاَّ وَمَعَهَا زَوْجُهَا أَوْ ذُو مَحْرَمٍ))[1].

"والنهي طلب الكف عن الفعل على سبيل الاستعلاء"[2]. ويمكن أن يقال أيضاً إن هذا أسلوب قصر، فقد قصر النبي ﷺ جواز سفر المرأة وإباحته على كون المحرم معها، وكذلك الخلوة، أما ما عدا ذلك فإنه لا يباح ولا يجوز، وأسلوب القصر يتكون من أداة النفي مع أداة الاستثناء كما في الحديث.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تحريم سفر المرأة وحدها:

هذا واضح من النهي في الحديثين، قال النووي: "قوله ﷺ: (لا تسافر المرأة ثلاثاً إلا ومعها ذو محرم)، وفي رواية: (فوق ثلاث)، وفي رواية: (ثلاثة)، وفي رواية: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال إلا ومعها ذو محرم)، وفي رواية: (لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم أو زوجها، وفي رواية: (نهى أن تسافر المرأة مسيرة يومين)، وفي رواية: (لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها ذو حرمة منها)، وفي رواية: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا ومعها ذو محرم)، وفي رواية: (مسيرة يوم وليلة)، وفي رواية: لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم) هذه روايات مسلم[3]، وفي رواية لأبي داود[4]: (لا تسافر بريداً)، والبريد:

---

(١) أخرجه مسلم ٤١٦ - ٨٢٧.

(٢) تعليم علم الأصول، د. نور الدين مختار الخادمي ص ٣٦٧.

(٣) صحيح مسلم، الأحاديث: ١٣٣٨ - ١٣٤١.

(٤) أخرجه أبو داود ١٧٢٥، وحكم عليه الألباني بالشذوذ. (ضعيف سنن أبي داود ٣٧٩).

مسيرة نصف يوم. قال العلماء: اختلاف هذه الألفاظ لاختلاف السائلين واختلاف المواطن، وليس في النهي عن الثلاثة تصريح بإباحة اليوم والليلة أو البريد. قال البيهقي: كأنه ﷺ سئل عن المرأة تسافر ثلاثاً بغير محرم فقال: لا. وسئل عن سفرها يومين بغير محرم، فقال: لا ، وسئل عن سفرها يوماً فقال: لا. وكذلك البريد. فأدى كل منهم ما سمعه، وما جاء منها مختلفاً عن رواية واحد فسمعه في مواطن، فروى تارة هذا ، وتارة هذا ، وكله صحيح. وليس في هذا كله تحديد لأقل ما يقع عليه اسم السفر. ولم يرد ﷺ تحديد أقل ما يسمى سفراً ، فالحاصل أن كل ما يسمى سفراً تنهى عنه المرأة بغير زوج أو محرم، سواء كان ثلاثة أيام أو يومين أو يوماً أو بريداً أو غير ذلك. لرواية ابن عباس رضي الله عنهما المطلقة وهي آخر روايات مسلم السابقة: لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم، وهذا يتناول جميع ما يسمى سفراً"[(١)].

وقال ابن عبدالبر: "ويجمع معاني الآثار في هذا الباب، وإن اختلفت ظواهرها ، الحظر على المرأة أن تسافر سفراً يخاف عليها الفتنة بغير محرم، قصيراً كان أو طويلاً"[(٢)].

وقال ابن حجر: واستدل به على عدم جواز السفر للمرأة بلا محرم، وهو إجماع في غير الحج والعمرة والخروج من دار الشرك"[(٣)].

وقال النووي: "اعلم أن حقيقة المحرم من النساء التي يجوز النظر إليها والخلوة بها والمسافرة بها ، كل من حرم نكاحها على التأبيد بسبب مباح لحرمتها"[(٤)].

وفي العصر الحديث قد تغيرت وسائل المواصلات وأصبحت أسرع وأكثر أماناً وأصبحت تضم جماعات من المسافرين، فنظر بعض العلماء إلى هذه التغيرات ورأى أن العلة في اشتراط المحرم هو توفير الأمان[(٥)]، وأنه يمكن في وسائل المواصلات الحالية

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٩/٩/٥ - ١١٠.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ابن عبدالبر ٣٠٥/٢٣ ، موسوعة شروح الموطأ.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥٦٨/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤/٩/٥.

(٥) في ذلك يقول ابن هبيرة: إنما اشترط المحرم لحراسة المرأة، لأنه ذو حمية عليها. الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١/٣.

توفير هذا الأمان، ومن ثم رأى أن الحكم يختلف الآن عما سبق، من هؤلاء د. محمد رواس قعله جي الذي قال: "يجوز للمرأة أن تسافر السفر القصير بغير محرم ولا رفقة. والسفر القصير هو الذي لا يستغرق الوصول إليه فيه بأدوات المواصلات المتاحة في الحال ست ساعات، ولا يجوز لها أن تسافر سفراً هو أبعد من ذلك إلا مع محرم، لقوله ﷺ: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر ثلاثاً إلا ومعها ذو محرم) ويستثنى من ذلك:

(١) حالات الضرورة حيث يجوز لها أن تسافر وحدها، كالمسافرة المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام إن لم تجد زوجاً ولا محرماً يخرج معها؛ وكمن ضلت زوجها أو محرمها في السفر، ولا بد لها من العودة إلى وطنها.

(٢) إذا انتفت الفتنة، وأمنت المرأة على نفسها وكان السفر سفر طاعة، جاز لها أن تسافر من غير زوج ولا محرم،ولكن لا بد من وجود الرفقة المأمونة، كسفر المرأة للحج، أو لطلب العلم أو لصلة الرحم، ونحو ذلك، وأرى أن السفر مع شركات الطيران، وشركات النقل ذات السمعة الطيبة، سفر مع رفقة مأمونة اليوم إن كان في المسافرين نساء"[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ: (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم)، قال النووي: "هذا استثناء منقطع، لأنه متى كان معها محرم لم تبق خلوة، فتقدير الحديث: لا يقعدن رجل مع امرأة إلا ومعها محرم، وقوله ﷺ: (ومعها ذو محرم)، يحتمل أن يريد محرماً لها ويحتمل أن يريد محرماً لها أو له. وهذا الاحتمال الثاني هو الجاري على قواعد الفقهاء. فإنه لا فرق بين أن يكون معها محرم لها كابنها وأخيها وأمها وأختها،

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٨٨/٢ - ١٠٨٩. وقال عبدالله البسام: "والمسألة موضع اجتهاد بيْن العلماء، فمن رأى عموم النصوص أجراها على ظاهرها ومنع ذلك مطلقاً، ومن رأى المعنى الذي حرم السفر من أجله أباحه في صورة تبعد الشبهة بها، وتخف الريبة حولها، والراجح ما قاله ابن تيمية من الجواز مع وجود الأمن. توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٦٩/٣.

أو يكون محرماً له كأخته، وبنته وعمته وخالته، فيجوز القعود معها في هذه الأحوال، ثم إن الحديث مخصوص أيضاً بالزوج، فإنه لو كان معها زوجها كان كالمحرم وأولى بالجواز. وأما إذا خلا الأجنبي بالأجنبية من غير ثالث معهما، فهو حرام باتفاق العلماء. وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه، لصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك فإن وجوده كالعدم، وكذا لو اجتمع رجال بامرأة أجنبية فهو حرام، بخلاف ما لو اجتمع رجل بنسوة أجانب فإن الصحيح جوازه"[1].

وفي رواية عند البخاري: ((ولا يَدخُلُ عليها رجُلٌ إلا ومعَها مَحْرَم))[2]، قال ابن حجر: "فيه منع الخلوة بالأجنبية وهو إجماع، لكن اختلفوا هل يقوم غير المحرم مقامه في هذا كالنسوة الثقات؟ والصحيح الجواز لضعف التهمة به"[3].

جاء في الموسوعة الفقهية: "الأجنبية: هي من ليست زوجة ولا محرماً، والمحرم من يحرم نكاحها على التأبيد، إما بالقرابة، أو الرضاعة، أو المصاهرة، ويحرم على الرجل الخلوة بها، والأصل في ذلك قول النبي ﷺ: (لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم).

وقد اتفق الفقهاء على أن الخلوة بالأجنبية محرمة، وقالوا: لا يخلون رجل بامرأة ليست منه بمحرم، ولا زوجة، بل أجنبية، لأن الشيطان يوسوس لهما في الخلوة بفعل ما لا يحل، قال ﷺ: ((ألا لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ، إلاَّ كانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))[4][5].

رابعاً- من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

هذا واضحٌ من قول الرسول ﷺ للرجل لما قال له: يا رسول الله إن امرأتي حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال له النبي ﷺ: انطلق فحج مع امرأتك، قال النووي: "فيه تقديم الأهم من الأمور المتعارضة، لأنه لما تعارض سفره في الغزو وفي الحج

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦/٩/٥ .

(٢) صحيح البخاري ١٦٨٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٧٧/٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢١٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٨).

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٧/١٩.

معها، رجح الحج معها، لأن الغزو يقوم غيره في مقامه عنه بخلاف الحج معها"(١).

وقال ابن حجر: "ويستفاد منه أن الحج في حق مثله أفضل من الجهاد، لأنه اجتمع له مع حج التطوع في حقه تحصيل حج الفرض لامرأته، وكان اجتماع ذلك له أفضل من مجرد الجهاد الذي يحصل المقصود منه بغيره، وفيه مشروعية كتابة الجيش، ونظر الإمام لرعيته بالمصلحة"(٢).

وقال عبدالله البسام: (إن فرض العين مقدم على فرض الكفاية، فالرجل كتب في الجهاد، وهو فرض كفاية، والمحافظة على زوجته فرض عين، فقدمه النبي ﷺ، ففيه دليل على تقديم الأعذار الخاصة اللازمة على فروض الكفايات)(٣).

ومن قبيل ترتيب الداعية للأولويات ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: ((أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟)) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))(٤).

قال ابن حجر عن هذا الحديث: "فيه أن بر الوالد قد يكون أفضل من الجهاد، وأن المستشار يشير بالنصيحة المحضة، وأن المكلف يستفصل عن الأفضل في أعمال الطاعة ليعمل به؛ لأنه سمع فضل الجهاد فبادر إليه، ثم لم يقنع حتى استأذن فيه فدل على ما هو أفضل منه في حقه. ولولا السؤال ما حصل له العلم بذلك"(٥).

خامساً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

هذا واضحٌ من سؤال الرجل النبي ﷺ: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال له ﷺ: (انطلق فحجّ مع امرأتك).

وكان هذا السؤال سبب الجواب الذي دلّ المدعو على ما يفعله، وهو أن يذهب مع امرأته إلى الحج. وهذا الجواب دعوة لغيره من المدعوين أن يفعلوا مثله، إذا كان حالهم

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦/٩/٥، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٧٨/٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٤٣/٦.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٦٧/٣.

(٤) أخرجه البخاري ٣٠٠٤، ومسلم ٢٥٤٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٤٠/٦.

مثل حاله أو شبيهاً به.

سادساً- من أهداف الدعوة: صيانة المجتمع ونشر العفاف والمحافظة على الأعراض:

هذا واضحٌ من تحريم سفر المرأة بدون محرم وتحريم الخلوة بالأجنبية. قال النووي: "قال القاضي عياض[1]: اتفق العلماء على أنه ليس لها أن تخرج في غير الحج والعمرة إلا مع ذي محرم، إلا الهجرة من دار الحرب، فاتفقوا على أن عليها أن تهاجر منها إلى دار الإسلام وإن لم يكن معها محرم، والفرق بينهما أن إقامتها في دار الكفر حرام إذا لم تستطع إظهار الدين، وتخشى على دينها ونفسها، وليس كذلك التأخر عن الحج، فإنهم اختلفوا في الحج هل هو على الفور أم على التراخي؟

قال القاضي عياض[2]: قال الباجي: هذا عندي في الشابة، وأما الكبيرة غير المشتهاة فتسافر كيف شاءت في كل الأسفار بلا زوج ولا محرم. وهذا الذي قاله الباجي لا يوافق عليه، لأن المرأة مظنة الطمع فيها ومظنة الشهوة ولو كانت كبيرة، وقد قالوا: لكل ساقطة لاقطة، ويجتمع في الأسفار من سفهاء الناس وسقطهم من لا يرتفع عن الفاحشة بالعجوز وغيرها، لغلبة شهوته وقلة دينه ومروءته وخيانته ونحو ذلك"[3].

أما عن تحريم الخلوة فقال النووي: "قال أصحابنا: ولا فرق في تحريم الخلوة حيث حرمناها بين الخلوة في صلاة أو غيرها، ويستثنى من هذا كله مواضع الضرورة، بأن يجد امرأة أجنبية منقطعة في الطريق أو نحو ذلك فيباح له استصحابها، بل يلزمه ذلك إذا خاف عليها لو تركها، وهذا لا اختلاف فيه، ويدل عليه حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك"[4])[5].

كل هذا وغيره يجعل المجتمع المسلم (مصونة فيه الأعراض، منتشر فيه العفاف

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٤٥/٤.

(٢) المرجع السابق ٤٤٦/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢/٩/٥ - ١١٣، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٧٦/٤.

(٤) قصة الإفك أخرجها البخاري ٤١٤١، ومسلم ٢٧٧٠.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦/٩/٥.

مصونة فيه الأخلاق، ولذا فإن ما يدندن حوله كثير من الناس في هذا العصر من الدعوة إلى قدر أكبر من حرية الفرد السلوكية والاجتماعية، ينبغي أن يكون مقيداً بالبداهة بضوابط الشريعة وحدودها وآدابها، فلا يقبل أي نظام عاقل أن ينفلت الإنسان في المجتمع بلا ضوابط ولا حدود، فيعتدي على عقيدة الأمة وقيمها، ومقوماتها بدعوى ممارسة الحرية الشخصية"[1].

ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية لها مقاصد، وهي غايات التشريع ومراميه وأهدافه.

وأنواع المقاصد بحسب الضرورة إليها وعدمها ثلاثة:

(المقاصد الضرورية، المقاصد الحاجية، المقاصد التحسينية).

١ - المقاصد الضرورية:

وهي المقاصد التي لا بد منها لكي يقوم نظام الحياة ويصلح حال الناس. ومثالها: إقامة الدين، وحفظ الناس في نفوسهم وعقولهم وحفظ النظام، وقمع البغي والاعتداء، وإقامة الأعمال والصناعات والحرف، وبناء المستشفيات وتكوين الأطباء وتوفير الغذاء والعلاج.

فالمقاصد الضرورية هي المقاصد الأساسية اللازمة التي يجب إيجادها وإعمالها؛ لأنها في حال عدمها وغيابها، يفسد نظام الحياة، وتتعطل مصالح الناس ومعاملاتهم.

والمقاصد الضرورية في الإسلام تُعرف بالمقاصد الضرورية الخمس، أو الكليات

---

(١) ركائز دعوية من هدي النبي ﷺ في العلاقات الاجتماعية، د. عبدالمجيد البيانوني ص ٢١٤.

- وقال عبدالله البسام: (إذا تأملت حال المسلمين الآن بنسائهم من التبرج والعري ومزاحمة الرجال والخلوات المحرمة معهم وصحبتهم في الأسفار البعيدة وغير ذلك من العادات التي يندى لها الجبين، علمت بعد المسلمين عن دينهم وعدم مراعاتهم حرماته. وفي مثل هذه الآداب الكريمة والأخلاق العالية المحافظة على الكرامة والصيانة للشرف والعرض وحفظ الأنساب والأعراف وهو مظهر كريم وتكريم للمرأة وتطهير لها من الأدناس. أما الخلاعة والمجون والإباحية فهي الرجعية إلى عهد الوحشية والبهيمية التي لا تعرف نظاماً ولا قانوناً ولا حياءً ولا عفة. توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٦٦/٣ - ٢٦٧.

الشرعية الخمس، منها:

حفظ النسل والنسب والعرض:

معنى حفظ النسل: المحافظة على بقاء النوع الإنساني عن طريق التناسل.

معنى حفظ النسب: تحقيق التناسل الذي تُعلم نسبته إلى أصله الشرعي.

ومعنى حفظ العرض: تحقيق العفة والكرامة، وعدم التعرض إلى شرف الغير.

ومعنى المقصد في الجملة: المحافظة على التناسل والتوالد عن طريق الزواج الشرعي، وعدم التعرض إلى شرف الغير وكرامته، سواء بالنظر أو المس أو الاختلاء أو الخضوع بالقول أو ما شابه ذلك.

ولأجل تحقيق هذا المقصد شرعت عدة أحكام، منها:

- الحث على الزواج والتناسل والتوالد عن طريق الزواج الشرعي.
- تحريم الزنا، ومعاقبة الزاني.
- تحريم السحاق واللواط، وتحريم مختلف صور الشذوذ الجنسي.
- تحريم الخلوة بالأجنبية.
- تحريم النظر إلى الأجنبية بقصد الشهوة والتلذذ.
- تحريم النظر أو الاستماع إلى الأفلام الجنسية.
- تحريم استخدام الإنترنت للتحرش الجنسي وتبادل الإثارات والعبارات الجنسية.
- تحريم النظر إلى الصور الخليعة ومظاهر العراء والسفور[1].

(١) تعليم علم الأصول، د. نور الدين مختار الخادمي ص ٤١٧ - ٤٢٥.

الحديث رقم (٩٩١)

٩٩١- وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّهُ سَمِعَ النبيَّ ﷺ، يقول: ((لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلاَ تُسَافِرُ المَرْأةُ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ)) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ[1]: يَا رسولَ الله، إنَّ امْرَأتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإنِّي اكْتُتِبْتُ في غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: ((انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

اكْتُتِبْتُ: كتبت نفسي في أسماء من عيّن لتلك الغزوة[3].

الشرح الأدبي

قوَّم الرسول ﷺ خطأ الخلوة بالأجنبية، وألزم الرجل بالحفاظ على زوجه وعدم تركها تسافر سفراً طويلاً بمفردها مما يعرضها للخطر، وهي المنوطة بشرف الأسرة، وتربية النشأ، وهي نصف المجتمع، وميل الرجل للمرأة ميل فطرى فإذا ما خليا كان الشيطان ثالثهما يحرك في نفس كل منهما هذا الميل الفطرى ليوقعهما في الخطيئة، وقد جاء أسلوب الرسول ﷺ قاطعاً يتساوق مع حجم الخطر فاستخدم عدة أساليب بلاغة منها: أسلوب النهي: وقد استخدمه الرسول ﷺ تقويماً لخطأ الخلوة بالأجنبية حفاظاً على طهارة الأمة، ونقائها في أول حلقاتها، وهي الأسرة الممثلة في المرأة التي تنجب، وتربى الجيل المسلم، والتهاون فيما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة تهاون مهلك يدمر الأسرة، ويفتت كيانها؛لأن المسألة فيها بعد نفسي فطرى لميل الرجل للمرأة، وميل المرأة للرجل، ولذلك نجد الرسول ﷺ يصوغ الفعل في صورته المضارعية التي

---

(١) لفظ مسلم: (فقام رجل فقال).

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٠٦، ومسلم واللفظ له ١٣٤١/٤٢٤. أورده المنذري في ترغيبه ٢٨٥٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٩٢/٤.

تساعد على استحضار صورة المختليان تحفهما الريبة، وتحوم حولهما الشكوك، ويصيران مثاراً للظن السيء، لذلك أكد الفعل (يخلون) بنون التوكيد تأكيداً على النهي، وسيراً على نبرة الأسلوب العالى النبرة في تقويم خطأ يمسُّ العرض، والكيان الاجتماعى ممثلاً في نواته الأولى، وهي الأسرة المسلمة ممثلة في ربَّتها الطاهرة المصون، ومنها أيضاً: أسلوب القصر: وقد جاء في إطار تقويم الخطأ، والنهي عن الخلوة بالأجنبية في قوله ﷺ (لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم) حيث قصر خلوة الرجل بالمرأة على ذات المحرم دون غيرها قصر صفة على موصوف إشارة إلى أنه لا يجب التهاون في أمر الخلوة، لأن الأنفس البشرية بطبيعتها ضعيفة أمام الشهوات لما هو مركوز في الطباع من ميل كل جنس إلى الآخر لذلك نهي الرسول ﷺ عن السبب الذي يمكن أن يضع الإنسان في هذا الوضع حيث لا تؤمن العاقبة، لذلك جاء أسلوب القصر لينفى خلوة الرجل بالمرأة مطلقاً، ويقصرها على ذات المحرم حيث تؤمن الفتنة، ومنها: الأمر المستخدم في تقويم الخطأ جاء رداً على الرجل الذي ترك زوجته تحج بمفردها فجاء أمر الرسول ﷺ (ارجع فحج مع امرأتك) رداً للأمور إلى نصابها، حتى لا تتعرض المرأة، وهي الضعيفة بطبيعتها للفتن فجاء أمره (ارجع) تدعيماً للنهي السابق، وتأكيداً لمعنى النهي عن الخلوة؛ لأن ترك المرأة تسافر بمفردها فيه معنى تخليتها الأمر الذي يهددها بالخطر.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الشرح التربوي في أحاديث الباب

أولاً- التربية الوقائية:

خلق الله الإنسان، وجعل فيه نوازع الخير ونوازع الشر، وذلك لاختباره، هل يشكر أم يكفر، ومن رحمة الله بعباده أن وجههم إلى ما يحول بينهم وبين وقوع الشر من خلال سد الذرائع المؤدية إليه، وليس ذلك من باب تقييد حرية الإنسان وشل حركته في الحياة وإنما تهذيب له وتزكية وترقية لأن يكون الإنسان الحق الذي يكون كما أراده الله عز وجل.

ومن هذا المنطلق فإن الرسول الكريم ﷺ نهى عن أن تسافر المرأة بدون محرم أو يخلو بها رجل إلا ومعها محرم لها، وذلك سداً لباب الوقوع في كبيرة الزنا، وانتهاك الأعراض ولما يترتب على ذلك من شيوع المنكرات والفواحش والأمراض الفتاكة.

إن التربية القائمة على إتاحة الفرصة لأن يجرب المربي كل شيء حتى يحكم عليه بالإيجاب أو السلب، تربية أثبتت فشلها الذريع، وخير دليل على ذلك أن البلاد التي تسمح قوانينها بتعاطي المخدرات وشرب الخمر تعاني الأمرين من الإدمان وآثاره المدمرة على الفرد والمجتمع، مما دفع الحكماء منهم إلى المناداة بمنعها وتجريم تعاطيها [1].

وكذلك المجتمعات الغربية التي استشرت فيها الفوضى والإباحية الجنسية، التي تمخض عنها الشذوذ الجنسي فضلاً عن الأمراض الفتاكة من الايدز وغيره؛ مما جعلها تئن وتكتوي بنار الإباحية والاختلاط المطلق.

غير أن التربية الإسلامية تعمل على الحيلولة دون وقوع تلك الجرائم والتردي في تلك المستنقعات الأخلاقية، وذلك من خلال التربية الوقائية التي تحول دون سفر المرأة بمفردها تلك الأسفار التي لا يؤمن على المرأة فيها إلا من خلال محرم، أو غير ذلك من الأمور التي يمكن أن تكون نافذة على الشر.

---

(١) انظر: محاضرات ودراسات في أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب ص ١٩٢-١٩٤، وأصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي.

ثانياً- تربية الناشئة على الإيمان بالله وخشيته:

إن الرسول الكريم ﷺ عندما أراد أن ينهي المرأة عن السفر وحدها، ذكرها بأنها: "تؤمن بالله واليوم الآخر"، وفي هذا -فيما نرى- حث لها على الامتثال والإذعان. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تحذير لها من ارتكاب هذا النهي، لأن في ذلك إخلالاً بمقتضيات الإيمان وكمالاته، ومما لا جدال فيه أن امرأة مؤمنة بربها ومصدقة بالحساب والجزاء يوم القيامة لا تستطيع أن تجرؤ على فعل ما نهاها عنه رسول رب العالمين ﷺ.

ومن هذا المنطلق فإن على المربين أن يربوا الناشئة على الإيمان بالله والعمل بمقتضيات هذا الإيمان ولوازمه، لأن ذلك هو الأساس الذي تقوم عليه التربية، فإن كان راسخًا قوياً أتت التربية بثمارها الطيبة وجناها الزكي، وإلا حصد المجتمع أسوأ النتائج وأوخم العواقب.

ولعل مكث النبي ﷺ بمكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً يغرس في نفوس أتباعه الإيمان بالله، يفسر لنا أهمية هذا الأساس وعظم تأثيره. فلمّا هاجر إلى المدينة، سرعان ما أقام دولته التي برز فيها كثير ممن ربّاهم ﷺ في مكة.

إن كثيراً من الدول المعاصرة تعاني من أمرين متناقضين: الأمر الأول: كثرة القوانين التي تعاقب على كثير من المخالفات، والأمر الآخر: كثرة الاجتراء على هذه القوانين وكثرة التحايل على تكسيرها، والالتفاف عليها، بحيث تفرغ من مضمونها وأثرها، فتصبح عديمة الجدوى والقيمة.

والسبب في هذه المعاناة عدم الإيمان بفائدة هذه القوانين، والنظر إليها أنها قيد يجوز التخلص منه. على حين يختلف الوضع اختلافاً كبيراً جداً لو نُظر إليها أنها ذات فائدة قصوى للأفراد والمجتمع، وقبل هذا الاعتقاد الخالص فيها، وهذا إذا توافر فيها العدل والإنصاف، والبعد عما يغضب الله عز وجل ورسوله ﷺ[1].

---

(١) وانظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالمملكة العربية السعودية ص ٢٤٩ وما بعدها، والمنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ١٨٤ وما بعدها.

وهناك لفتة تربوية عظيمة ينبغي أن يُفاد منها في مجال التربية الإسلامية، وذلك عند التوجيه لأمر مهم: ينبغي أن تستثار النخوة والغير الإيمانية في نفوس المؤمنين والمؤمنات، ولعل ذلك يستوحي من قول النبي ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لاِمْرَأَةٍ تُؤمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَومٍ وَلَيْلَةٍ، إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ». ولا شك أن هذا الوصف بالإيمان بالله واليوم الآخر يثير في النفس غيرة، ويجعل المؤمن والمؤمنة على حياء وخجل، أن يأتي الأفعال أو السلوكيات المتنافية مع مقتضى هذا الإيمان، ولذا فإن الله تعالى ربى المؤمنين من خلال مخاطبتهم بهذا الوصف في نهيهم عن بعض المخالفات، والأمثلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

ثالثاً- تربية الناشئة على ملء أوقاتهم بالعمل النافع:

إن مما يلاحظ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الرجل أخبر عن زوجته أنها خرجت حَاجَّةً، وأنه هو نفسه اكتتب في غزوة كذا وكذا: فالمرأة خرجت من بيتها تقصد بيت الله الحرام لأداء الحج الذي هو أحد أركان الإسلام، زيادة على أنه أفضل الجهاد للنساء[2]، كما أن زوجها اكتتب في غزوة كذا وكذا، ليخرج يجاهد في سبيل الله.

وهذه المرأة ستزداد عن طريق الحج المبرور تزكيةً وصفاءً وخشوعاً وخضوعاً وإقبالاً على الطاعات، كما أن زوجها سيزيده الجهاد ثباتاً ورسوخاً وقوة إيمانية تجعله يبذل الغالي والنفيس من أجل دين الله إن ظل حياً، أما إن استشهد فسيكون في الدرجات العليا من الجنة مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقاً.

والمقصود مما سبق أن المسلمين رجالاً ونساءً، هم أولى الناس بشغل أوقاتهم بالعمل

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

(٢) أخرج البخاري ١٥٢٠، عن عائشة رضي الله عنها قالت: "يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور"، وفي رواية عند البخاري، ١٨٦١ فقالت عائشة: "فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ".

النافع لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهم أبعد الناس عن تضييع أوقاتهم الثمينة فيما لا يفيد ولا ينفع، ودعك فيما يضر ويصيب بالخسران الأليم.

وعلى ذلك فإن الناشئة يجب أن يربوا على الاستغلال الأمثل لأوقاتهم حتى يكون يومهم خيراً من أمسهم، وغدهم خيراً من يومهم، إنهم يجب أن يربوا على أن الحياة فرصة ثمينة جداً لا يجوز أن يُضيَّع جزء منها بدون فائدة دينية أو دنيوية.

وإن إهمال تربية الناشئة على ما سبق: ينتج عنه ضياع الأعمار والأزمان وأفضل الأوقات هدرا وسدىً. وإن نظرة عابرة على ما يشغل قطاعًا عريضًا من النساء المسلمات ليؤكد هوان قيمة الوقت في حياتهن، فتجدهن مولعات بتتبع صيحات الموضة وما يستجد فيها، وما يتعلق بذلك من أدوات الزينة والتجميل، فضلاً عن إنفاق الساعات الطوال في متابعة القنوات الفضائية أو في الحديث مع القرينات والصاحبات والزميلات. وما حال الرجال بأفضل من حال النساء[1].

رابعاً- تربية الناشئة على فعل الأهم والأولى:

إن قول النبي ﷺ للرجل بعد ما أخبره أنه قد اكتتب في غزوة كذا وكذا: "انطلق فحج مع امرأتك"، دليل على أنه يجب تربية الناشئة على فعل الأهم والأولى وترك العمل بالأقل أهمية والأقل في الرتبة والدرجة، فإذا كان الجهاد له من الفضل العظيم، إلا أن غير هذا الرجل قد يقوم به، أما مرافقة الزوجة في حجها فلا يقوم بذلك إلا هو، لذا أمره النبي ﷺ بذلك.

وعلى ذلك يجب أن يتربى الناشئة، فيقدمون عند تزاحم الواجبات والفضائل أو تعارضها أهمها وأعلاها وأفضلها، فلا يضيعون واجباً بسبب انشغالهم بما ليس بواجب، أو يفرطون في واجب أهم، لأنهم قد انهمكوا في واجب مهم.

كما يجب أن يتربى الناشئة على فعل واجب الوقت الذي يكون في وقته هو الأهم

---

(١) انظر: الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، ط/١، مؤسسة الرسالة: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، و قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ط/٤، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، وإدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة.

والأولى، بحيث لو أنه فعل قبل وقته أو بعده تخلفت عنه نتائجه المرجوة وثماره المتوقعة، فكما أن هناك عملاً بالنهار لا يحسن تأخيره إلى الليل، فهناك عمل بالليل لا يليق أن يؤخر إلى النهار، وهكذا الإنسان في مراحل حياته المختلفة وأيامه المتتابعة، فهناك أعمال تؤدى في أوقات الشباب والحيوية، يقبح أن تؤخر إلى ما بعد ذلك، وهناك أعمال لا يجوز تأخيرها عن أوقاتها الملحة والضرورية كالإنفاق وقت الشدة والعسر.

ومن الجدير بالذكر أن ترتيب الأولويات يدخل في جميع نواحي حياة الإنسان، وليس أدلّ على ذلك من الشراء، فإن أصحاب الدخل المحدود لو حددوا أولويات مشترياتهم لخف عنهم كثيرٌ مما يعانون من القلق والهم والكدر بسبب التوسع في الشراء والاستهلاك[1].

خامسًا- من الأساليب التربوية:

ورد في حديث الباب أسلوبان تربويان هما:

أ- الإلقاء: كما في قوله ﷺ: "لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي مَحْرم عليها".

وأسلوب الإلقاء من الأساليب التدريسية التي يمكن للمعلم استخدامها مع المتعلمين الكبار من خلال عرض بعض المعلومات الشفوية عليهم.

ب- المناقشة والحوار: كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأسلوب المناقشة والحوار يتيح للمتعلم بأن يعبر عما بداخله وعن أفكاره وآرائه في جوّ مشجع محفز، فيتحقق الاقتناع العقلي ويزداد المتعلم واقعية نحو التعلم، وذلك لأنه ينقله إلى المشاركة الفعالة والإيجابية في العملية التعليمية.



(١) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة ص ٣٦٩-٣٧٩.

٨- كتَاب الفَضَائِل

١٨٠- باب فضل قراءة القرآن

الحديث رقم (٩٩٢)

٩٩٢- عن أَبي أُمَامَةَ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقول: ((**اقْرَؤُوا القُرآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو أُمامة الباهليُّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٣).

غريب الألفاظ:

شفيعاً: من الشفاعة وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، وتكون الشفاعة فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة[2].

الشرح الأدبي

الحديث ترغيب في قراءة القرآن تصدره أمر الرسول ﷺ (اقْرَؤُوا القُرآنَ) وبين الكلمتين جناس مؤكد للمعنى، وأمر الرسول ﷺ أمر إرشاد، وتوجيه تبعته جملة تعليلية بغرض الترغيب (فَإِنَّهُ يَأتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ) وتوكيد الخبر بإن واسمية الجملة، وقوله (يأتي) يصور الحدث في الموقف الرهيب، وذكر الظرف يوم، وإضافته للقيامة يصعِّد الرغبة فيه لعظم الحاجة إلى الشفيع ذلك اليوم، وليس الإنسان في حاجة إلى شفيع كل يوم، وإنما عند الحاجة، وهو ما تثيره كلمة شفيع من الحاجة إلى الإعانة، وما توحي به من الشدة التي تدعوا إليه، وتنكير كلمة شفيع للتعظيم؛ لأنه يوم لا يتصدى للشفاعة للناس فيه إلا قلة من العظماء مما يؤكد أهمية قراءة

---

(١) برقم ٢٥٢/٨٠٤. أورده المنذري في ترغيبه ٢١٠٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ف ع).

القرآن، وضرورة أن يكون لكل مسلم منه ورداً كل يوم، وإنَّ يوماً يمر على مسلم لم يقرأ فيه القرآن هو يوم ضاع من عمره، وهو يوم ليس له ثقل في ميزان حسنات العبد يوم القيامة.

فقه الحديث

استحباب الإكثار من تلاوة القرآن خارج الصلاة:

يستحب الإكثار من تلاوة القرآن خارج الصلاة، لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً ﴾[1] ولأحاديث الباب[2].

وقال النووي في الأذكار: (اعلم أن تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار، والمطلوب القراءة بالتدبر ... وينبغي أن يحافظ على تلاوته ليلاً ونهارًا سفرًا وحضرًا)[3].

وقال كذلك: (اعلم أن قراءة القرآن آكد الأذكار كما قدمنا، فينبغي المداومة عليها، فلا يخلى عنها يومًا وليلة، ويحصل أصْل القراءة بقراءة الآيات القليلة)[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل قراءة القرآن.

ثالثاً: من مصادر الدعوة: القرآن الكريم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ "اقرؤوا القرآن" وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية النافعة، لما فيه من دلالة المدعوين على أوجه الخير، وحملهم على

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٩.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٣/١-١٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥١/١٣، ٣٤/٣٣.

(٣) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٢٧ .

(٤) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٣٦.

الإتيان بها، وقد استخدم القرآن أسلوب الأمر في كثير من الآيات مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1]. وأمر النبيَّ ﷺ وأتباعه باستخدامه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل قراءة القرآن:

ذكر الحديث جانباً من جوانب فضل القرآن، وهو شفاعته لأصحابه، فقال ﷺ "اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" وقوله فإنه يأتي يوم القيامة، قال العلقمي، قال شيخنا: قيل يُصوَّر القرآن بصورة شيء قائم بنفسه يجيء يوم القيامة بحيث تراه الناس كما يجعل الله لأعمال العبادة خيرها وشرها صورة ووزناً يوضع في الميزان" يشفع لأصحابه القارئين له، المشتغلين به، المتمسكين بهديه، الممتثلين لأوامره، المجتنبين لنواهيه[3] وهذا ما يوجب علينا أن نحرص غاية الحرص على تلاوة كتاب الله ليلاً ونهاراً[4] وقد أمر الله بتلاوته فقال: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[5] وترتيله فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[6].

وقد جاء في الحديث الأمر بالمداومة على قراءة القرآن، والانشغال به، والتمسك بأوامره ونواهيه، وبيان أن القرآن يصوَّر يوم القيامة بحيث يراه الناس ويأتنس به المداومون على تلاوته، والعمل بما فيه وينتفعون بشفاعته[7].

لذا كانت نعمة القرآن من أشرف النعم التي ينعم الله بها على المسلم، شرف بها

---

(١) سور النساء، آية: ٥٨.

(٢) سورة طه، آية: ١٣٢.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١١٩٥.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٢٣٥/٢.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٦) سورة المزمل، آية: ٤.

(٧) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٤٣٨.

مَنْ أوتيها وتميز بها على غيره، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لاحسدَ إلاّ في اثنتينِ: رجلٌ علَّمهُ الله القرآنَ فهوَ يَتلوهُ آناءَ الليل وآناءَ النهار، فسمعَهُ جارٌ له فقال: ليتَني أُوتيتَ مثلما أُوتيَ فلان، فعملتُ مثلَ مَا يَعمل. ورجلٌ آتاهُ الله مالاً فهوَ يُهلِكه في الحقّ، فقال رجلٌ: ليتني أوتيتُ مثلَ ما أُوتيَ فلان، فعملتُ مثلَ مايَعمل))[1].

فالجد الجد في تلاوة القرآن وحفظه والقيام به، فطوبى لرجل منَّ الله عليه بالقرآن فوهبه حفظه، وعلم ما تضمنه من حلال وحرام، وحِكم وأحكام، وقصص وأخبار وآداب وأخلاق، فذاق حلاوته، وعرف مكانته، فحرص عليه الحرص كله، وعض عليه بالنواجذ واتخذه سميره وجليسه، وخليله وأنيسه، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فلسانه به رطب وقلبه به حي، وعقله في نمو وعلو، ونفسه مهتدية بهديه ومقتفية لأثره[2].

ثالثاً- من مصادر الدعوة: القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع، وهو معجزة الرسول ﷺ وقد نزل بلسان عربي مبين، أنزله الله على رسوله ﷺ ليكون للناس رحمة وهداية وليبينه للناس[3] ولما كان القرآن هو المصدر الأول للإسلام، وبالتالي للدعوة الإسلامية جاءت النصوص الجمة التي تأمرنا بقراءته وتعاهده، ومنها ما جاء في الحديث "اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" فالقرآن هو المصدر الأول للإسلام وبالتالي للدعوة الإسلامية، لذا يجب أن ترجع كل تعاليم الإسلام في أصولها إلى القرآن، العقائد والمفاهيم والقيم والموازين والعبادات والشعائر والأخلاق والآداب والقوانين والشرائع، كل هذه قد وضع القرآن أسسها وأرسى دعائمها[4].

فالقرآن العظيم هو مصدر الشريعة الإسلامية السمحة المنظمة لحياة المسلمين، وهو دستورها القائم أبد الدهر، وقد استغنى به المسلمون في الصدر الأول فأغناهم عن كل

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٢٦.
(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ١٩٧.
(٣) الموافقات، الشاطبي، ٢/٢٤٣.
(٤) ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ١٠.

شيء، فلم يمدوا أبصارهم إلى غيره، ولم يأخذوا لدينهم ودنياهم إلا بما توحي به إليهم كلماته، وتوحي به إليهم آياته[1].

فإنه لا شيء في حياة المسلم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الفكرية أو الروحية يُرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب، ولا شيء في حياته يجوز أن يخرج عن تعاليم هذا الكتاب، وما جاء في شرحه وتفصيله في سنة الرسول ﷺ، مهما استجدَّ في حياته من أمور.

لقد أنزل الله هذه الشريعة لتحكم حياة الناس إلى قيام الساعة، فقولُ مَرْضى القلوب: إنَّ هذه الشريعة قد نزلت قبل أربعة عشر قرناً، فهي لا تصلح للتطبيق اليوم، معناه - تعالى الله عن ذلك: أن الله لم يعلم وقت تنزيل هذا القرآن أنه ستجدُّ في حياة الناس أمور غير التي كانت قبل انقطاع الوحي، ولا يوجد لها في الشريعة حكم يشملها!

وقد عرف المسلمون خلال التاريخ، أن نظام حياتهم كلّه قد شملته أحكام الشريعة، وأن عليهم - حين يجدُّ في حياتهم أمر- أن يستنبطوا له حكماً من الشريعة الثابتة الأركان.

وعرفوا - فوق ذلك- أنه توجد أمور تركها رب العزة بغير نص، لا نسياناً منه جلت قدرته، ولكن رحمة منه بعباده، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فهذه أمور يجتهدون فيها بما يحقق مصالح الناس، دون أن يخالفوا مقاصد الشرع[2].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن الترغيب في الدعوة إلى الله له أثره في حفز المدعوين على الإقبال على فعل الخيرات واجتناب المنكرات، لذا ينبغي على الدعاة إلى الله استعمال هذا الأسلوب في حث المدعوين على الإقبال على فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وقد ورد أسلوب الترغيب في الحديث في قراءة القرآن بكونه يأتي شفيعاً لأصحابه، فقال ﷺ "اقرؤوا

---

(١) عظمة القرآن الكريم، محمود أحمد بن صالح الدوسري، ٥٣٠.

(٢) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي ص ٢١٠.

القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" وأسلوب الترغيب من أشد الأساليب الدعوية تأثيراً في سلوك المدعوين، إذ أن الترغيب يثير عند الإنسان عامل الرجاء والأمل، وأسلوب الترغيب في الواقع يوجه اتجاه الإنسان، ويعمل على تحديد أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره، وعلى قدر ما يرجو، ونوع ما يرجو يكون التأثير في السلوك والاتجاه[1].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي ص ٣٩٥.

الحديث رقم (٩٩٣)

٩٩٣- وعن النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، يقولُ: ((**يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِالقُرْآنِ**[١] **وَأهْلِهِ الذينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ (فِي الدُّنْيَا)** [٢] **تَقْدُمُه سورَةُ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ**[٣]**... تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**)) رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

النواس بن سمعان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٩٠).

غريب الألفاظ:

تُحاجان: تجادلان[٥].

الشرح الأدبي

البداية بالفعل المبني لما لم يسم فاعله (يُؤتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِالقُرْآنِ) تذهب بالنفس في تصور الفاعل كل مذهب، وذكر الظرف، وإضافته إلى يوم القيامة يصعِّد الرهبة، ويعطي الفعل أبعاداً إيحائية لأن حدث الآخرة لا يشبه حدث الدنيا إلا في اللفظ، وبينهما فوارق لا يقدر قدرها إلا الله، وقوله (بِالقُرْآنِ، وَأهْلِهِ) المعية التي تدل عليها الواو توحي بشرف، وتكريم أهل القرآن، وقوله (الذينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا) تكميل بلاغي يشير إلى أن هذا الفضل مختص بالعاملين بالقرآن، وليس لعموم القارئين، وقوله (تقدمه سورَةُ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ) كناية عن عظم فضلهما، وكثرة ثوابهما، وقوله (تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا) كناية عن دفع العذاب عنه، وتحقيق الدرجات له، والفعل المضارع يصور حركة الأخذ، والرد في الدفاع، ورد العذاب، وتحقيق الثواب.

---

(١) لفظ مسلم: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة).

(٢) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند الترمذي ٢٨٨٣.

(٣) عند مسلم زيادة: (وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال، ما نسيتهنَّ بعدُ، قال: كأنهما عمامتان أو ظلتان سوداوان، بينها شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف).

(٤) برقم ٨٠٥/٢٥٣ بدون قوله: (في الدنيا)، وهو عند الترمذي.

(٥) القاموس، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ج ج).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل قراءة القرآن والعمل به وفضل سورتي البقرة وآل عمران.

ثانياً: من آداب الداعية: البيان والتوضيح لفضل العمل بالقرآن الكريم وفضل سورتي البقرة وآل عمران.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أحوال الناس يوم القيامة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل قراءة القرآن والعمل به وفضل سورتي البقرة وآل عمران:

جاء في الحديث فضل القرآن والعمل به، وفضل سورتي البقرة وآل عمران ومحاجاتهما عن صاحبهما، فقال ﷺ "يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما" فمن صحب القرآن في الدنيا تلاوة وتدبراً وتأثراً وعملاً، فقام به الليالي، وأنفق فيه زهرة عمره، وجعله شغله الشاغل وهمه الدائب، واتخذ منه الصاحب والمأنس والملجأ، فلن يتخلى عنه القرآن[1] بل ينهض له شفيعاً، وخص من بين سور القرآن سورتي البقرة وآل عمران وبيَّن أنهما تُحَاجَّان عن صاحبهما يوم القيامة.

فالقرآن العظيم يشفع لصاحبه الذي كان يعمل به في الدنيا، وفي مقدمة ذلك سورة البقرة وآل عمران، تتقدمان في الشفاعة والذود عن حافظهما والعامل بهما خصوصاً، لكثرة ما تحويان من أحكام وأمور عظام، وهذا من أعظم فوائدالعمل بالقرآن[2].

لذا فإن أولى الناس بالعمل بالقرآن هم أهل القرآن، عملاً بما فيه وامتثالاً لأمره واجتناباً لنهيه وتحاكماً إليه والتزاماً بمنهجه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري، ص ٣٨٤.

(٢) انظر: هذا القرآن في مائة حديث نبوي، د. محمد زكي محمد خضر، ط/٢: ١٤٠٨هـ ص ٤٢.

يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾[١] أي يتبعونه حق اتباعه ويعملون به حق عمله، وقيل يقرؤنه كما يجب من التدبر له والعمل به[٢] وحذر القرآن من عدم العمل بمقتضى القرآن فإن من كان هذا حاله كان شأنه شأن اليهودالذين ذمهم الله تعالى في عدم العمل بالتوراة وشبههم بما يتناسب مع جريمتهم في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] قال ابن القيم: فقاس سبحانه من حمّله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم، ولا اتباع ولا تحكيم له، وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري مافيها وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله عز وجل كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته[٤].

ثانياً- من آداب الداعية: البيان والتوضيح لفضل العمل بالقرآن الكريم وفضل سورتي البقرة وآل عمران:

لقد أمر الله تعالى الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم بالتبيين والتوضيح للناس قال تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[٥] ومما يندرج تحت هذا البيان الواجب، بيان فضل العمل بالقرآن وفضل سورتي البقرة وآل عمران، كما ورد في الحديث "يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما" ففي أول الحديث نصَّ ﷺ على فضل القرآن كله والعمل به وأنه

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢١.

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل، مصطفى بن العدوي ٥٩/١.

(٣) سورة الجمعة، آية: ٥.

(٤) الأمثال في القرآن الكريم ٢٦، ٢٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

يشفع لصاحبه يوم القيامة، ثم خص من بين سور القرآن كله سورتي البقرة وآل عمران فإنهما تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة[1] وضرب لهما النبي ﷺ مثلاً لمحاجاتهما وما يترتب على العمل بهما، وما يترتب على تركهما، خاصة سورة البقرة، فجاء عند مسلم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزَهْراوين، البقرة وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غَمَامَتَان أو كأنهما غَيَايَتَان، أو كأنهما فِرْقَانِ من طيرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة[2] [3].

قال الإمام المازري: (قوله في البقرة وآل عمران: "فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طيرٍ صواف..." قال بعض أهل العلم: يكون هذا الذي يؤتى به يوم القيامة جزاء عن قراءتهما فأجري اسمهما على ما كان من سببهما كعادة العرب في الاستعارة، قال أبو عبيد: الغياية: كل شيء يظل الإنسان فوق رأسه من السحابة والغبرة، ويقال: تفايا القوم فوق رأس فلان بالسيف كأنهم أظلوه به، قال غيره: والفرقان القطيعان[4] ومن فضائل سورة البقرة "فإن أخذها بركة" أي في المواظبة على تلاوتها والتدبر في معانيها والعمل بما فيها منفعة عظيمة "وتركها حسرة" أي ندامة يوم القيامة، وقوله "ولا يستطيعها البطلة.." أي لا يقدر على تحصيلها أصحاب البطالة والكسالة لطولها، وفسرها معاوية الراوي بالسحرة، لأن ما يأتون به باطل، سماه باسم فعلهم الباطل، أي لا يؤهلون بذلك ولا يوفقون له، ويمكن أن يقال: معناه: لا تقدر على إبطالها أي على صاحبها السحرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦.

(٢) العناية بالقرآن الكريم في العهد النبوي، يوسف بن عبدالله الحاطي ص ٢٥.

(٣) مسلم ٨٠٤.

(٤) المعلم بفوائد مسلم ١/٢٥١.

إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾[(١)](٢).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أحوال الناس يوم القيامة:

إن أحوال الناس يوم القيامة مع القرآن تختلف باختلاف قيامهم بحقه في الدنيا، وقد جاء في صريح الحديث شفاعة القرآن لأهله العاملين به "يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا" كما يحمل الحديث في مضمونه عدم استحقاق هذه الشفاعة لمن ترك العمل بالقرآن، واتخذه وراءه ظهرياً كما جاء في صريح أحاديث أخر، روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ((الْقُرآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ))(٣) ومعنى الحديث أن من اتبع القرآن وعمل بما فيه، فإنه شافع له مقبول الشفاعة في العفو عن زلاته وسقطاته، فمن جعله أمامه بالعمل به قاده إلى الجنة، ومن ترك العمل به وجعله خلف ظهره، أثم على إساءته، ومصدَّق عليه فيما يرفع عن مساويه، وعند ذلك يسوقه إلى النار(٤).

وقد ذكر القرآن كثيراً من الفوارق بين أهل القرآن العاملين به وبين غير العاملين به -بخلاف الشفاعة المذكورة في الحديث- منها:

أ- الرحمة في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾(٥) وذلك وعد على اتباعه، وتعريض بالوعيد بعذاب الدنيا والآخرة إن لم يتبعوه.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

(٢) انظر: موسوعة فتح الملهم، شبير أحمد العثماني، ١٨٤/٥، ١٨٥.

(٣) رواه الطبراني في الكبير ١٠٤٥٠/١٠، والبيهقي في الشعب ٢٠١٠/٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٨١٨/٢ حديث رقم ٤٤٤٣، والصحيحة حديث رقم ٢٠١٩.

(٤) انظر فيض القدير، الشوكاني، ٤٢٩٩/٨، وعظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٥٠٦، ٥٠٧.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٥٥.

ب- الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١].

فقد شبه الله تعالى القرآن بالنور الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق ويتميز عن الباطل، ويُميَّز به بين الهدى والضلال والحسن والقبيح، وشبه حال المقتدى بهدي القرآن بحال الساري في الليل، إذا رأى نوراً يلوح له اتبعه، لعلمه اليقيني أنه يجد عنده منجاة من المخاوف وأضرار السير[٢] فمن استجاب لهذا النور واتبعه وعمل بما فيه، فهو المفلح الفائز بالمطلوب في الدنيا والآخرة، الظافر بخيرهما والناجي من شرهما.

ج- تكفير السيئات وإصلاح البال:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾[٣] أي كفر عنهم سيئاتهم صغارها وكبارها، وإذا كفِّرت عنهم سيئاتهم نجو من عذاب الدنيا والآخرة[٤] وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة أن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جناته[٥].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغب الإسلام وحض في آيات القرآن وأحاديث السنة النبوية على تعاهد القرآن قراءة وفهماً، وتدبراً وعملاً، ببيان فضائل العمل بالقرآن الكريم، وحسن الجزاء في

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي ٨٠/٧.

(٣) سورة محمد، آية: ٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٩٢.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٩/٢٦/٩.

الدنيا والآخرة ومن ذلك ما جاء في الحديث من ترغيب النبي ﷺ في قراءة القرآن والعمل بما فيه ببيان شفاعة القرآن لأهله العاملين به يوم القيامة فقال ﷺ "يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما" وأسلوب الترغيب من أعظم الأساليب الدعوية أثراً لما فيه من التشويق إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والملاحظ أن القرآن والسنة مملوآن بما يرغب الناس في قبول الدعوة والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية أسلوب الترغيب في الدعوة إلى الله[1].

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٩٩٤)

٩٩٤- وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عثمان بن عفان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤٨١).

الشرح الأدبي

يشرف العمل بشرف غايته، وتعلق عمل الإنسان بكتاب الله يجعله أفضل الأعمال ولذلك بدأ الرسول حديثه بهذا اللفظ الذي يداعب النفس بما تهوى، وتحب (خيركم)، لأنه علم على كل محبوب، وإضافته إلى كاف الخطاب، وميم الجمع، يجعل لخيرية مطلقة التفضيل، ولا ننسى أنه كان يخاطب خير الناس، ومن اسم موصول يشعر بالمدح، وبين تعلم، وعلم جناس يؤكد المعنى، ويقرره، والحديث يندب كل مسلم إلى أن يحقق هذه الخيرية بتعلم القرآن، وتعليمه بالقدر المستطاع حتى، ولو بتعليم بعض سوره، أو آياته خدمة لكتاب الله، ونشراً له، وخدمة لنفسه بالمشاركة في الثواب، والأجر.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل تعلم القرآن الكريم وتعليمه.

ثانياً: من مصادر الدعوة: القرآن.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على تعلم القرآن وتعليمه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل تعلم القرآن الكريم وتعليمه:

إن في تعلم القرآن الكريم وتعليمه خيراً كثيراً وفضلاً جزيلاً، وذلك لما يعود على العالم والمتعلم من الأجر والمثوبة[2] ومن الدلائل على ذلك ما جاء في الحديث "خيركم

---

(١) برقم ٥٠٢٧. أورده المنذري في ترغيبه ٢٠٩٦.

(٢) التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين، د. عبدالرحيم محمد المغذوي ص ٤.

من تعلم القرآن وعلمه" قال ابن حجر: (يحتمل أن يكون المراد بالخيرية من جهة حصول التعليم بعد العلم، والذي يعلم غيره يحصل له النفع المتعدي بخلاف من يعمل فقط، بل من أشرف العمل تعليم الغير، فمعلم غيره يستلزم أن يكون تعلمه، وتعليمه لغيره عمل وتحصيل نفع متعد، ولاشك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عني سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] والدعوة إلى الله تقع بأمور شتى، من جملتها تعليم القرآن، وهو أشرف الجميع)[2].

إن في تصريح النبي ﷺ في الحديث بخيرية متعلم القرآن ومعلمه "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" شهادة حق لأهل القرآن بأنهم خير الناس وأفضلهم، فخير الناس وأفضلهم من تعلم القرآن حق تعلمه، وعلمه حق تعليمه، قال العلماء: تعليم القرآن أفضل الأعمال، لأن فيه إعانةً على الدين، فهو كتلقين الكافر الشهادة ليسلم[3].

وقد أدرك السلف الصالح هذه الخيرية والأفضلية، التي يتميز بها معلم القرآن ومتعلمه، فحرصوا على بلوغها، ومن دلائل ذلك ما روى عن سعد بن عبيدة قال: وأقرأ أبو عبدالرحمن السلمي في إمرة عثمان حتى كان الحجاج، قال أبو عبدالرحمن السلمي: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا. قال ابن حجر: ومعنى قول أبي عبدالرحمن السلمي "وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا"[4] أي أن الحديث الذي حدث به عثمان في أفضلية تعلم القرآن وتعليمه "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" حمل أبا عبدالرحمن أن قعد يعلم الناس القرآن لتحصيل تلك الفضيلة[5] وذلك من صفات المؤمنين الصادقين

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٦٩٤/٨.

(٣) التذكار في أفضل الأذكار، محمد بن أبي بكر القرطبي، دراسة وتحقيق: فؤاد أحمد زمرلي ص ١٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ٥٠٢٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٩٧/٩.

المتبعين للرسول ﷺ فهم يحرصون على تعليم الآخرين وإرشادهم لهدي القرآن، كما منَّ الله بذلك عليهم، وطلباً لرضا الله ومثوبته.

ثانياً- من مصادر الدعوة: القرآن:

إن القرآن الكريم هو أساس الدين ومصدر التشريع، وحجة الله البالغة في كل عصر ومصر، ومن ثم فهو المصدر الرئيس للدعوة، لذا كانت رعاية القرآن خير الأعمال والقائمين عليها هم خير المؤمنين، كما صرح بذلك رسول الله ﷺ في الحديث فقال "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" فالقرآن كتاب هداية يهتدي به من قرأه أو حفظه وتدبر معانيه واتعظ بما فيه، به تفتح مغاليق القلوب وتستنار به الأفئدة، ويقاد به الناس إلى الوقوف عند حدوده والعمل بما فيه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1] وله من روعه التنزيل وجلال الأحكام والمواعظ، ما تتصدع منه الجبال الرواسي، قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2][3].

فالقرآن هو مصدر الهدى، ومشع العلم، وأحسن الحديث، أنزله الله على رسوله ﷺ مثاني تقشعر منه جلود المؤمنين وتلين به قلوبهم، متشابهاً يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإحكام وصحة المعاني وقوة المباني وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة[4]، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[5].

---

(١) سورة ص، آية: ٢٩.

(٢) سورة الحشر، آية: ٢١.

(٣) تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان، ط/٤، مكتبة وهبة، القاهرة: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٤٢-٤٤.

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ٤٥٨/٤.

(٥) سورة الزمر، آية: ٢٣.

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على تعلم القرآن وتعليمه:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة الدعوة إلى تعلم القرآن وتعليمه، وبيان فضل ذلك، كما جاء في الحديث "خيركم من تعلم القرآن، وعلمه" إذ أن القرآن خير الكلام فمتعلمه خير من متعلم غيره بالنسبة إلى خيرية القرآن وفي ذلك حث على تعليم القرآن[١].

قال ابن كثير: (والغرض أنه عليه الصلاة والسلام قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه، وهذه صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكمل في أنفسهم المكملين لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولايتركون أحداً ممن أمكنهم أن ينتفع[٢] كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[٣] فينبغي أن يحرص المسلمون على طلب الثواب الأخروي، والترقي إلى منزلة الخيرية في تعلمهم وتعليمهم لكتاب الله تعالى، وأن يجتهدوا في ذلك[٤].

ولا ريب أن تعليم الناس القرآن العظيم من النفع المتعدي، وهو مما يلحق المعلم من عمله الصالح وحسناته بعد موته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْماً عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَداً صَالِحاً تَرَكَهُ. وَمُصْحَفاً وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِداً بَنَاهُ أَوْ بَيْتاً لابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْراً أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ. يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))[٥] وتعليم الناس القرآن الكريم داخل في عموم الدلالة على الخير لقوله ﷺ ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[٦].

قال النووي: (فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات، لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٦٩٤/٨، ٦٩٥.

(٢) فضائل القرآن، ابن كثير ص ١٢٦.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٢٦.

(٤) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٥٩٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٤٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨).

(٦) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

والمراد بـ "مثل أجر فاعله" أن له ثواباً بذلك الفعل، كما أن لفاعله ثواباً، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء[1] وذلك لأن أعمال الخير والتعليم عامة فكيف بتعليم آيات القرآن، وذلك من الآثار الحسنة التي تكتب في ميزان مُعلِّم القرآن، لأنه كان السبب المباشر في تعليمها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[2] أي نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، والتي تسببوا فيها بإتيان غيرهم لها، ويشهد لهذا، قوله ﷺ ((مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))[3] (فكل خير عمل به أحدٌ من الناس بسبب علم العبد وتعليمه، أو نصحه، أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له وكذلك عمل الشر)[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٦٠.

(٢) سورة يس، آية: ١٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٠١٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤١٦.

الحديث رقم (٩٩٥)

٩٩٥- وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: ((الَّذِي[١] يَقْرَأُ القُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ اجْرَانِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت ابي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

ماهر به: حاذق كامل الحفظ لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه[٣].

السفرة: هم الملائكة جمع سافر، والسافر في الأصل: الكاتب، سمي به لأنه يبين الشيء ويوضحه[٤].

البررة: جمع بارٍّ: المطيعون من البر وهو الطاعة[٥].

يَتَتَعْتَعُ فيه: يتردد في تلاوته لضعف حفظه، ويتبلد فيها لسانه[٦].

الشرح الأدبي

الحديث في فضل قراءة القرآن يبين فضل قارىء القرآن في الآخرة، والحديث أسلوبه خبري يجري مجرى الخبر المعلوم الذي لا يجهل فلم يؤكد؛ لأنه قابل به خالى

---

(١) لفظ البخاري: (مثل الذي) بزيادة: (مثل).

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٣٧، ومسلم ٧٩٨/٢٤٤.

تنبيه: الشطر الأول من الحديث لفظ البخاري، والشطر الأخير، هو لفظ مسلم. أورده المنذري في ترغيبه ٢١٠٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ف ر)، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٦.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٦، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ت ع ت ع).

الذهن من الخبر، وقوله (يقرأ القرآن) جناس يوضح المعنى، ويلقي الضوء على لب الحديث، وهو قراءة القرآن، وقوله: (وهو ماهر به) الضمير يفيد الاختصاص، والعناية، والتعبير بكلمة (ماهر) يوحي بالإتقان، والإجادة، كما يشير من طرف خفي إلى كثرة قراءة القرآن، وطول ملازمته التي أوصلته إلى هذه المنزلة، لأن الإنسان لا يصل إلى درجة المهارة في شيء حتي يستنفد فيه جهده، ويبذل فيه وقته، كما أن المهارة تعني الإحاطة بكل جوانب الصنعة حتى يتسنى إتقانها فيعلم أحكام تلاوته، ومخارج حروفه، والوقف والابتداء، وغيرها مما يتعلق بقراءة القرآن، ، ولفظ السفرة يوحي بالكشف، والسافر الرسول لأنه يسفر للناس أي يظهر، ولأن الماهر صار كاشفاً لجانب من جمال القرآن في التلاوة، وناقلا لما جاء به الرسول من وحي الله بمهارته فيه، والكرام أي المكرمين عند الله لأن الله يكرم حامل القرآن لأنه بحفظه في صدره صار هذا الحافظ وعاءً لكتابه، وكتابه مكرم فكرم حامله، والتعبير بالبر يدل على جماع الخير، وكثرة قراءة القرآن التي وصلت به إلى مرحلة المهارة أثمرت حسنات لا تحصى كثرة ارتقت به إلى مثل عملهم الذي هو خير صرف وهو البر، والتعبير بلفظ (يتتعتع) يصور جزءاً من المعنى الذي يوحي به اللفظ بجرسه ووزنه، وهو المشقة، وصعوبة النطق، والمعاناة في القراءة، ولذلك كان له أجران للقراءة، والتعتعة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ لفضل وثواب الماهر بالقرآن.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى ملازمة القرآن.

ثالثاً: من آداب الداعية: الحث على تعلم القرآن وإجادته.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ لفضل وثواب الماهر بالقرآن:

جاء في الحديث تصريح رسول الله ﷺ بعلو درجة الماهر بالقرآن وارتفاع منزلته، فقال ﷺ: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة)، أي: أن القارئ الماهر بالقرآن المجيد لحفظه على ما ينبغي، بحيث لا يتشابه ولا يقف في قراءته، مع السفرة الكرام البررة، قال ابن حجر: (قال ابن التين: معناه كأنه مع السفرة فيما

يستحق من الثواب)[1]، وقال النووي: (قال القاضي: يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة، أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السفرة، لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى، وقال: ويحتمل أن يراد أنه عاملٌ بعملهم وسالك مسلكهم)[2].

وتلك بشارة عظيمة لمن تعلم القرآن وأتقن تلاوته وأكثر منها، حتى أصبح ماهراً، فهو مع السفرة لاتصافه بصفتهم التي تشرفوا بها واضطلعوا بها وهي حمل كتاب الله وتبليغه[3].

كما أشار إلى ذلك الحديث، فقال ﷺ: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة)، قال القاضي: "يريد الملائكة، قال ابن الأنباري: سُمُّوا بذلك لأنهم ينزلون بوحي الله وما يقع به الصلاح بين الناس، فشبهوا بالسفير الذي يصلح بين الرجلين، وقال ابن عرفة: سموا بذلك لأنهم يسفرون بين الله وأنبيائه عليهم السلام، وقيل سفرة: كتبة، وسمي الكاتب سافراً لأنه يبين الشيء ويوضحه، والأسفار: الكتب، والماهر: الحاذق بالقراءة وأصله الحذق بالسباحة، وقال المهلب: المهارة جودة القراءة بجودة الحفظ، ولا يتردد فيه، يسره الله عليه كما يسره على الملائكة، فهو معها في مثل حالها من الحفظ وفي درجة واحدة إن شاء الله، ووصول المسلم إلى هذه الدرجة يحتاج إلى عمل وصبر متواصل حتى ينالها"[4]، وقال القرطبي: "ولا يكون ماهراً بالقرآن حتى يكون عالماً بالفرقان، وذلك بأن يتعلم أحكامه، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، ويعرف المكي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض في أول الإسلام وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، ويعرف الإعراب والغريب، فذلك الذي يسهل عليه معرفة ما يقرأ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥٦٢/٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٦.

(٣) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٤٦٦.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٦٦/٢.

ويزيل عنه الشك فيما يتلو، ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن النبي ﷺ، فبها يصل إلى مراد الله تعالى، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً"[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الدعوة إلى ملازمة القرآن:

من فضل الله وكرمه أن كل من أقبل على القرآن تلاوة وتدبراً، فلن يحرم من الأجر سواء أكان ماهراً بالقراءة أم متتعتعاً فيه شاقاً عليه"[٢]، فقال ﷺ: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)، وفي هذا الحديث إيحاء قوي بأن المسلم لا ينبغي له في أي حال من الأحوال أن ينصرف عن تلاوة القرآن، سواء كان من المهرة المتقنين المتمكنين من التلاوة أم كان ضعيف القدرة على تحصيل ذلك فيتخذ ضعفه حجة في الإعراض عن التلاوة، ولا ريب أن كثرة الممارسة والمحاولة الجادة، ستؤدي إلى حُسن التلاوة، وربما حسن الحفظ فيما بعد، وهو أمر مُجَرَّب يسير على من يسره الله عليه ووفقه لذلك"[٣].

فمن طلب حفظ القرآن وجدّ فيه يسره الله له وأعانه عليه، فإن من أعظم نعم الله على عباده أن يسر لهم حفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٤]، "أي سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه فيُعان عليه وهل من متعظ به حافظ له؟ والاستفهام هنا بمعنى الأمر أي احفظوه واتعظوا به"[٥]، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن الله تبارك وتعالى أكد تيسير حفظ القرآن بكثير من المؤكدات، والواقع المشاهد يصدق هذا التيسير، فقد حفظ القرآن حفاظ لا يحصون عدداً في كل جيل ومن كل قبيل، لا يخطئ أحدهم في كلمة ولا حرف، سواء كانوا عرباً أم عجماً، وأكثر الحفاظ العجم لا يعرفون من العربية شيئاً

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار، القرطبي ص ٨٣، نقلاً عن عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٢) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٤٦٧.

(٣) انظر: أنوار القرآن، مصطفى الحمصي، ط/١، مكتبة الغزالي، دمشق: ١٤٢٣هـ ص ٩٣ - ٩٨.

(٤) سورة القمر، آية: ١٧.

(٥) تفسير الجلالين لال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلى، ابن حزم ص ٧٠٦.

وربما قرأ الواحد منهم القراءات السبع والعشر عن ظهر قلب[١]، وقد عدّ أبو الحسن الماوردي هذا الأمر وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم وخصائصه التي تميز بها فقال: (من إعجازه تيسيره على جميع الألسنة، حتى حفظه الأعجمي الأبكم، ولا يُحفظ غيره من الكتب كحفظه)[٢].

ثالثاً- من آداب الداعية: الحث على تعلم القرآن وإجادته:

من الآداب الواجبة على الداعية حث المدعوين على تعلم القرآن والاهتمام به كتابة وقراءة، ضبطاً وحفظاً، طلباً للأجر ورفع المنزلة كما جاء في الحديث: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة)، ولقد اهتم الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن وضبطه، واشتهر عدد منهم بتميزهم وبضبطهم للقرآن،وقد أوصى الرسول ﷺ بأخذ القرآن عن بعض هؤلاء الضابطين[٣]، فقال ﷺ: ((خُذوا القرآنَ من أَربعة، من عبدِ الله بن مسعود وسَالِمٍ ومُعاذٍ وأبيّ بن كعبٍ))[٤]، ولقد جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ النصوص الكثيرة التي تحث على حفظ القرآن الكريم وتلاوته وإجادته فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٥]، وقوله ﷺ: ((مَنْ قَرأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ آلم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْف ولامٌ حَرْفٌ وَميمٌ حَرْفٌ))[٦]، وغير ذلك من النصوص التي تحث على العناية بحفظ القرآن والتسابق في قراءته واستظهاره وإجادة ضبطه"[٧].

---

(١) انظر: كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن مصدرها، د. نور الدين عتر ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) أعلام النبوة، على بن محمد الماوردي ص ٦٩

(٣) العناية بالقرآن الكريم في العهد النبوي الشريف، يوسف بن عبدالله الحاطي ص ٣٨ - ٣٩.

(٤) أخرجه البخاري ٤٩٩٩.

(٥) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩ - ٣٠.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٩١٠، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٣٢٧).

(٧) نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد النبي ﷺ، د. عبدالودود مقبول ضيف ص ٥٧.

إن تعلم القرآن وتعليمه خير من كنوز الدنيا، فعن عقبة بن عامر ﵁ قال: خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ. فَقَالَ: ((أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ، فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ؟)) فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ نُحِبُّ ذٰلِكَ. قَالَ: ((أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ. وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ. وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ. وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ؟))[1]، والحاصل من هذا الحديث أن الرسول ﷺ أراد ترغيبهم في الباقيات وتزهيدهم من الفانيات، فذكر هذا على سبيل التمثيل والتقريب إلى فهم العليل، وإلا فجميع الدنيا أحقر مِنْ أن يقابل بمعرفة آية من كتاب الله تعالى، أو بثوابها من الدرجات العلى[2]، وسبب التمثيل بالإبل أنها كانت أعز وأثمن أموال العرب في صدر الإسلام، لا يملكها إلا الأغنياء منهم، فرغب النبي ﷺ أصحابه ﷺ إلى ما هو أفضل من ذلك بأن يكون لهم رصيد من الحسنات عند الله عز وجل أعظم من الإبل عند أصحابها في الدنيا، وذلك بأن يتعلموا كلام الله تعالى، فكل آية يتعلمها المسلم هي في ميزان حسناته، أفضل من ناقة عظيمة السنام، سالمة من العيوب لو تصدق بها[3].

---

(١) أخرجه مسلم ٨٠٣.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٥٦٠.

(٣) انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضل سور القرآن، د. إبراهيم علي السيد علي عيسى ص ٣١ - ٣٢.

الحديث رقم (٩٩٦)

٩٩٦- وعن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يقرأ القرآنَ كَمَثَلِ الرَّيحانَةِ: ريحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الأُتْرُجَّة: قال الزبيدي: الأترج هو أحلى ثمر العرب[٢].

الريحانة: جنس من النبات طيب الرائحة مر الطعم[٣].

الحنظلة: نبت مفترش، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة[٤].

الشرح الأدبي

بدأ ﷺ بأسلوب خبري يتسم بالتشويق، والطرافة حيث بدأ بكلمة (مثل) وهي من المفردات الثرية فمادة الكلمة تعني، الشبه، والمساوي، والصورة والأفضل، والأشرف، والمثل: هو قول سائر شبَّه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه قال الإمام العيني: "أن المثل له مفهوم لغوي، وهو النظير ومفهوم عرفي، وهو القول السائر، ومعنى مجازي، وهو الحال الغريبة[٥].وهى حال نطقها تستدعي أكثر هذه المعاني، وتبشر

(١) أخرجه البخاري ٥٤٢٧، ومسلم ٧٩٧/٢٤٣ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٢١٠٢.

(٢) تاج العروس في (ت ر ج).

(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ي ح).

(٤) المرجع السابق في (ح ن ظ ل).

(٥) عمدة القارى شرح صحيح البخارى، للإمام بدر الدين العيني، مراجعة: صدقى جميل العطار٢/٢٠.

بالخبر الطريف الذي يجعل المخاطب متطلعاً مستشرفاً لمعرفته.وقد اشتمل الحديث على ثلاثة أمثال الأول: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ) وهوتشبيه للمؤمن بهذه الثمرة حلوة الرائحة، والطعم في إشارة إلى أنه طيب الظاهر، والباطن كما أن التشبيه بالرائحة يشير إلى سرعة الانتشار، ووصف الريح بالطيبة يشير إلى كثرة الخير من هذا المؤمن القارىء للقرآن له، ولمن حوله كما أن الرائحة تفيده، وتفيد غيره، المثل الثاني: في قوله تعالى (وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ) وهو تشبيه للمؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالتمرة، ووجه الشبه حلاوة الطعم، وتشير في جانب المؤمن إلى جانب الخير المنبعث في قلبه من إيمانه بالله مع جانب نقص عن مثال سابقه نتج عن عدم قراءة القرآن، وفي ذلك بيان لقيمة الإيمان الذي سكن قلبه، وبيان لقيمة القرآن الذي لم يحذ فضله وقوله (كمثل) الكاف أداة التشبيه، ولفظ مثل بمعنى الحال، والصفة، والجمع بينهما للدلالة على تشبيه الهيئات، والأحوال، إذ لو دخلت (الكاف) على كلمة (التمرة) لتُوهِّم بادئ الرأي مشبهاً به أفراداً، والمثال الثالث في قوله (وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ) وهو تشبيه للمنافق بالحنظلة في مرارة الطعم وانعدام الرائحة فباطنه فاسد، وظاهر لا خير فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل المؤمن القارئ للقرآن.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أحوال المنافقين مع القرآن الكريم.

رابعاً: من أهداف الدعوة: حث المؤمنين على قراءة القرآن وتدبر معانيه.

أولاً – من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

إن على الدعاة أن يقتفوا أثر النبي ﷺ في دعوته، فيختاروا الأسلوب المؤثر الذي يقرب المعنى إلى أذهان المدعوين من غير عناء ولا تكلف، ومن هذه الأساليب ضرب الأمثلة المؤثرة في توجيه المدعوين وتقريب المعنى إلى أذهانهم، وقد ورد ضرب المثل في

الحديث أربع مرات، في قوله ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة... ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن..)، قال الطيبي: (قال التوربشتي: ... ثم إنه ﷺ ضرب المثل عما ينبته الأرض، ويخرجه الشجر، للمشابهة التي بينها وبين الأعمال، فإنها من ثمرات النفوس، فخص ما يخرجه الشجر من الأترجة والتمر بالمؤمن، وما ينبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق، تنبيهًا على علو شأن المؤمن، وارتفاع عمله، ودوام ذلك، وتوقيفًا على ضعة شأن المنافق، وإحباط عمله، وقلة جدواه.

وأقول -أي الطيبي- إن هذا التشبيه والتمثيل في الحقيقة، وضع لموصوف اشتمل على معنى معقول صرف، لا يبرز عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد. ثم إن كلام الله المجيد له تأثير في باطن العبد وظاهره، وإن العباد متفاوتون في ذلك، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير، وهو المؤمن القارئ. ومنهم من لا نصيب له البتة، وهو المنافق الحقيقي، ومن تأثر ظاهره دون باطنه، وهو المرائي، أو بالعكس، وهو المؤمن الذي مذكور في الحديث. ولم يجد ما يوافقهما ويلائمهما، أقرب ولا أحسن، ولا أجمع من ذلك؛ لأن المشبهات والمشبه بها واردة على التقسيم الحاصر، لأن الناس إما مؤمن، أو غير مؤمن.

والثاني: إما منافق صرف، أو ملحق به، والأول: إما مواظب على القراءة، أو غير مواظب عليها. فعلى هذا قس الأثمار المشبه بها. ووجه التشبيه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين: طعم وريح[1].

فضرب المثل في هذا الحديث من عوامل جذب انتباه المدعوين؛ فالناس لما قسمهم الرسول ﷺ أربعة أنواع، والسامعون يرهفون السمع وحاسة التصوير يريدون أن يتعرفوا هذه الأقسام الأربعة ليوازنوا بينها، ويحددوا في أي صنف يكونون ... وهذه الموازنة تجعلهم يرغبون بالتعرف على سمات كل طائفة، ثم ينضمون إلى الطائفة الموجودة[2].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢١٩/٤.

(٢) التربية النبوية، عثمان قدري مكانسي ص ٣١، ٣٢.

وقد استخدم ضرب المثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد ورد في القرآن ثلاثة وأربعون مثلاً، ومنها قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾(١)، وضرب الأمثال ضرب سامٍ من فصيح الكلام، جرى عليه القرآن والسنة لتأكيد معنى أو بيان غاية، فالمثل تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر، وضرب المثل من أعلى درجات البلاغة، قال إبراهيم النظّام: يجتمع في المثل أربعة، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة المعنى، فهو نهاية البلاغة"(٢).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل المؤمن القارئ للقرآن:

ذكر النبي ﷺ في الحديث المؤمن الذي يقرأ القرآن، وضرب له المثل بأنه في أعلى الدرجات وأعلى المراتب، فقال ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب)، فضرب له المثل بالأترجة لطيب قلبه وثباته على الإيمان واستراحته بقراءة القرآن، واستراحة الناس بصوته، وثوابهم بالاستماع إليه والتعلم منه، قال ابن حجر: "قيل: خص صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح لأن الإيمان ألزم للجوهر من الريح، فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه، وقيل: الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة، لأنه يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية، ويستخرج من حبها دهن له منافع، وقيل: إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن، وفيها أيضاً من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها، وفي أكلها مع الالتذاذ طيب نكهة ودباغ معدة وجودة هضم ولها منافع كثيرة، فاشتركت الحواس الأربع في الاحتفاظ بها: الشم

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب ص ٢٨ - ٣٣، ١٧٣ - ١٧٤.

والبصر والذوق والمس، وفيها من المنافع ما هو مذكور في كتب الطبيات"[١].

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ في الحديث المثل لأحوال المؤمنين مع القرآن الكريم فمنهم المؤمن الذي يقرأ القرآن، فهو طيب الظاهر والباطن كالأترجة في طيِّب طعمها ورائحتها، وكما أن المؤمن يستريح ويُسرُّ بتلاوة القرآن، فكذلك الناس من حوله يُسرُّون بصوته والاستماع له، فقال ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب)، أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فإنه يفقد صفة مهمة وهي طيب الظاهر"[٢]، فمثله كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها (ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو).

وبهذا قسم النبي ﷺ المؤمنين في تعاملهم مع القرآن إلى صنفين:

فأولهما: شخص أو فريق ملأ الإيمان قلبه، وفاض على جوارحه، فهو بالله موقن وبرسوله مؤمن، وبكتابه مصدق، وبدينه عامل. جعل لنفسه حظاً من القرآن، يتلوه آناء الليل في تهجده، أو مضجعه، أو جالساً على فراشه أو مكتبه، ويتلوه في ساعات النهار قائماً وقاعداً، راكعاً وساجداً، كلما سنحت له فرصة لقراءته انتهزها حتى لا يغفل قلبه عن ذكر الله، فتخطفه الشياطين وتضله عن سواء السبيل.

وليست قراءته من طرف لسانه وشفته، وحنجرته، بل قلبه الذي يقرأ ولبه الذي يردد. ولذلك أثمرت الخشية والهداية، وأنتجت العمل والاستقامة، فهذا مثله الرسول ﷺ بالأترجة ذات الطعم اللذيذ، والرائحة الطيبة، فإن بَلَوْتَه واختبرته وعاشرته وعاملته، لم تجد إلا امرءاً وفياً براً تقياً، يقدس الحق تقديساً، ويشنأ الباطل مشناً، وإن شممته فرائحة طيبة، ذكية عبقة، تحيي القلوب وتنعش النفوس، وتذكي العقول، وكيف لا تكون كذلك وهي نفحة القرآن ومسكه، الذي انبعث من لسانه الرطب المعطر، وقلبه الحي المطهر.

وثانيهما: شخص أو فريق بالقرآن مؤمن، وبأحكامه عامل، وبإرشاده مهتدٍ،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٨/٦٨٤ - ٦٨٥، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١١٩٧.

(٢) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

وبأخلاقه متخلق، ولكن لم يؤت القرآن تلاوة وحفظاً، وإن أوتيه تطبيقاً وعملاً، فهذا كالتمرة حلو الطعم لذيذه، وطيب الخلق جميله، صادق النية حسن الطوية، أما الرائحة فمفقودة، إذا لم يطيب بمسك القرآن، وإن غسل قلبه بماء السلسبيل[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أحوال المنافقين مع القرآن الكريم:

المنافق بين حالين أحسنهما سيء، لأنه سيء الباطن، ولو حاول التظاهر بصفات أهل الإيمان وشاركهم بقراءة القرآن، فإن هذه القراءة عمل ظاهري يقصد به خداع الناس والتمويه عليهم، فمثله كمثل الريحان، قد يغتر الجاهل بطيب رائحتها، فإذا أكل منها ذاق المر والعلقم، وكذلك المنافق إن عاملته وعاشرته تذوقت مرارته وكشفت حقيقته، قال ابن بطال: "إن قراءة الفاجر والمنافق للقرآن لا ترتفع إلى الله ولا تزكو عنده، وشبهه النبي ﷺ بالريحانة حين لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق ولا اتصل بالقلب، (ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر)، وإذا كان هذا حال المنافق الذي يقرأ القرآن، فما الظن بالمنافق الذي لا يقرأ القرآن، قد جمع إلى مرارة الطعم خبث الرائحة"[٢]، فقال ﷺ: (ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر).

وبذلك بيّن النبي ﷺ أحوال المنافقين مع القرآن بالبيان والتمثيل بأنهم صنفين:

أولهما: فاجر أو منافق ليس له من الإيمان إلا اسمه ولا من الدّين إلا رسمه، يقرأ القرآن، وقد يجيد حفظه، ويتقن طرقه ويعرف قراءته وتوقيع ألفاظه ونغماته، ولكن لا تجاوز التلاوة حنجرته، ولا تعدو ترقوته، فإن بلوته تكشف لك عن قلب أسود، وفؤاد مظلم، وخلاق مر، وعمل ضر، وهذا مثله الرسول ﷺ بالريحانة، وإن شممت فرائحة ذكية. وإن ذقت فمرارة لذعة، كذلك هذا يقرأ القرآن فتستريح له النفوس كما تستريح للرائح العطرة، ولكن قلبه ونفسه منطويان على السوء، تذوق مرارته؛

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٦٥٧، عظمة القرآن، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

وتحس قذارته؛ إن عاشرته أو عاملته.

ومثل هذا لا أثر للقرآن في نفسه، لأن فجوره ونفاقه ختم على قلبه، فلا تؤثر فيه نصيحة ولا تنجح معه موعظة.

ثانيهما: منافق أو فاجر لا صلة له بالقرآن، لا علماً ولا عملاً، ولا تلاوة ولا حفظاً، وهذا شبهه الرسول ﷺ بالحنظلة، لا ريح لها وطعمها مر، بشع كذلك، هذا يحمل نفساً خلقت من الفجور، ونبتت في النفاق، إن تذوقها الناس آذت ألسنتهم ودنست نفوسهم؛ ولا يشم منه خير؛ إذ حرم من طيب الطيوب، وعطر العطور" كتاب الله: جلاء العيون. وشرح الصدور. وحياة النفوس، وطب القلوب. وشنف الآذان وسراج الألباب[1].

رابعاً- من أهداف الدعوة: حث المؤمنين على قراءة القرآن وتدبر معانيه:

إنّ من أهداف الدعوة الرئيسة حث المؤمنين على ملازمة القرآن والعناية به قراءة وتدبراً وعملاً، فلا يجوز أن ينفصل المؤمن عن القرآن، فيصبح المؤمن في وادٍ والقرآن في واد، فتلك هجرة مذمومة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[2]، وفي الحديث ضرب النبي ﷺ الأمثال لأحوال الناس مؤمنين ومنافقين مع القرآن، وفي ذلك دعوة إلى كل مؤمن أن يتكامل باطنه مع ظاهره، ومخبره مع مظهره واعتقاده مع سلوكه، ولا يتحقق ذلك إلا بملازمة المؤمن لتلاوة القرآن وتدبره، والعمل به"[3]، فقال ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة...)، قال ابن حجر: "وفي الحديث فضيلة لحاملي القرآن، وضرب المثل للتقريب للفهم، وأن المقصود من تلاوة القرآن العمل بما دل عليه"[4].

فإن العبرة ليست بقراءة القرآن مرات متعددة دون أن يصاحبها إدراك لما يُقرأ.

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٠٢.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

(٣) أنوار القرآن، مصطفى الحمصي ص ٨٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٦٨٥/٨.

وقد ندد الله تعالى بصورة الاستفهام بمن لا يفتح عقله وقلبه لتفهم القرآن من أجل إدراك ما فيه من حكم وأسرار ومواعظ وتشريعات فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(1).

وإن الذي يقرأ القرآن بلا فهم كالمذياع يرتل قرآناً دون أن يفهم مما رتّل شيئاً، وهو مخالف لهدف القرآن العظيم، فآيات كثيرة تشير إلى أن القرآن يُتلى لعلنا نتفكر، لعلنا نتدبر، لعلنا نعقل، لعلنا نُبصر، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(3)، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(4).

أما الذي تسمع أذنه ولا يسمع عقله، أو تنظر عينه ولا يبصر قلبه، أو يلغو لسانه ولا يعي فكره، فهو أصم أبكم أعمى. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾(5)، وفي الآية إشارة واضحة إلى أن سماع القرآن أو تلاوته ليس هدفاً بذاته، بل هو وسيلة لهدف، فقد كان المشركون يستمعون إلى القرآن ثم ينصرفون، لا يحرك فيهم ساكناً، تماماً كما يفعل بعض المسلمين اليوم، يستمعون إلى القرآن الكريم كل يوم من المذياع ثم ينصرفون لا يحرك فيهم ساكناً إذ يبقى المُطفف مطففاً، ويبقى الكاذب كاذباً، ويستمر المرابي بمراباته، ويواصل الفاسق فسوقه! فلقد أصبح سماع القرآن عادة.

ولقد ذمّ الله هؤلاء المشركين مع استماعهم للقرآن لأنهم لا يعقلون، ولأنهم لا

---

(1) سورة محمد، آية: ٢٤.

(2) سورة البقرة، آية: ٢٤٢.

(3) سورة يونس، آية: ٢٤.

(4) سورة يوسف، آية: ٢.

(5) سورة يونس، آية: ٤٣.

يبصرون، ولأنهم لا يغيرون أهواءهم وأخطاءهم[١].

وفي قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٢]، قال سفيان بن عيينة: "أنزع عنهم فهم القرآن"[٣].

فعلى المسلم أن يحرص على تلاوة القرآن، وفهمه وتدبره والعمل بمقتضاه، حتى ينال رضا الله، وخيري الدنيا والآخرة.

---

(١) يعلمهم الكتاب - التعامل مع القرآن الكريم، محمد خير الشعّال ص ٢٠ - ٢١.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/٤٨٠.

الحديث رقم (٩٩٧)

٩٩٧- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((إنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخرِينَ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

الحديث أسلوب خبري يمتاز بإيجاز القصر حيث المعاني الكثيرة، في الألفاظ القليلة، ومعناه يدور حول فعل القرآن في الناس، لأنه المنهج الحاكم لتصرفاتهم، والميزان الذي تعرض عليه أعمالهم، ومن تعلق به ارتقى، ومن تركه هوى، حامله مقدم في أجل المواقف في الحياة في أهم العبادات، في الصلاة، وفي بقية العبادات، وفي القضاء بين الناس، وغيره، وفي الممات مقدم عند الدفن، وفي المنزلة العالية عند الله بل، ومعه سبعين من أهله كرامة له، والحديث أسلوبه خبري مؤكد بأكثر من مؤكد تعظيماً للخبر، وقوله (يرفع بهذا) دلالة الفعل على الرفعة، والعلو تشير إلى مدى ما يصل إليه فضل القرآن ارتقاءً بالمؤمن في درج الشرف، والباء المتصلة باسم الإشارة للسببية، والإشارة للمدح، والتعظيم، و (ال) في الكتاب للعهد أي المعهود وهو القرآن الكريم، وتنكير الأقوام لعدم إرادة التعيين فيشمل الحكم أي فرد يكون ماهراً بكتاب الله عالما بحدوده عاملا بأحكامه، ومقابلة الرفع بالوضع توضح المقصود، وتجلي أبعاد المعنى ببيان تأثير القرآن بين رفع مكانة الناس، أو خفضها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل ومنزلة أهل القرآن وخاصته والعاملين به.

---

(١) برقم (٨١٧/٢٦٩).

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: خطورة هجر القرآن.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في الحديث في قوله ﷺ: (إن الله يرفع بهذا الكتاب...)، وأسلوب التوكيد من الأساليب الدعوية المفيدة، لما فيه من إيقان الداعي بدعوته، وحمل المدعوين عليها وعلى الاقتناع بها، فإن التوكيد له أثر بالغ في استقرار الأحكام وثبات العقائد، وقد ورد أسلوب التوكيد كثيراً في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

ويتأتى ورود التأكيد إذا كان المخاطب متردداً في الحكم طالباً أن يصل إلى اليقين في معرفته، وفي هذا الحال يحسن توكيده له، ليتمكن من نفسه، أو أن يكون له منكراً وفي هذه الحال يجب أن يؤكد الخبر بمؤكد أو أكثر على حسب إنكاره قوة وضعفاً"[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل ومنزلة أهل القرآن وخاصته والعاملين به:

إنّ العمل بالقرآن الكريم هو ذروة حقوق القرآن وسنامها، وهو الغاية من تنزيله[3]، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]، فإذا ما أقبل الإنسان على القرآن قراءة وحفظاً وتدبراً وعملاً وتعليماً رفعه الله إلى أعلى عليين، إلى أرفع الدرجات وأعلى المراتب،وكما أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث فقال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)، وذلك في الدنيا والآخرة، ومثال ذلك في الآخرة ما روي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُقَالُ

---

(١) سورة محمد، آية: ١٩.

(٢) البلاغة الواضحة، علي الجارم، ومصطفى أمين ص ١٨٨.

(٣) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد صالح الدوسري ص ٥٩٩.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٥٥.

لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا))(١)، ومثال ذلك في الدنيا تقديمه على غيره في إمامة الصلاة ونحوها، فعن عمرو بن سلمة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((ولَيَؤُمَّكُمْ أكثرُكم قرآناً))(٢)، وذلك مقام من مقامات الأفضلية لأهل القرآن.

إن قارئ القرآن العالم بأحكامه، رفيع القدر عظيم المنزلة، يفوق غيره وإن كان أشرف منه نسباً أو أعظم جاهاً، وذلك في كل شيء حتى في القبور قارئ القرآن وحافظه مقدم على غيره، فعن جابر بن عبدالله ﵄ قال: كانَ النبيُّ ﷺ يَجْمَعُ بينَ الرجُلينِ من قَتلى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ ثم يقول: ((أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآنِ؟ فإذا أُشيرَ له إلى أحدِهما قَدَّمَهُ في اللّحد وقال: أنا شهيدٌ على هؤلاء يومَ القيامةِ))(٣).

قال ابن حجر: "وفيه فضيلة ظاهرة لقارئ القرآن، ويلحق به أهل الفقه والزهد وسائر وجوه الفضل"(٤).

ومع أن مقام الشهادة فوق كل مقام، ومع أن النبي ﷺ شهد لقتلى أُحد عند الله تعالى بالصدق فيما عاهدوا عليه، وشهد لهم بالجنة، إلا أنه في غمرة هذه الفضائل للشهداء، لم ينس ﷺ الشهيد الأكثر حفظاً للقرآن في تقديمه في اللحد.

فصاحب القرآن، والأكثر أخذاً للقرآن له الأفضلية حتى بين الشهداء، لعظمة القرآن الذي في صدره، وما تقديم الرسول ﷺ له في اللحد إلا رمزٌ لتقدمه على من سواه من الشهداء في الأجر والثواب، وفي المكانة والجنة.

وإذا كان التفاضل بالقرآن بين الشهداء، فالتفاضل به بين الأحياء لا شك أكبر وأعظم: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾(٥)، فليتأمل المسلم هذا الأمر جيداً، ويقف عنده طويلاً، ومن ثم يقوده للعناية بالحفظ والإكثار منه والصبر عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود ١٣٦٤، وقال عنه الألباني: حديث حسن صحيح، (صحيح سنن أبي داود ١٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري ٤٣٢٠

(٣) أخرجه البخاري ١٣٥٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢١٣/٣.

(٥) سورة المطففين، آية: ٢٦.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطورة هجر القرآن:

في الحديث إيحاء قوي بأن المسلم لا ينبغي له في أي حال كان أن ينصرف عن القرآن، فإن ذلك سبب للضعة والشقاء، فقال ﷺ: ((إِنَّ اللّه يَرْفَعُ بِهذَا الْكِتَابِ أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))، فمن لم يعمل بأحكام القرآن ولم يأتمر بأمره، ولم ينته بنهيه، فمثل هذا يضعه الله في الدنيا والآخرة، ولا بد أن يكون أمره خُسراً، حتى لو فرض أن الدنيا دانت له وتزخرفت، فإن مآله إلى الخسران - والعياذ بالله -[1]، ولقد حذرنا الله من التشبه باليهود في إعراضهم عن العمل بالتوراة، فكان ذلك سبباً في شقائهم، وهو أنهم اكتفوا بقراءة التوراة وسماعها دون أن يتبع ذلك عمل، فشبههم الله تعالى بالحمير، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، فهؤلاء حملوا التوراة، أي: "علموها وكلفوا العمل بها، ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار يحمل كتباً يتعب في حملها ولا ينتفع بها"[3]، ولا حظ لهم منها إلا الحمل دون علم ولا فهم[4].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

ورد أسلوب الترغيب في الحديث حيث رغّب النبي ﷺ في ملازمة القرآن والعمل به بعلو المنزلة، ورهّب من هجره والإعراض عنه بالضعة والهوان، فقال ﷺ: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)، وأسلوب الترغيب والترهيب من أشد الأساليب الدعوية تأثيراً، ففي الترغيب تشويق للمدعوين إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، وفي الترهيب تحذير من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/١٢٤١.

(٢) سورة الجمعة، آية: ٥.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٢٨/٢٩.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١١/٢٧/١٢٤١.

قبوله، والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول الدعوة والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى وعدم إهماله من قِبَلِ الداعية المسلم[1].

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

الحديث رقم (٩٩٨)

٩٩٨- وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قَالَ: ((**لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاء اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

"والآناء": الساعات.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الآناء: جمع آنٍ: الوقت والحين[2].

الشرح الأدبي

الحديث يبدأ بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، وهو من الأساليب الخبرية التي تتضمن نوعا من توكيد الخبر عن طريق إثبات المعنى لمعنى آخر، ونفيه عن كل ما عداه، والذي يتضمن تأكيد الإثبات الأول بالمفهوم، وقوله (لا حسد إلا في اثنتين) المقصود بالحسد هنا الغبطة، وهي تمني مثل ما للغير، وليس هو بعينه بحيث يتمنى زوال النعمة عنه، وحصوله عليها، وأسلوب القصر نفى استحقاق الحسد عن كل شيء، وأثبته للاثنين دون غيرهم فقد تضمن إثباتاً ونفياً مما يؤكد المعنى، ثم إن ذكر العدد اثنين فيه نوع من التشويق؛ لأنه عدد مبهم بالنسبة للمخاطبين، وقد فسَّره بما بعده، وهو ما يحقق ترقب المخاطب وتنكير لفظ (رجل) يفيد التعميم، ونسبة فعل الإتيان لله يشير إلى أن الأمر ليس بمحض كسب الإنسان، وإنما هو سعي من العبد وتذلل للرب، وفضل من الله عليه بالتوفيق، والتعبير بالقيام يشير إلى الصلاة، والتلاوة،

---

(١) أخرجه البخاري ٧٥٢٩، ومسلم ٨١٥/٢٦٧، وتقدم برقم ٥٧٢. أورده المنذري في ترغيبه ٢١١٢.

(٢) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ا ي ن).

والتعلم، والتعليم، وحفظ الحدود، والعمل به، والطباق بين الليل، والنهار يشير إلى دوام العمل به تلاوة، وتحكيماً، وشيوع لفظ (آناء) في الحديث يشير إلى دوام العمل، وعدم الانقطاع في التلاوة، والتحكيم والعمل، وفي المال تشير إلى الإنفاق في كل سبيل للخير ينفتح له كما دل على ذلك استخدام صيغة المضارع الدال على التجدد، والاستمرار.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٧٢).

الحديث رقم (٩٩٩)

٩٩٩- وعن البراءِ بن عازِبٍ ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو[1]، وَجَعَلَ فَرَسُه يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أصْبَحَ أتَى النَّبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: ((تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلقُرآنِ)) متفقٌ عَلَيْهِ[2].

"الشَّطَنُ" بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة: الحَبْلُ.

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٠).

غريب الألفاظ:

شطنين: الشطن: الحبل[3].

فتغشته: غطته وعلته[4].

ينفر منها: يفرُّ ويذهب[5].

السَّكينةُ: الرحمة[6].

الشرح الأدبي

الحديث يروي في أسلوب خبري قصة تحكي أثر القرآن في تنزل السكينة، وقوله (كان رجل) يشير إلى قصة سابقة، وأحداث متحققة، وتنكير كلمة رجل لعدم تحقق غرض بتعريفه، والتعبير بالفعل المضارع يستحضر القصة على هيئتها حال الحدث

---

(١) عند البخاري زيادة: (وندنو) مرتين، ولفظ مسلم: (تدور وتدنو).

(٢) أخرجه البخاري ٥٠١١، ومسلم واللفظ له ٢٤٠/٧٩٥.

(٣) رياض الصالحين ٣٨٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ش ي).

(٥) المرجع السابق في (ن ف ر).

(٦) المرجع السابق في (س ك ن).

والظرف عند يهيأ مكان الحدث كما حدد زمانه بالفعل الماضي (كان) لأنه لابد لكل حدث من زمان، ومكان يذكر إن تعلقت بذكره فائدة، ويترك إن لم يتعلق بذكره غرض، والتعبير بلفظ (تغشته) يوحي بالإحاطة، وعظم الخطب، وقوله (فجعلت تدنو) وهو الحدث الغريب في القصة لأن المعهود أنها ظواهر تحكمها ظروف طبيعية معينة لا تخرج منها إلا على وجه الكرامة لولي كما في الحديث أو الإعجاز لنبي كما حدث مع الرسول ﷺ قبل بعثته إرهصاً لنبوته، والتعبير بالفعل (جعل) قبل الفعل (يدنو) يشير إلى التدرج في النزول، وقبل الفعل (ينفر) وقابلها بالتدرج في حركة الفرس نفوراً مما يرى ليصور رد فعل الفرس تجاوبا مع المشهد، وقول الرسول ﷺ (تلك السكينة) الإشارة للتعظيم، ولفظ السكينة يوحي بالطمأنينة، والسكون، والراحة التي يبعثها القرآن في القلب، وفي المكان.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحكاية.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل قراءة سورة الكهف.

ثالثاً: من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل عما خفي عليه.

رابعاً: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين وتقديم الإجابات الشافية لأسئلتهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحكاية:

ورد أسلوب الحكاية في الحديث في حكاية البراء بن عازب رضي الله عنه لحال الرجل الذي كان يقرأ سورة الكهف وما حدث لفرسه، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال: "تلك السكينة تنزلت للقرآن"، وأسلوب الحكاية من أساليب الدعوة المفيدة، لما فيه من إيقاف المدعو على ما جرى وحدث وأخذ العبرة والاتعاظ[1].

---

(١) انظر: القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٣١.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل قراءة سورة الكهف:

جاء في الحديث بيان فضل قراءة القرآن عامة، ومنه سورة الكهف خاصة، وذلك من تنزل الرحمة والسكينة فقال ﷺ: (تلك السكينة تنزلت للقرآن)، قال النووي: (وفي الحديث فضيلة القراءة، وأنها سبب في نزول الرحمة وحضور الملائكة)[1] وقد جاءت الأحاديث النبوية الكثيرة التي تبين فضل قراءة سورة الكهف، أو آيات منها، منها ما رواه مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ))[2]، وفي رواية: ((مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ))[3]. "وذلك من فضل قراءة سورة الكهف ولما فيها من القصص والعبر التي قصّها الله تعالى على رسوله ﷺ"[4]، "فقد افتتحها الله بالحمد ونوه عن إنزال القرآن، كما حوت السورة إنذار المعاندين، وبشارة المؤمنين، وتسلية الرسول ﷺ وذكرت قصص أصحاب الكهف وقصة موسى مع الخضر وذي القرنين، وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي ﷺ وتثبيته وغير ذلك الكثير مما حوته السورة الكريمة"[5].

لذا ولغيره جعلت السورة سبباً لتنزل السكينة والرحمة "تلك السكينة تنزلت للقرآن" وهذه السورة ليست ببدع من سور القرآن، فالقرآن كله سبب لتنزل الرحمات، ولا سيما إذا قرئ القرآن واستمع له حق الاستماع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[6]، وفي ذلك أمر من الله سبحانه لعباده بالاستماع للقرآن والإنصات له، لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح، وليتوصلوا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٧.

(٣) أخرجه مسلم ٨٠٩، والنسائي ١٠٧٨٦، وابن حبان ٧٨٦.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٢٤٣/٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٤٥/١٥/٦ - ٢٤٦.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

بذلك إلى رحمة الله تعالى، قال الليث: "يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ولعل من الله واجبة"(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أن الاجتماع للقرآن وتدارسه واستماعه، له فوائد عظيمة وجليلة، منها حصولهم على رحمة الله تعالى فقال ﷺ: ((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))(٢).

ثالثاً- من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل عما خفي عليه:

إنّ من الآداب التي ينبغي على الإنسان التأدب بها، سؤال أهل العلم والفضل والرجوع إليهم، وقد أمرنا الله بسؤال أهل العلم والاستنهال من علمهم، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣)، وبيّن النبي ﷺ أن السؤال شفاء للجهل، فقال ﷺ: ((فإنّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))(٤)، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص ما يكونون على طلب العلم والسؤال عما لم يحيطوا به علماً كما هو واضح في الحديث: (فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن)، "فإن سؤال أهل العلم وإجابتهم عليها، لها أبلغ الأثر في نشر المعرفة وتثبيتها وتناقلها بين الناس"(٥).

ولقد ضرب لنا السلف الصالح أروع المثل في طلب العلم والسؤال عن المعرفة، ومن تلك الأمثلة البارزة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، الذي وصل إلى درجات العلم العُلَى بكثرة سؤاله وما آتاه الله من فقه وعقل، قال ابن عساكر: قيل لابن عباس: كيف أصبت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٦٢/٦/٣، المقدمة ٩/١ .

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٣٦، والحديث حسنه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٥) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٦٢/٢.

العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول"[١].

فلقد بلغ ابن عباس رضي الله عنهما أعلى درجات الحرص على طلب العلم، فقد كان يكثر من السؤال لكي يتثبت ويصبح من الراسخين فيه، وكان يفخر بأنه يكثر من سؤال الصحابة رضي الله عنهم فيقول: (كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم)[٢].

رابعاً- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين وتقديم الإجابات الشافية لأسئلتهم:

إنّ في إجابة النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث لسؤال الرجل عما حدث له عند قراءته سورة الكهف: (تلك السكينة تنزلت للقرآن)، بيانًا لما ينبغي أن يكون عليه الداعية من تبيين للحقائق، وتلك هي مهمة الأنبياء وأتباعهم ممن حملوا الدعوة عنهم من الدعاة[٣]، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾[٤]، "ولذا ينبغي على الداعية أن يكون عنده من العلم والقدرات البيانية ما يحمل المدعو على الاقتناع بإجابته، من ذلك أن يكون الداعية حكيماً كثير العلم، حاضر الذهن يقظاً، حسن التصرف، واسع الصدر حليماً محترماً لأسئلة السائلين ولو كانت ضحلة وساذجة، وفي هذه الحالة يتلطف بالسائل ولا يشعره بما يجرح مشاعره، وعليه أن يكون قادراً على البيان المفهم بأسلوب حسن"[٥].

إن من أعظم ما يقوم به الداعية إلى الله في مجتمعه هو بيان الحقائق للمدعوين وتعليمهم أمور دينهم اقتداءً بسيد المرسلين، ونشر العلم الشرعي بينهم، حتى يكون الناس على بينة وبصيرة من أمور دينهم، ويحذرون من كل ما يخدش كمال الإيمان، فإن العلم الشرعي من أهم الأسباب المؤدية إلى تبصير المدعوين وتوجيههم.

فعلى الدعاة إلى الله أن يحرصوا على نشر العلم الشرعي بين الناس وبيان حقائقه لهم، فإن في ذلك صمام الأمان بمشيئة الله تعالى والحيلولة من الزلل.

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ابن منظور ٣٠٢/١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٤٤/٣.

(٣) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٥) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٦٠/٢.

الحديث رقم (١٠٠٠)

١٠٠٠- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ قَرَأ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ[1] حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا، لاَ أقول: (الم) حَرفٌ، وَلكِنْ: ألِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ)) رواه الترمذيُّ[2]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

البداية بالشرط ربط للكلام بأصله، وتشويق بأوله لآخره وتعميماً للحكم، واطراداً له في الزمان، والمكان واستخدام من كأداة للشرط، وهي لعموم من يعقل ينادي بأهل العقل لاغتنام الفرصة (مَنْ قَرَأ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ)، ومن بيانية، والكتاب القرآن، وإضافة الكتاب لله تشريف وبيان، وتنكير كلمة (حسنة) للتعظيم أي: حسنة عظيمة، زاد من تعظيمها بقوله: (الحسنة بعشر أمثالها) وهو خبر أريد به الترغيب، وجمع الأمثال للتوكيد، وتكرار كلمة (حرف) فيه توكيد للمعنى، وتعظيم للأجر ينادي بكل عاقل أن يغتنمه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ لثواب قراءة القرآن.

ثالثاً: من آداب المدعو: الحرص على مداومة القرآن الكريم وتدبر معانيه.

رابعاً: من آداب الداعي: حث المدعوين وترغيبهم في قراءة القرآن.

---

(١) عند الترمذي زيادة: (به).

(٢) برقم ٢٩١٠ وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وقال الحاكم ٥٥٥/١: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٢٠٩٧.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد أسلوب الترغيب في الحديث، حيث رغّب النبي ﷺ في قراءة القرآن بمضاعفة الحسنات، فقال ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف)، "وفي ذلك ترغيب في قراءة القرآن وإغراء بتلاوته وحث عليها وبيان ثوابها العظيم الكثير"[1]، "والترغيب من أكثر الأساليب الدعوية تأثيراً ووقعاً في القلوب، فالنفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها، وما جاء به الشرع الحنيف كله بعد الإقرار بالوحدانية وتصديق الرسول ﷺ لا يعدو أن يكون ترغيباً في الخيرات، وترهيباً من المعاصي والموبقات وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله والرهبة من عقابه"[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ لثواب قراءة القرآن:

جاء في الحديث بيان رسول الله ﷺ لثواب قراءة القرآن، ومضاعفة أجره فقال ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها)، أي: مضاعفة بالعشر، وهو أقل التضاعف الموعود بقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[3]، ولما كان الحرف في اللغة يطلق على حرف الهجاء والمعاني والجملة المفيدة والكلمة المختلف في قراءتها وعلى مطلق الكلمة، لذا قال رسول الله ﷺ: (لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)[4]، فهذا الحديث يصرح بأن في تلاوة كل حرف من كتاب الله عز وجل عشر حسنات، وهذا هو أقل التضاعف الموعود بقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[5]، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٤٠.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢١٢٧/٦.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢١٥٧/٢.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

عَلِيمٌ﴾[١]، وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ. وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ، فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، أَوْ أَغْفِرُ))[٢]، ألا فما أربح تلك التجارة مع الله، حرف بعشر حسنات!، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٣].

فإننا لا نكاد نجد ذكراً ينال صاحبه مثل هذا الأجر به، كما ينال من يتلو القرآن، فمن قرأ سطراً أو وجهاً أو جزءاً، كم سيحصل عليه من الحسنات؟

وإذا علمنا أن الناس يتنازعون يوم القيامة على حسنة واحدة يثقلون بها موازينهم أدركنا عظمة هذا الأجر الذي ينتظر من يتلون كتاب الله حق تلاوته.

وإذا تأملنا حال الطالب الذي يستغرق في دراسة كتاب مقرر عليه عشرات الساعات، وربما العديد من الأيام والأسابيع، ثم يعيده ويلخصه ويراجعه، وقد يحفظ معظمه غيباً أو شبه غيب؛ ليحصل على الدرجة الكاملة يحقق بها جزءاً من النجاح في أمر دنيوي، وقد لا ينجح في مسعاه، أليس من الجهل وعمى البصيرة أن ينصرف المسلم عن تلاوة القرآن العظيم، وفيه من الخيرات والبركات الدنيوية والأخروية ما فيه؟ وهي مضمونة ومكتوبة له عند رب العالمين[٤].

ثالثاً- من آداب المدعو: الحرص على مداومة القرآن الكريم وتدبر معانيه:

إنّ في مضاعفة الحسنات على قراءة القرآن حثًا للمدعو على الإكثار من قراءة القرآن الكريم وتدبر معانيه، فقال ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها)، ويشير هذا الحديث العظيم إلى أن تلاوة كل حرف من كتاب

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٨٧.

(٣) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩ - ٣٠.

(٤) عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٤٤٣.

الله عز وجل بعشر حسنات، وهذا هو أقل التضاعف الموعود، ولا شك أن زيادة الأجر ومضاعفته تتناسب وحال القارئ من الإخلاص والخشوع والتدبر والتأدب مع كتاب الله تعالى[1]، وهذا بمشيئة الله تعالى، كما قال النووي: (معناه أن التضعيف بعشرة أمثالها لا بد منه بفضل الله ورحمته ووعده الذي لا يُخلف، والزيادة بعدُ بكثرة التضعيف إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة، يحصل لبعض الناس دون بعض، على حسب مشيئته سبحانه وتعالى)[2]، (وإن مضاعفة الحسنات على قراءة القرآن والتي أشير إليها في الحديث، لمن أعظم الحوافز والدوافع إلى المسارعة إلى القرآن تلاوة وتدارساً وتدبراً وعملاً، فهنيئاً لأهل القرآن بهذا الفضل العظيم والمنزلة الرفيعة، وعجباً ممن يزهد يتكاسل أو يعرض عن القرآن الكريم)[3].

رابعاً- من آداب الداعي: حث المدعوين وترغيبهم في قراءة القرآن:

من الآداب التي ينبغي أن يضطلع بها الداعية حثه المدعوين وترغيبهم في قراءة القرآن، فبالقرآن تسري الحياة في المجتمع ويعظم شأنه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[4]، فهو روح وحياة للقلوب والملكات، وبه تنمو وتقوى وتسمع وتبصر، لذا ينبغي على الداعية أن يلتمس هذا الروح[5]، وأن يحث المدعوين إلى الارتباط والتعلق به، لذا نجد النصوص النبوية التي حثّ فيها قدوة الدعاة رسول الله ﷺ على قراءة القرآن كثيرة كما جاء في الحديث: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها)، وقوله: ((الذي يقرأُ القرآنَ وَهُوَ ماهِرٌ بِهِ مَعَ السفرةِ الكرامِ البررةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ))[6]، إلى غير ذلك من

(١) المرجع السابق ٤٤٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٥٨.

(٣) أنوار القرآن، مصطفى الحمصي ص ١١١.

(٤) سورة الشورى، آية: ٥٢.

(٥) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٣٠٢.

(٦) أخرجه البخاري ٤٩٣٧، مسلم ٧٩٨.

الأحاديث التي تجعل المدعوين يتسابقون في قراءة القرآن، ولا يتوانون لحظة واحدة عن قراءة القرآن واستظهاره، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومن ذا الذي يسمع كل هذا الترغيب والتشويق ولا يسارع في قراءة القرآن وحفظه[1].

لقد كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على قراءة القرآن في جميع الأوقات وعلى جميع الأحوال - إلا ما استثناه الشرع - ولقد سنَّ الرسول ﷺ أن يجعل المسلم له ورداً يومياً يقرؤه من القرآن الكريم، ومن فاته ورده في يوم قضاه في آخر، فيقول ﷺ ((مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ))[2].

وفي هذا دعوة منه ﷺ إلى ملازمة الورد اليومي في قراءة القرآن الكريم.

وكل هذا يريد به ﷺ حث أمته على الإكثار من قراءة القرآن الكريم، ليعيش معهم في كل شؤون حياتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً[3].

---

(١) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد النبي ﷺ، د. عبدالودود مقبول ضيف ص ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم ٧٤٧.

(٣) انظر: يعلمهم الكتاب، التعامل مع القرآن الكريم، محمد خير الشعّال ص ٤٢، ٤٣.

الحديث رقم (١٠٠١)

١٠٠١- وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((إنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ القُرْآنِ كَالبَيْتِ الخَرِبِ)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

البداية بأسلوب التوكيد تمهيد للخبر، وتنبيه إلى عظمته، وصرف العناية إليه، وتعريف المسند إليه بالموصولية للتنبيه على أن ما اختص به من الصلة حقيق به، وقوله (لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ القُرْآنِ) أسلوب نفي يؤكد خلاء قلبه من نور القرآن، وتنكير شيء للتعميم فيشمل القليل، والكثير، والتعبير بالجوف يشير إلى أعماق النفس، وصميم القلب، والتشبيه بالبيت الخرب يشير إلى عدم وجود من يعمره، وعدم وجود ما يؤنس فيه، كما يوحي بأنه صار مقراً للشياطين، وأنه بذلك يصبح مصدراً للشر، وهذا التشبيه تنفير من ترك حفظ القرآن، لأنه تجرد من الخير العظيم الذي يعمر القلب، ويطرد الشيطان، ويرضي الرحمن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانياً: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: خطورة هجر القرآن وعدم أخذ شيء منه.

رابعاً: من أهداف الدعوة: حث المدعوين على الإقبال على القرآن والتحذير من هجرانه.

---

(١) برقم ٢٩١٣. وقال الحاكم ١/٥٥٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٢١٣٥.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

ورد في الحديث أسلوب الترهيب، حيث رهّب النبي ﷺ من هجر القرآن وعدم أخذ شيء منه بالبيت الخرب، فقال ﷺ: (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب). وفي ذلك الترهيب كل الترهيب من التجافي عن القرآن الكريم والإعراض عنه، وبيان أن منْ هذه حاله أنه خرب القلب ليس فيه شيء من النور والحكمة والزينة والعمران، "فالقرآن إذا كان في الجوف كله أو بعضه عَمَره وزانه، وإذا خلا عنه الجوف لم يكن فيه شيء من الخير والنفع، وصار مهجوراً خرباً، ذلك لأن عمار القلب يكون بما فيه من حكم وعظات وأنوار مطهرات، وليس ذلك إلا في القرآن"[١].

وأسلوب الترهيب من الأساليب الدعوية المؤثرة في نفوس المدعوين، فإن أسلوب الترهيب إذا ما خالج شعور المدعو يدفعه إلى حسن الخلق وطهارة النفس، والعزوف والترفع عن الدنايا[٢]، وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الترهيب في كثير من آياته كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[٣]، ووصف زكريا وأهله بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٤].

ثانياً- من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

ورد ذلك الأسلوب في الحديث، حيث ضرب النبي ﷺ المثل للجافي عن القرآن بالبيت الخرب، فقال ﷺ: (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٤٠ - ٥٤١.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٦/٢١٧٠، ٢١٩٥.

(٣) سورة النحل، آية: ٥١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

الخرب)، "إن تشبيه الرسول ﷺ - في الحديث - الذي ليس في جوفه شيء من القرآن بالبيت الخرب، يجعل كل امرئ مسلم أمام خيار صعب، فهو إما أن يحفظ شيئاً من كتاب الله، أو هو بيت خرب خاوٍ خالٍ من كل أحد، مأوى للهوام والدواب والشياطين، إن القرآن يعمِّر جوف الإنسان وقلبه ويصلح نفسه، وهو بمثابة نور يشع في داخله فيضيء جنبات روحه، حتى يمتلىء جوفه حكمة ونوراً وعلماً وإيماناً، أما إذا خلا جوف الإنسان من القرآن الكريم، فسد قلبه وخبثت نفسه فتمردت عليه، وعمّ الظلام داخله وضاقت الروح ذرعاً بالجسد فهزلت روحه وفرغ جوفه، وعمّ الجهل والهم والغم داخله، فخرب وأصبح مأوى للوساوس والهواجس والنزعات الشيطانية"(١).

"وقد استخدم القرآن والسنة ضرب الأمثال أسلوباً لعرض الدعوة على الناس، قال ابن القيم عن ضرب الأمثال: (إنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر تقريباً لمعنى أو بياناً لغاية)(٢)".

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: خطورة هجر القرآن وعدم أخذ شيء منه:

جاء التحذير من خطورة هجر القرآن في كثير من النصوص، من ذلك ما ورد في الحديث في قوله ﷺ: (إن الذي ليس في جوفه شيء كالبيت الخرب)، "إذ أن عمارة القلوب إنما هي بالإيمان وقراءة القرآن وزينة الباطن بالاعتقادات الحقة، والتفكر في نعماء الله تعالى"(٣)، قال الطيبي: "وفائدة التشبيه بالبيت مثل جوف الإنسان الخالي عما لا بد منه من القرآن وغيره، بالبيت الخالي عما لا بد منه من الأثاث ونحوه"(٤)، ومن خطورة هجر القرآن ما يكون من عتاب النبي ﷺ لمن هذا شأنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(٥)، ومن هجران القرآن ترك علمه

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم ١٧٣ - ١٧٤.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢١٥٩/٢.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٤٢/٤.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

وحفظه وترك تدبره وتفهمه وترك العمل به، وامتثال أوامره واجتناب زواجره، والعدول عنه إلى غيره من غناء أو لهو أو طريقة مأخوذة من غيره، فضلاً عن الإيمان به والتصديق بما فيه"[1].

وبيّن ابن القيم أنواع هجر القرآن فقال: "هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[2]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض"[3].

وقال القاسمي في تفسيره لقوله تعالى" وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا".

"وقال الرسول" أي إثر ما شاهد من عتوهم وعنادهم "يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا" أي: متروكًا، معرضًا عنه.

ثم نبه أن الآية وإن كانت في المشركين، وإعراضهم هو عدم إيمانهم، إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المعرضين عن العمل به، والأخذ بآدابه الذي هو حقيقة الهجر لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك؛ إذ لا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها، ولا يتدبرها إلا من يقوم بها ويتمسك بأحكامها.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٠٨/٦.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

(٣) الفوائد ١٢٣-١٢٤.

وفي الإكليل: إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه، وكذا قال أبو السعود: فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن، كي لا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. ثم قال: وفيه من التحذير ما لا يخفى؛ فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم، عجل لهم العذاب ولم ينظروا"[1].

فينبغي على المسلم أن يحذر من هجر القرآن وتركه، لما له من خطورة عليه.

رابعاً- من أهداف الدعوة: حث المدعوين على الإقبال على القرآن والتحذير من هجرانه:

"إنّ من أهداف الدعوة الرئيسة حثّ المدعوين على الإقبال على القرآن الكريم والارتشاف من معينه، والتحذير من الإعراض عنه وهجرانه، فإن حفظ القرآن الكريم والإقبال عليه، تأسٍ بالسلف الصالح، فهو أصل الأصول، والمعول عليه في جميع الأمور"[2]، ولذا صور لنا النبي ﷺ قلب الإنسان الذي ليس فيه شيء من القرآن بالبيت الخراب، كما جاء في الحديث: (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب)، "وقد صرح القرآن بشكوى النبي ﷺ المعرضين عن القرآن لربهم فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾[3]، "وهذه شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال"[4]، "فما أحوجنا إلى الإقبال على القرآن والإياب إليه، ففيه السعادة في الدنيا والآخرة، وفيه منهج الحياة المتكامل الذي يغنينا عن غيره"[5].

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٧/١٢/٢٥٨-٢٥٩.

(٢) الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن، محمد بن مصطفى بن شعيب، ط/ مكتبة آل ياسر، الجيزة: ١٤١٥هـ ص ٤٣.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٣٠

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ٦/٣١٧.

(٥) انظر: عظمة القرآن الكريم، محمود بن أحمد بن صالح الدوسري ص ٦١٢.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]، فهداية الناس تتم من خلال كشفه وإنارته لكل الجوانب التي تتعلق بحركة الإنسان الخارجية، وكذلك كل ما يوجد بداخله من جوانب غامضة وأسئلة محيرة، وتصورات خاطئة يكشفها القرآن العظيم ويوجهها الوجهة الصحيحة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، ففي هذه الآية الكريمة أوضح دليل على أن القرآن العظيم يُخرج كل أمة - آمنت به، وعملت بمقتضاه، واتخذته إمام وحكماً - من ظلمات الشقاء المادي والروحي إلى نور السعادة الكبرى، حتى تكون أسعد الأمم في حياتها من جميع الوجوه، ولا تكاد تساويها في ذلك أمة أخرى من الأمم المخالفة، وذلك بعينه هو ما حدث للعرب الذين استضاؤوا بنور القرآن، ولكل أمة استضاءت به بعدهم[3].

(١) سورة الإسراء، آية: ٩.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ - ١٦.

(٣) مباحث في القرآن الكريم، د. محمد تقي الدين الهلالي لة البحوث الإسلامية بالرياض، العدد: ٩ مادى الأولى ١٤٠٤هـ ص ٨٦ - ٨٧.

الحديث رقم (١٠٠٢)

١٠٠٢- وعن عبد اللهِ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَة تَقْرَؤُهَا)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

وارتقِ: اصعد إلى درجات الجنة[2].

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (يقال لصاحب القرآن) يذهب بعقل السامع كل مذهب في معرفة القائل، وإضافة صاحب للقرآن بيان، وتشريف، والتعبير بالصاحب يشير إلى مقتضيات الصحبة من الرعاية، والمحبة، والمتابعة، وهي في جانب صاحب القرآن تشير إلى ذلك فهو الحافظ المتابع له في الأوامر، والنواهي، والمحب له، لذلك جاء الأمر تصويراً، وحكاية لحاله يوم القيامة (اقرأ، وارتق) وهذا أمر إشادة، وتكريم، للقارئ في الآخرة، ويخيل للسامع في الدنيا أن هذه الآيات التي يتلوها محلقة به في درج الجنة كلما ازداد قراءة كلما ازداد رقياً في درج الجنات، وهو نوع من مداعبة النفس الطموحة بما تحب، وتتمنى، وهو نوع فريد من الترغيب يملك على النفس أقطارها فلا تملك معه إلا مزيدا من الرقي بمزيد من التلاوة لا تحب أن تتوقف لأن منزلتها ترتبط بها ارتقاءً في الجنة، والجزاء من جنس العمل يدل على ذلك قوله (ورتل كما كنت ترتل في الدنيا) والتشبيه في العبارة لبيان حال المشبه يوم القيامة في الجنة، والجميل أنه لم يحدد

---

(١) أخرجه أبو داود ١٤٦٤، والترمذي ٢٩١٤ ولفظهما سواء. وصحّحه أيضًا ابن حبان، الإحسان ٧٦٦. أورده المنذري في ترغيبه ٢١١١.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢١٥٩.

درجة التالي بل تركها لطموحه بقدر ما يقرأ لفتح باب المنافسة في الخير، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ للمنزلة الرفيعة لقارئ القرآن يوم القيامة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل قراءة وترتيل القرآن وتدبر معانيه.

ثالثاً: من واجبات الداعية: بيان كرامة وفضل أهل القرآن العاملين به.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ للمنزلة الرفيعة لقارئ القرآن يوم القيامة:

جاء في الحديث بيان النبي ﷺ لمنزلة القارئ للقرآن الكريم الحافظ له أو بعضه الملازم لتلاوته وتدبره والعمل به والتأدب بآدابه[1] يوم القيامة، فقال ﷺ: (يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)، "أي: يقال عند دخول الجنة لصاحب القرآن الذي يلازمه بالتلاوة والعمل، لا من يقرؤه ولا يعمل به، اقرأ وارتق إلى درجات الجنة أو مراتب القرب، ورتل ولا تستعجل في قراءتك في الجنة التي هي لمجرد التلذذ والشهود الأكبر كعبادة الملائكة، كما كنت ترتل في الدنيا، وفي ذلك إشارة إلى أن الجزاء على وفق الأعمال كمية وكيفية، فقوله: (كما كنت ترتل في الدنيا)، أي من تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها"[2].

فقد أفاد الحديث الترغيب في حفظ القرآن، وتخصيص الصاحب في الحديث بالحافظ عن ظهر قلب، تكريماً له وتشريفاً، فالخبر المذكور خاص بمن يحفظه عن ظهر قلب، لا بمن يقرأ بالمصحف؛ لأن مجرد القراءة في الخط لا يختلف الناس فيها ولا يتفاوتون قلة وكثرة، وإنما الذي يتفاوتون فيه كذلك هو الحفظ عن ظهر قلب، فلهذا

---

(١) دليل الفالحين ابن علان ١٢٠٠.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٦٧٢.

تفاوتت منازلهم في الجنة بحسب تفاوت حفظهم، ومما يؤيد ذلك أيضاً أن حفظ القرآن عن ظهر قلب فرض كفاية على الأمة، ومجرد القراءة في المصحف من غير حفظ لا يسقط بها الطلب، فليس لها كبير فضل كفضل الحفظ، فتعين أنه -أعني الحفظ عن ظهر قلب- هو المراد في الخبر، وهذا ظاهر من لفظ الخبر بأدنى تأمل، وقول الملائكة له: اقرأ وارتق صريح في حفظه عن ظهر قلب كما لا يخفى"[١]. وقيل: (المراد بالصاحب العامل بالقرآن المتدبر له، وهو أفضل من الحافظ المرتل بغيرهما، والمراد بالدرجات ما نالها عن عمله، وحيئنذ فلا يقدر في الجنة أن يتلو من الآيات إلا ما هو على مقدار عمله، فلا يستطيع أحد أن يتلو إلا وقد أقام ما يجب عليه فيها، وقيل المراد به الحافظ المرتل العالم العامل فيكون له درجات لقراءته ودرجات بعمله، ويرتقي الحافظ له كله العامل به المتدبر له إلى ما لا نهاية له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢])[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل قراءة وترتيل القرآن وتدبر معانيه:

ذكر الحديث فضل قراءة وترتيل القرآن وتدبر معانيه، إذ أن ذلك هو المعتبر في رفع الدرجات وعلو المنازل، وذلك في قوله: (ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)، أي: كما كنت ترتل في الدنيا من تجويد الحروف ومعرفة الوقوف. فإن مجرد القراءة لا تكفي بل لا بد من إتقان قراءة القرآن وتدبر لمعانيها، فإن ذلك هو المعتبر الذي تترتب عليه المراتب العُلى في الجنة العالية[٤]، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٥]، وقد ندد الله تعالى بصورة

---

(١) هذا قول ابن حجر الهيتمي منقولاً عن عظمة القرآن الكريم، د. محمد بن أحمد بن صالح الدوسري، ص ٤٧٧.

(٢) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٢٠٠.

(٤) المرجع السابق ص ٦٧٢.

(٥) سورة ص، آية: ٢٩.

الاستفهام، بمن لا يفتح عقله وقلبه لتفهّم القرآن، من أجل إدراك ما فيه من حكم وأسرار ومواعظ وتشريعات[١]، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٢].

قال ابن كثير: "يقول الله تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه وناهياً عن الإعراض عنه: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) أي: بل على قلوب أقفالها فهي مُطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه" [٣].

وقال السعدي: "فهلا يتدبرون هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى جنته، ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب وبأي شيء يحذر، ولعرّفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل ورهبهم من العقاب الوبيل"[٤].

ثالثاً: من واجبات الداعية: بيان كرامة وفضل أهل القرآن العاملين به

حين يدخل المؤمنون الجنة، فإن حافظ القرآن، له من الشأن والمكانة ورفعة المنزلة ما ليس لغيره، تعلو درجته وترتفع منزلته، لذا كان من واجبات الداعية التي ينبغي أن يراعيها في حث المدعوين على الاهتمام بالقرآن والتوجه إليه ببيان فضل أهل القرآن، وقد قال ﷺ في الحديث: (يقال لقارئ القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)، فإن في بيان كرامة أهل القرآن وفضل العاملين به، من أعظم الحوافز في تحفيز همم المدعوين، ودافعاً لهم إلى الإقبال على

---

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم، مختار شاكر كمال ص ٤١.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/٣٢٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٣٣.

القرآن وتعاهده، فإن التحفيز بالجنة ونعيمها وبيان كرامة المؤمنين العاملين بالقرآن التالين له، باب واسع كبير، يجد فيه الداعية مجالاً ثرياً وميدانا غزيراً، ليحث المدعوين على العمل والتأسي بأفضل الفضل، ويعزز سلوكهم فيما اتجهوا إليه من خير وبر ويردعهم عن سلوكيات الإثم والشر[1].

وقد وردت في السنة النبوية كثير من أوجه الكرامة وعلو الدرجة في الجنة لحافظ القرآن، منها أنه يُلبس تاج الكرامة وحُلة الكرامة ويفوز بالرضى، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((يَجِيءُ صَاحِبُ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ فَيُلْبَسَ تَاجُ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسَ حُلَةُ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَرْضَ عَنْهُ، فيرضى عنه فَيُقَالُ له اقْرَأْ وارق وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةٌ))[2].

وفي هذا الحديث عدة كرامات لحافظ القرآن وهي: الإنعام عليه بتاج الكرامة وحلة الكرامة، فهو يعرف بها يوم القيامة بين الخلائق، وهي علامة على كرامة لابسها ومكانته عند الله عز وجل،وهذا التاج وهذه الحلة وسام شرف ورفعة يتميز بها أصحاب القرآن عن غيرهم من المؤمنين،وجدير بمن لبس هذا التاج وهذه الحلة أن يكون رفيع الدرجة عالي المقام.

وإذا كان العبد في الدنيا يزهو ويفتخر ويمتلئ إعجاباً وخيلاء بما خلع عليه سلطان أو ملك خُلعة ما، فما بالك بصاحب القرآن يوم القيامة إذا أنعم عليه مولاه، خالق الخلق جميعاً، وملك الناس وإلههم بهذه النعمة العظيمة والمنزلة الرفيعة، وألبسه تاج الكرامة، وحلة الكرامة على أعين الخلائق.

ما بالك بالسعادة والغبطة والفرح الذي يملأ قلبه.

وأعظم من ذلك كله: رضا الله عنه، ثم يُزاد على كل ذلك بكل آية حسنة، فضلاً عن رفعه درجات في الجنة بعدد الآيات التي يحفظها من القرآن.

فهل يعي المسلمون فضائل حفظ القرآن، ويقبلوا عليه بشوق، ورغبة ونهم، ويربوا

---

(١) انظر: علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز بن محمد النغيمشي ص ١٦١ - ١٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٠٩٣، وحسنة الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٣٢٨).

على ذلك أبناءهم؟

ويا للأسف إن أكثرهم يتسابقون على دنياهم أضعاف تسابقهم إلى آخرتهم. وقد حذرنا الله تعالى الدنيا ومتاعها فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[1].

فمن أظلم ممن زهد في كتاب ربه، فأعرض عنه حفظاً وفقهاً وتلاوة ودراسة وعملاً[2].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد أسلوب الترغيب في الحديث ضمنياً حيث ذكر النبي ﷺ حال القارئ للقرآن يوم القيامة، بما يحمل ذلك في طياته من ترغيب في ملازمة القرآن والمحافظة عليه، فقال ﷺ: (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)، وفي ذلك ترغيب من النبي ﷺ في حفظ القرآن وتعهده بما أعده الله لقارئ القرآن من علو وارتقاء في جنات عرضها الأرض والسماوات.

قال الطيبي: (إن الترقي يكون دائماً، فكما أن قراءته في حال الاختتام استدعت الافتتاح الذي لا انقطاع له، كذلك هذه القراءة والترقي في المنازل التي لا تتناهي، وهذه القراءة لهم كالتسبيح للملائكة، لا تشغلهم من مستلذاتهم بل هي أعظم مستلذاتهم)[3]. وقال ابن علان: (قوله "فإن" تعليل يفيد الترغيب في حفظ جميع القرآن)[4].

وأسلوب الترغيب من الأساليب الدعوية المفيدة، وهو أحد ركني الدعوة بالموعظة الحسنة، والتي لها التأثير الإيجابي النافع في توجيه الإرادة لاختيار السلوك الحسن[5].

---

(١) سورة النساء، آية: ٧٧.

(٢) انظر: فضائل القرآن وحملته في السنة المطهرة، محمد موسى نصر ص ٤٣.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار٢/١٤٣.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٢٠٠.

(٥) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ١/٦٣٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من أساليب التربية: الترغيب والترهيب:

رغّب النبي ﷺ في قراءة القرآن بذكر فضل ذلك، فإن القرآن "يأتي يوم القيامة شفيعاً"، كما أن الماهر في قراءة القرآن، "مع السفرة الكرام البررة" أما الذي تكون تلاوة القرآن عليه شاقة فـ"له أجران" وغير ذلك مما ذكر في أحاديث الباب التي ترغب في قراءة القرآن والعمل به.

ومن ناحية أخرى فإن نعت النبي ﷺ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب، إن نعته بذلك -كما روي عنه- يلزم عنه الترهيب في عدم حفظ شيء من القرآن.

والترغيب والترهيب أسلوب تربوي هام، فإنه "بني على ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم وحسن البقاء والرفاهية، والرهبة من الألم والشقاء وسوء العقاب.

وعلى ذلك، فالترغيب: هو تحبيب المرء في الحصول على شيء يتمنى الحصول عليه.
والترهيب: هو تخويف المرء من حصول شيء له لا يحب أن يحصل عليه أو يحدث له.

ونعبر عن هذا الأسلوب في مجال الفلسفة بمبدأ اللذة والألم، حيث اللذة أو السعادة هما الخير الذي يسعى إليه الإنسان، وبالتالي يعتبر الألم هو الشيء الذي يفرّ منه كل إنسان.

وفي علم النفس يعبر عنه بمبدأ الثواب والعقاب، وفيه أثبتت التجارب العملية أن الإنسان يتعلم جيداً إذا أُثيب على تعلمه، أو عوقب على فشله، وإن كان الثواب أفضل من العقاب. وقد أثبتت التجارب على الحيوان صحة هذا القانون..... وأحياناً يعبر عنه بأسلوب التغذية الراجعة، أي أن المتعلم يتلقى نتيجة تعلمه، ويستفيد من هذه النتيجة في تعلمه، أو يعبر عنه بالتعزيز، أي أن المتعلم إذا تلقى نتيجة طيبة لتعلمه، فإن الاستجابة التي أدت إلى هذا التعزيز تقوي وتدعم وتثبت.

كما يقوم التعليم المبرمج على فكرة هذا الأسلوب أيضاً، إذ يستجيب المتعلم لمثير معين ثم يتلّقى على الفور نتيجة استجابته صحيحة أم خاطئة، فإذا كانت صحيحة كوفئ بالسماح له بالانتقال لجزء آخر جديد ليتعلمه، أي للنقطة التالية، وإن كانت الاستجابة خاطئة عوقب بعدم السماح له بالانتقال، وأن عليه أن يرجع إلى إجابته ويصححها بنفسه"(١).

ثانياً- تربية الناشئة على الارتباط بالقرآن الكريم، والعمل بما فيه:

إن ترغيب النبي ﷺ في قراءة القرآن، يوجب على المربين أن يربوا الناشئة على الارتباط بالقرآن الكريم في حياتهم وشؤونهم وأحوالهم، فيحفظونه أو يقرءونه ويتلونه، ويعملون بما فيه حسب طاقة كل منهم وقدرته، وذلك لأن القرآن الكريم ما نزل إلا لتعبيد العباد لرب العباد، وفي ذلك إصلاح لدنيا الناس، فإن القرآن الكريم جاء "بمنهاج حياتي تربوي ليس للإنسان غنى عنه"(٢).

ومن كرم الله أن يسر أمر الارتباط بالقرآن الكريم في حياة المسلم، فقد يسّر الله تعالى حفظه، فإن لم يحفظ المسلم القرآن، حفظ بعضه وقرأ البعض الآخر، فإن لم يحفظ، فإن قراءته سهلة ميسرة، وإلا كان بإمكانه الاستماع إليه، وقد تعددت الوسائل التي تسهل أمر الاستماع من مذياع وتلفاز وحاسب، وأقراص مدمجة، وغير ذلك.

أما تربية الناشئة على العمل بالقرآن فإنه من الأهداف السامية للتربية الإسلامية، ففي الحديث: " يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما" فإن القرآن ما نزل إلا ليعمل به، ويطبق في دنيا الناس ليصلح الدنيا بالدين، ولعل أروع مثال على ذلك، هو جيل الصحابة رضوان الله عليهم الذين عملوا بالقرآن فأصلحوا دنياهم وسادوا العالم بعد أن كانوا في الجاهلية متفرقين متناحرين متقاتلين بأسهم بينهم، تترفع عن مقاتلتهم الأمم المجاورة

---

(١) التربية الإسلامية مصادرها وتطبيقاتها، د. عماد محمد محمد عطية ص ١٢٧، ١٢٨.

(٢) المرجع السابق ٢٦.

نظراً لهوان شأنهم.

فعلى المربين أن يبذلوا الجهد ويفعلوا ما في الطاقة حتى يربوا الناشئة على العمل بالقرآن وتصبح أخلاقهم أخلاق القرآن، كما كان خلق خير البشرية محمد ﷺ.

ثالثاً- تربية الناشئة على أنه ما لا يدرك كله لا يترك كله:

ففي الحديث الشريف: "الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران، ففي هذا الحديث يمكن الاستدلال به على أنه يجب تربية الناشئة على أنه ما لا يدرك كله لا يترك كله، فإذا كان في المسلمين من يجيد تلاوة القرآن فإن فيهم أيضاً من لا يجيد تلاوته، ولا يحسنها، فتكون عليه شاقة غير سهلة، وإذا كان الأول يفرح ويسعد نظراً لإجادته التلاوة، فإن الآخر لا ينبغي له أن يحزن لعدم إجادته التلاوة، بل إن عليه أن يتلو القرآن ويثابر على ذلك ويستمر، فإنه بذلك يكون له أجران، فضلاً على أنه قد يتحسن في التلاوة بمرور الأيام، وقد يلحق بالماهرين في القراءة والتلاوة فيكون مع الملائكة السفرة الكرام.

وعلى ذلك يجب تربية الناشئة، فيربون على بذل الوسع والطاقة في تحصيل الفضائل والمكارم والأعمال الجليلة، فما أدركوا عملوه، وما لم يدركوا لم يتركوه كلّه، بل حصلوا بعضه أو شيئاً منه.

وإن جيلاً يربى على هذا الفهم ينتظر منه أن يفعل الكثير والكثير ويحقق العديد والعديد من المنجزات والنجاحات الباهرات.

رابعاً- من أساليب التربية: ضرب الأمثال والأشباه:

في الحديث الشريف: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ. رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ. لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ. رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ...». وفي الحديث كذلك: «إنَّ الَّذِي ليس فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ».

فقد وضح النبي ﷺ المعاني السابقة باستخدام أسلوب التشبيه الذي يعتمد على

تقريب المعنى غير الحسي باستخدام الحسيات الواضحات، ولهذا الأسلوب أهمية واضحة فهو يصلح لمختلف الفئات المثقفة أو غير المثقفة أو ممن يجهلون القراءة والكتابة، ويعد من أفضل الأساليب لمثل هذه الفئات حيث يتدرج بهم؛ ليصل بهم إلى مرحلة الإدراك الحسي لأشياء غير منظورة في أصلها، فيبرز معناها وتتضح الفكرة في الأذهان بهذا التشبيه، الذي يؤكد استخدام الخبرة البديلة عن الخبرة الأصلية المباشرة، فتكسب المعنى روعة وجمالاً وتجعله أكثر إمتاعاً للعقل والأذن ويجري مجرى الحكمة أو النصح أو الوعظ [1].

خامساً- تربية الناشئة على التنافس على ما يبقى أثره في الآخرة:

في الحديث: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللّهُ الْقُرآنَ. فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ. وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللّهُ مَالاً. فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ». والحسد هنا هو الغبطة.

فإذا كانت النفوس تهوى المال والمنصب والجاه والحسب والسلطان، فإن هذا يزول ولا يدوم، فضلاً عن أن هذه الأشياء يشترك فيها المسلم وغير المسلم، أمّا المسلم فإنه يربى على تحصيل ما يرضي الربّ عز وجل، من ذلك تلاوة القرآن الكريم، والقيام به، والإنفاق في وجوه الخير والاستمرار على ذلك.

فإن حصّل ذلك فهذا خير، وإلا تمنى أن يكون ممن يفعل ذلك.

وإنّ وَضْعَ الأهداف التي تستحق التنافس أمام أعين الناشئة يوفر عليهم كثيراً من الوقت والجهد، يبذلونه في معرفة ما يستحق ومالا يستحق من الأهداف والغايات، كما أن سجلهم الحياتي يمتلئ بالأعمال الطيبة والمنجزات المرضية.

❁ ❁ ❁

---

[1] التربية الإسلامية، مصادرها وتطبيقاتها، د. عماد محمد محمد عطية ص ١٣٣، ١٣٤.



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحة